

فَذَانِكَ
بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ

من قصة
نبي الله موسى



د. رشيد الجراح

Certificate of Registration
CopyrightFrance

Copyright Registration Number: 9H2F1R2

CopyrightFrance.com, Website registered under number 2104 by the State Prosecutor of the High Court of Evreux (FRANCE) certifies having delivered the certificate of the original following registration

Name of the registrant: Rasheed Saleem Al-Jarrah

Title or URL of the registered document: https://www.dr-rasheed.com/

Description: Dr. Rasheed's blog documents his lifelong reflections on the Quran, offering linguistic and analytical insights without adhering to any specific sect. The goal is to officially archive and legally protect his writing, ideas and stories presented in the blog.

Date / time of the registration: 15-02-2025 à 20:46

The submitted document has been time stamped by a RGS qualified Certification Authority and ETSI TS 102 023 certified.

Paris (date) 15-02-2025 - The publication manager G.E.E. :

Reminder : (code of the intellectual property, extracts) :

✔ **Point L.335-2.** All publishing of written documents, musical composition, drawing painting or any other totally or partly printed, engraved production regardless of the laws and regulations concerning author's property is a forgery and any forgery is an offence. In France, forgery of published work in France or abroad is punished by 3 years in prison and a 300.000 euros fine. Will be punished the same way selling export and import of counterfeit work.

✔ **Point L.335-3.** Is also considered a forgery offence all reproduction , representation or circulation by any mean, of piece of spiritual work by violating the author's rights, as they are set and regulated by law. Is also considered as a forgery offence the violation one of the owner of the software's rights.



3c14c5091f191db578780f4e846d7a176d3cb058592f3b129f067ba1aa063728

كلمة فريق عمل مدوّنة روح

الحمد لله الذي علّم الإنسان بالقلم، وخصّه بنعمة البيان، وجعل تدبّر كتابه العزيز سبيلًا للهداية.
أمّا بعد،

يمرّ الفكر الديني المعاصر بمنعطفٍ تاريخي يفرض إعادة تأسيس العلاقة مع النصّ المؤسِّس؛ فكثير من المفاهيم والمناهج قد ترسّخت عبر القرون حتى غدت في الوعي العام بمنزلة المسلّمات المطلقة. في خضمّ هذه الحاجة الملحة للمراجعة والتجديد، يأتي مشروع الأستاذ الدكتور رشيد سليم الجرّاح ليقدّم قراءةً مغايرة للقرآن الكريم، قراءةً لا تكتفي بحدود التفسير الموروث بل تتجاوزه نحو فهمٍ جديد يتأسّس على منهجٍ علميٍّ دقيق، يلامس روح النصّ بعمق ويقترب من منطق العقل والفطرة السليمة.

لعلّ في الاسم الذي يحمله الدكتور رشيد سليم الجرّاح إشارةً بالغة الدلالة؛ فهو بحقٍّ يُجري عمليةً جراحية للكلمة القرآنية. إنه يتعامل مع مفردات الوحي برُشدٍ متناهٍ، كأنّه يضعها تحت مجهر الفكر واللغة، فيُريك نسيجها العضوي، ويكشف عن أعصابها الصرفية وعروقها الدلالية، لتتجلّى بذلك أبعادها النفسية والمادية العميقة. هكذا تتحوّل الكلمة في مشروعه من مجرّد رمزٍ صوتي إلى كيانٍ حيٍّ نابضٍ بالمعنى، يحمل إمكانات التأويل التي تنتظر التحرير.

لقد كانت أبحاث الدكتور الجرّاح ومقالاته بمثابة أطروحات نوعية تميّزت بالعمق والجرأة الفكرية، فمثّلت دعوةً صريحةً لإعادة بناء علاقتنا التلقّائية بالوحي، لا على قاعدة التلقّي الجامد، بل على أساس الفهم المتدبّر والتحليل العلمي المحكم. وهي دعوةٌ ضرورية تُعيد إلى النصّ حيويته الجوهرية، وإلى الفكر الديني توازنه المنشود، وتُحيي مسؤولية الباحث في إعمال العقل وكسر حاجز السؤال الموقوف.

وانطلاقًا من قناعتنا الراسخة بأهمية هذا المشروع الريادي، وبضرورة حفظه وتوثيقه ليكون مرجعًا للباحثين والمهتمين، تضافرت جهود فريق المدوّنة. لقد قمنا بجمع هذه المقالات والدراسات المنشورة، ومن ثم تنظيمها وتصنيفها وتحريرها بعناية فائقة، لتصدر الآن في هذا العمل المتكامل الذي نضعه بكل تقدير بين يدي القارئ الكريم.

نحن نؤمن يقينًا بأنّ هذه الكتابات تمثّل إسهامًا محوريًا في مسار الفكر القرآني المعاصر، وأنها تفتح آفاقًا رحبة للتأمّل والمراجعة والتجديد، بما يليق بكتابٍ أنزله الله للعقل قبل التقليد، وللحياة قبل التاريخ.

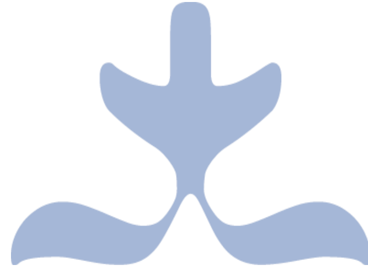
إنّ هذا العمل ليس سوى نقطة انطلاق في مسارٍ نأمل أن يكون مستدامًا؛ وفاءً لصاحب هذا المشروع العلمي الرائد، وإيمانًا بما قدّمه من اجتهادٍ صادق ورؤيةٍ علمية مغايرة تستحقّ كل التقدير والاحتفاء.

فريق عمل مدوّنة الدكتور رشيد الجراح:

- المهندس **عامر محمد العوض، مهندس نظم المعلومات من مايكروسوفت.**
- المهندس **زكرياء مصباح، مهندس مدني.**
- الأستاذ **مصطفى عيسى، مصمم ديكور ومستشار في العقارات.**
- الأستاذ **محمد عادل الخولي، مستشار في العقارات.**
- الدكتور **يوسف فرمي، مهندس البحث والتطوير في الإلكترونيات الدقيقة والبصريات.**

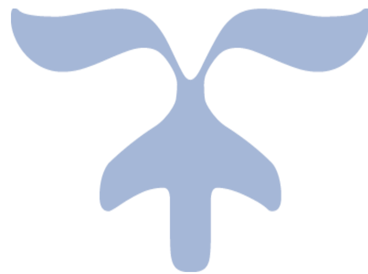
للإتصال بالفريق : roohblog2025@gmail.com

الفهرس



الجزء الأول

دافع فرعون في تقتيل أبناء بني إسرائيل



دافع فرعون في تقتيل أبناء بني إسرائيل

حاولنا سابقاً التمييز بين المعرفة من جهة ونكران الشيء من جهة أخرى كما يظهر التقابل بينهما في الآية الكريمة التالية:

- **وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (58) يوسف**

وكان الغرض حينئذ التفريق بين العلم من جهة والمعرفة من جهة أخرى، فظننا أن الله الذي يعلم لا يحتاج أن يعرف، لأن علم الله لا يحتاج إلى دليل، ولا يحتاج إلى جهد يبذل، وهو دون أدنى شك الأحسن الذي لا يمكن أن يجرى عليه التعديل أو الإضافة.

افتراء قديم من عند أنفسنا: لذا نحن نحمل في قلوبنا العقيدة التي مفادها أن ربنا لا يبذل جهداً ولا يحتاج إلى توافر الدليل لكي تتحصل له المعلومة، والمعلومة المتوافرة بين يديه هي الأحسن، ولهذا – نحن نؤمن- أن ربنا لا يعرف ولكنه يعلم، ومن أراد أن يتحدى عقيدتنا هذه فعليه أن يأتي بأحسن منها، هذا والله أعلم

(للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان: هل لعلم الله حدود؟ و قصة يوسف الجزء الأول: أحسن القصص)

وسنحاول في هذا الجزء الحديث عن نقيض المعرفة وهو النكران، لندخل من خلال ذلك إلى قصة موسى بتفاصيلها كما نفهمها نحن من السياقات القرآنية الكثيرة التي ترد فيها، والتي لا نظن أنها كانت أحسن القصص لأن تفصيل القصة لم يأتي جملة واحدة في مكان واحد من كتاب الله كما هو الحال بالنسبة لقصة يوسف التي بلا شك – عندنا- كانت القصة الأحسن في كتاب الله كله.

أما بعد

النكران أو التنكير

سؤال: ما نقيض من يعلم؟

جواب: من لا يعلم

- **أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (9) الزمر**

سؤال: وما نقيض من يعرف؟

جواب: من ينكر

- **وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (58) يوسف**

نتيجة مفتراة: من لا يعرف شيئاً فهو له منكرا، لأن النكران – في ظننا- هو نقيض المعرفة، كما يمكن أن نفهمه من الآيات الكريمة التالية:

- أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (69) المؤمنون
- وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (58) يوسف

فها هو إبراهيم ينكر القوم الذين جاءوه بالبشرى وبخبر هلاك قوم لوط:

- فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (70) هود

وها هو لوط ينكرهم أيضاً:

- فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (61) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (62) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (63) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (64) الحجر

ولا شك أن نكران القوم كان سببه عدم معرفتهم، فإبراهيم لم ينكر القوم إلا بعد أن رأى أيديهم لا تصل إلى الطعام الذي قدّمه لهم. فلربما أن إبراهيم كان يظنهم في بداية الزيارة ضيوفاً عاديين، ولكن ما هي إلا سويعات (بعد أن ذبح لهم العجل وقدّمه لهم) حتى تحصل لإبراهيم الدليل **"فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ"** بأنهم ليسوا كذلك، أي لم يكونوا ضيوفاً عاديين. فما يكون منه حينئذ إلا أن ينكرهم ويوجس منهم خيفة **"نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً"**، ولكن حتى يزول نكران إبراهيم لهم (أي عدم معرفته بهم) جاءه الخبر منهم مباشرة **"قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ"**، وهذا بالفعل ما حصل للوط، فلقد جاءه الخبر اليقين منهم بعد أن كان قد نكرهم **"قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ"**.

- **تبعات هذا الافتراء:**

أولاً، وربما يفسر مثل هذا الافتراء بعض ما جاء في الآية الكريمة التالية التي نظن أن سادتنا العلماء قد أخفقوا في إيصال المراد منها للناس:

- وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (19) لقمان

فانظر عزيزي القارئ أولا ما جاء في أمهات كتب التفاسير إن أردت أن ترى الاختلاف بين ما قالوا هم من علم وما سنقدم نحن من ظنون وافتراءات.

السؤال: لماذا صوت الحمير على وجه التحديد هي أنكر الأصوات؟

رأينا: لما كان الإنكار هو عكس المعرفة نحن نظن أن صوت الحمير هو الأنكر لأنه الأصعب في تمييز ما فيه، ولكن كيف؟

افتراء من عند أنفسنا: لو أنت سمعت صوت دابة أخرى (كالقط أو الكلب مثلاً) لربما استطعت أن تميز (أي أن تفهم) شيئاً ما في نبرة صوته كأن يكون جائعاً مثلاً أو خائفاً أو أنه يعاني من المرض أو البرد أو أن عنده رغبة جنسية، وهكذا، فأصوات الدواب الأخرى تتفاوت في الحاجة التي تنتظرها الدابة والتي من أجلها انفجر صوتها، ولكن الأمر بالنسبة للحمار فهو – برأينا- مختلف، فنبرة صوت الحمار هي واحدة لا تتغير بغض النظر عن حاجته، فسواء كان الحمار جائعاً أو راغباً في تحقيق شهوته الجنسية انطلق صوته بصوت يكاد يكون هو نفسه لا تفاوت فيه في جميع حالاته.

نتيجة مفتراة: نحن نتجرأ على هذا الافتراء بأن النكران (أو الإنكار) هو عكس المعرفة التي ربما يمكن من خلالها الوصول الغاية المنشودة وحتى بعض التفاصيل، فإبراهيم ينكر ضيوفه لأنه لا يعرف من هم ولا يعرف الغاية من قدومهم إليه وليس عنده تفاصيل عن أسباب زيارتهم المفاجئة لهم، وكذلك الحال بالنسبة للوط، وإخوة يوسف ينكرونه لأنهم لا يستطيعون أن يعرفوا أخوهم الذي عرفهم (فلم ينكرهم)، فلربما ضاعت (مع تقدم العمر بيوسف) جميع التفاصيل التي كانت من الممكن أن تدلّهم عليه، فهو كان لازال غلاماً صغيراً عندما ألقوه في غيابت الجب، وعندما يكبر الطفل لا شك تتغير جميع تفاصيل شكله التي كان عليها، ولكن الأمر بالنسبة للكبار يختلف بعض الشيء، فلابد أن بعض إخوة يوسف كانوا قد وصلوا إلى سن يصبح التغيير في البنية الخارجية أقل شدة من حالة الغلام الصغير، لذا نحن نظن أن هناك فيما تبقى من تفاصيل هيئتهم وشكلهم وربما عددهم ما يمكن أن يدلّ يوسف عليهم، ولا شك أن يوسف لم تكن تنقصه الفراسة والذكاء ليستطلع خبرهم بما تبقى في ذهنه من تلك الصورة القديمة المطبوعة عنده عن إخوته.

ثانياً، لابد من التأكيد من خلال هذا الافتراء الذي نقدمه هنا على فكرة طرحناها سابقاً تتمثل في زعمنا أن المعرفة ربما لا تؤدي بالناس إلى الهداية، ولكن كيف؟

جواب: من المفترض أنه ما أن يتحصل للإنسان المعرفة بشيء (كان قد نكره من ذي قبل) حتى يكون قد وصل إلى الهداية، ولكن هل هذا فعلاً ما يحصل؟ هل فعلاً عندما يتحصل للإنسان المعرفة بشيء قد نكره من ذي قبل يسلك طريق الهداية؟

الجواب: كلا، وألف كلا. فها هم أهل الكتاب- كما جاء في كتاب الله- يعرفونه كما يعرفون أبناءهم:

- **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (146) البقرة**

وهم قد ينكرون بعضه:

- **وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ۚ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (36) الرعد**

وها هم الكثيرون منهم يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها:

- وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (81) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (82) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (83) النحل

وتكون أشد درجات الاستهجان بمن ينكر ما أنزل الله:

- وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (50) الأنبياء

ثالثاً، نحن نفهم من السياقات القرآنية أن الإنكار وظيفة يقوم بها القلب:

- إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (22) النحل

قصة موسى مع صاحبه

إنْ صحّت افتراءاتنا هذه، فإنها تقودنا إلى إشكالية كبيرة تثيرها الآية الكريمة التالية التي تبين لنا ما قاله موسى لذاك الرجل الذي ذهب هو بنفسه طالباً صحبته:

- فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (74) الكهف

السؤال: كيف يتهم موسى الرجل الذي صاحبه بأن قتله للغلام كان شيئاً نكرا؟

رأينا: نحن نظن أن هذا هو بالضبط ما كان يقصد موسى أن يقوله للرجل الذي قتل العلام، فنحن نقرأ في كتاب الله أن موسى يرى في قتل الرجل للغلام شيئاً نكرا:

- فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (74) الكهف

فيسبب هذا الذي قاله موسى غضباً – في ظننا- شديداً للرجل، ويرد على موسى بلهجة أكثر حدة من رده السابق عندما سأله موسى عن السبب الذي دفعه لخرق السفينة. فعندما سأله عن خرق السفينة جاء رد الرجل على سؤال موسى على النحو التالي:

- فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (72) الكهف

ولكن عندما سأله عن سبب قتله للغلام، جاء رده أكثر شدة وزجراً لموسى وكان على النحو التالي:

- فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (74) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (75) الكهف

ولو دققنا في اللفظ في رده الأول ورده الثاني لوجدنا أنه يستخدم لهجة التخصيص الموجّهة لموسى شخصياً مدلّلاً على ذلك بمفردة **"لَكَ"**. انظر الفرق بين الردين:

- قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (72) الكهف
- قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (75) الكهف

لاحظ الفرق في اللفظ، فماذا كانت غاية الرجل عندما استخدم مفردة "**لَكَ**" في رده الثاني؟

رأينا: نحن نتخيل الموقف على النحو التالي:

أولاً، موسى يظن أن الرجل قد قتل الغلام وهو يعرف أن قتل نفس بغير نفس أمر لا يجوز "**قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا**".

ويكأن موسى يتهم الرجل أنه قد فعل شيئاً خاطئاً مع معرفته المسبقة بأن هذا الفعل خاطئ، أي ويكأن موسى يتهم الرجل بتقصد الإساءة، وبالتالي بأنه قد قتل الغلام على غير هدى. فالذي يعرف أن شيئاً ما هو عمل خاطئ ومع ذلك يقدم على فعله (أي ينكره) فهو بلا شك شخص على غير هدى، مصداقاً لقوله تعالى:

- يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (83) النحل
- أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (69) المؤمنون

فها هو سليمان يطلب من الملأ أن ينكروا لها عرشها لينظر أتهتدي أم من تكون من اللذين لا يهتدون:

- قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (41) النمل

نتيجة: الذي ينكر الشيء بعد معرفة فإنه بلا شك يكون من الذين لا يهتدون

أما الذي يعلم الشيء ويفعل غيره فإنه من الظالمين.

- وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (145) البقرة

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن موسى ربما لم يتهم الرجل بالظلم (عكس ما يعلم) لأن موسى يعلم أن الرجل على علم، ولكنّه اتهم الرجل بأنه قد فعل شيئاً نكراً (أي عكس ما يعرف)، وهو بالتالي يفعل شيئاً نكرا. وهذا – في ظننا- ما أغضب الرجل غضباً شديداً، فالرجل أصلاً يقوم بذلك الفعل (الذي هو في ظاهره فعل خاطئ) ولكنه يقوم بذلك عن علم:

- وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (81) الكهف

ثانياً، نحن نزعم الظن أن الرجل يوجّه الخطاب بالتخصيص لموسى باستخدام ضمير المخاطب "لَكَ" هنا في حادثة قتل الغلام على وجه التحديد "**قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ**" ربما ليذكّره بأنك أنت يا موسى آخر من يحق

له أن يقدّم نصيحة كهذه. ويكأن الرجل – نحن نتخيل فقط- يقول لموسى: الآن تنصحني أنت يا موسى بأن قتل النفس بغير نفس هو شيء نكرا؟ ألا تذكر (يا موسى) يوم أن وكزت الرجل فقضيت عليه لا لشيء وإنما لأن واحداً من شيعتك استغاثك عليه؟

- وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (15) القصص

ثم، ألا تذكر يا موسى أنك أردت أن تبطش بنفس أخرى في اليوم التالي لولا أن ذلك الرجل نبّهك إلى سوء تلك الفعلة؟

- فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (18) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19) القصص

ونحن نظن كذلك أن خطاب الرجل مع موسى جاء هذه المرة ليدل على أن موسى ربما تجاوز كل الخطوط الحمراء المسموح بها، لأنه ما كان لمثل موسى – برأينا- أن يقع بمثل هذا المحظور، لأن في ذلك اتهام مباشر للرجل في عقيدته، ولكن كيف؟

نحن لا نظن أن رجل آتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علماً قد يغفل ولو للحظة واحدة عن السنة الإلهية التي كتبها الله منذ اللحظة الأولى التي حصلت فيها جريمة قتل على الأرض، فبعد أن طوعت نفس ولد آدم قتل أخيه فقتله:

- فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (30) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (31) المائدة

جاءت السنة الإلهية على هذا النحو:

- مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (32) إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (33) المائدة

والمدقق في السياق القرآني نفسه يجد أن الله يتحدث عن من يقتل نفساً بغير نفس من باب محاربة الله والفساد في الأرض.

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن صاحب موسى قد بلغ به الغضب من موسى مبلغاً دفع بموسى أن يشترط هو على نفسه مفارقة الرجل إن وقع بعد ذلك في محظور آخر.

- **قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (76) الكهف**

النتيجة: نحن نفتري القول أن الرجل أراد هذه المرّة أن يوجّه رسالة قوية إلى موسى بأن قصة القتل على وجه التحديد هي آخر مجال يمكن أن يقدم فيه موسى النصيحة لأحد. لقد كان الأجدر بك يا موسى – نحن نتخيل الرجل يقول- أن تذكّر نفسك بأن قتل النفس بغير نفس هو شيء نكرا قبل أن تذكّر به غيرك. كما يجب عليك يا موسى أن لا تتهمني بأني أقتل من باب قتل نفس بغير نفس لأن من يفعل ذلك فكأنما قتل الناس جميعاً. والله أعلم.

السؤال: لماذا قتل الرجل الغلام إذن؟ ولماذا ظن موسى أن هذا شيء نكرا؟ وكيف نفهم تأويل الرجل لقتل الغلام كما ورد في الآية الكريمة التالية:

- **وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) الكهف**

سؤال: هل هذا سبب كاف أن يدفع بالرجل لأن يقتل الغلام؟ ولماذا رضي موسى بهذا التأويل؟ وكيف فهم موسى أصلاً تأويل الرجل لهذه الحادثة؟

هذا ما سنحاول النبش فيه في هذ الكتاب عن قصة موسى ولكن هناك حلقات ذهنية أخرى لابد من تفقدها أولاً ليتم ربطها مع السؤال قيد البحث. ولنبدأ بإثارة هذه الحلقات الذهنية طارحين أسئلة ربما تبادرت إلى ذهن العامة، ونظن أنهم لم يجدوا عند أهل العلم إجابات شافية تلبي رغبة الباحث منهم عن الحقيقة.

أما بعد،

قصة موسى 1: باب الطفولة

عند قراءة قصة موسى مع ذلك الرجل الذي ذهب موسى بنفسه ليطلب صحبته ليتلقى على يديه العلم:

- **قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66) الكهف**

تطير إلى ذهن القارئ للنص القرآني (بغض النظر عن عقيدته) تساؤلات كبيرة جداً تتعلق بشخصية ذلك الرجل نذكر منها:

- من هو ذلك الرجل الذي ذهب موسى ليطلب صحبته والتعلم على يديه؟
- وكيف برجل لا نعلم من أين جاء يلقّن نبي الله وكليمه دروساً في العلم؟

- والأهم من ذلك: كيف نستطيع أن نفهم أن ما قام به الرجل من خرق السفينة وقتل الغلام وبناء الجدار يقع في باب العلم؟
- فلماذا خرق السفينة ومن أين جاءه العلم بذلك؟
- ولماذا قتل الرجل الغلام؟ وأين يكمن العلم في قتل غلام ربما لم يبلغ بعد سن التكليف؟ وهل ما قاله الرجل لموسى فيما يخص تلك الحادثة في نهاية الرحلة يبرر فعلاً قتل نفس بغير نفس كما ظن موسى؟
- ولماذا بنى الجدار؟
- ولماذا طلب موسى منه أن يأخذ الأجر على بناءه للجدار مادام أن الجدار يعود ليتيمين في المدينة؟ فهل وصل الأمر بموسى أن يطلب أجراً من أيتام يقوم بعمل شيء لهم؟
- وماذا سنستفيد نحن من قراءة هذه الحوادث والعلم عنها؟ هل فيها ما ينفعنا في حياتنا المعاصرة بعد قرون طويلة من حصولها؟
- الخ.

الفكر السائد

غالباً ما غلّف أهل الدراية تفسيراتهم لهذه الأحداث التي يرد ذكرها في كتاب الله بالعقائد المسبّقة التي تفسر كل ما لا يمكن تفسيره عندهم. فهم – كما زعمنا على الدوام- يفسرون الغيبيات بالغيبيات، فالقصة نفسها في كتاب الله قد أشكلت على العامة من مثلي، ولكني في الوقت ذاته لا أجد في تفسيرات أهل الدراية (سادتنا العلماء) لهذه القصص ما يجعل الصورة أكثر وضوحاً، أو ما يمكن أن يزيل الإرباك الذي يقع في نفسي عندما أقرأها من كتاب الله لوحدي. إن أكثر ما فعله سادتنا العلماء على مر القرون أنهم عندما يتحدثون عن قتل ذلك الرجل للغلام مثلاً يأخذون ذلك من باب الوازع الإيماني العقائدي، فيجوزوا للرجل ما لا يجوّزون لغيره بالرغم من عدم معرفتهم بالسبب الحقيقي من وراء عمله ذاك، فيصبوا على الرجل كل عبارات المديح والثناء والتعجب الحميد من فعلته تلك، أليس كذلك؟

ولكنهم -بالمقابل- عندما يتحدثون عن قتل فرعون مثلاً لأبناء بني إسرائيل يأخذون ذلك من باب وازع الكفر والإلحاد، فلا يجوزوا لفرعون فعلته تلك بالرغم من عدم معرفتهم أيضاً بالسبب من وراء قيام فرعون بذلك. فينصبّوا على الرجل بكل عبارات الذم والقدح والتعجب المستهجن من فعلته تلك، أليس كذلك؟

رأينا: ألا يحق لنا نحن العامة أن نتساءل فقط: هل فهم علماؤنا الأجلاء فعلاً لم قتل صاحب موسى الغلام؟ وهل أسعفونا بما أذن الله لهم به من علم لنفهم نحن العامة ما حصل فعلاً؟ وهل فهم علماؤنا الأجلاء لم كان فرعون يقتّل أبناء بني إسرائيل؟ وهل أسعفونا بعلم أذن الله لهم به لنفهم نحن الفرق بين الحالتين؟

موقفنا

أولاً، نحن نظن (بافتراء من عند أنفسنا) أن علماءنا الأجلاء لم يسعفونا بشيء سوى أنهم زادوا الطين بلّة فوق رؤوسنا عندما أضافوا لنا جهلاً على جهلنا لمّا لم يفسروا لنا القصة القرآنية على حقيقتها ولم يفسحوا لنا المجال أن نتفكر بها بأنفسنا. فمن يستطيع بعد قرون من الزمن أن يقدّم قوله على قول فلان وقول ابن فلان أو ابن علان...؟ ألم توكل هذه الأمة موروثها العقائدي إلى طائفة من الناس ظنوا أنهم مؤتمنين عليه؟ فماذا كانت النتيجة بعد قرون طويلة من الزمن؟ هل نستطيع أن نفهم آية واحدة في كتاب الله على حقيقتها كما أرادها الله إلا بعد المرور طوعاً أو كرهاً بما جادت به عقول أهل الدراية ونقله عنهم أهل الرواية؟ ولكن السؤال الأكبر يبقي على النحو التالي: وهل فعلا جادت عقولهم بشيء أصلاً يستحق المرور عليه؟ من يدري؟!!!

رأينا: نحن نظن أن الحاجة ماسّة لدحض الموروث العقائدي الذي وصلنا من عند أهل الدراية من خلال أهل الرواية جملة وتفصيلاً، وإعادة النبش عن تفاصيل القصة نفسها في مفردات الآيات القرآنية الكريمة دون الالتفات إلى آراء البشر السابقة باهتمام أكثر مما يجب، لأننا نظن (كاذبين بالطبع) أنه لا يوجد في كلامهم ما يمكن أن يسمن أو أن يغني من جوع.

ثانياً، نحن نظن أن من أراد أن يدخل على النص القرآني ليفهمه، فلا يجب أن يدخل عليه وفي رأسه عقائد مسبّقة تفسر ما لا يمكن تفسيره من خلالها. فمثلاً نحن لا نتزحزح عن موقفنا المبدئي الذي مفاده بأن القتل هو قتل بغض النظر عمن قام به، ولابد من إيجاد التبرير المرضي سواء كان من قام به مؤمنا كموسى أو صاحبه أو كافرا كفرعون وغيره، فمن أراد أن يتصدى لتفسير هذه القصص فعليه أن يبينها للناس بالدليل الذي لا يمكن رده، وهو الدليل المستنبط من كتاب الله نفسه. فأنا لا أقبل أن تفسر لي قتل صاحب موسى للغلام فقط من باب الوازع الإيماني لأنك تعرف أن الرجل كان مؤمنا، وفي الوقت ذاته لا أقبل أن تفسر لي سبب قتل فرعون لأبناء بني إسرائيل من باب العقيدة التي مفادها أن فرعون كان كافراً وكفى.

ثالثاً، لابد من رد كلام أهل الدراية (مهما كان مصدره) إن لم تكن تدعمه الحجة المستنبطة من كتاب الله، فقول البشر (مهما علا شأنهم) ليس حجة على كتاب الله، ولكن كتاب الله هو الحجة على قول كل البشر مهما بلغوا من العلم والمعرفة. فتفسير هذه القصص لا يكون بشيء مثل "قال فلان..." وروى فلان عن فلان...". فليقل من شاء أن يقول، وليروي من شاء أن يروي، فمن لا يملك الدليل والحجة فلا أظن أن كلامه يمكن أن يعتد به، وأظن أن recycle bin هي أفضل مكان يخزن به كلام لا تدعمه الحجة من كتاب الله. فنحن نطلب من القارئ الكريم أن لا يلق بالاً لأي افتراء نقدمه من عند أنفسنا ما لم يكن يدعمه الدليل المستنبط من كتاب الله.

هذه من أبجديات عقيدتنا، وهذا ما سنحاول أن نلتزم به عندما ندخل إلى قصة قتل الغلام على يد صاحب موسى. لذا فالله أسأل أن يؤتيني رحمة من عنده وأن يعلمني من لدنه علماً.

أما بعد،

السؤال قيد البحث: كيف نفهم حوادث القتل كما ترد في كتاب الله؟

جواب: لابد من ملاحظة السيناريوهات الثلاثة التالية التي ترد جميعها في كتاب الله:

1. سيناريو موسى: موسى قتل نفساً فاستغفر ربه (وأراد أن يقتل الأخرى) فكان رسولا
2. سيناريو صاحب موسى: صاحب موسى قتل نفساً (ولم يستغفر ربه) فكان صاحب علم يطلب موسى العلم عنده.
3. سيناريو فرعون: فرعون قتل أنفس (ولم يستغفر ربه) فكان من الضالين المضلين

السؤال: ما قصة القتل؟ وكيف يمكن تبريرها في كل حالة من هذه الحالات الثلاثة؟

هذا ما سنتناوله في هذا الجزء الخاص بقصة نبي الله موسى بحول الله وتوفيقه.

دعاء: فالله أسأل أن يقضي أمره فينفذ قوله بمشيئته وإرادته لي الإحاطة بعلم لا ينبغي لغيري إنه هو السميع المجيب.

أما بعد،

افتراء خطير جداً من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأنه إن استطعنا (بحول الله وتوفيقه) أن نفهم السبب الذي من أجله كان يقتّل فرعون أبناء بني إسرائيل لربما وصلنا إلى إجابة أكثر دقة للسؤال عن سبب قتل هذا الرجل لذاك الغلام، وإنّ أقل ما يمكن أن نبوح به حتى الساعة من عقيدة (وهي لا شك منحرفة عند أهل العلم) أنه لو كان قتل فرعون لأبناء بني إسرائيل هو من باب قتل نفس بغير نفس لما دعت الحاجة أن يرسل الله رسولين يدعوانه لأن يتذكر أو أن يخشى، أو أن يطلب الله منهما أن يقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو أن يخشى.

- **فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (44) طه**

لأن السؤال الذي كان سيطرح حينئذ هو: وماذا لو فعلاً تذكّر فرعون أو خشي؟ أين ستذهب دماء أولئك الذين قتلهم فرعون من أبناء بني إسرائيل؟ ولا يجب أن ننسى أن موسى نفسه قد قتل نفساً (ربما بغير نفس)، فاستغفر ربه، فغفر الله له.

- **وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦفَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِۦقَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِۦإِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (15) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16) القصص**

فهل – يا ترى- لو استغفر فرعون ربه (بعد كل هذا التقتيل لأبناء بني إسرائيل) هل كان الله سيغفر له؟

ولماذا أصلاً غفر الله لموسى؟ وماذا عن دم ذلك الرجل الذي وكزه موسى فقضى عليه؟ وماذا لو فعلت أنا مثل تلك الفعلة؟ هل يكفي أن استغفر ربي ويذهب دم من قتلت هباءً منثورا؟

رد أهل العلم: لعلي أخمن أن رد أهل الدراية سيكون على النحو التالي: لكن الله يعلم في علمه الأزلي أن فرعون لن يتذكر ولن يخشى، فبعث الله لفرعون رسولين ليقيم عليه الحجة.

رأينا: ما شاء الله!!! جواب مفحم، أليس كذلك؟

ولكن - يا سادة- هل يستطيع فرعون (أو أي شخص آخر) أن يجادل في علم الله الأزلي؟ ألم يقرأ هؤلاء العلماء ما جاء في الآيات الكريمة التالية؟

- مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (79) النساء
- رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (165) لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (166) النساء
- وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (28) فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (29) يونس
- وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (43) الرعد
- وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (94) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (95) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (96) الإسراء
- هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (28) الفتح

ثم – يا سادة – ألم تكن سنة الله الكونية على نحو أنه ما من أمة إلا خلا فيها نذير.

- إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (24) فاطر

فما بال الله إذاً يرسل رسولين لفرعون على وجه الخصوص؟ هل لفرعون خصوصية تميزه عن كل أمم الأرض؟

ثم، ما بال الله – يا سادة- لا يرسل رسولاً أو اثنين لكل طاغية متكبر في الأرض؟ وهل تجبر فرعون مثلاً أكثر مما تجبر طواغيت العرب والمسلمين على مر الزمن؟ يكفي – بالنسبة لي- أن فرعون كان يستشير ملئه، لا بل ويأخذ الأذن منهم لتنفيذ مراده.

- وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (26) غافر

صحيح أن فرعون قد استخف قومه فأطاعوه، ولكن هل فرعون هو وحده من استخف قومه من أهل الحكم والملك؟ فليلق من أراد أن يجادل نظرة واحدة على خارطة العالم السياسية ولينظر أين هم حكام الأرض الذين لا زالوا (بعد الآلف القرون) يستخفون بقومهم ربما أكثر من استخفاف فرعون بقومه!!!

رأينا: إن استخفاف فرعون بقومه لم يكن ليحصل لولا أن قومه كانوا – كما يبيّن صريح اللفظ القرآني- قوماً فاسقين:

- فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54) الزخرف

وليلق من أراد أن يجادل نظرة على خريطة العالم السكانية، ولينظر أين هي شعوب الأرض الأكثر فسقاً على وجه الأرض!!!

ثم - يا سادة- مادام الأمر كذلك، وأن الله (حسب ظنكم) قد بعث لفرعون رسولين ليقيم عليه الحجة، فما ذنب موسى أن يجهد نفسه ويعرّض حياته وحياة أخيه للخطر مادام أن النتيجة محسومة في علم الله الأزلي؟ ألم يدب الخوف في قلب موسى لحظة أن طلب الله منه أن يذهب وأخيه إلى فرعون ليقولا له قولاً لينا:

- قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ (13) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (14) قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (15) الشعراء

لِمَ إذن لَمْ يسأل موسى ربه – نحن نتساءل فقط- عن النتيجة؟ لمَ لمْ يسأل موسى ربه سؤالاً كهذا مثلاً: هل (يا رب) موجود في علمك الأزلي أن فرعون سيتذكر أو سيخشى؟ وهل يستحق فرعون فعلاً أن نبذل عليه جهداً ما دام أنه في علمك الأزلي لن يتذكر ولن يخشى؟

ثم – يا سادة- ما دام أن فرعون لن يتذكر ولن يخشى (كما يظن علماؤنا الأجلاء أنه موجود في علم الله الأزلي)، فلم نطق فرعون بكلمة الإيمان لحظة أن أدركه الغرق؟

- وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) يونس

ولم جاء الرد الإلهي على إيمانه بأنك تأخرت يا فرعون في ذلك:

- آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91) يونس

ولم أنجاه الله ببدنه نتيجة لذلك ليكون لمن خلفه آية؟

- فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (92) يونس

رأينا المفترى: نحن لا نتخذ مثل هذه العقيدة السائدة الموروثة عن سادتنا العلماء، ونظن – بالمقابل- أن الله قد أرسل لفرعون رسولين لأن فرصة تذكر فرعون وخشيته كانت واردة جداً، وليس أدل على ذلك من كلمة الإيمان التي نطق بها فرعون في نهاية المطاف. ونحن نظن أن الله ما كان ليضع موسى وأخاه هارون في مسرحية معدّة فصولها مسبقاً. والأهم من ذلك بالنسبة لنا في هذا المقام هو أننا نعتقد جازمين أن قتل فرعون لأبناء بني إسرائيل لم يكن من باب قتل النفس بغير نفس، ولكنه كان قتلاً عن علم، لذا نحن نؤمن يقيناً أنه لو تذكر فرعون وخشي بعد أن بعث الله موسى وأخاه هارون رسولين إلى فرعون فاستغفر ربه على فعلته تلك لغفر الله له ذلك بالضبط كما حصل في حالة استغفار موسى ربه بعد أن قتل الرجل. (وهذا ما سنحاول تقديم الدليل عليه لاحقاً بحول الله وتوفيقه).

نتيجة مفتراة خطيرة جداً جداً: نحن نفتري الظن بأن فرعون كان عنده (1) دافعاً و(2) علماً هما اللذان جعلاه يقتّل أبناء بني إسرائيل، ونحن نفتري الظن أن دافع فرعون للقتل ربما كان يواز الدافع الذي من أجله قتل موسى رجلاً من آل فرعون وإقدامه على قتل آخر في اليوم التالي (كلام خطير، أليس كذلك؟)

كما أننا نفتري الظن أيضاً بأن علم فرعون ربما كان يواز علم صاحب موسى الذي قتل الغلام الذي لقياه في الطريق (كلام أخطر، أليس كذلك؟)

سؤال: ربما يرد البعض على افتراءاتنا هذه على الفور بالقول: إذا كان عند فرعون دافع لقتل أبناء بني إسرائيل، فماذا كان دافعه ذاك؟ وإذا كان فرعون على علم، فماذا كان علمه؟ وما هو مصدر علمه؟

دافع فرعون في قتل أبناء بني إسرائيل

لنبدأ أولاً بالسؤال الخاص بدافع فرعون أن يقتّل أبناء بني إسرائيل وذلك بطرح السؤال الذي غالباً ما أثار الناس التساؤل التالي حوله: لماذا كان يقدم فرعون على قتل أبناء بني إسرائيل؟ هل من المنطق أن يقدم "إنسان" (بغض النظر عن عقيدته) على قتل الأطفال لمجرد حبه للقتل؟ يمكن أن أصدق أن يقدم الإنسان على قتل إنسان آخر إن كان قد بلغ من العمر مبلغ الرجال كما يحصل في العادة، ولكن هل قتل الأطفال بحد ذاته سلوك يمكن أن يتقبله الطبع البشري؟

الخ.

المشكلة الأولى: رؤيا أم نبوءة؟

غالباً ما سوّق أهل الدراية في الفكر الإسلامي سبب قتل فرعون لأبناء بني إسرائيل بشيء مما تناقله بعض اليهود في قصصهم، فهم يروجون للفكرة الشعبية التي مفادها أن "كهنة" (أو أهل علم ذلك الزمان) قد قدّموا لفرعون نبوءة مفادها أن طفلاً من بني إسرائيل سيولد وسيسلبه ملكه، لذا عمد فرعون حينئذ إلى قتل كل مواليد بني إسرائيل في ذلك الزمان، بينما ظنّ آخرون من أهل الدراية أن فرعون نفسه قد رأى في منامه ما سيحل ببلاده من الدمار بسبب مولود من بني إسرائيل، فعمد إلى قتلهم جميعاً. فانظر - عزيزي القارئ- ما جاء عند ابن كثير مثلاً في تفسير الآية الكريمة التالية:

- وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) البقرة

تفسير ابن كثير

يقول تعالى اذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم إذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب أي خلصتكم منهم وأنقذتكم من أيديهم صحبة موسى عليه السلام وقد كانوا يسومونكم أي يوردونكم ويذيقونكم ويولونكم سوء العذاب وذلك أن فرعون لعنه الله كان قد رأى رؤيا هالته رأى نارا خرجت من بيت المقدس فدخلت بيوت القبط ببلاد مصر إلا بيوت بني إسرائيل مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدي رجل من بني إسرائيل ويقال بعد تحدث سماره عنده بأن بني إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم يكون لهم به دولة ورفعة وهكذا جاء حديث الفتون كما سيأتي في موضعه في سورة طه إن شاء الله تعالى فعند ذلك أمر فرعون لعنه الله بقتل كل ذكر يولد بعد ذلك من بني إسرائيل وأن تترك البنات وأمر باستعمال بني إسرائيل في مشاق الأعمال وأرذلها وهاهنا فسر العذاب بذبح الأبناء وفي سورة إبراهيم عطف عليه كما قال " يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم " وسيأتي تفسير ذلك في أول سورة القصص إن شاء الله تعالى وبه الثقة والمعونة والتأييد . ومعنى يسومونكم يولونكم قاله أبو عبيدة كما يقال سامه خطة خسف إذا أولاه إياها قال: عمرو بن كلثوم: إذا ما الملك سام الناس خسفا أبينا أن نقر الخسف فينا وقيل معناه يديمون عذابكم كما يقال سائمة الغنم من إدامتها الرعي. نقله القرطبي وإنما قال هاهنا " يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم " ليكون ذلك تفسيرا للنعمة عليهم في قوله " يسومونكم سوء العذاب" ثم فسره بهذا لقوله هاهنا " اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم " وأما في سورة إبراهيم فلما قال " وذكرهم بأيام الله " أي بأياديه ونعمه عليهم فناسب أن يقول هناك " يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم " بعطف عليه الذبح ليدل على تعدد النعم والأيادي على بني إسرائيل. وفرعون علم كل من ملك مصر كافرا من العماليق وغيرهم كما أن قيصر علم على كل من ملك الروم مع الشام كافرا وكسرى لمن ملك الفرس وتبع لمن ملك اليمن كافرا والنجاشي لمن ملك الحبشة وبطليموس لمن ملك الهند ويقال : كان اسم فرعون الذي كان في زمن موسى عليه السلام الوليد بن مصعب بن الريان وقيل : مصعب بن الريان فكان من سلالة عمليق بن الأود بن إرم بن سام بن نوح وكنيته أبو مرة وأصله فارسي من اصطخر وأيا ما كان فعليه لعنة الله وقوله تعالى " وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم " قال ابن جرير وفي الذي فعلنا بكم من إنجائنا آباءكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون بلاء لكم من ربكم عظيم أي نعمة عظيمة عليكم في ذلك وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله تعالى " بلاء من ربكم عظيم " قال نعمة وقال مجاهد " بلاء من ربكم عظيم " قال نعمة من ربكم عظيمة وكذا قال أبو العالية وأبو مالك والسدي وغيرهم وأصل البلاء الاختبار وقد يكون بالخير والشر كما قال تعالى " ونبلوكم بالشر والخير فتنة " وقال " وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون " قال ابن جرير وأكثر ما يقال في الشر بلوته أبلوه بلاء وفي الخير أبليه إبلاء وبلاء قال زهير بن أبي سلمى : جزى الله بإحسان ما فعلا بكم وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو قال فجمع بين اللغتين لأنه أراد فأنعم الله عليهما خير النعم التي يختبر بها عباده وقيل المراد بقوله " وفي ذلكم بلاء " إشارة إلى ما كانوا فيه من العذاب المهين من ذبح الأبناء واستحياء النساء قال : القرطبي وهذا قول الجمهور

ولفظه بعد ما حكى القول الأول ثم قال : وقال الجمهور الإشارة إلى الذبح ونحوه والبلاء هاهنا في الشر والمعنى وفي الذبح مكروه وامتحان.

ثم قارن ذلك بما جاء عند ابن كثير نفسه في تفسير الآية الكريمة التالية التي تتحدث أيضاً عن تقتيل فرعون لأبناء بني إسرائيل:

- إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) القصص

- **تفسير ابن كثير**

قال تعالى: " إن فرعون علا في الأرض " أي تكبر وتجبر وطغى " وجعل أهلها شيعا " أي أصنافا قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته وقوله تعالى: " يستضعف طائفة منهم " يعني بني إسرائيل وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم هذا وقد سلط عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم في أخس الأعمال ويكدهم ليلا ونهارا في أشغاله وأشغال رعيته ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحيي نساءهم إهانة لهم واحتقارا وخوفا من أن يوجد منهم الغلام الذي كان قد تخوف هو وأهل مملكته منه أن يوجد منهم غلام يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه. وكانت القبط قد تلقوا هذا من بني إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل عليه السلام حين ورد الديار المصرية وجرى له مع جبارها ما جرى حين أخذ سارة ليتخذها جارية فصانها الله منه ومنعه منها بقدرته وسلطانه فبشر إبراهيم عليه السلام ولده أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك مصر على يديه فكانت القبط تحدث بهذا عند فرعون فاحترز فرعون من ذلك وأمر بقتل ذكور بني إسرائيل ولن ينفع حذر من قدر لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ولكل أجل كتاب.

موقفنا: نحن لا ندري ما كان سبب تقتيل فرعون لأبناء بني إسرائيل: أهي رؤية فرعون نفسه كما جاء في تفسير آية البقرة أم نبوءة من حوله عن ما كان يتدارسه بنو إسرائيل من قول إبراهيم الخليل؟ من يدري!!!

المشكلة الثانية: لماذا موسى وليس هارون؟

ولما فاجأ العامة أهل العلم بالسؤال عن هارون قائلين: لماذا إذن لم يقتل فرعونُ هارونَ (شقيق موسى) مادام أنه كان يقتّل أبناء بني إسرائيل؟ انبرى الأفذاذ من أهل الدراية بالجواب العظيم الذي يسلب عقل كل ذي لب فقالوا: أن فرعون كان يقتّل أبناء بني إسرائيل عاماً ويذرهم عاما، فجاء مولد موسى في العام الذي كان من المفترض أن يقتل فرعون المواليد فيه، بينما ولد هارون في العام الذي لم يكن يقتل أبناء بني إسرائيل فيه؟

ما شاء الله!!! ألا ترى عزيزي القارئ هذه العبقرية الخالدة؟! من يدري!!!

موقفنا:

- .... قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111) البقرة
- وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (21) الأنعام

فهمنا المفترى للسبب الذي من أجله كان يقتل فرعون أبناء بني إسرائيل.

موقفنا: نحن نظن أن كل ما جاء في كتب التفاسير حول هذه الجزئية لا يعدو أكثر من أساطير محرفة عن موروثات الأمم السابقة التي كانت أصلاً قد حرفت من ذي قبل، فلقد أضاف علماؤنا الأجلاء (مع خالص احترامنا وتقديرنا لشخصياتهم وليس لعلمهم) تخريفاً إلى تحريف سابق، لذا نحن نرى أن الحاجة ملحّة للعودة بهذه الأسئلة إلى نقطة البداية ليكون محور النقاش منصباً على ما يمكن أن يدعمه الدليل المستنبط من كتاب الله وحده.

دعاء: الله أسأل أن يأذن لنا بشيء من علمه لنقول عليه الحق فلا نفتري عليه الكذب، إنه هو السميع المجيب.

أما بعد،

أولاً، نحن نعتقد أن فرعون لم يكن يقتل أبناء بني إسرائيل عاماً ويذرهم عاماً، وإنما كان يقتل أبناء بني إسرائيل على الدوام، ولو رجعنا إلى آيات الكتاب الكريم التي تتحدث عن تقتيل فرعون لأبناء بني إسرائيل لما وجدنا فيها إشارة إلى هذا التناوب المزعوم في أعوام القتل:

- **وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) البقرة**
- **وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127) الأعراف**
- **وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (141) الأعراف**
- **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (6) إبراهيم**
- **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) القصص**
- **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (6) إبراهيم**

نتيجة: نحن نظن أن فرعون وقومه كانوا يذبحون أبناء بني إسرائيل على الدوام، وما كانوا يبقون منهم أحدا. فلِمَ إذن – يسأل صاحبنا- لَمْ يقتل فرعونُ هارونَ (شقيق موسى)؟

للإجابة على هذا السؤال نرى أن الافتراءات التالية التي هي من عند أنفسنا ربما تستحق من القارئ الكريم التأمل ولو قليلاً.

افتراء 1: نحن نفتري الظن بأن موسى هو الأخ الأكبر لهارون، فهارون أصغر من موسى بالسن، والدليل على ذلك يأتي من ظننا الافتراضي الذي مفاده بأنه لو كان هارون أكبر من موسى بالسن لما أقدم موسى على أن يجر أخاه الأكبر (هارون) برأسه أو أن يأخذ بلحيته وبرأسه معاً:

- **وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِيۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (150) الأعراف**
- **قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيۖ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94) طه**

فلا أخال أن الأخ الأصغر (مهما كانت الحجة أو المسوغ) يمكن أن يقدم على فعل كهذا بأخيه الأكبر، ولكن لمّا كان موسى - في ظننا- أكبر سناً من أخيه هارون ربما نجد للأمر تبريراً.

كما يمكن أن نستنبط من بعض السياقات القرآنية أن هارون لم يغادر أرض مصر عندما فعل موسى فعلته وقتل رجلا من آل فرعون:

- **وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (15) القصص**

السؤال: ما دام أن موسى (أخ هارون) قد قتل رجلاً من آل فرعون، فلم إذاً لم يأخذ فرعون (أو قومه) هارونَ بفعلة أخيه؟ أليس الإخوة شركاء في الدم؟ وإذا كان هارون من شيعة موسى فلم لم يقم أهل المقتول بالثأر من موسى على الأقل بدم أخيه مادام أن موسى قد هرب من مصر؟ والأهم من هذا كله، كيف يجرؤ موسى على الهرب بعد فعلته هذه ويترك أخاه خلفه؟ ألم يكن يخشى أن يأخذ القوم أخاه هارون بسوء فعلته هو (موسى)؟

افتراء 2: نحن نفتري الظن أن فرعون لم يقدم على قتل هارون (بالرغم مما فعل أخوه موسى) لأن هارون لم يكن أصلاً من ذرية بني إسرائيل الذين كان فرعون يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم، وبكلمات أكثر دقة نقول لم يكن هارون من آل موسى.

ما الذي تقوله يا رجل؟ هل أنت بكامل قواك العقلية؟ أليس موسى هو شقيق هارون؟ فكيف بك تقول أن هارون ليس من بني إسرائيل إذن؟

جواب: نعم، هارون هو أخ موسى ولكنه ليس من طائفة بني إسرائيل الذين كان فرعون يقتّل أبناءهم ويستحي نسائهم؟

- وكيف يمكن أن يستقيم ذلك؟ هل هذه أحجية؟

جواب: لا، هي ليست أحجية، ولكن هذا ما نظن أن القرآن يثبته، ولكن كيف ذلك؟

رأينا: نحن نفتري الظن بأن هارون هو أخ موسى من أمه ولكنه ليس أخوه من أبيه، فموسى وهارون هم أخوة في الأم ولكنهما ليسوا إخوة في الأب، لذا كان لكل واحد منهم أب يختلف عن أب الآخر وإن كان الاثنان يشتركان في الأم، لذا كان كل واحد منهم ينحدر من آل يختلف عن آل الآخر، فهناك آل موسى وهناك آل هارون كما نجد ذلك بصريح اللفظ القرآني:

- وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (248) البقرة

دقق – عزيزي القارئ- جيداً بمفردات هذه الآية الكريمة لنطرح عليك بعدها التساؤل التالي: لماذا هناك آل لموسى وهناك آل لهارون مادام أن الاثنين هم إخوة؟

(للتفصيل حول من هم آل الرجل وأهل الرجل وقوم الرجل، الخ. انظر مقالتنا تحت عنوان من هي زوجة موسى ومقالتنا باب السامري)

أن افتراءنا هذا بأن موسى وهارون تجمعهما فقط أخوة الأم تدعمه آيات كريمة من كتاب الله:

- وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (150) الأعراف
- قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94) طه

فبعيداً عن التحليق في عالم المجازات وسماء الاستعارات، نحن نقرأ بصريح اللفظ القرآني أن هارون نفسه يقول بملء فيه لموسى " **يَا ابْنَ أُمَّ**"، لذا نحن نفهم أن الرابط بين موسى وأخيه هارون هو رابط قادم من طرف الأم، وليس رابطاً قادم من طرف الأب.

- **تبعات هذا الظن**

ربما يفسر لنا هذا الظن لِمَ لَمْ يأت ذكر لوالد موسى في كتاب الله كله، ولِمَ كان أشخاص القصة هم أمه وأخته فقط.

لقد تحدثنا في مقالة سابقة لنا عن هذه الجزئية، وزعمنا الظن أن والدة موسى قد تزوجت (بذي الكفل) بعد أن وقع موسى في بيت فرعون، فآثرت أن تبقى قريبة من ولدها، وكان هذا الرجل (نبي الله ذو الكفل) هو صاحب البيت الذي كفل موسى:

- إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (40) طه
- وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (12) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (13) القصص

وكان ذو الكفل هذا رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه لأسباب سنتعرض لها لاحقاً:

- وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (30) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (31) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (32) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (34) غافر

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن حديثاً كهذا وعلماً كهذا لا يمكن أن يصدر إلا عن صاحب علم عظيم (وقد تعرضنا لهذه القضية سابقة في مقالتنا تحت عنوان: لماذا قدم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه؟ لذا نحن نرى الضرورة تستدعي أن يعود القارئ الكريم إلى تلك المقالة للبحث عن الأدلة التي تدعم افتراءنا هذا، كما سنتابع الحديث لاحقاً عن تفاصيل أخرى حول قصة نبي الله ذو الكفل بحول الله وتوفيقه.

دعاء: فالله أسأل أن يأذن لنا بشيء من علمه

ونحن نظن أن قرية فرعون هذه هي القرية التي أرسل الله لها رسولين (موسى وهارون) وعززهما بثالث (ذي الكفل):

- وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (14) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (15) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (16) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ

الْمُبِينُ (17) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (18)
قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ۚ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (19) يس

فنحن نفتري الظن أنه ما من قرية أرسل الله إليها رسولين سوى قرية فرعون، وعززهما الله بثالث وهو ذو الكفل (والد نبي الله هارون أخ موسى من أمه وليس من أبيه). فلقد كان ذو الكفل يخفي شخصيته وهويته حتى بعث الله موسى وأخاه هارون رسولين إلى فرعون، ولمّا كذّب القوم المرسلين عززهما الله بثالث، فكان خطابه لهم واضحاً كما يرد في الآيات القرآنية التي تصور موقف هذا الرجل.

افتراء من عند أنفسنا: لقد كان ذو الكفل من آل فرعون وكان يكتم إيمانه عن القوم، وآثر أن يبقي مجهول الاسم حتى يضمن سلامة موسى عندما يكون هو صاحب البيت الذي كفل موسى. وما أظهر إيمانه إلا بعد رجوع موسى رسولاً إلى فرعون ومعززاً بأخيه هارون. ولو تابعنا النص القرآني الذي يأتي مباشرة بعد الآيات السابقة لوجدنا الحديث يجري عن هذا الشخص الذي جاء من أقصى المدينة يحمل تلك الرسالة إلى فرعون وملئه.

- **وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (23) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (24) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (25) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (27) يس**

ولو قرأنا قول الرجل كما جاء في سورة غافر لوجدنا أنه يتحدث عن علم ما كان من الأمم السابقة وعلم ما سيحل بآل فرعون من العذاب إن هم أنكروا وكذبوا دعوة المرسلين:

- **وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (30) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (31) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (32) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (34) غافر**

وفي هذه اللحظة فقط علم فرعون كيف كان مكر الله (لأن الله هو خير الماكرين)، فلقد فهم فرعون أن هذا الرجل الذي من قومه هو من تستر على موسى كل هذه الفترة الطويلة من الزمن، وهو من كان الرأس المدبر لكل ما حلّ بفرعون بسبب موسى، عندها لم يتردد فرعون أن يقتله بعد أعلن إيمانه صراحة على الملأ:

- إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (25) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (27) يس

السؤال: كيف حدث كل هذا من وراء فرعون؟ ألم يكن فرعون يعلم بما يدور حوله؟ من الذي دبر المؤامرة كلها ضد فرعون؟

فرعون: رواية جديدة مفتراة من عند أنفسنا

من هو فرعون؟

لعلنا لا نختلف في أن فرعون كان هو حاكم مصر المطلق زمن نبي الله موسى:

- وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) الزخرف

ولكن بالرغم أن فرعون كان له ملك مصر إلا أنه لم يكن ملك مصر ولكنه كان فرعون مصر، فلماذا؟ ومن أين حصل فرعون على ملك مصر؟

جواب: إن المتدبر للنص القرآني يجد أن الرسول الذي سبق موسى في أرض مصر هو نبي الله يوسف ابن يعقوب ابن اسحق ابن إبراهيم، أليس كذلك؟ ولعلنا لا نختلف أن في زمن نبي الله يوسف كان من يحكم مصر يلقب بالملك، وليس أدل على ذلك من الملك صاحب الرؤيا التي فسّرها يوسف له:

- وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ۖ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (43) يوسف

وكان تفسير هذه الرؤيا هو السبب المباشر الذي من أجله قرّب يوسف إليه:

- وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50) يوسف
- وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (54) يوسف

فالملك لا شك استخلص يوسف لنفسه، فأصبح يوسف منذ ذلك الوقت من أكثر الناس المقربين إليه، حتى طلب يوسف نفسه من الملك أن يجعله على خزائن الأرض لما يتمتع به من الحفظ والعلم:

- قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (55) يوسف

ولما استقر الأمر ليوسف في مصر، وحصل أن جاء إخوته (والقصة بتفاصيلها معلومة للجميع)، طلب يوسف من إخوته أن يأتوا بأهلهم جميعاً إلى أرض مصر:

- اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (93) يوسف

وما أن حظروا بصحبة أبيهم يعقوب حتى كان العرش قد استتب ليوسف في أرض مصر:

- وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100) يوسف

وفي تلك الأيام كان بنو إسرائيل في قمة مجدهم في أرض مصر، فكانوا هم سادتها وملوكها، ملك بدأ بيوسف:

- رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101) يوسف

واستمر قسطاً من الزمن:

- وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (20) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (21) المائدة

ملحوظ مهم جداً: لو راقبنا هاتين الآيتين الكريمتين لوجدنا أن بني إسرائيل كانوا ملوكاً في أرض غير الأرض المقدسة، فأين كان ملكهم إذن؟

افتراء من عند أنفسنا: لقد كانوا ملوكاً في أرض مصر.

وهنا تبدأ المشكلة الأولى التي نود التعرض لها ونظن أنها ذات علاقة وثيقة بقصة بني إسرائيل في أرض مصر وسببا رئيساً في استعبادهم هناك. فما هي تلك المشكلة؟

رأينا المفترى: ما أن هلك يوسف حتى أصبح الصراع في بني إسرائيل على النحو التالي:

- وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (34) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) غافر

دقق – عزيزي القارئ- في هذا السياق القرآني وحاول أن تتفكر في سبب الربط بين هلاك يوسف (34) وطلب فرعون من هامان أن يبني له صرحاً ليبلغ الأسباب (الآية 36).

لو تدبرنا النص جيداً لوجدنا أن الآية التي تتوسطهما (الآية 35) تحل الإشكال برمته، ولكن كيف؟

لنتدبر الآية جيداً:

- الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35) غافر

•

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أنه ما أن هلك يوسف حتى أصبح الجدال في بني إسرائيل ليس على الملك وإنما على النبوة (حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا)، فلقد ساد في فكر الإسرائيليين في أرض مصر أن النبوة قد انقطعت بعد يوسف، وكأنهم يقولون أن يوسف هو آخر رسل الله، ولكن جدالهم هذا كان من باب الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ.

نتيجة مفتراة: لقد كان محور النقاش (وبالتالي الخلاف) في بني إسرائيل حينئذ حول سؤال مفاده: هل سيبعث الله رسولاً من بعد يوسف؟ وكان ظن القوم أن الله لن يبعث رسولاً من بعد يوسف.

مفارقة مهمة جداً: ولا شك عندنا أن بني إسرائيل كان ظنهم على الدوام أن رسل الله لابد أن يكونوا من بينهم، فلقد عمد بنو إسرائيل إلى رفض كل رسول لا يبعث من بين ظهرانيهم، فهم قد احتجوا حتى على عيسى بن مريم (مادام أنه ليس من آل يعقوب) واحتجوا على محمد ما دام أنه ليس من بني إسرائيل، وهكذا.

إن مفاد القول هو أن حديث بني إسرائيل كان عن النبوة فيهم بعدما استتب الأمر بالملك لهم في أرض مصر، وهنا سيبرز السؤال التالي: وماذا عن المصريين أهل البلاد الأصليين؟ هل تظنون أنهم (وإن قبلوا حكم يوسف لهم فترة من الزمن) سيقبلون بحكم بني إسرائيل وإلى الأبد؟ وإذا كانوا قد سلّموا لهم بالملك فما بال النبوة تكون أيضاً حكراً في بني إسرائيل؟ هل الدنيا (الملك) لبني إسرائيل؟ وهل الآخرة (النبوة) لبني إسرائيل أيضاً؟ هل سيبقى الآخرون مجرد خدماً لبني إسرائيل؟ ما هذا التحيّز الإلهي لبني إسرائيل؟ ربما سأل بعضهم.

ألا تظنون - يا سادة- أن مثل هذه الأفكار لم تخالج المصريين الأصليين أصحاب البلد الذين "سلب" منهم ملك مصر على يد بني إسرائيل؟

رأينا: نحن نظن أن هذا كان سبباً رئيسياً في أن الذي كان يحكم مصر أيام موسى كان فرعوناً ولم يكن ملكاً: إنه الانقلاب العسكري على الحكم.

نعم، نحن نفتري الظن أن المصريين أهل البلد لم يطيقوا ذرعاً ببني إسرائيل بعد زمن من هلاك يوسف، فأخذوا يدبّرون الأمر حتى استطاعوا الإطاحة بالنظام الملكي الذي كان سائداً زمن نبي الله يوسف في أرض مصر، وبدل أن يستمر النظام ملكياً في تسميته أصبح فرعونياً، بالضبط كما يحصل في حالة الانقلاب على العائلات الحاكمة الملكية، فما أن يتم الإطاحة بالملكية حتى تحل "الجمهورية" محلها، لقد كانت "جمهورية" المصريين (إن صح القول) بعد يوسف فرعونية في طابعها وتسميتها، لأن الفراعنة هم من قاد التمرد ضد الإسرائيليين الملكيين. ولا أظن أن أسم فرعون نفسه (كلقب) يخلو من عنصر التمرد.

ولما وصل الفراعنة إلى سدة الملك أخذوا ينتقموا أشد الانتقام من أعدائهم اللدودين وهم الإسرائيليين، فاستعبدوهم (أي اتخذوهم عبيداً)، ولكنهم لم يتوقفوا عند هذا الحد، بل كان هدفهم القضاء المبرم على

سلالة الإسرائيليين الذين لم يبطنوا فكرة استعلائهم على أمم الأرض الأخرى. ولو تدبرنا السياقات القرآنية الخاصة باستعباد بني إسرائيل في أرض مصر لوجدنا أن من كان يقتل أبناء بني إسرائيل في أرض مصر ليس فرعون مصر فقط وإنما آل فرعون:

- **وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) البقرة**
- **وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127) الأعراف**
- **وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (141) الأعراف**
- **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (6) إبراهيم**
- **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) القصص**

ولو تأملنا السياق القرآني التالي على وجه التحديد لوجدنا أن تقتيل أبناء بني إسرائيل من قبل فرعون جاء بتحفيز من آل فرعون أنفسهم:

- **وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) البقرة**
- **وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127) الأعراف**

فآل فرعون كان دائمين على تقتيل أبناء بني إسرائيل واستحياء نسائهم (**وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ**)، ولما تلكأ فرعون قليلاً عن الاستمرار في ذلك الفعل جاء التحريض واضح من القوم (**وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ**)، فاستأنف فرعون هذا فعل التقتيل (**قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ**)، ولكن سطوة آل فرعون على بني إسرائيل كانت سابقة (**وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ**).

وسنرى لاحقاً بحول الله وتوفيقه تبعات هذا الأمر على بعثة الرسل إلى فرعون.

دعاء: فالله أسأل أن يؤتيني رحمة من عنده وأن يعلمني من لدنه علماً.

افتراء من عند أنفسنا: ما أن وصل الفراعنة (المصريين الأصليين) إلى سدة الحكم حتى صدر المرسوم الفرعوني (رقم) القاضي باجتثاث الإسرائيليين عن بكرة أبيهم، فكان القرار الذي اتخذه الفراعنة بالإجماع وليس فقط من

قبل فرعون نفسه هو تقتيل أبناء بني إسرائيل واستحياء نسائهم. ولا أظن أن هذا غريب في حالة الثورات العسكرية التي تقلب نظام حكم سائد ليحل محله نظام حكم جديد. فقتل فرعون لأبناء بني إسرائيل واستحياء نسائهم هو من باب ما يفعل العدو بعدوه في وقت الحرب.

من المسئول عن تقتيل أبناء بني إسرائيل؟

لا شك عندنا أن فرعون كان المسئول الأول عن تقتيل أبناء بني إسرائيل، ولا شك عندنا أن آل فرعون هم من كانوا دائمين التحريض على الاستمرار في تقتيل أبناء بني إسرائيل. ولكن هذا في ظننا كان من قبيل ما يفعل العدو بعدوه. ولكن لابد لنا أن نتساءل عن السبب الذي جعل فرعون يقوم بفعلته تلك، وعن الذي دفعه إلى القيام بذلك؟

افتراء خطير جداً جداً: نحن نظن أن هناك (وبالإضافة إلى فرعون وقومه) من يجب أن يتحمل قسطاً من المسؤولية فيما حل ببني إسرائيل في أرض مصر، فلا نلقي باللائمة كلها على فرعون وآله، فمن يا ترى يجب أن يتحمل جزءاً من المسؤولية عن ما حل ببني إسرائيل في أرض مصر؟

رأينا المفترى (المكذوب): نحن نرى (كاذبين بالطبع) أن يعقوب النبي ويوسف الرسول يتحملان قسطاً من المسؤولية (كلام خطير جداً، أليس كذلك؟)

ولكن كيف؟

للإجابة على هذا السؤال لابد من العودة إلى قصة موسى وطرح التساؤل التالي:

إلى أين كان موسى متجهاً بعد أن أنهى عقد عمله مع شعيب؟ هل كان موسى قاصداً العودة إلى أرض مصر؟ ألم يخرج موسى منها خائفاً يترقب؟ فكيف سيعود إليها ومعه أهله؟ هل كان يظن أن فرعون (وآل فرعون) قد نسوا ثأرهم القديم؟

رأينا: نحن نفتري الظن أن موسى ما كان ينوي العودة إلى أرض مصر بعد أن قفل راجعاً من أرض مدين، ونحن نظن أنه كان يقصد الذهاب إلى الأرض المقدسة فقط، وما كان موسى سيسلم نفسه (وأهله معه) لقمة سائغة لفرعون وقومه.

الدليل: لو تدبرنا السياق التالي لربما وجدنا الإشارة واضحة جداً إلى مثل هذا المعنى:

- **وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ (11) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ (13) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (14) الشعراء**

دقق – عزيزي القارئ- في هذا السياق القرآني جيداً: ألا ترى أن موسى يخاف العودة إلى أرض مصر بسبب الذنب الذي يقع على عاتقه لفرعون وآله؟ ألا ترى أنه يتردد في الذهاب حتى بالأمر الإلهي له؟ فهل - يا ترى- كان سيذهب برجليه إلى هناك ليضع نفسه (وأهله معه) في أيدي قوم فرعون؟

رأينا: لا أظن ذلك.

ولو تابعنا النص القرآني نفسه لوجدنا أن مهمة موسى في الذهاب إلى مصر لمقابلة فرعون كان هدفها الأول هو أن يرسل معه بني إسرائيل. فانظر إلى الحوار الإلهي مع موسى:

- **قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (15) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (17) الشعراء**

سؤال: فماذا إذن كان هدف ذهاب موسى إلى فرعون وقومه في أرض مصر؟

جواب: ليرسل معه بني إسرائيل **"أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ"**

سؤال: وأين سيذهب موسى ببني إسرائيل؟ أي إلى أين سيرسلهم معه؟

جواب: إلى الأرض التي كتب الله لكم:

- **يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (21) المائدة**

سؤال: لماذا سيطلب موسى من فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل إلى الأرض التي كتب الله لهم؟

رأينا: لم يخرج بنو إسرائيل من الأرض التي كتب الله لهم إلا كان الهوان والذل من نصيبهم، فمتى خرج بنو إسرائيل من الأرض التي كتب الله لهم حتى أصبحوا مستعبدين في الأرض (يقتل رجالهم وتستحيى نساؤهم).

افتراء من عند أنفسنا خطير جداً: نحن نظن أن مهمة موسى كانت تكمن في تصحيح "الخطأ" الذي وقع به يعقوب ويوسف.

ولكن كيف؟

رأينا: نحن نحمل العقيدة أن الأرض المقدسة خير من أرض مصر بدليل أن الله قد باركها وأنزل على القوم فيها المنّ والسلوى، وعندما طلب الناس الثوم والبصل ونحوهما لما كانوا يسكنون الأرض المقدسة، طلب الله منهم أن يهبطوا مصراً:

- **وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49)وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (51) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ**

وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57) وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (59) وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (61) البقرة

ولا أظن أن نبياً كيعقوب أو أن رسولاً كيوسف يمكن أن يغفلا عن حقيقة أن الله قد كتب لبني إسرائيل الأرض المباركة، فكيف بهم إذن يتنازلون عن تلك الأرض في سبيل المكوث في أرض مصر؟

رأينا المفترى (الكاذب): نحن نفتري الظن بأن حب يوسف للملك:

- قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (55) وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (56) يوسف

وشوق يعقوب إلى رؤية ولقاء ولده يوسف:

- وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (84) يوسف

قد كانا سبباً في استعباد بني إسرائيل في أرض غير الأرض التي كتب الله لهم. لذا نحن نتجرأ على الافتراء الكاذب الذي هو بلا شك من عند أنفسنا بأن نبي الله يعقوب ورسول الله يوسف قد قدّما مصلحتهما الشخصية على المصلحة العامة لبني إسرائيل، لقد كان الأولى بنبي الله يعقوب أن لا يهبط أرض مصر ببني إسرائيل (إن كان يرغب الذهاب بنفسه لروية ولده)، كما كان الأجدر برسول الله يوسف أن لا يطلب من إخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين، وأن يذهب هو للقاء والده ولا ينتظر في مكان عرشه ليأتي والده العجوز من بعيد قادماً إليه، فنحن نستغرب أن يأتي الوالد (العجوز) متكبدا أعباء السفر للقاء ولده الشاب (وسنتعرض لهذه الجزئية بتفصيل أكثر في مقالاتنا الخاصة بقصة يوسف لاحقاً.

دعاء: فالله أسأل أن يأذن لنا الإحاطة بشيء من علمه إنه هو السميع المجيب.

وربما من هذا الباب تأتي مهمة موسى في أرض مصر التي جاءت في الآية الكريمة التالية:

- **فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (17) الشعراء**

افتراء من عند أنفسنا: لقد كانت مهمة موسى تكمن في العودة ببني إسرائيل إلى الأرض المقدسة لأن وجودهم في غيرها قد سبب لهم الاستعباد في الأرض.

- **وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22) الشعراء**

فكيف حصل كل ذلك؟

نحن نتخيل السيناريو على النحو التالي: ما أن أصبح بنو إسرائيل هم ملوك مصر حتى وقع صراع بين المصريين (الفراعنة) والإسرائيليين، فكانوا شيعاً:

- **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) القصص**

فكان موسى ومن معه في شيعة (وكانت الطائفة المستضعفة منهم) وكان فرعون في شيعة أخرى، ووقعت العداوة بين الطرفين، وليس أدل على ذلك من حادثة القتل التي فعلها موسى بنفسه:

- **وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (15) القصص**

لقد كان من شيعة موسى الطائفة المستضعفة في أرض مصر، فدب الخلاف في أرض مصر بسبب الصراع على الملك، فما كان من موسى إلا أن ينتصر لطائفته، فقيامه بوكز الرجل وقتله لم يكن مدفوعاً إلا لمجرد أنه من شيعته ولمجرد أن الشخص الآخر من عدوه، أليس كذلك؟

إن صح منطقنا المفترى هذا، فإنه يحطنا عن الافتراء الأكثر خطورة التالي: لقد كان دافع موسى في القتل هو نفسه دافع فرعون للقتل، لقد قتل موسى الرجل الذي من عدوه نصرة للرجل الذي من شيعته، وهذا بالضبط – في رأينا- ما كان يقوم به فرعون، لقد كان يقتّل الرجال الذين من عدوه نصرة لشيعته. إنها الحرب التي لا هوادة فيها، فإما أن تقتل وإما أن تقتل.

ولا يظن أحد بأن فعلة موسى تلك كانت من قبيل الصدفة، وذلك لأن موسى هَمّ بالقتل مرة أخرى في اليوم التالي مدفوعاً بنفس السبب السابق:

- فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19) القصص

افتراء خطير من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن أنه لو لم يتراجع موسى في تلك اللحظة عن خطأه لأصبح نسخة طبق الأصل عن فرعون، فالفرق بين الحالتين يتمثل – برأينا- في أن موسى قد أقر بخطئه فتراجع عنه في الحال، وندم على فعلته فاستغفر ربه على ذنبه.

- قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16) القصص

واتخذ على نفسه عهداً أن لا يكون ظهيراً للمجرمين بغض النظر عن شيعتهم:

- قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ (17) القصص

لأن هدف موسى كان الإصلاح كما جاء على لسان الرجل الذي أراد موسى أن يبطش به في اليوم التالي:

- فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19) القصص

بينما استمر فرعون – بالمقابل- في الفساد، ليكون جباراً في الأرض:

- ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا ۖ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (103) الأعراف

- ۞ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (142) الأعراف
- فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ ۖ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (81) يونس
- وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91) يونس
- وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ۖ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (12) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (13) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (14) النمل
- إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) القصص

لذا نحن نتخيل أنه لو تراجع فرعون عن فعلته وأقر بخطئه وندم عليه واستغفر ربه صادقاً بأن لا يكون ظهيراً للمجرمين (كما فعل موسى) لوجد الله غفوراً رحيماً.

نتيجة مفتراة: لقد دارت حرب طاحنة بين شيعة موسى وشيعة فرعون، وكان هدف فرعون هو اجتثاث بني إسرائيل من الأرض، فأمعن في التقتيل فكان من المفسدين، بينما كان موسى يقف في الطرف الآخر، ويتخذ من الإصلاح منهجا، وما كان هدفه تقتيل من هم من أعدائه، لأن هدفه كان الإصلاح في الأرض.

لذا نتخيل ما حصل على النحو التالي:

تربى موسى في قوم فرعون:

- **قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18) الشعراء**

فلبث سنين من عمره في بيت الذي كفله من آل فرعون وهو – في ظننا- نبي الله ذو الكفل (ولم يكن قد أصبح نبياً بعد):

- **إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (40) طه**
- **وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (12) القصص**

فكان أهل هذا البيت من الناصحين لموسى، ولما كبر موسى ورأى بأم عينه ما يصنع فرعون وقومه ببني إسرائيل، لم يتقبل هذا العمل، فكان من الخارجين على الحكم، المريدين للإصلاح، لذا عاش موسى فترة من الزمن متخفياً بعيداً عن المدينة التي تربى فيها يناصب فرعون وجنوده العداء، وهذه العداوة واضحة من قبل أن يقدم موسى على قتل الرجل الذي من عدوه:

- **وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (15) القصص**

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن موسى قد ناصب فرعون وقومه العداوة بسبب ما كان يفعل فرعون من إفساد في الأرض منذ أن آتاه الله حكماً وعلماً، وكان ذلك يوم أن بلغ موسى أشده.

- **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ**

عَدُوِّهِۦفَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِۦقَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِۦإِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (15) القصص

فموسى كان خارجاً عن حكم فرعون مناصباً له العداء من ذي قبل، وبكلمات أخرى نقول لقد كانت ثورة موسى ضد فرعون ثورة سياسية، يقوم به من أراد الإصلاح ضد الحاكم المفسد في الأرض.

ونحن نفتري الظن بأنه قد استقر في ذهن موسى من أهل البيت الذين كانوا يكفلونه أنه هو نفسه من ذرية بني إسرائيل الذين يستعبدهم فرعون في أرض مصر، فموسى تربى عند أمه الحقيقة في بيت من بيوت آل فرعون:

- **فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (13) القصص**
- **قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18) الشعراء**

ولما رأى موسى استعباد آل فرعون لبني إسرائيل، رفض موسى فعلة فرعون تلك، وخرج عليه ليناصر الفئة المغلوبة ضد الفئة الظالمة، وكان أول نتائج تلك المناصرة أن وقع في فعل القتل بنفسه:

- **قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (19) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (21) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22) الشعراء**

وما أن قتل موسى الرجل حتى جاءه رجل من أهل البيت الذين كانوا له ناصحين ليخبره بما يدبر الملأ له:

- **وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20) القصص**

سنتعرض بحول الله وتوفيقه إلى شخصية هذا الرجل لاحقاً.

دعاء: فالله أسأل أن يأذن لي بعلم لا ينبغي لأحد غيري إنه هو السميع المجيب.

فخرج موسى إلى أرض مدين، وعندما عاد من هناك مرّ بالواد المقدس طوى فكانت الرسالة:

- **إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (10) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَۦإِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (13) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (15) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ (16) طه**

وكان من أهم أهداف تلك الرسالة هدفان رئيسان وهما:

1. أن يقولا لفرعون قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى:

- اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (42) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (43)فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (44) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ (45) قَالَ لَا تَخَافَاۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (46) طه

2. إخراج بني إسرائيل من أرض مصر والعودة بهم إلى الأرض التي كتب الله لهم:

- فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَۖ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ (47) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (48) طه

ونحن نتخيل الموقف على نحو أنه لو وافق فرعون على خروج موسى ببني إسرائيل لما تضاعفت المشكلة لأن في دعوة موسى تلك إقرار من موسى لفرعون بملك مصر مقابل عودة بني إسرائيل إلى الأرض التي كتب الله لهم.

افتراء خطير جداً: إن هذا الظن يعيدنا إلى الافتراء السابق الخطير الذي قدمناه سابقاً والذي مفاده أن مهمة موسى كانت تكمن في إصلاح الخلل الذي أحدثه تصرف يعقوب النبي ويوسف الرسول.

لماذا رسولين وليس رسول واحد؟

نحن نعلم أن السنة الإلهية هي على النحو التالي:

- مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (15) الإسراء

فلماذا إذن بعث الله لفرعون (على وجه التحديد) رسولين؟

رأينا: نحن نظن أن الإجابة يمكن أن تستنبط من الآية الكريمة التالية:

- قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيۖ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (34) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَاۚ بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (35) القصص

انظر عزيزي القارئ ما جاء عند ابن كثير مثلاً عن معنى فصاحة اللسان:

وأخي هارون هو أفصح مني لسانا " وذلك أن موسى عليه السلام كان في لسانه لثغة بسبب ما كان تناول تلك الجمرة حين خير بينها وبين التمرة أو الدرة فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه فحصل فيه شدة في التعبير ولهذا قال : " واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري " أي يؤنسني فيما أمرتني به من هذا المقام العظيم وهو القيام بأعباء النبوة والرسالة إلى هذا الملك المتكبر الجبار العنيد ولهذا قال : " وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا " أي وزيرا ومعينا ومقويا لأمري يصدقني فيما أقوله وأخبر به عن الله عز وجل لأن خبر الاثنين أنجع في النفوس من خبر الواحد ولهذا

قال : " إني أخاف أن يكذبون " وقال محمد بن إسحاق" ردءا يصدقني " أي يبين لهم عني ما أكلمهم به فإنه يفهم عني ما لا يفهمون.

السؤال: من أين قصة اللثغة التي سببتها الجمرة؟ وما قصة الجمرة والتمرة؟ هل هي من تحريفات يهود أم تخيلات أهل الصحراء في أيام الصيف الصافية؟ من يدري!!!

ألم يقرأ هؤلاء قول الحق عن موسى:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُواۚ وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (69) الأحزاب**

ثم يا سادة- كيف وصلت الجمرة على يد الطفل موسى؟ الم يمسكها بيده – يقول صاحبنا خالد؟ هل من مسك الجمرة بيده يمكن أن يصبر عليها حتى يضعها في فمه؟ ألا يلقى الإنسان بفطرة الجمرة إلى الأرض بعد أن يمسكها بيده؟ فكيف به ينقلها إلى فمه؟ أم هل كانت برداً وسلاماً في يده ثم ما أن وصلت إلى فمه حتى أصبحت ملتهبة حارقة؟ هل هذا علم يؤخذ به؟ وهل هذا علم يستحق أن يكتب في بطون الكتب ويدرّس للناس قروناً من الزمن؟ من يدري!!!

والسؤال الأكبر: كيف يبعث الله موسى رسولاً ليبين للناس ما نزل إليهم من ربهم وهو يعاني من اللثغة؟

افتراءات من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن ذلك أبعد ما يكون عن الحقيقة، ولابد من فهم معنى فصاحة اللسان كما ترد في السياقات القرآنية، فمتى يكون الإنسان فصيح اللسان؟ ومتى تضيع فصاحة اللسان؟

رأينا: نحن نظن أن فصاحة لسان هارون لم تكن بسبب قدرته على الكلام كما يظن البعض وذلك لأن قدرة هارون على الكلام (أو فصاحته) قد تهاوت تماماً أمام فعلة السامري، فما نفعت القوم في شيء، ولو كانت المسألة متعلقة بالقدرة الكلامية كما يفهما العامة لما وقف هارون صامتاً لا يفعل شيئاً يحد من خطر السامري في غياب موسى، ولكن يبقى السؤال مطروحاً: لماذا شهد موسى لأخيه هارون بفصاحة اللسان؟

- **وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيۖ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (34) القصص**

لقد تحدثنا في مقالة سابقة لنا تحت عنوان علم اللغة عن معنى مفردة اللسان، لذا نحن ندعو القارئ الكريم للعودة إلى تلك المقالة لما فيها من تفاصيل ربما تسعف في فهم الصورة بشكل أفضل. لكن ما يهمنا هنا هو التركيز على كيفية أن يكون هارون أكثر فصاحة من موسى.

رأينا: نحن نظن أن الإجابة ربما تستنبط من الآية الكريمة التالية:

- **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (4) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (5) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا**

نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (6) إبراهيم

دقق- عزيزي القارئ- بمفردات الآية الكريمة التالية لنطرح الاستنباطات التالية:

1. كل رسول يأتي بلسان قومه "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ"
2. تكمن مهمة الرسول في أن يبين لهم "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ"
3. كانت مهمة موسى تكمن في أن يخرج قومه الذي كان آل فرعون يسومونهم سوء العذاب "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ"

السؤال: من هم إذن قوم هارون اللذين سيبين لهم؟ ألم يرسل الله كل رسول بلسان قومه؟ فمن هم قوم هارون؟ هل يختلف قوم موسى عن قوم هارون؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن فرعون وقومه هم قوم نبي الله هارون، بينما كان موسى مأمورا أن يخرج قومه من بني إسرائيل من أرض مصر.

- وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (6) إبراهيم

لذا نحن نفتري الظن أن موسى كان مأموراً أن يخرج بني إسرائيل من أرض مصر ويكون هو رسولهم المتحدث بلسانهم والذي يبين لهم ما نزّل إليهم من ربهم، وكان هارون – بالمقابل- رسول قوم فرعون الذي سيبقى بين ظهرانيهم ويبين لهم ما نزل إليهم من ربهم لو أن القوم تقبلوا الرسالة.

وهذا الظن ربما يفسر لنا شيئاً من معنى قول موسى:

- وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۖ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (34) القصص

ولكن كيف ذلك؟

رأينا: لقد كان موسى يخشى أن يكذّبه قوم فرعون (ولم يكن يخشى أن يكذبه بنو إسرائيل، فلو تدبرنا القرآن كله لما وجدنا ممانعة عند بني إسرائيل لدعوة موسى). لذا كان موسى بحاجة إلى شخص يتحدث بلسان آل فرعون الذين يخشى أن يكذبوه، وهنا نتوقف لنطرح افتراءاتنا لمعنى فصاحة اللسان كما نفهمها من السياق القرآني.

الفصاحة

ما معنى أن يكون الإنسان فصيح اللسان؟ ومتى يكون الإنسان فصيح اللسان؟ ومتى تغيب الفصاحة؟ هل كانت الفصاحة تنقص نبي الله موسى؟

رأينا: هذا أبعد ما يكون عن الحقيقة، لقد كان موسى فصيح اللسان، ولكنه طلب شخصاً أكثر منه فصاحة في قوم لا يتحدث موسى لسانهم وهم قوم فرعون، ولكن كيف؟

رأينا: نحن نظن أن فصاحة اللسان لا تكون بتحدث اللغة فقط، ولكن بمعرفة العادات والتقاليد والثقافة، الخ.، والأهم من ذلك كله هو أن يكون للإنسان أحقية في أن يتكلم بلسان القوم. لذا فإن فصاحة الإنسان تبين في قومه لأنه يعرف تفاصيل حياتهم ويستطيع أن يخاطبهم بكل صراحة وقوة حجة، لأن الغريب عن القوم تبقى فصاحته منقوصة مهما بلغت قدرته اللغوية في التعبير، ولو حاول الإنسان أن يتحدث بين قومه (وفي عشيرته باللسان الأردني) لتحدث بلسان حالهم، ولا يستطيع الآخرون المزاودة عليه أو التستر على أشياء تخص القوم بأكملهم، فكل فرد في القوم يعرف خبايا وأسرار قومه، ومن هنا يستطيع أن يخاطبهم بطريقة مباشرة وفاعلة ومؤثرة، ولكن الغريب عن القوم لا يستطيع فعل ذلك.

والقارئ الكريم يستطيع التأكد من هذه المزاعم بمراقبة الانتخابات الأردنية ذات الطابع العشائري بامتياز، ففي حين أن الخطاب على العامة يكون (من قبل المرشحين) بالشعارات البراقة:

- **قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26) القصص**
- **قَالَ يَـٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَـٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ (88) هود**

وما أن يجتمع بقومه (عشيرته) حتى تبين النوايا الحقيقية في إعلاء اسم العشيرة (القوم) ومنافسة العشائر (الأقوام) الأخرى، وهكذا. إن مراد القول هو أن الحديث بين أفراد العشيرة الواحدة (القوم) يتسم بالصراحة والحجة والفصاحة خاصة إذا كان كل الحاضرين هم من نفس العشيرة (أو القوم أو الـ آل).

افتراء من عند أنفسنا: لذا نحن نفتري الظن أنه مادام أن هارون من آل يختلف عن آل موسى كان لزاماً أن يكون هناك من يتحدث إلى آل موسى وأن يكون هناك من يتحدث إلى آل هارون. ولما كان موسى هو رسول بني إسرائيل كان هو الأفصح لساناً بينهم، ولكنه ليس الأفصح لساناً بين آل فرعون. وبنفس المنطق نستطيع القول أنه لما كان هارون هو الأفصح لساناً بين قومه (آل فرعون) كان هو رسولهم الذي يستطيع أن يبين لهم ولكنه في الوقت ذاته لم يكن الأفصح لساناً بين قوم موسى (بني إسرائيل). فرسول القوم هو أفصحهم.

وربما يفسر لنا مثل هذا الظن لم سكت فرعون عن قتل هارون مادام أنه كان يقتل أبناء بني إسرائيل أصلاً. فلو كان هارون من آل موسى لما تردد فرعون أن يناصبه العداء أو أن يقتله كما كان يفعل مع أبناء بني إسرائيل:

- وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127) قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129) وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (130) الأعراف

فسكوت فرعون عن قتل هارون (أخ موسى) وطلب موسى من ربه أن يشد عضده بأخيه لأنه أفصح منه لساناً ومكوث هارون في أرض مصر حتى بعد خروج موسى منها وهو مدين للقوم بالدم تشكل جميعها أسباباً كافيه أن نعتقد بأن صلة القرابة بين موسى من جهة وأخيه هارون من جهة أخرى كانت مبنية على رابط الأم:

- قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94) طه

وربما يفسر لنا هذا الظن لم سكت هارون (بالرغم من فصاحة لسانه) عندما أضل السامري بني إسرائيل في غياب موسى:

- قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94) طه

فلو دققنا في الآية الكريمة لوجدنا أن هارون يقول لموسى بأني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي، لذا نحن نؤمن أن دافع هارون في السكوت على القوم وعدم اللحاق بأخيه بعد وقوع ضلالة السامري لهم كانت خوفاً من وقوع الفرقة بين بني إسرائيل. ولكن كيف؟

رأينا: نحن نظن أن الذين خرجوا مع موسى من أرض مصر لم يكونوا جميعاً ينتسبون بالدم على بني إسرائيل وليس أدل على ذلك مما فعل السحرة الذين جمعهم فرعون من كل مكان:

- قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (111) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (112) الأعراف

وما رأى السحرة بأم أعينهم ما يستطيع موسى أن يفعله بعصاه حتى انقلبوا على فرعون وأعلنوا إيمانهم بموسى:

- وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (120) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (121) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (122) الأعراف

فتوعدهم فرعون بالعذاب الشديد:

- قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (123) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (124) الأعراف

ولكن ذلك لم يمنعهم عن إشهار إيمانهم لا بل وتحدي أمر فرعون:

- قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (125) وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ۚ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (126) الأعراف

ولا شك عندنا أن هناك من آل فرعون من كان يكتم إيمانه، ولا يرضى بما فعل سفيههم، فخرجوا جميعاً من أرض مصر مؤمنين برسالة موسى وأخيه هارون.

ولما وقعت الفتنة من الله للقوم بسبب عجلة موسى (انظر مقالتنا تحت عنوان: باب السامري) والضلالة من السامري:

- قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85) طه

لم يستطع هارون أن يحدث تأثيراً في القوم بالرغم من فصاحته:

- وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَـٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90) طه

وذلك لأن جزءاً كبيراً من القوم ليسوا بقومه، فالغالبية الساحقة منهم هم من آل موسى وليس من آل هارون، لذا كانت الغلبة لآل موسى على آل هارون، ومن هنا جاء – في ظننا- قول فرعون أن القوم قد استضعفوه وكادوا يقتلونه:

- وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (150) الأعراف

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نتخيل السيناريو الذي حصل في القوم في غياب موسى على النحو التالي:

يطلب موسى من أخيه أن يخلفه:

- وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (142) الأعراف

يستطيع السامري أن يحدث الضلالة بينهم بسبب الذي أخرجه لهم من حلي القوم:

- فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَـٰذَا إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (88) طه

يتدخل هارون ليحد من خطر السامري، وليكف لجام الفتنة:

- وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَـٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90) طه

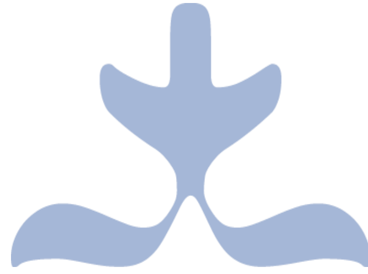
فلا ينجح هارون في ذلك ويصر القوم على العكوف على العجل حتى يرجع موسى:

- قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (91) طه

وهنا يدب الخلاف في القوم، وتحاول طائفة أن تستضعف طائفة أخرى، فتم استضعاف هارون لأنه لم يكن من آل موسى، فلا يوجد في الجمع الكثيرون الذين يستطيعون الدفاع عنه:

- قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (150) الأعراف

وللحديث بقية.



الجزء الثاني

فرعون الطفولة



فرعون الطفولة

كان الجزء السابق من هذا الكتاب منصباً على إيجاد الدليل على زعمنا الذي مفاده أن فرعون كان عنده دافعاً وعلماً دفعاه إلى تقتيل أبناء بني إسرائيل (واستحياء نسائهم)، وحاولنا حينئذ تسويق فهمنا لدافع فرعون على نحو أنه ما أن هلك يوسف واستتب الملك لبني إسرائيل في أرض مصر حتى جاءت ثورة الفراعنة (أهل مصر الأصليين) لتطيح بحكم ملوك بني إسرائيل في أرض مصر وتؤسس جمهورية الفراعنة الأولى. وبكلمات أخرى، فقد افترينا الظن أن المصريين (أهل البلد الأصليين) لم يطيقوا ذرعاً ببني إسرائيل بعد زمن من هلاك يوسف، فأخذوا يدبّرون الأمر حتى استطاعوا الإطاحة بالنظام الملكي الذي كان سائداً زمن نبي الله يوسف في أرض مصر، وبدل أن يستمر النظام ملكياً في تسميته أصبح فرعونياً، وما أن وصل الفراعنة إلى سدة الحكم حتى أخذوا ينتقمون أشد الانتقام من أعدائهم اللدودين وهم الإسرائيليين، فقتلوهم واستعبدوهم (أي اتخذوهم عبيداً):

- وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (141) الأعراف
- وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22) الشعراء

وهنا سنتوقف لنطرح جملة من التساؤلات: من الذي قتّل أبناء بني إسرائيل؟ ومن الذي عبّد بني إسرائيل؟ كيف قتّل آل فرعون أبناء بني إسرائيل؟ وكيف استعبد فرعون بني إسرائيل؟ ولماذا استعبد فرعون بني إسرائيل وهم اللذين كانوا يقتلون في أرض مصر؟ ألم يستطع آل فرعون بعد كل ذاك التقتيل الذي أحدثوه في أبناء بني إسرائيل أن ينهوا وجودهم كلياً؟ من الذي بقي من بني إسرائيل حتى يستعبد؟ وكم استمر تقتيل آل فرعون لأبناء بني إسرائيل؟ وكم استمر استعباد فرعون لمن تبقى منهم؟ ومن الذي تبقى من سلالة بني إسرائيل حتى يأتي موسى طالباً من فرعون أن يرسلهم معه؟

- أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (17) الشعراء

فهل بقي من بني إسرائيل الكثير حتى يأخذهم موسى معه؟ فهل بقي منهم غير الشيوخ والأرامل؟ وما حاجة موسى بمثل هؤلاء مادام أن أبناء بني إسرائيل كانوا يقتلون منذ زمن على يد آل فرعون؟

من هو فرعون؟

للإجابة على التساؤلات السابقة، نجد لزاماً طرح التساؤل المثير التالي أولاً: من هو فرعون الذي تربى موسى في بيته؟ ومن هو فرعون الذي هرب موسى منه؟ ومن هو فرعون الذي عاد موسى ليقول له قولاً ليناً؟ هل هو نفس الشخص؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأنه ليس الشخص نفسه، ففرعون الذي تربى موسى في بيته يختلف – في رأينا- عن فرعون الذي عاد إليه موسى بالرسالة؟

الدليل: نحن نعلم من النص القرآني أن موسى قد وقع في يد آل فرعون عندما ألقته أمه في التابوت وألقته في اليم:

- وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9) القصص

وكان فرعون هو من يحكم أرض مصر آنذاك، أليس كذلك؟

نتيجة: موسى طفل رضيع (أو ربما أنهى الرضاعة للتو).

سنرى لاحقاً أن أم موسى قد وضعت موسى في التابوت وألقته في اليم يوم فطامه:

- وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7) القصص

وهو ما نظن أنه السبب الذي من أجله حرم الله على موسى المراضع (من قبل) حتى رده إليها:

- وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (12) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (13) القصص

هو حاكم مصر المطلق آنذاك، فكم - يا ترى- كان عمر فرعون عندما وقع موسى (الطفل الرضيع في يده)؟ من يدري!!!

وهذا موسى يتربى الآن في آل فرعون ويلبث في بيوت آل فرعون فترة من الزمن كما جاء على لسان فرعون نفسه بعد أن عاد إليه موسى بالرسالة:

- قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18) الشعراء

نتيجة: موسى يلبث سنين من عمره في بيوت الفراعنة، فكم - يا ترى- أصبح عمر فرعون بعد أن تربى موسى في بيوت آل فرعون سنين من عمره؟ من يدري!!!

وحصل أن ناصب موسى العداء لفرعون حتى اضطر للخروج من المدينة (عاصمة فرعون) ولم يكن يستطيع دخولها إلا (ربما) متخفياً، وكان ذلك – كما زعمنا لأن موسى جعل من نفسه الشخص الذي يريد الإصلاح ضد من كان جبارا في الأرض كما جاء على لسان من أراد موسى أن يقتله:

- فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19) القصص

وكبر موسى مناصباً فرعون (الجبار في الأرض) العداء حتى بلغ أشده واستوى، وهناك وآتاه الله العلم والحكم:

- وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14)

نتيجة: فكم – يا ترى- أصبح عمر فرعون الآن بعد أن بلغ موسى أشده واستوى؟ من يدري!!!

وما أن يبلغ موسى أشده حتى عاد ليدخل المدينة (عاصمة فرعون) ولكن على حين غفلة من أهلها.

وسنرى لاحقاً لما عاد موسى في هذا الوقت بالذات ليدخل المدينة، وكيف كان ذلك على حين غفلة من أهلها، فهل يعقل أن يكون أهل المدينة كلهم غافلون؟ وكيف عرف موسى غفلتهم تلك؟ وما معنى الغفلة أصلاً؟

وهناك وكز رجلا فقتله لأنه لم يكن من شيعته:

- وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (15) القصص

وهرب موسى بسبب فعلته تلك من المدينة مرة أخرى بعد أن جاءه الرجل من أقصى المدينة ليحذره من تآمر الملأ به:

- وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21) القصص

وتوجه تلقاء مدين، ليمكث فيها عشرة حجج ليأجر الرجل لقاء أن أنكحه إحدى ابنتيه:

- قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ۖ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27) قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (28) القصص

نتيجة: فكم – يا ترى- أصبح عمر فرعون بعد كل هذه السنين؟ من يدري!!!

ولما قضى موسى الأجل في أرض مدين بعد ثمانية أو عشر حجج (مدة العقد المتفق عليها مع الرجل) سار بأهله تاركاً أرض مدين خلفه متجهاً إلى الأرض التي بارك الله فيها للعالمين:

- فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29) القصص

فنحن لا نظن أن موسى كان ذاهباً إلى أرض مصر بأهله لأن القوم كان لهم عليه ذنب، وقد كان موسى خائفاً أن يذهب إلى هناك حتى بعد أن أرسله الله إلى فرعون:

- **قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ (13) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (14) الشعراء**

فهل يعقل أن يذهب موسى بنفسه وأهله إلى فرعون ليسلم نفسه لقمة سائغة له ولآل فرعون أجمعين بعد ذنبه الذي لهم عليه؟ لا أظن ذلك. وأعتقد جازماً أن موسى كان ذاهباً إلى الأرض المباركة ليبحث عن الهدى:

- **إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (10) طه**

وسنتحدث بتفصيل أكثر عن هذه القضية بحول الله وتوفيقه لاحقاً.

دعاء: فالله أسأل أن يهديني إليه سبيلاً وأن أجد هداي عنده وحده إنه هو السميع العليم.

وهناك (في الواد المقدس عند النار) جاء التكليف لموسى بالذهاب إلى فرعون ومعه الآيات البينات:

- **اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ۖ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (32) القصص**

نتيجة: فكم – يا ترى- يكون عمر فرعون الآن (بعد كل هذه السنين) إن كان هو نفسه الذي تربى موسى في بيته؟ وأين هي – يا ترى- امرأة فرعون التي دافعت عن موسى إذن؟ ولم لا يذكرها موسى ولو على سبيل الصدفة؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن فرعون هذا الذي ذهب موسى ليبلغه رسالة ربه لم يكن هو فرعون ذاك الذي تربى موسى في كنفه. ونجزم الظن بأن فرعون الذي تربى موسى في بيته تحت حماية امرأة فرعون قد مات هو امرأته وقد انتقل الحكم إلى فرعون آخر هو الذي أمر موسى بأن يبلغه رسالة ربه ويطلب منه السماح لبني إسرائيل بالخروج من أرض مصر إلى الأرض المباركة التي كتب الله لهم.

الدليل: أولاً، نحن نجد دليلاً على ظننا بأن فرعون الأول قد مات وجاء مكانه فرعون جديد من عبارة "**عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا**" التي ترد في السياق القرآني التالي:

- **وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (15) القصص**

فالآية الكريمة تشير بما لا يدع مجالاً للشك بأن موسى قد دخل المدينة على حين غفلة من أهلها، أليس كذلك؟

السؤال: كيف دخل موسى المدينة على حين غفلة من أهلها؟ فهل يعقل أن يكون أهل المدينة كلهم غافلين؟ وما معنى أن يكون أهل مدينة على حين غفلة؟

رأينا: نحن نظن أن غفلة أهل المدينة كانت مؤقتة، فهي قد حصلت لفترة محدودة بدليل أن ذلك قد حصل "عَلَىٰ حِينِ"، فلو كان أهل المدينة في غفلة دائمة لكانوا إذن غافلين.

كما جاء في الآيات الكريمة التالية:

- **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَاۚ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَاۖ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (130) ذَٰلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (131) الأنعام**
- **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَاۚ أُولَـٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (179) الأعراف**

ولكن لمّا كانت غفلتهم في رأينا مؤقتة وقصيرة جاء النص على صيغة **"عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ"**.

ولو راقبنا النص أكثر لوجدنا أن تلك الغفلة المؤقتة القصيرة قد أصابت أهل المدينة أجمعين بدليل أنها كانت **"عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا"**، فأهل المدينة كانوا حينئذ في غفلة أجمعين، فكيف كان ذلك؟

ولو تدبرنا النص أكثر لوجدنا أن المدينة كان يسودها الفوضى بدليل أن الخصام كان دابآً بين من هم من شيعة فرعون من جهة ومن هم من شيعة موسى من جهة أخرى بدليل أن موسى وجد رجلين يقتتلان على هذا الأساس (**فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ**).

السؤال: كيف أصبح من هم من شيعة موسى (بني إسرائيل) قادرين على الوقوف في وجه آل فرعون؟ وهل يجرؤ من هم من بني إسرائيل على الوقوف في وجه من هم من آل فرعون داخل مدينة فرعون نفسها؟ فلا ننسى أن موسى نفسه لم يستطع فعل ذلك وكان أصلاً هارباً منها؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن السبب الذي دفع بكل هذه الأمور أن تحدث دفعة واحدة هو موت فرعون الأول. فما أن مات فرعون الأول حتى أصبح كل أهل المدينة في غفلة. فنحن نفتري الظن أن الغفلة لا تصيب مدينة (أي مدينة) بأكملها إلا لحظة أن يغيب حاكمها، فتصبح أشبه بالغابة يأكل القوي فيها الضعيف.

ولكن أين الدليل على ذلك؟

لو تدبرنا النص القرآني جيداً لوجدنا أن الحاكم لا يجب أن يغفل عن رعيته، فالله نفسه لا يغفل عن العباد:

- ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74) البقرة
- وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (17) المؤمنون

ومتى غفل الحاكم عن المحكوم دبت الفوضى في البلاد، ومتى غفل ولي الأمر عن الرعية تركوا فريسة سهلة للذئاب. وليس أدل على ظننا هذا مما قال نبي الله يعقوب لأبنائه يوم أن طلبوا منه أن يرسل معهم أخاهم يوسف إلى المرعى:

- قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (13) يوسف

فيعقوب يفهم أنه إن غفل إخوة يوسف عن أخيهم فسيكون أخوهم فريسة سهلة للذئب.

ثانياً، لو تدبرنا النص القرآني جيداً لوجدنا أن الرجل الذي جاء محذراً موسى، كان يحذره من الملأ الذين يأتمرون به وليس من فرعون نفسه:

- وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21) القصص

ما علاقة هذا كله بفحوى الموضوع قيد البحث هنا؟

جواب: لو تدبرنا السياقات الخاصة ببني إسرائيل في أرض مصر زمن حكم الفراعنة لوجدنا أنهم قد مروا بتجربتين اثنتين:

1. التقتيل

- وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (141)

2. الاستعباد

- وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22)

نتيجة: فبنو إسرائيل:

(1) قتّلوا في أرض مصر.

(2) استعبدوا في أرض مصر.

فكيف يمكن الربط بين الحدثين؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن أنه خلال حكم فرعون الأول (الذي التقط موسى من اليم) كان التقتيل جار على أشده في أبناء بني إسرائيل، وكان الذي يقوم بذلك ليس فرعون نفسه فقط ولكن آل فرعون.

- **وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) البقرة**
- **وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127) الأعراف**
- **وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (141) الأعراف**
- **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (6) إبراهيم**
- **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) القصص**
- **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (6) إبراهيم**

وخلال تلك الفترة وقف موسى خصماً عنيداً لفرعون ونصب من نفسه الشخص الذي يريد الإصلاح ضد من كان جباراً في الأرض، وكانت نتيجة تلك العداوة "السياسية" أن اضطر موسى للخروج من المدينة.

ولكن ما انتهى عهد ذلك الفرعون الأول ووصل الفرعون الثاني إلى الحكم حتى توقف التقتيل في أبناء بني إسرائيل وأصبح استعبادهم هو البديل، ونحن نفتري الظن أن الذي دفع بموسى أن يعود إلى المدينة بعد فترة غياب عنها هو موت ذلك الفرعون الأول الذي ناصبه موسى العداء، ونظن أن ذلك حصل في وقت كان أهل المدينة في غفلة، أي لم يكن لهم حاكم بعد، فتجرأ موسى على العودة خلال هذه الفترة الانتقالية في الحكم، التي ظهر فيها أن بني إسرائيل قد حاولوا مقاومة التقتيل الذي كان جار فيهم زمن الفرعون الأول. وما أن وصل الفرعون الثاني إلى سدة الحكم حتى بدأ حكمه بإصدار المرسوم الأول له والقاضي – في ظننا- بتوقيف التقتيل في بني إسرائيل، ربما ليعيد للمدينة هدوءها بعد الفوضى التي عمتها خلال الفترة الانتقالية.

الدليل: لو تدبرنا النص القرآني التالي كما جاء على لسان موسى مخاطباً هذا الفرعون الجديد لربما توصلنا إلى ما يمكن أن يدعم ظننا هذا:

- **فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (21) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22) الشعراء**

فالمتدبر للنص القرآني يجد أن موسى يوجه الخطاب لهذا الفرعون على أنه هو من عبّد بني إسرائيل ولا يتهمه بتقتيلهم، لاحظ – عزيزي القارئ- كيف جاء الضمير في الآية 21 بصيغة الجمع وتحول مباشرة إلى

صيغة المفرد الخاص بفرعون نفسه عند الحديث عن تعبيد بني إسرائيل، ففرعون هذا هو – في ظننا المفترى- من عبّد بني إسرائيل ولكنه لم يقتّلهم.

ثانياً، لو تأملنا النص القرآني التالي لوجدنا أن تقتيل أبناء بني إسرائيل قد توقف قسطاً من الزمن:

- **وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127) الأعراف**

فالمتدبر للنص يجد أن هناك استئناف لعملية التقتيل والاستحياء بعد عودة موسى، فهذا الفرعون الثاني لم يقدم – في ظننا- على تقتيل بني إسرائيل إلا بتحريض من الملأ من قومه بعد عودة موسى **"وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ"** فيرد عليهم حينها بأنه سيستأنف التقتيل والاستحياء من جديد **"قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ"**

ثالثاً، ربما يفسر مثل ظننا هذا ما جاء على لسان بني إسرائيل أنفسهم عندما خاطبوا نبيهم عن ما حل بهم من قبل موسى ومن بعده:

- **قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129) الأعراف**

فالقوم يضعون جزء من اللوم على عودة موسى لأنها سببت لهم الأذى الذي كان حالا بهم من قبل أن يأتيهم موسى ومن بعد ما جاءهم بتلك الرسالة (قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا). فالآية تشير إلى أن تغيراً في حالهم قد حصل بعد عودة موسى بالرسالة، وموسى يطلب منهم الصبر على ذلك:

- **قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128) الأعراف**

فنحن نظن أن الأذى قد وقع على بني إسرائيل من قبل أن يأتيهم موسى وعاد الأذى ليقع عليهم من بعد ما جاءهم موسى، لذا نحن نستشعر أن خلال هاتين المرحلتين توقف الأذى عن بني إسرائيل في أرض مصر، ونحن نظن أن هذه الفترة هي فترة حكم هذا الفرعون الثاني. وسنرى تبعات هذا الظن على شخصية هذا الفرعون الجديد لاحقاً بحول من الله وتوفيق منه وحده،

دعاء: فالله أسأل أن يعلمني من لدنه علماً لا ينبغي لغيري إنه هو السميع العليم.

تلخيص لما سبق: نحن نظن أن تقتيل أبناء بني إسرائيل من قبل فرعون جاء على الدوام بتحفيز من آل فرعون أنفسهم، فآل فرعون كانوا دائمين على تقتيل أبناء بني إسرائيل واستحياء نسائهم (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ)، ولكن لمّا انتقل الحكم من الفرعون الأول (الذي ألتقط موسى في اليم) إلى الفرعون الثاني (الذي عاد له موسى بالرسالة) توقف التقتيل في أبناء بني إسرائيل، وانتقل إلى مرحلة الاستعباد، وكان ذلك على يد الفرعون الثاني. ولما عاد موسى بالرسالة عاد التحريض

مرة أخرى على بني إسرائيل من قبل ملأ قوم فرعون أنفسهم **"وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ...."** عندها "وعد" هذا الفرعون الجديد باستئناف التقتيل في أبناء بني إسرائيل واستئناف الاستحياء في نساء بني إسرائيل فقط بعد عودة موسى، ولنتابع قراءة الآية نفسها **"وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ"** وقد كانت سطوة آل فرعون على بني إسرائيل سابقة.

- **وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127) الأعراف**

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن أن هذا الفرعون الثاني لم يقتّل أبناء بني إسرائيل إطلاقاً ولكنه استعبدهم طيلة فترة حكمه (وكان ذلك طيلة فترة غياب موسى عن أرض مصر)، ووعد باستئناف التقتيل في أبناء بني إسرائيل بعد عودة موسى بالرسالة إلى أرض مصر.

تبعات هذا الظن: ربما يفسر لنا مثل هذا الظن سبب أن يبعث الله لهذا الفرعون رسولين ليقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو أن يخشى:

- **اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (44) طه**

لو تدبرنا هذه الآيات الكريمة جيداً لربما استطعنا أن نخلص إلى القول بأن مشكلة فرعون الحقيقية كانت على نحو "**إِنَّهُ طَغَىٰ**"، فالله قد أرسل إلى فرعون رسولين لأنه قد طغى، أليس كذلك؟

السؤال: كيف طغى فرعون؟

رأينا: لو تدبرنا السياقات القرآنية الخاصة بالطغيان لوجدنا أن الطغيان غالباً ما يصاحب العلم:

- **اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ (6) العلق**

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن الإنسان الذي يطغى هو من كان لديه العلم ولكنه حاول أن يخفي بعلمه هذا الحقيقة عن من حوله.

- **وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (64) المائدة**

- قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (68) المائدة
- وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (109) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (110) الأنعام

فالذين يحاولون أن يزيدوا على ما أنزل الله هم يقعون في فعل الطغيان لأنهم يحاولون بفعلتهم تلك أن يجعلوا ما عندهم يطغى على ما جاء من عند الله بالضبط كالصورة التي يمكن أن نتخيلها من عملية طغيان الماء على الأرض:

- وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (9) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (10) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (11) الحاقة

فعندما يطغى الماء على الأرض يصبح من الصعب معرفة تضاريس الأرض التي تحت الماء لأن الماء قد شكل عائقاً لمعرفة حقيقة ما تحته. ولا يكون ذاك الطغيان إلا من عمل السفهاء الذين يريدون الفساد في الأرض ليعلو فيها كفرعون مثلاً:

- وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (12) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (13) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (16) البقرة

نتيجة: نحن نظن أن الذين في طغيانهم يعمهون هم من اشتروا الضلالة بالهدى، لذا نحن نظن أن فرعون هذا قد اشترى الضلالة بالهدى، فكانت مشكلته تتمثل في أنه قد طغى. ولما كان الطغيان من أجل العلو في الأرض كان لا شك مبنياً على علم. لذا نحن نتجرأ أن نفتري الظن بأن فرعون هذا كان صاحب علم ولكنه استخدم علمه ليطغى. فأخفى الحقيقة عن الناس وكان ذلك هو سبب أنه أوقع قومه في الضلالة ولم يرشدهم إلى الهدى:

- وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ (79) طه

ولو حاولنا التمييز بين ما فعل فرعون من جهة وما فعل قارون من جهة أخرى لوجدنا أنه في حين أن فرعون كان قد طغى (وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ) فإن قارون كان قد بغى عليهم:

- إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) القصص

السؤال: كيف بغى قارون عليهم؟

نحن نظن أن "البغي" يعني "اعتداء طرف على طرف آخر" كحالة الخلطاء الذين يبغي بعضهم على بعض

- قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦوَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْۗوَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ (24) ص

أو كحالة البحرين اللذان لا يبغيان، ليبقى كل واحد منهم ملتزم بحد له لا يتجاوزه:

- مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) الرحمن

نتيجة مفتراة: لم تكن مشكلة هذا الفرعون تكمن في أنه قد بغى ولكنه كان قد طغى، ربما لنفهم أن فرعون كان صاحب علم، فحاول بعلمه هذا أن يطغى ليغطي على الحقيقة التي لا يريد الناس أن يطلعوا عليها لأنها في ظننا كانت ستكلفه الكثير، فما هي تلك الحقيقة؟ ولماذا حاول أن يغطيها؟

فرعون الطفولة

عودة على بدء، حاولنا جاهدين التمييز بين فرعون الأول الذي عاش موسى في كنفه، وفرعون الثاني الذي عاد موسى له بالرسالة. وافترينا الظن بأن فرعون الأول كان يقتّل أبناء بني إسرائيل لأنه هو من استطاع الإطاحة بحكم الملوك من بني إسرائيل (أي فترة حكم بني إسرائيل في مصر بعد يوسف وقبل انتقالهم إلى الأرض المقدسة مع نبيهم موسى):

- وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (20) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (21) المائدة

فكان ذلك الفرعون يحاول تصفية حساباته مع خصومه السياسيين.

وتربى موسى في كنفه بعد أن تدخلت امرأة فرعون (بتدبير إلهي) فأنقذت موسى من القتل:

- وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَۖلَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9) القصص

واتخذت من موسى ولداً لها، وتربى موسى في آل فرعون ولبث فيهم سنين من عمره:

- قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18) الشعراء

وظننا (مفترين القول) في مقالات سابقة لنا أن سبب قبول هذا الفرعون الأول بعرض امرأته بأن تتخذ من موسى ولداً لها يعود إلى ضعفه الجنسي وعدم قدرته على الإنجاب (للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان: من هي زوجة موسى؟)

واختارت هذه المرأة الكريمة الإيمان على الكفر، فلم تطق العيش مع فرعون كامرأة له، فتوجهت بالدعاء إلى ربها بأن يبني لها بيتاً عنده في الجنة وينجيها من فرعون وعمله ومن القوم الظالمين:

- **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11) التحريم**

فانتقلت تلك المرأة إلى الرفيق الأعلى، وبقي موسى في آل فرعون يعيش في كنف أهل البيت الذين كفلوه:

- **وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (12) القصص**

وزعمنا في مقالة سابقة لنا أن أم موسى كانت قد تزوجت بعد وفاة زوجها الأول (والد موسى) بذلك الرجل الصالح الذي ظننا أنه هو نفسه نبي الله ذو الكفل.

للتفصيل انظر مقالتنا: لماذا قدم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه 14؟

فرجع موسى بذلك إلى حضن أمه:

- **وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (12) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (13) القصص**

وظننا كذلك أن هذا الرجل الصالح (وهو نبي الله ذو الكفل) هو نفسه والد هارون عليه السلام الذي تربطه بموسى صلة قرابة من طرف الأم:

- **قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94) طه**
- **وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (150) الأعراف**

كما افترينا القول أن ذا الكفل هذا هو نفسه شقيق امرأة فرعون الصالحة التي آثرت الموت على العيش كامرأة لفرعون الجبار في الأرض. (وسنرى لاحقاً بحول الله وتوفيقه تبعات هذا الظن على شخصية موسى وقصة موسى بأكملها مع فرعون.

دعاء: فالله أسأل أن يعلمني من لدنه علماً لا ينبغي لغيري إنه هو السميع العليم

كما افترينا القول بأنه عندما كبر موسى وتربى في أهل هذا البيت الكريم (بيت ذي الكفل) لم يطق ذرعاً بما كان يفعل فرعون من التقتيل في بني إسرائيل، فنصّب من نفسه الرجل الذي يريد الإصلاح ضد هذا الجبار المتكبر كما جاء على لسان من أراد موسى أن يبطش به:

- **فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19) القصص**

ولكن بسبب سطوة هذا الجبار في الأرض، لم يستطع موسى البقاء في المدينة، فهرب منها كثائر سياسي ضد حكم هذا الجبار المتسلط، فأصبح عدوا لموسى كما كان عدواً لله:

- **أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (39) طه**

لذا نحن نفتري الظن أن هذا ليس هو الفرعون الذي بعث الله موسى وهارون إليه ليقولا له قولا ليناً لأنه ببساطة كان عدواً لله. فلا أظن أن من كان عدوا لله يمكن أن يتذكر أو أن يخشى.

ولم يستطع موسى أن يدخل المدينة من جديد إلا يوم أن سمع بخبر موت هذه الطاغية.

نتيجة مفتراة: إن ما يهمنا من التعرض مرة أخرى لهذه التفاصيل المفتراة من عند أنفسنا هو الخروج بالاستنباط المفترى التالي: لم يكن لفرعون الأول هذا ذرية من نسله (أي لم يكن له ولد مادام أنه أصلاً قد قبل فكرة التبني التي طرحتها عليه امرأته) لكي يرث الحكم من بعده. لذا نحن نفتري القول بأنه ما أن مات هذا الفرعون الأول حتى راحت المدينة كلها في غفلة لأن الحكم لم ينتقل بسهولة إلى الفرعون الجديد مادام أنه ليس الوريث الشرعي لفرعون الأول. الأمر الذي نظن أنه دفع ببعض بني إسرائيل إلى محاولة الوقوف في وجه الفراعنة من جديد، فانقسم الناس إلى شيع. كما نتجرأ لنفتري القول بأنه ما أن سمع موسى بخبر موت هذا الطاغية حتى عاد ليدخل المدينة، وهناك وجد رجلين يقتتلان على هذا الأساس.

- **وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (15) القصص**

والمدقق في النص القرآني يجد أن موسى لم يتردد لحظة واحدة عن نصرة من هو من شيعته على الذي هو من عدوه "**فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ**".

فدبت (نتيجة موت ذلك الفرعون والتباطؤ في نقل الملك) الفوضى في المدينة، وليس أدل على ذلك من أن الرجل الذي كان يقاتل من بني إسرائيل في الأمس ضد آل فرعون لا زال يقاتل في اليوم التالي:

- فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (18) القصص

فنحن نفتري الظن بأنه لو كان الأمن يسود المدينة، ولو كان الحكم مستتباً، لما استطاع هذا الرجل من بني إسرائيل أن يبقى في حالة قتال مع من هم من شيعة فرعون طيلة هذه الفترة. فسطوة آل فرعون غالبة على بني إسرائيل:

- وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127) الأعراف

ولو دققنا في النصوص أكثر لوجدنا أنه عندما جاء الرجل الصالح ليحذر موسى من مغبة ما يمكن أن يحصل له، جاءه ليحذره من الملأ وليس من فرعون نفسه:

- وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20) القصص

السؤال: أين هو فرعون إذن؟

افتراء من عند أنفسنا: ذلك هو الوقت الذي مات فيه فرعون الطفولة، فكانت المدينة كلها في غفلة.

- وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (15) القصص

حيث كانت المدينة أشبه بالغابة يأكل القوي فيها الضعيف لغياب الحاكم صاحب الكلمة الفصل، وكان الناس ينتظرون من سيؤول الملك إليه، فكان الملك - في رأينا – من نصيب هذا الفرعون الجديد (فرعون الرسالة) الذي طغى، وهو صاحب العلم الذي حاول بعلمه أن يضل قومه أنفسهم وليس فقط بني إسرائيل:

- وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ (79) طه

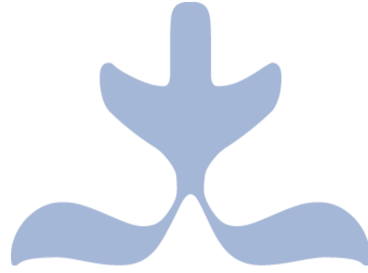
تساؤلات عن فرعون الرسالة

- من هو هذا الفرعون الثاني؟
- كيف وصل إلى الحكم؟
- ماذا فعل ببني إسرائيل؟
- هل فعلاً كان صاحب علم؟
- ما مصدر علمه؟

- الخ

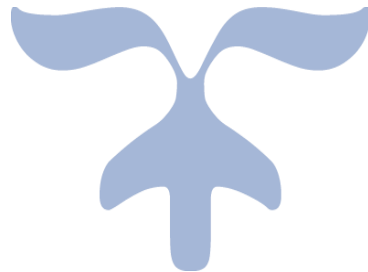
هذا ما سنتعرض له بحول الله وتوفيقه في الجزء القادم من هذا الكتاب،

دعاء: فالله وحده أسأل أن يؤتيني رحمة من عنده وأن يعلمني من لدنه علماً، وأسأله تعالى أن يعلمني الحق فلا أفتري عليه الكذب وأن لا أول عليه إلا الحق إنه هو العليم الحكيم.



الجزء الثالث

فرعون الرسالة



فرعون الرسالة

حاولنا في الجزء السابق من هذا الكتاب تقديم جملة من الافتراءات لإثبات زعمنا في الحاجة للتمييز بين فرعون الطفولة (من التقط موسى من اليم وتربى عنده ولبث سنين من عمره وفي آله) وفرعون الرسالة (من عاد إليه موسى برسالة من ربه ليقول له وأخوه هارون قولاً لينا). وافترينا الظن بأن أبناء بني إسرائيل كانوا يقتّلون زمن ذاك الفرعون الأول (فرعون الطفولة) لأن العداء بين آل فرعون وبني إسرائيل آنذاك كان عداء على الحكم. فبعد أن استتب الحكم لبني إسرائيل فترة من الزمن في مصر بعد هلاك يوسف جاءت – في ظننا- ثورة المصريين (الفراعنة أهل البلد) لتطيح بحكم ملوك بني إسرائيل، وما أن وصل الفراعنة إلى الحكم حتى أخذوا يقتّلون أبناء بني إسرائيل في أرض مصر لأنهم -ببساطة- كانوا أعداءهم السياسيين، فالمتتبع للنصوص القرآنية يجد أن تقتيل أبناء بني إسرائيل حينئذ لم يكن من قِبل فرعون فقط ولكن من قِبل آل فرعون:

- وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) البقرة
- وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127) الأعراف
- وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (141) الأعراف
- وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (6) إبراهيم
- إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) القصص

ولما كَبُر موسى ووجد أن آل فرعون لا يزالون يُعْمِلون التقتيل في أبناء بني إسرائيل نصّب من نفسه الشخص الذي يريد الإصلاح كما جاء على لسان من أراد موسى أن يبطش به:

- فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19) القصص

ولكن ذلك الفعل من موسى (أي الإصلاح) ما كان ليرضي فرعون وآل فرعون، فأصبح موسى عدوا لذاك الفرعون الذي كان أصلاً عدواً لله:

- أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (39) طه

افتراء من عند أنفسنا: لذا نحن نظن أن الله ما كان ليرسل رسولين لهذا القاتل وهو أصلاً عدواً له. فموسى – في ظننا- لم يأتي رسولاً لهذا الفرعون الذي كان في الأصل عدواً لله (عَدُوٌّ لِي) وأصبح بعد ذلك عدواً لموسى (وَعَدُوٌّ لَهُ). ولكنه جاء لفرعون آخر سنتحدث عنه بعد قليل بحول الله وتوفيقه.

خروج موسى من المدينة للمرة الأولى (إلى الأرض المباركة)

وفي خضم هذه الأحداث، تختار امرأة فرعون الموت على الحياة كي لا تبقى امرأة لهذا المتجبر عدو الله:

- **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11) التحريم**

وبموت هذه المرأة الطاهرة، لم يجد موسى من يكفّ عنه أذى آل فرعون (وليس أذى فرعون فقط)، فالمرأة أصلاً أنقذت موسى (بتدبير من الله) من آل فرعون الذين كانوا سيقتلونه وهو لازال طفلاً:

- **وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9) القصص**

فالمدقق بالنص يجد أن الذي كاد أن يقتل موسى وهو لازال طفلاً هم آل فرعون (وليس فرعون نفسه)، لذا جاء الزجر للقوم من المرأة نفسها للقوم **"لَا تَقْتُلُوهُ"**. لذا كانت هذه المرأة هي المدافعة عن موسى في وجه آل فرعون. فما كان آل فرعون يستطيعون إلحاق الأذى بموسى وهذه المرأة على قيد الحياة.

ولو تدبرنا النص جيداً لوجدنا أنها استخدمت حجة المنفعة الجماعية لتسكت غضب القوم **"عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا"**. ولو حاولنا ربط ما جاء في هذه الآية الكريمة بالسياقات القرآنية الأخرى ذات الدلالة هنا لوجدنا أنها الحجة نفسها التي استخدمها من اشترى يوسف في أرض مصر:

- **وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (21) يوسف**

فكان عندها التمكين ليوسف في أرض مصر **"وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ"** والتعليم **"وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ"**

افتراء من عند أنفسنا: وبالمنطق نفسه نقول أن امرأة فرعون قد استخدمت الحجة نفسها للحفاظ على موسى (عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا)، لذا لا نتردد أن نفتري الظن بأن التمكين لموسى حصل آنذاك، وكان تعليمه أيضاً هناك. ولكن هذا التمكين لم يكن يعني استتباب الأمر لموسى على الكليّة، فقد حصل التمكين ليوسف (من قبله) في الأرض نفسها، ولكن ذلك لم يمنع أن يسجن يوسف في أرض مصر.

- **ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ (35) يوسف**

لذا نحن نفتري الظن أنه بدل أن يسجن موسى في أرض مصر (كما كان نصيب يوسف) هرب من المدينة كلياً بعد وفاة تلك المرأة التي كانت تدافع عنه لتحميه من آل فرعون، فموسى لم يجد بداً من أن يخرج من المدينة مادام أن أقرب الناس إليه قد مات، ولم يعد موسى إلى المدينة – في ظننا- إلا بعد أن سمع بموت هذا الطاغية (الفرعون الأول)، وكان ذلك على حين غفلة من أهل المدينة.

افتراء من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن موسى عندما خرج من المدينة في المرة الأولى ذهب إلى الأرض المقدسة وهناك بلغ أشده وآتاه الله الحكم والعلم.

- **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14) القصص**

وما أن يسمع موسى بخبر هلاك ذاك المتجبر حتى يعود إلى المدينة وهي لازالت في حالة فوضى سياسية لأن ذاك الفرعون لم يكن له ولد من صلبه، ليكون وريثاً شرعيا لينتقل العرش إليه بسهولة. فيبقى الناس في المدينة على حين غفلة حتى يصل فرعون جديد إلى الحكم، وفي هذه الأثناء يدخل موسى المدينة من جديد، ليجد أن بني إسرائيل قد حاولوا الوقوف في وجه الفراعنة من جديد، فكانت المدينة شيعاً:

- **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) القصص**

وما أن يدخل المدينة حتى يجد من يستنصره من شيعته (من بني إسرائيل) على من هو من عدوه (من آل فرعون المناصبين لهم العداء)، فما يتردد موسى عن نصرته، فيقوم بوكز الرجل الذي من عدوه فيقضي عليه:

- **وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (15) القصص**

ويأتيه الرجل الصالح (الذي سنرى لاحقاً قصته بحول الله وتوفيقه) ليحذره من الملأ الذين يأتمرون به ليقتلوه:

- **وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20) القصص**

فيخرج موسى من المدينة خائفاً ليس لينجو من فرعون وإنما لينجو من القوم الظالمين:

- **فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21) القصص**

ولو حاولنا ربط ما جاء في هذه الآية الكريمة على لسان موسى الذي يطلب النجاة مع ما قالت امرأة فرعون عندما طلبت النجاة:

- وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11) التحريم

لوجدنا أن حديث امرأة فرعون تطلب النجاة من:

(1) فرعون وعمله.

(2) من القوم الظالمين.

بينما جاء حديث موسى ليطلب النجاة من القوم الظالمين فقط، ليكون السؤال على النحو التالي: أين إذن فرعون الآن؟ ولم لم يطلب موسى النجاة من فرعون؟ ولم طلب النجاة من القوم الظالمين فقط؟

رأينا: لقد كان فرعون الأول في عداد الأموات وكانت المدينة لازالت بدون حاكم، وكان الأمر برمته بيد القوم الظالمين (أي آل فرعون).

خروج موسى من المدينة للمرة الثانية (إلى مدين)

وما أن يقتل موسى الرجل ويأتيه الرجل الصالح ليحذره من الملأ (القوم الظالمين) حتى يخرج موسى من المدينة مرة أخرى، ونحن نفتري الظن بأن موسى لم يمكث في المدينة هذه المرة سوى ليلة واحدة، فموسى يدخل المدينة فيقتل رجلاً:

- وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (15) القصص

فيقضي ليلته في المدينة، ولكن يحل عليه الصباح وهو خائف يترقب:

- فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (18) القصص

وفي اليوم التالي يستصرخه ذلك الرجل مرة أخرى "**فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ**" فيفهمّ موسى بقتل رجلاً آخر من آل فرعون لولا أن ذلك الرجل هو من نبّه موسى إلى سوء فعلته كما فعلها بالأمس:

- فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19) القصص

وهنا يعود موسى إلى رشده على الفور، فلا يقتل الرجل لأن موسى أراد أن يكون مصلحاً في الأرض ولم يرد أن يكون جباراً فيها. ويأتيه الرجل الصالح ليحذره من مؤامرة الملأ من آل فرعون:

- وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20) القصص

وهنا ينطلق موسى ليخرج من المدينة على الفور، ولكنه لا يتجه هذه المرة إلى الأرض المباركة من حيث أتى بالأمس، ويتخذ طريقاً جديدة، ويدعو ربه أن يهديه سواء السبيل، فتحط به الرحلة الجديدة في أرض مدين هذه المرة:

- **وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (22) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) القصص**

وهناك يتزوج موسى ويمكث سنين من عمره في مدين:

- **قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ۖ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27) قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (28) القصص**

وما أن ينهي الأجل حتى يسير بأهله قاصداً الأرض المباركة باحثاً عن الهدى.

فلقد افترينا سابقاً أن موسى لم يكن قاصدا العودة إلى أرض مصر بعد أن أنهى الأجل في مدين، فموسى لم يكن ليضع نفسه وأهله معه في يد آل فرعون لقمة سائغة لهم، فعندما أمره الله بالذهاب إلى أرض مصر:

- **وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ (11) الشعراء**

تردد موسى قليلا لأنه لم ينسى فعلته التي فعلها، فالقوم لهم عليه ذنب باعتراف موسى نفسه:

- **وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (14) الشعراء**

فيجد ذلك عند النار في الواد المقدس.

- **إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (10) طه**
- **فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29) القصص**

وهناك يجد موسى ربه منادياً له:

- **فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (30) القصص**

ليكلّفه بمهمة الذهاب إلى فرعون بعد أن يجري له الآيات:

- وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ۖ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (32) القصص

فيطلب العون من الله بأن يرسل إلى هارون خوفاً من الذنب الذي لآل فرعون عليه:

- قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۖ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (34) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (35) القصص

فرعون الرسالة

نحن نظن أن الله قد أرسل لهذا الفرعون الثاني رسولين لأنه قد طغى:

- اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (24) طه
- اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (43) طه
- اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (17) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (19) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ (20) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ (22) فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ (24) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ (25) النازعات

افتراء من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن الله أرسل رسولين لهذا الفرعون الذي طغى، وهنا تبدأ قصة موسى مع هذا الفرعون الجديد، الذي نزعم أنه لم يقتّل أبناء بني إسرائيل ولكنه عبّدهم.

- وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22) الشعراء

- تساؤلات

➢ فمن هو هذا الفرعون الجديد الذي عبّد بني إسرائيل؟

➢ ولماذا طغى؟

➢ ولماذا أرسل الله إليه رسولين بدلاً من رسول واحد؟

➢ ولماذا أمر الله موسى وأخاه هارون أن يقولا له قولاً لينا؟

➢ وهل كان من الممكن أن يتذكر أو أن يخشى؟

➢ ولماذا أسلم هذا الفرعون عندما أدركه الغرق؟

➢ ولماذا نجّاه الله ببدنه؟

➢ ولماذا جعله الله آية للناس؟

- الخ.

هذه هي الأسئلة التي سنحاول النبش فيها في هذا الجزء من الكتاب.

دعاء: سائلين الله وحده أن يعلمنا من لدنه علماً لا ينبغي لغيرنا، وأن يعلمنا قول الحق الذي نقوله فلا نفتري عليه الكذب إنه هو السميع المجيب.

فرعون الرسالة: من هو هذا الرجل؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن هذا الفرعون كان رجلاً صاحب علم، ولكنه استخدم علمه بالدعوة لنفسه، فكان هو من أضل قومه وما هدى.

- وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ (79) طه

لذا نحن نظن أن السبب الذي من أجله بعث الله لهذا الفرعون رسولين هو أنه ببساطة كان قد طغى:

- اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (24) طه
- اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (43) طه
- اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (17) النازعات

ونحن نظن أن الطغيان يكون بإخفاء الحقيقة ولا يتم ذلك إلا عن علم:

- اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ (7) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (8) العلق

ولو راجعنا هذه السورة الكريمة لوجدنا أن الخيار أمام من علّمه الله يكون بواحدة من اثنتين:

1. أن يكون على الهدى ويأمر بالتقوى:

- أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (9) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (10) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (11) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (12) العلق

2. أو أن يكذب ويتولى:

- أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (13) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (14) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (15) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (16) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (17) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (18) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ۩ (19) العلق

السؤال: إلى أي الفريقين اختار فرعون أن ينتمي: إلى من يأمر بالتقوى أم إلى من كذب وتولى؟

جواب: لنقرأ الآيات الكريمة التالية الخاصة بفرعون:

- **فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ (47) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (48) طه**

فكانت النتيجة على النحو التالي:

- **اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (17) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (19) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ (20) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (21) النازعات**

نتيجة مفتراة: لو تابعنا السياقات الخاصة بفرعون لوجدنا أنها تبين لنا أن العلم كان حاضراً عنده على الدوام، فقبل مجيء موسى بالآيات كان فرعون كان قد طغى فأضلّ قومه وما هدى، ومن بعد مجيء موسى بالبينات اختار فرعون أن يكذبها عن علم.

الدليل:

أولاً، ها هو فرعون يسأل موسى مباشرة عن القرون الأولى:

- **قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ (51) قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (52) طه**

افتراء من عند أنفسنا: لو لم يكن عند ذلك الرجل علماً، لما جادل موسى في ذلك.

ثانياً، ها هو موسى يرد عليه بمنتهى العقلانية والعلم:

- **قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (52) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّىٰ (53) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ (54) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (55) طه**

ثالثاً، لا يتردد موسى أن يقدم له الآيات كلها التي جاءه بها من عند ربه:

- **وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (56)**

رابعاً، ها هو موسى يريه الآية الكبرى:

- **فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ (20) النازعات**

ولكنّه يكذّبها ويأبى إلا أن يكون ممن تولى وكفر، وينسب ذلك كله إلى السحر:

- **قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ (57) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (58) طه**

نتيجة خطيرة جداً: إذن، نحن نظن أن فرعون هذا كان رجلاً صاحب علم، ولكن بدل أن يستخدم هذا العلم في هداية قومه كان هو سبب ضلالهم وعدم هدايتهم.

فما هو مصدر علم هذا الرجل؟ وكيف اكتسب هذا الرجل العلم؟

تصورات من خيالنا: نحن نظن أن الفرعون الأول الذي أطاح بحكم ملوك بني إسرائيل في أرض مصر كان رجلاً عسكرياً، وكان همّه الأول والأخير (كما هو حال العسكر على مر العصور) الوصول إلى السلطة، فما كان يشغله شيء سوى استتباب الحكم له، وكان ذلك غير ممكن إلا بالقضاء المبرم على بني إسرائيل، فأخذ وآله يقتّلون أبناء بني إسرائيل ويستحيون نساءهم، فانتقل حكم مصر بأكمله إلى آل فرعون.

افتراء خطير من عند أنفسنا: نحن نظن أنه بانتقال الحكم إلى آل فرعون انتهى إليهم جل (إن لم يكن كل) ما كان موجودا في بيوت ملوك بني إسرائيل في أرض مصر. فسيطر آل فرعون على مقتنيات بني إسرائيل القديمة التي ورثوها من أيام حكم يوسف.

ولكن ما فائدة هذا الظن؟

رأينا: لا يجب أن ننسى أن يوسف نفسه هو وريث آل إبراهيم. فوالده يعقوب وجدّه إسحاق هما من جعل الله في ذريتهم النبوة (حيث انقطعت من بيت إسماعيل). أليس كذلك؟

- **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (27) العنكبوت**

نتيجة مفتراة: إن منطقنا المفترى هذا يسوّق للنتيجة الخطيرة جداً التالية: لقد كان في بيت يوسف وملوك بني إسرائيل من بعده في أرض مصر مقتنيات آل إبراهيم من النبوة والكتاب.

لاحظ أن يوسف طلب من إخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين:

- **اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (93) يوسف**

وما أن وصل الفراعنة إلى سدة الحكم على أنقاض تلك البيوت حتى استطاعوا الوصول إلى تلك المقتنيات وبالتالي حيازتها والتحكم بها.

وسنرى لاحقاً (بحول الله وتوفيقه) ما فعل آل فرعون ببيوت بني إسرائيل في أرض مصر.

دعاء: فالله اسأل أن يأذن لنا الإحاطة بعلم من لدنه إنه هو السميع العليم.

وهنا تبدأ – برأينا- المرحلة الأصعب في تاريخ بني إسرائيل، والمتمثلة ليس فقط في ضياع ميراث الحكم الذي وصل إليهم عن طريق يوسف، بل بالأشد من ذلك خطورة وهو ضياع جزء كبير من ميراث بيت النبوة.

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن ميراث النبوة (الذي كان موجوداً في بيوت ملوك بني إسرائيل في أرض مصر) قد انتهى إلى بيوت آل فرعون. فكان ذلك في ظننا المفترى هو مصدر علم هذا الفرعون الطاغية، لا بل ومصدر علم أصحاب النفوذ في آل فرعون وهم فرعون نفسه وقارون وهارون.

- **تبعات هذا الظن**

أهل العلم من آل فرعون: فرعون وقارون وهارون:

أولاً، نحن نفتري الظن أن هذه الأسماء الثلاثة هي أسماء فرعونية تنتمي إلى عائلة الحكم من أهل مصر الأصليين (أي الفراعنة).

فلقد افترينا سابقاً القول أن هارون هو أخ موسى غير الشقيق (أي من أمه)، وهو من تربى موسى معه يوم أن كان في بيوت بني إسرائيل. فموسى لا يحمل اسماً فرعونياً لأننا نظن أنه لم يكن من آل فرعون وإن كان قد تربى في بلاطهم.

نحن نظن أن اسم موسى له علاقة بالماء، فالغلام وجد في الماء، ولكنه أيضاً عاش على اليابسة. فهو الطفل الذي لم تغرقه الماء، فكان بكلمات بسيطة برمائياً (أي طفل البر والماء أو amphibian باللسان الأعجمي)، وسنتحدث عن أسماء الأشخاص الذين جاء ذكرهم في القرآن بشيء من التفصيل لاحقاً بحول الله وتوفيقه.

دعاء: فالله أسأل أن يعلمني من لدنه علماً لا ينبغي لغيري إنه هو السميع المجيب.

ثانياً، نحن نفتري الظن أن هناك صلة قرابة قوية جداً بين فرعون وقارون (ونظن أنهما ربما كانا إخوة، تربيا معاً)

ثالثاً، نحن نظن أن هناك صلة قرابة بين هارون من جهة (أخ موسى غير الشقيق) وفرعون وقارون من جهة أخرى، (ونظن أنهم أبناء عمومة).

تخيلات من عند أنفسنا: بعد أن سوّقنا جملة من الافتراءات من عند أنفسنا، دعنا نتصور المشهد على النحو التالي:

بعد أن مات الفرعون الأول (الذي قاد الثورة ضد حكم ملوك بني إسرائيل في أرض مصر) لم يكن له وريث من صلبه (فامرأته تبنت موسى ولداً لهما):

- وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9) القصص

فحرّم الله على موسى المراضع حتى أعاده إلى حضن أمه:

- وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (12) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (13) القصص

وتربى موسى في أهل البيت الذين كفلوه:

- وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (12) القصص

وكان أهل ذلك البيت هم – في ظننا- بيت نبي الله ذي الكفل، الذي آثر أن لا يظهر إسلامه ليربي موسى بنفسه، فتربى موسى في كنف ذي الكفل والد هارون، فنشأ موسى مع هارون في طفولته:

- وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (34) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (35) طه

فكانت تلك هي الفترة التي مكّن الله لموسى في الأرض كما كان حال يوسف بسبب حماية امرأة فرعون له:

- وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9) القصص

فانظر – عزيزي القارئ- التقابل مع حالة يوسف:

- وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (21) يوسف

نتيجة: نحن نظن أن موسى تربى مع هارون في بيت واحد، ويدلل على ظننا هذا ما جاء في الآيات الكريمة التالية:

- وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (34) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (35) طه

ولكن بالمقابل كان هناك بيت آخر من بيوت آل فرعون يسكنه فرعون (الجديد) وقارون. ولو راقبنا السياق القرآني التالي لوجدنا أن ذكر قارون قد سبق ذكر فرعون نفسه:

- وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (39) العنكبوت

السؤال: ما هي المكانة التي كان يتبوءها قارون ليذكر في سياق قرآني سابقاً لفرعون نفسه؟

رأينا: لا أظن أن هذا ممكن إلا أن يكون هناك صلة قرابة بينهما أقوى من المكانة السياسية لكل منهما. لذا نحن نفتري الظن بأنه لما كان فرعون هو "ربهم" المطاع، لذا يستحيل أن يتقدم شخص عليه ما لم يكن له مكانة خاصة جداً تؤهله لذلك السبق في الذكر.

ولو راقبنا النص القرآني لوجدنا أن هؤلاء جميعاً (موسى وهارون من جهة) و (قارون وفرعون) من جهة أخرى كانوا أصحاب علم. ولكن لماذا؟

رأينا: لأنهم ببساطة هم من حظّ في بيوتهم ما تبقى من ميراث النبوة والكتاب من بيوت الملوك (بني إسرائيل). ومن هناك حصل كل منهم على علمه. ولكن الفرق الوحيد يكمن في أنه في حين أن موسى وأخاه هارون لم يستخدما علمهما لخدمة مصالحهم الذاتية الشخصية، كان ذلك ما بدر من فرعون وقارون.

تخيلات من عند أنفسنا: حصل هؤلاء الأربعة (موسى وهارون من جهة وفرعون وقارون من جهة أخرى) على العلم المتوارث من بيت النبوة في بيوت ملوك بني إسرائيل. ولما مات الفرعون الأول أصبح هناك خلاف على الحكم، فبقيت المدينة على حين غفلة. وكان موسى خارجاً منها، فكان الصراع على الحكم – في رأينا- منحصراً في هؤلاء الثلاثة (هارون وفرعون وقارون). ولمّا كان هارون هو الحلقة الأضعف لأن موسى كان خارجاً مطروداً، لم يجد من يسانده للوصول إلى الحكم خصوصاً إذا ما أخذنا بعين الاعتبار موضوع العداوة لبني إسرائيل، لذا كانت الرغبة جامحة عند آل فرعون في أن يكون الحكم من البيت الثاني (قارون وفرعون)، لأنهم برأينا وهم الأشد عداوة لبني إسرائيل، فذهبوا إلى اقتسام النفوذ، فكان الحكم من نصيب فرعون وكانت الثروة من نصيب قارون، ولم يستطع هارون الوقوف في وجههم، فبقي صامتاً (كحالة والده ذي الكفل من قبله) حتى جاءته الرسالة بطلب من موسى المباشر من ربه.

كيف استخدم كل منهم العلم الذي تحصل لهم من ميراث النبوة؟

فرعون: طغى "اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ"، فكتم العلم عن القوم (وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ)

قارون: بغى "إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ"فأنكر مصدر العلم الذي بواسطته كان يملك الثروة العظيمة ونسبه لنفسه "قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي".

هارون: حاول الإصلاح بالقول "وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا"، وبقي ينتظر ما يأتيه من أوامر من ربه.

موسى: حاول الإصلاح بالفعل، فخرج باحثاً عن الحل، فهرب من المدينة في المرة الأولى وخرج منها في المرة الثانية، حتى جاءه التكليف المباشر من ربه.

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نتخيل أن ميراث النبوة الذي كان متواجداً في بيوت ملوك بني إسرائيل انتهى إلى بيتين من بيوت آل فرعون وهما:

1. البيت الذي كان يسكنه موسى مع هارون (بيت ذي الكفل)
2. البيت الذي كان يسكنه فرعون وقارون

ولما كان ذو الكفل رجلاً صاحب رجاحة عقل استخدم ذلك العلم بالطريقة الصحيحة، ولنرقب السياق القرآني التالي الذي يصور منطق هذا الرجل:

- وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (30) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (31) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (32) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (34) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (38) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (39) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (40) وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (42) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (43) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (44) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ۖ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (45) غافر

لنخلص إلى ملاحظتين اثنتين هما:

1. رجاحة عقل هذا الرجل المؤمن الذي يكتم إيمانه من آل فرعون وقوة حجته وهي التي - برأينا- لا تقل عن فصاحة هارون، فلا يستطيع قول مثل هذا الكلام إلا إنسان يملك الفصاحة والرأي والحجة في قومه.

2. العلم الغزير الذي توافر لهذا الشخص، فهو يتحدث عن ما حل بالأقوام السابقة "**مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ**"، كما يتحدث عن يوسف نفسه "**وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ**"، كما يدعو القوم إلى النجاة "**وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ**"

فكان الخطاب في بيت هذا لرجل (حيث يسكن هارون وموسى) خطاباً إيمانياً.

لكن – بالمقابل – كان الخطاب في البيت الآخر (حيث يسكن قارون وفرعون) خطاب المتكبر المتسلط الذي لا يرى إلا نفسه وينسب العلم لنفسه:

- **... قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29) غافر**
- **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78) القصص**

ولكن يبقى السؤال قائماً: من أين جاء لهم العلم؟ وما هو العلم الذي جاءهم؟

قبل الحديث عن علم فرعون وقارون لابد من التعريج أولاً على قصة امرأة فرعون التي أنقذت (بتدبير إلهي) موسى من القتل على أيدي آل فرعون، لنطرح التساؤل التالي على الفور: كيف أسلمت هذه المرأة؟ ولماذا آثرت الموت على أن تبقى بصحبة ذلك المتجبر؟ ألم تكن هي السيدة الأولى؟ ألم يكن أمرها مطاع؟

فكيف بها تتخلى عن كل ذلك النعيم وتؤثر الموت على الحياة؟

رأينا: نحن نظن أن الإجابة على هذا التساؤل ربما يمكن استنباطها من الآية الكريمة التالية:

- **وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9) القصص**

فالمدقق في النص يجد أن المرأة تستخدم الحجة نفسها التي استخدمها من اشترى يوسف في أرض مصر:

- **وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (21) يوسف**

ولا نجد هذه الحجة قد استخدمت من قبل شخص آخر في مكان آخر غير هذين السياقين اللذان يتحدثان عن "كفالة" طفل (لا أهل له يتولونه)، فيوسف وجد نفسه في أرض مصر لا أحد يدعي أنه ابن له، وهكذا كان حال موسى عندما التقطه آل فرعون من اليم. لنطرح عندها السؤال التالي: لم استخدمت المرأة حجة ذلك لرجل نفسها؟

رأينا: نحن نظن من حيث المبدأ أن موقف هذه المرأة التي اتخذت من موسى ولداً لها مطابق تماماً لموقف ذاك الرجل الذي اتخذ من يوسف ولد له في أرض مصر، فكلاهما لا ولد ولا ذرية له، يعثر على غلام بالصدفة (كما قد تبدو للوهلة الأولى)، فيتخذ منه ولد له. ولكن يبقى السؤال قائماً: لم استخدمت المرأة الحجة نفسها؟

رأينا: نحن نظن أن المرأة ما كانت لتستخدم تلك الحجة لو لم تكن على علم تام بقصة يوسف في أرض مصر، ونحن نظن أن علم هذه المرأة لا يقل عن علم ذلك الرجل الذي اتخذ من يوسف ولد له، ولكن كيف؟

رأينا: نحن نعلم أن الحادثتين حصلتا في أرض مصر، ونحن نعلم أيضاً أن ملك مصر قد انتقل إلى بني إسرائيل:

- **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (20) المائدة**

وكان ذلك بسبب يوسف:

- **رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101) يوسف**

ثم جاءت – في ظننا- ثورة الفراعنة لتطيح بحكم الملوك من بني إسرائيل في أرض مصر، فأصبح الحكم فرعونياً:

- **وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) البقرة**
- **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (6) إبراهيم**

وقد ذكرنا آنفاً أنه عندما انتهى الحكم إلى آل فرعون، سيطر آل فرعون ليس فقط على الملك ولكن أيضاً على مقتنيات ملوك بني إسرائيل، فكان الحكم والعلم.

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن الحكم قد أصبح بيد فرعون الذي كان يحاول أن يبسط سيطرته على أرض مصر، وحصل آل فرعون على جزء كبير من مقتنيات ملوك بني إسرائيل، فانتهى جزء كبير من العلم إلى يد آل فرعون، ونحن نكاد نجزم الظن بأن ذلك القسط من العلم قد انتهى إلى يد ذي الكفل وامرأة فرعون نفسها.

وقد افترينا سابقاً أن هناك رابطة دم قوية بين امرأة فرعون الأول وذي الكفل (ذلك الرجل المؤمن من آل فرعون الذي يكتم إيمانه)، وظننا أن امرأة فرعون هي أخت نبي الله ذي الكفل الذي تكفل موسى وتربى في بيته.

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن ذلك العلم الذي انتهي إليهما كان سببا رئيسياً في هدايتهما، وليس أدل على ذلك مما جاء على لسان ذي الكفل (الرجل الذي يكتم إيمانه من آل فرعون) ليدعو قومه إلى طريق النجاة:

- وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (30) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (31) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (32) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (34) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (38) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (39) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (40) وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (42) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (43) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (44) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ۖ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (45) غافر

فهذا – في ظننا- كلام لا يصدر إلى من كان عنده علم من الكتاب.

ولكن يبقى البحث هنا منصباً على حجة امرأة فرعون نفسها:

- وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9) القصص

فالمتدبر للنص يجد أن المرأة تضع واحد من خيارين وهما:

1. عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا

أَوْ

2. نَتَّخِذَهُ وَلَدًا

فما معنى هذا الكلام؟ كيف سينفع طفل كهذا آل فرعون؟ ولماذا ستتخذ المرأة من هذا الغلام ولدا؟

معنى حرف العطف أَوْ

غالباً ما خلط الناس – في رأينا- بين حروف العطف الثلاثة التالية التي تستخدم للحديث عن التثنية (أي وجود طرفين أحدهما يسبق حرف العطف والآخر يلحق به، أو ما يرغب أهل اللغة بتسميته بالمعطوف والمعطوف عليه):

1. **و**: نحن نظن أن حرف العطف الأول (و) يدل على الجمع بين الطرفين، ليحصلا معاً، لأن فيه معنى الإضافة كما في الأمثلة التالية:

- ..... فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (54) النساء
- وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (68) الزمر

2. **أو**: أما حرف العطف (أو) فيفيد التخيير بأحد الطرفين (أو كلاهما معاً) كما في الأمثلة التالية:

- قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (24) سبأ
- ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74) البقرة
- إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (158) البقرة
- لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (286) البقرة
- وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (167) آل عمران
- فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (195) آل عمران

- وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (12) النساء
- وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (66) النساء
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا (71) النساء
- وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (112) النساء
- لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (114) النساء
- وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (128) النساء
- إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7) النمل

3. **أم**: بينما يفيد حرف العطف (أم) حتمية وجود أحد الطرفين دون الآخر كما في الأمثلة التالية:

- قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ۖ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (4) الأحقاف
- أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140) البقرة
- وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ (193) الأعراف
- قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55) الأنبياء
- قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40) النمل
- يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (59) النحل

لهذا نحن نفتري الظن أن امرأة فرعون كانت تقصد (كما الرجل الذي اتخذ من يوسف ولدا) أن يتحقق لها أحد الأمرين أو الأمرين معاً وهما:

1. أَن يَنفَعَنَا
2. نَتَّخِذَهُ وَلَدًا

ما هي المنفعة؟

أولاً، نحن نظن أن المنفعة قد تكون مادية دنيوية أو دينية أخروية:

- وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (100) البقرة
- وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (123) البقرة
- إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164) البقرة

ثانياً، نحن نظن أن ما ينفع يمكث في الأرض مصداقاً لقوله تعالى:

- أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (17) الرعد

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن امرأة فرعون كانت تظن أن الذي يمكث في الأرض هو ما يمكن أن ينفع الناس، وأظنها أنها أرادت أن تكون وراثة الأرض في موسى لأنها ظنت أن فيه النفع بالضبط كما كان الحال بالنسبة ليوسف عندما أراده من اشتراه من مصر أن يكون نافعاً لهم. فمكث يوسف في تلك الأرض فلم يخرج منه، وكان في ذلك تمكين ليوسف في الأرض.

- وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (21) يوسف

سؤال: لماذا وضعت المرأة خياراً آخر غير المنفعة؟ أي لماذا أرادت أن تتخذ من موسى ولدا؟ لماذا قالت: أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا؟

نحن نظن أن المرأة كانت على ثقافة دينية واسعة، فلا أظنها تغفل عن قول الحق في الآيات الكريمة التالية:

- يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) الشعراء
- لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ۚ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (3) الممتحنة

لنصل إلى الافتراء الخطير جداً التالي: نحن نظن أن المرأة كانت تريد البقاء على حياة موسى لمنفعة دنيوية بحتة، فما هي تلك المهمة التي تريدها المرأة لموسى؟ وكيف تحقق لها ما أرادت؟

هذا ما سنحاول الإجابة عليه لاحقاً بحول الله وتوفيقه، لكننا نريد أن نعود الآن إلى موضوع علم فرعون وقارون، لنطرح سؤالاً واحدا ألا وهو: ما هو مصدر علم فرعون الرسالة وعلم قارون صاحب الكنوز الوفيرة.

علم فرعون وقارون

السؤال: من أين جاء لفرعون (الرسالة) العلم؟ ومن أين جاء لقارون العلم؟ وما هو ذلك العلم الذي يعطيهما الصلاحية في قتل الأنفس البشرية؟ وما هو العلم الذي يمكنهم من الحصول على الثروة الطائلة؟

رأينا: للإجابة على هذا السؤال لا بد من العودة بالقصة إلى بدايتها وطرح الأسئلة تباعاً، ولابد من ربط الأمر في جميع سياقات القرآن ذات الدلالة.

افتراء خطير جداً: نحن نظن أن فهم ماهية علم فرعون (الرسالة) وقارون تتطلب منا طرح تساؤلات حول قصة موسى مع صاحبه الذي ذهب إليه موسى ليطلب العلم عنده:

- قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66) الكهف

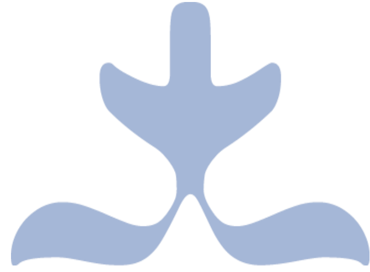
لنجد أن في قصة ذاك الرجل علم بنبوءة بما سيحصل (قصة السفينة) وفيها قصة قتل نفس (الغلام) وفيها قصة كنز (اليتيمين).

السؤال: كيف حصل ذلك الرجل على العلم حتى عرف بما سيحل بالسفينة فخرقها، أو مصير الغلام فقتله، أو الكنز الدفين فأخفاه لأصحابه؟ هل نكتفي برد ذلك إلى علم الغيبيات والمسلمات التي لا تسمن ولا تغني من جوع؟ فلماذا نتقبل قتل الرجل للغلام ولا نتقبل قتل فرعون لأبناء بني إسرائيل؟ وكيف نتفهم معرفة الرجل على الكنز الدفين ولا نتقبل حصول قارون على الكنوز؟ الخ.

للإجابة على هذه التساؤلات لابد من التعرض لشخصية ذاك الرجل الذي ذهب موسى بنفسه ليطلب صحبته ولم يستطع الصبر عليها.

هذا ما سنحال أن نقحم أنفسنا فيه في الجزء القادم من هذا الكتاب تحت عنوان "قصة موسى الجزء الرابع: باب العزير".

دعاء: فالله وحده أسأل أن يؤتيني وعلياً رحمة من عنده وأن يعلمنا من لدنه علماً لا ينبغي لأحد من بعدنا إنه هو السميع العليم.



الجزء الرابع

باب العزير

(1)



باب العزير (1)

لنبدأ بالسؤال الأول التالي: من هو صاحب موسى الذي خرق السفينة ليحافظ عليها لأصحابها المساكين وقتل الغلام الذي لقيآه في الطريق وأقام الجدار على الكنز فحافظ عليه لليتيمين؟

- **فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) الكهف**
- **فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (74) الكهف**
- **فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77) الكهف**

وبكلمات أخرى نقول: من هو ذلك الرجل الذي كدّ موسى مع فتاه في طلبه ليتبعه موسى فيتعلم منه؟

- **قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66) الكهف**

جواب: إنه بكل بساطة من أتاه الله رحمة من عنده وعلّمه من لدنه علماً كما جاء في الآية التي تسبق طلب موسى إتباعه ذلك الرجل، فانظر - عزيزي القارئ- إلى السياق الأوسع:

- **فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (65) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66)**

إذن هو:

1. عبد من عباد الله (**عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا**) و
2. أتاه الله رحمة من عنده (**آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا**) و
3. علّمه من لدنه علماً (**وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا**)، أليس كذلك؟

السؤال: فمن هو ذلك الرجل إذن؟

بادئ ذي بدء نحن نطلب من القارئ الكريم أن لا يرضى بما سنفتريه من قول بعد هذه اللحظة إلا إن ظن أن الدليل الذي نقدمه من كتاب الله يدعمه، لأن في كلامنا من الخطورة ما يمكن أن يبتعد بنا كثيراً عن ما ورثناه من عقائد آبائنا وأجدادنا. لذا نرجو أن ينظر القارئ الكريم إلى ما نفتري من قول بعين المتفحص المنتقد وليس بعين التابع المقلّد، لأن في كلامنا من الافتراءات الخطيرة (ربما) ما لم يجرؤ عليها أحد قبلنا، ونطلب من القارئ الكريم أن يبحث عن الثغرات والهفوات التي تبطل زعمنا، فإن هو وجد ما يمكن أن يدحض افتراءاتنا فلا يتردد أن يقدم لنا النصيحة، وليكن على يقين بأننا على استعداد على التخلي عن مواقفنا إن ثبت بطلانها، أما إذا لم يثبت ما يبطل ما نزعم من قول فهو بلا شك عقيدتنا مهما ابتعدت عن موروثات آبائنا وأجدادنا، لأن ملخص عقيدتنا هو ما جاء في قوله تعالى:

- .... قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (64) النمل

دعاء: فالله وحده نسأل أن يهدينا سواء السبيل وأن يعلمنا الحق الذي نقول فلا نفتري عليه الكذب إنه هو السميع المجيب.

أما بعد،

افتراء خطير جداً جداً من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن الرجل الذي جاءه موسى ليطلب العلم عنده هو العزير الذي جاء ذكره في الآية الكريمة التالية.

- وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (30) التوبة

كلام خطير جداً، أليس كذلك؟ فأين الدليل عليه؟

الدليل: ربما يمكن استنباط الدليل على زعمنا الخطير هذا بعد طرح جملة من التساؤلات مثل:

- لم قالت اليهود أن "عزير" – على وجه التحديد- ابن الله؟ وهل فعلاً لازالت اليهود تزعم أن هناك ابن لله اسمه "عزير"؟
- لِم لم تدعي اليهود أن موسى (نبيهم) هو ابن الله كما فعلت النصارى؟
- ومن هذا الشخص المسمى "عزير" الذي ظن اليهود أنه هو ابن الله؟ وكيف وصل هذا الرجل إلى تلك المرحلة التي تؤهله لأن يظن الناس به مثل هذا الظن؟

رأينا: ربما نستطيع أن نتفهم وجهة نظر النصارى الذين ظنوا (إفكاً من عند أنفسهم) أن المسيح هو ابن الله، لأنهم ببساطة نسبوا البنوّة لنبيّهم، فهم يظنون أن عيسى بن مريم (نبيهم) هو نفسه ابن الله، ولربما جاء ظنهم ذاك مدفوعاً بما كان يقوم به المسيح عيسى ابن مريم على مرأى ومسمع من القوم. فعيسى كان مثلاً يحيي الموتى (بإذن الله) ويشفي الأكمه والأبرص (بإذن الله)، وينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم:

- وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (49) آل عمران

والأهم من ذلك كله أن عيسى نفسه هو ابن مريم بنت عمران التي لم يمسسها بشر:

- قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (47) آل عمران
- قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20) مريم

فكان عيسى ابن مريم كلمة الله وروح منه:

- يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (171) النساء

صحيح أننا (نحن المسلمين) لا نقرّ النصارى في اعتقادهم بأن عيسى بن مريم هو ابن الله، لكننا نستطيع أن نتفهم (فقط نتفهم وإن كنا لا نتفق معهم في) وجهة نظرهم في اعتبار المسيح ابن الله:

- .... وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ .... (30) التوبة

فموقفنا العقائدي كمسلمين يصوره قول الحق في الآيات الكريمة التالية أحسن تصوير:

- وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (4) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (5) الكهف

ولكن بالرغم من موقفنا العقائدي كمسلمين يبقى السؤال الأكبر بالنسبة لنا في هذا الصدد هو: كيف نستطيع أن نتفهم وجهة نظر اليهود الذين قالوا من قبلهم أن عزيرا هو ابن الله؟ ولم لم ينسبوا ذلك لنبيهم موسى كما فعلت النصارى من بعدهم؟ ولم لم تعد يهود تملك مثل هذا المعتقد حتى يومنا هذا؟ فمتى حصل أن ظن اليهود أن لله ابن اسمه العزير؟ ومتى تخلى يهود عن مثل هذا المعتقد؟ وكيف حصل كل ذلك؟

- وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ .... (30) التوبة

افتراءات من عند أنفسنا: لكي نحاول أن نتفهم ادعاء اليهود هذا، فلابد من التعريج على عدة قضايا نظن أنها حاسمة في الفهم، وهي:

أولاً، نحن نظن أنه لابد أن نفهم أن اليهود الذين قالوا أن عزير هو ابن الله ليسوا بنو إسرائيل الذين خرجوا من أرض مصر مع موسى، ولو تفقدنا النص القرآني نفسه جيداً لوجدنا أنه يذكر بصريح اللفظ أن الذي ادعى أن عزيرا ابن الله هم اليهود وليس بني إسرائيل:

- وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ .... (30) التوبة

ولكن قد يسأل البعض: وما الفرق في أن يكونوا اليهود أو بني إسرائيل هم من افتروا تبني الإله للولد؟

فنرد بالقول أن في هذا فرق شاسع شريطة أن نفهم من هم أولئك اليهود الذين ظنوا أن العزير هو ابن الله، فنحن نعلم أن اليهود الحاليين مثلاً لا يملكون عقيدة مفادها أن هناك شخصا اسمه العزير هو ابن للرب.

فكيف يمكن أن نفهم أن اليهود قد حملوا هذه العقيدة؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: لو رجعنا إلى قصة موسى مع بني إسرائيل لوجدنا أنه في لحظة ما حصلت المقاومة من قبل بني إسرائيل لطلب نبيهم موسى أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لهم:

- وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (20) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (21) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (22) المائدة

ولم يتقبل دعوة موسى إلا رجلان من الذين أنعم الله عليهما:

- قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (23) المائدة

لكنّ القوم أصرّوا على موقفهم المبدئي بأن لا يدخلوا الأرض المقدسة مادام أن القوم الجبارين متواجدين فيها:

- قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (24) المائدة

وعندما وجد موسى أن القوم قد أجمعوا أمرهم ورفضوا دخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم ما كان منه إلا أن توجه إلى ربه بأن يفرق بين الفريقين، الفريق المجيب للطلب (هو وأخوه وربما الرجلان من جهة) والفريق الرافض للطلب (القوم الفاسقين):

- قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (25) المائدة

فيأتي الرد الإلهي المباشر على النحو التالي:

- قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (26) المائدة

نتيجة: يفرق الله بين موسى وأخيه (وربما معهما الرجلان المؤمنان) من جهة وبقية بني إسرائيل من جهة أخرى.

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نظن أن رحلة موسى مع بني إسرائيل قد انتهت في تلك اللحظة عند تلك المحطة، فيبقى موسى بعيداً عن قومه ويبقى القوم بعيدين عن موسى يتيهون في الأرض مدة أربعين سنة، وهذا يقودنا إلى طرح التساؤلات التالية:

- ماذا كان يفعل موسى في تلك الفترة من الزمن؟
- وماذا فعل القوم من بني إسرائيل في تلك الفترة من الزمن؟

لنبدأ بالسؤال الثاني مركزين على قصة القوم من بني إسرائيل الذين تاهوا في الأرض أربعين سنة بعد أن حرّم الله عليهم دخول الأرض المقدّسة طوال تلك الفترة من الزمن.

رأينا: نحن نظن أن من تاه في الأرض فلا يمكن أن يكون قد اهتدى، فهو يذهب يميناً وشمالاً ولكن دون جدوى، وما أن تنتهي فترة التحريم حتى يصبح القوم مؤهلين مرة أخرى لدخول الأرض المقدسة، لذا نحن نظن أن الآية الكريمة التالية ربما جاءت لتصور حالهم بعد فترة التيه ذاك:

- **وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (156) الأعراف**

فهذه الآية الكريمة جاءت في سياق الحديث عن موسى وقومه، فبنو إسرائيل يقولون بأفواههم أننا قد هدنا (**إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ**)، فما معنى قولهم ذاك؟

رأينا: نحن نفهم أن من هاد قد أصبح على هدى، لأنه قد سلك الطريق المستقيم:

- **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7) الفاتحة**

افتراء من عند أنفسنا: بعد أن ضل بنو إسرائيل الطريق وتاهوا في الأرض قسطاً (أربعين سنة) من الزمن يعودون إلى جادة الصواب، ومن هنا فإننا نفتري الظن بأن القوم منذ تلك اللحظة أصبحوا يعرفون بمسمى اليهود، فبعد كانوا قوم موسى من بني إسرائيل، أصبحوا يهوداً، فهم – في ظننا- من هاد من بني إسرائيل بعد أن كان قد ضل طريق الهدى فترة من الزمن.

(للتفصيل انظر سلسلة مقالتنا تحت عنوان: ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته)

ولكن ما علاقة هذا كله بقصة ادعاء اليهود بأن عزير هو ابن الله؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن أولئك النفر من بني إسرائيل الذين هادوا بعد التيه أصبحوا يعرفون بمسمى اليهود (بدل مسمى بني إسرائيل) هم الذين زعموا أن عزير هو ابن الله. ولكن كيف تم ذلك؟

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نظن أنه ما أن هاد بنو إسرائيل بعد التيه مدة أربعين سنة من الزمن، حتى أخذوا يتذكرون سيرة نبيهم موسى، وما أن بدأوا يراجعون سيرة حياة نبيهم موسى بتفاصيلها حتى وجدوا فيها شيئاً غريباً جداً دفعهم للاعتقاد بأن عزيراً هو ابن الله وليس نبيهم موسى نفسه، ولكن كيف تم ذلك؟ ولماذا؟

للإجابة على هذا السؤال لابد من التعرض لسؤالين اثنين وهما:

1. من هو العزير أصلاً الذين ادعوا أنه ابن الله؟

2. ماذا فعل موسى خلال الفترة التي فرق الله بينه ومن آمن معه من جهة والفاسقين من بني إسرائيل الذين رفضوا دخول الأرض المقدسة من جهة أخرى؟ وأين قضى موسى ما تبقى من حياته بعد أن انفصل عن القوم؟

من هو العزير؟

يمكن لنا أن نتبين شيئاً عن هوية العزير لو حاولنا أن نربط قصته تلك بقصة نبي الله عيسى حيث جاءت المقارنة بينهما في دعوى اليهود والنصارى بوجود الابن للرب كما في الآية الكريمة قيد البحث هنا:

- **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (30) التوبة**

ولطرحنا التساؤلات التالية:

أولاً، من الذي علّم المسيح عيسى بن مريم؟

جواب: لا شك أن القرآن الكريم يبين لنا بصريح اللفظ أن الله هو من علّم المسيح عيسى بن مريم، فتعليم المسيح جاء من الله مباشرة، قال تعالى:

- **وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ (48) وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (49) آل عمران**

افتراء من عند أنفسنا 1: إن منطقنا (ربما المغلوط) هذا يقودنا إلى الافتراض التالي: مادام أن الابن المزعوم عند النصارى (وهو المسيح) قد تلقى تعليمه مباشرة من الله، فلا ضير في أن نفتري الظن بأن عزيراً قد تلقى أيضاً تعليماً مباشراً من الله نفسه، فما دامت المقارنة قائمة فلربما أن القوم قد وقعوا تحت تأثير العقيدة نفسها. لكن ما الذي يمكن أن نستفيد من هذا الافتراض (ربما) المغلوط؟

رأينا: إن صحّ مثل هذا الظن، فإن الحاجة تدعونا أن نبحث في كتاب الله عن شخص جاءه العلم مباشرة من الله، فمن هو ذلك الرجل يا ترى؟ من يدري!!! لننتظر ونرى.

ثانياً، لو تدبرنا الآيات التي تتحدث عن نبي الله عيسى بن مريم لوجدنا فيها شيئاً يثير الدهشة على الفور وهو قول الحق في جعل عيسى بن مريم آية للناس؟

- **قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (21) مريم**

افتراء من عند أنفسنا 2: إن منطقنا (ربما المغلوط) هذا يقودنا إلى الافتراض الثاني التالي: مادام أن الله قد جعل عيسى بن مريم آية للناس فلابد أنه قد جعل عزيراً أيضاً آية للناس؟ ولكن لماذا؟

الدليل على زعمنا هذا يأتي من طرح السؤال التالي:

لماذا كان المسيح آية للناس؟ وكيف كان المسيح آية للناس؟

جواب: لو حاولنا أن نفهم معنى أن يكون عيسى بن مريم نفسه آية للناس لوجدنا في ذلك غرابة تسلب الألباب، فنحن نفهم أن تكون عصا موسى آية ولكن موسى نفسه لم يكن آية للناس، وصحيح أن ناقة صالح كانت آية ولكن صالح نفسه لم يكن آية، ولم يكن محمد نفسه آية للناس، فكيف بعيسى بن مريم يكون بنفسه آية للناس؟

افتراء من عند أنفسنا 3: نحن نفتري القول بأن من كان من البشر آية للناس بنفسه هو من ظن الناس أنه ابن الله، فلقد ظن النصارى أن المسيح هو ابن الله لأن الله قد جعله آية للناس. ونحن نفتري الظن أيضاً أن الناس ما ظنوا أن عزيرا بن الله إلا لأنّ الله قد جعله آية للناس. فأين الدليل على زعمنا هذا؟

إن هذا الطرح سيقودنا فورا إلى التساؤل المثير التالي:

ماذا عن فرعون؟

ألم ينجي الله فرعون ببدنه ليكون آية للناس؟

رأينا: نظن أن الإجابة على هذا السؤال بعد قليل ستكون صاعقة، لذا نطلب من القارئ الكريم أن يتوقف عن القراءة عند هذه اللحظة لكي لا يتشكك بمعتقدات آباءه وأجداده، لأننا نظن أن طرحنا هنا سينسف جملة وتفصيلاً كل ما ألفناه في الكتب الصفراء. والله وحده أسأل أن يجمع بيننا ثم يفتح بيننا بالحق:

- **قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (26) سبأ**

جواب: نحن نظن أن الدليل يأتي من الحقيقة القرآنية الصارخة التي يصعب المجادلة فيها إلا لمن أقفل قلبه عن تدبر كتاب الله، فبعد أن حاولنا البحث في كتاب الله عن من هو آية للناس من البشر، لم نجد إلا السياقين التاليين، حيث يتحدث أحدهما عن ذلك الرجل الذي مرّ على قرية وأماته الله مئة عام ثم بعثه:

- **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَـٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259) البقرة**

ويتحدث الآخر عن عيسى بن مريم:

- **قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (21) مريم**

نتيجة: لقد كان ذلك الرجل الذي مرّ على القرية آية للناس كما كان عيسى بن مريم آية للناس.

افتراء من عند أنفسنا: ونحن نفتري الظن أن النصارى قد فتنوا بنبيهم عيسى بن مريم لدرجة أنهم ظنوا أنه ابن الله وكذلك – برأينا- فعل اليهود من قبلهم، فلقد فتنوا بذلك الرجل الذي جعله الله آية للناس فظنوا أنه ابن الله. فمن هو ذلك الرجل الذي يسمى بالعزير وظن اليهود أنه ابن الله؟

رأينا: نحن نظن أنه ذلك الرجل الذي جاء ذكره في الآية الكريمة التالي:

- **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259) البقرة**

الدليل: لو تفقدنا السياق القرآني الذي يتحدث عن ذلك الرجل الذي مر على القرية الخاوية على عروشها، لوجدنا أن فيها بعث من بعد الموت **"فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ"**، وأن فيها ذكر للطعام والشراب الذي لم يتسنه **"فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ"**، وفيها ذكر للحمار **"وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ"**، وفيها تعليم بكيفية إنشاء الحياة من الموت (وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا)، وكل ما نطلبه من القارئ الكريم هو أن يلتفت إلى السؤال التالي:

من الذي كان يعلم هذا الرجل؟ أو بكلمات أخرى، من أين جاء مصدر علم هذا الرجل؟

ألم يأتي مباشرة من الله؟ فكيف نقارن ذلك بما تحصل لعيسى بن مريم من علم كما تصوره الآية الكريمة التالية؟

- **وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (48) وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (49) آل عمران**

فمن الذي علم عيسى بن مريم؟ أو بكلمات أخرى، من أين كان مصدر علم عيسى بن مريم؟

نتائج مفترة: لقد حصل عيسى بن مريم على العلم من ربه مباشرة، فكان الله هو معلم عيسى بن مريم وكان الله نفسه هو من علم هذا الرجل (عزيرا).

لقد جعل الله عيسى بن مريم نفسه آية للناس، وكان هذا الرجل (عزيرا) آية للناس (ولا يذكر القرآن الكريم أن هناك من البشر من كان بنفسه آية للناس إلا هذان الشخصان)

لقد فتن النصارى بعيسى فجعلوه ابن الله وفتن اليهود بهذا الرجل (عزيراً) فجعلوه ابن الله.

الاسم (عزير)

عندما نعقد المقارنة بين المسيح وعزيراً كما ترد في كتاب الله في الآية الكريمة التالية:

- **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (30) التوبة**

يطير إلى الأذهان سؤال يتعلق بالاسم، والسؤال مفاده: لماذا يذكر القرآن اسم الرجل على أنه "عزير" **"وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ"**؟ وبالمقابل، لِم كان اسم ابن مريم "المسيح" **"وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ"**؟

سنتحدث عن الاسم (أو الكنية) "الْمَسِيحُ" في مقالاتنا الخاصة بعيسى بن مريم بحول الله وتوفيق منه، وسنكتفي هنا بالحديث فقط عن الاسم (أو الكنية) "عزير" لنطرح السؤال التالي: ما معنى "عزير"؟ وسنحاول أن نجيب من خلال ذلك على السؤال المنشود التالي: لماذا كان أسم ذلك الرجل (أو ربما كنيته) عزير؟

معنى عزير

نحن نظن – مفترين القول بالطبع- بأن مفردة "عزير" مشتقة من التعزير، كما ترد باشتقاقاتها المختلفة في السياقات القرآنية التالية:

- **وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (12) المائدة**
- **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157) الأعراف**
- **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (8) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (9) الفتح**

وهنا لابد من الوقوف عند بعض المشاهدات التي نظن أنها صحيحة بخصوص مفردة التعزير.

أولاً، جاءت المفردة بمعنى إيجابي، لذا نطلب من القارئ الكريم أن لا يربط المفردة بالمعنى "الشعبي" المتوارث في ذهنا عن عقوبة التعزير، والآية الكريمة التالية تظهر بما لا يدع مجالاً للشك المعنى الإيجابي لمفردة التعزير:

- .... **لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .... المائدة (12)**

ثانياً، جاءت المفردة بمعنى يختلف عن الإيمان، فالنص القرآني يتحدث عن الإيمان والتعزير معاً، فلابد إذن من التمييز بين الإيمان بالرسل من جهة وتعزير الرسل من جهة أخرى:

- .... **لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .... المائدة (12)**

والتعزير –حسب الآية الكريمة نفسها- يختلف أيضاً عن إقامة الصلاة أو إيتاء للزكاة أو إيماناً بالرسل أو إقراض الله قرضاً حسناً

ثالثاً، جاءت المفردة بمعنى يختلف عن النصرة والإتباع، بدليل الترادف في الآية الكريمة التالية:

- .... **فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ .... الأعراف (157)**

رابعاً، جاءت المفردة بمعنى يختلف عن توقير الرسول أو التسبيح :

- **لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا الفتح (9)**

خامساً، وأخيرا نقول جاء التعزير ليكون على الدوام خاصاً بعمل يقوم به الناس بمجموعهم للرسول **"وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ"** و **"فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ"** و **"لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ"**، لنطرح بناء على هذه المشاهدة التساؤل التالي: كيف يمكن تعزير الرسل؟ وكيف نستطيع نحن أن نعزر رسولاً جاء برسالة من ربه؟

جواب: لنعد إلى قصة عقوبة التعزير لنستوحي من خلالها بعض المعاني

أولاً، التعزير هي عقوبة.

ثانياً، التعزير فيها شهادة، حيث يستطيع أن يشهد جمع من الناس العقوبة.

ثالثاً، غالباً ما تكون عقوبة التعزير معززة لعقوبة أخرى سابقة لها، فليس في عقوبة التعزير بحد ذاته حد من حدود الله، فالجلد وقطع اليد ونحوهما هي العقوبات المنصوص عليها، أما ما جاء في عقوبة التعزير فهي إضافة على ما سبق، وهنا يجب أن نجلب السياق القرآني التالي:

- **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ**

وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157) الأعراف

لنفتري من خلاله ما يلي: نحن نظن بأنه ما أن يؤمن نفر من أهل التوراة والإنجيل على وجه الخصوص بالنبي محمد الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل إلا ويكون ذلك ليس فقط من باب الإيمان وكفى وإنما من باب التعزير أيضاً، ولكن لماذا؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن إيمان نفر من بني إسرائيل (يهودا كانوا أو ونصارى) بالرسول محمد يختلف عن إيمان الأعراب بالرسول محمد، وذلك لأن إيمان بني إسرائيل يأتي – في ظننا- من باب الإيمان بسبب ما توافر عندهم من علم مسبق موجداً عندهم في التوراة والإنجيل، فهم يؤمنون بالنبي محمد بناءَ على علم سابق عندهم، لذا نحن نظن أن إيمانهم يأتي من باب العلم على علم، فيكون بذلك – برأينا- تعزيراً **"فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ"**. انظر السياقات القرآنية السابقة من هذا الجانب.

السؤال: وما علاقة ذلك كله بعزير اليهود الذي نتحدث عنه هنا؟

جواب: لنقرأ الآية الكريمة التي تتحدث عن ذلك الرجل الذي مر على القرية وهي خاوية على عروشها لنتأمل بعض ما جاء فيها:

- **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَـٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ۖ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259) البقرة**

لاحظ – عزيزي القارئ- آخر ما قاله الرجل **"فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير"** لنطرح من خلال ذلك التساؤل التالي: ما دام أن الرجل يعلم أن الله على كل شيء قدير، فلم طلب أصلاً أن يعلم كيف يحيي الله هذه بعد موتها؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الرجل قبل أن يميته الله كان علم أن الله على كل شيء قدير **"أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير"**، وقد طلب علماً ليضيفه على العلم الموجود أصلاً لديه، فجاءه علم جديد بأن بيّن الله بنفسه له **"فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير"**، وحصل كل ذلك بعد أن أماته الله مئة عاماً (ربما عقوبة وربما مكافأة)، وما أن بعثه الله حتى آتاه علماً جديداً بأن أراه كيف ينشز العظام ثم يكسوها لحماً، فجاء الرجل علماً على علم، فكان بذلك – في ظننا- عزيرا.

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن الرجل كان على علم قبل أن يميته الله مئة عام، وما أن بعثه الله بعد أن أماته مئة عام حتى آتاه علماً فوق علمه السابق، فأصبح بذلك عزيرا.

ولا ننسى كذلك أن في العقوبة (ومنه القصاص) حياة:

- **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (179) البقرة**

فحتى لو فهمنا أن في موت الرجل ذاك كان قصاصاً منه، لن نعدم الفهم بأنه كان حياة له:

- **....... فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ .... (259) البقرة**

وسنتحدث عن هذا بعد قليل بحول الله وتوفيقه.

دعاء: فالله أسأل أن يؤتيني رحمة من عنده وأن يعلمني من لدنه علماً إنه هو السميع العليم.

لكن يبقى التساؤل قائما: من هو ذلك الرجل الذي جعله الله آية للناس (كعيسى بن مريم) وآتاه الله من لدنه علماً جديدا فوق علمه السابق، فكان عزيرا، وظن اليهود أنه ابن الله كما ظنت النصارى أن المسيح هو ابن الله؟

رأينا: نحن نظن أن الإجابة على هذا التساؤل تتطلب طرح التساؤل السابق الذي تناولناه في مقدمه هذا الجزء من الكتاب، والسؤال هو: ماذا فعل موسى خلال الفترة التي فرق الله بينه ومن آمن معه من جهة والفاسقين من بني إسرائيل الذين رفضوا دخول الأرض المقدسة من جهة أخرى؟

- **قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (25) الأعراف**

ليكون السؤال أكثر دقة على النحو التالي: أين قضى موسى ما تبقى من حياته بعد أن فرق الله بينه وبين القوم الفاسقين؟

افتراء خطير من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأنه ما أن فرق الله بين موسى وأخيه (وربما معهما الرجلين اللذين أنعم الله عليهما) من جهة والقوم الفاسقين من جهة أخرى، حتى تاه بنو إسرائيل في الأرض لأن الله حرم عليهم دخول الأرض المقدسة أربعين سنة:

- **قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (26) الأعراف**

وخلال هذه الفترة تقدم السنّ بموسى وأصبح رجلاً (ربما) لا يستطيع أن يخدم نفسه بنفسه كما كان في أيام شبابه، لذا نحن نظن أنه اتخذ لنفسه فتىً (غلاماً) يقوم على خدمته:

- وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60) الكهف

فالمتتبع لسيرة موسى منذ بدايتها يجد أنه قد قضاها وحيداً هارباً من أرض مصر، ولما عاد إلى أرض مصر وخرج ببني إسرائيل منها كان يصحبه في ذلك أخاه هارون، ولكن هنا فقط يغيب ذكر هارون ويأتي ذكر هذا الفتى الذي أصبح ملازماً لموسى.

السؤال: لماذا كان لموسى فتى؟ وما معنى أن يتخذ الإنسان فتى لنفسه؟

رأينا: نحن نظن أن مفردة "فتى" تطلق على ما ملكت اليمين:

- وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (25) النساء
- وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (33) النور

وهكذا كان حال يوسف في أرض مصر عندما راودته من كان في بيتها عن نفسه، فقد كان يوسف يقوم على خدمتها لأنه ببساطة كان هو فتاها:

- وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (30) يوسف

وهكذا كان حال من دخل مع يوسف السجن، فقد كانوا من الخدم اللذين يقومون على خدمة سيدهم (أو لنقل ربهم):

- وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (36) يوسف

فلقد طلب يوسف من الفتى الذي ظن أنه ناج أن يذكره عند ربه:

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (42) يوسف

وسنرى (إن أذن الله لنا بشيء من علمه) عند الحديث عن قصة يوسف من هم هؤلاء الفتيان اللذان دخلا السجن معه، ولم دخلا السجن مع يوسف بالذات.

دعاء: فالله أسأل أن ينفذ قوله بمشيئته وإرادته لي الإحاطة بشيء من علمه لا ينبغي لأحد غيري إنه هو السميع العليم.

ولكن ما أن أصبح يوسف هو عزيز مصر حتى أصبح له فتيان يقومون على خدمته:

- وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (62) يوسف

ونحن نظن أن الفتى لا ينحصر عمله على خدمة الأشخاص (كما كان حال يوسف مثلاً) وإنما يتعدى إلى خدمة المكان أيضاً، فأصحاب الكهف – في ظننا- كانوا يقومون على خدمة المعبد، وسنرى لاحقاً بحول الله وتوفيقه تبعات ذلك في فهم قصتهم.

سنتعرض بحول الله وتوفيقه لهؤلاء الفتية عند الحديث عن قصة عيسى بن مريم.

دعاء: فالله أسأل أن يختصني برحمة من عنده وأن يعلمني من لدنه علما إنه هو السميع العليم.

- إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (10) الكهف
- نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13) الكهف

وربما لهذا ينعت القومُ إبراهيمَ على أنه "فتى" كما جاء بصريح النص القرآني

- قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60) الأنبياء

خلاصة: نحن نظن أن الفتى هو ببساطة من يقوم على خدمة سيده أو ربه (كيوسف مثلا) أو من يقوم على خدمة مكان ما خاصةً بيوت العبادة (كأصحاب الكهف وكإبراهيم نفسه). وبهذا الظن المفترى نعود إلى قصة موسى بالقول بأن موسى قد اتخذ لنفسه فتى ليقوم على خدمته بعد أن تقدم به العمر وأصبح بحاجة إلى من يساعده لتلبية احتياجاته:

- وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60) الكهف

افتراء من عند أنفسنا: ما كنت أظن أن موسى سيتخذ لنفسه فتى يقوم على خدمته لولا أنه قد بلغ من العمر مبلغاً أصبح من المتعذر معه أن يقوم بكل ما يحتاج إليه بنفسه.

وسنرى لاحقاً أن موسى (المعهود عنه بمساعدة من بحاجة إلى المساعدة) لم يقم بمساعدة صاحبه في بناء الجدار. فالذي أقام الجدار هو صاحب موسى ولم يتدخل موسى في ذلك بدليل التناوب في الضمائر في الآية الكريمة نفسها:

- فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥقَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77) الكهف

لاحظ ضمير الغائب المثنى في الفعل " فَوَجَدَا " مقابل ضمير الغائب المفرد في الفعل " فَأَقَامَهُ "، ففي حين أن كلاهما وجد الجدار إلا أن من قام ببنائه هو واحد، وأظن أن السبب ربما يعود إلى أن موسى ما عاد قادراً على القيام بالأعمال التي تتطلب مجهوداً جسمياً لأن العمر قد تقدم به إلى درجة أصبح من المتعذر عليه القيام بمثل هذه الأفعال بنفسه.

وفي هذه المرحلة المتقدمة من عمره يأخذ موسى على نفسه عهداً أن لا يبرح **"وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ"** حتى يبلغ مجمع البحرين **"حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ"** أو يمضي حقبا **"أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا"**، فينطلق موسى في رحلة يصحبه فيها فتاه، وهنا تبدأ أحداث قصة موسى مع ذلك الرجل الصالح الذي ذهب موسى بنفسه طالباً صحبته ليتعلم منه، ولكن قبل أن ندخل في تفاصيل القصة لابد لنا أن نتوقف لنطرح السيناريو الافتراضي المفترى التالي:

الفهم بالمشابهة: ضع نفسك مكان الآخرين ثم انظر ما يمكن أن يصدر منك من أقوال وأفعال لو كنت مكانهم.

السؤال: هل نتقبل نحن المسلمين فكرة أن يكون هناك شخص أكثر علماً من محمد نفسه؟ هل نتقبل أن يكون نبينا محمد قد ذهب في رحلة لطلب العلم عند شخص آخر؟ ألم يكذب الله دعوى من ظن أن هناك من تعلم محمد على يديه؟

- وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌۗ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (103) النحل

ثم ماذا ستكون ردة فعلنا نحن المسلمين لو وجدنا في قرآننا آيات كريمة تثبت أن محمدا قد تلقى علماً من بشر؟ وكيف ستكون نظرتنا عندئذ لذاك الشخص المفترض لو حصل ذلك كما حصل في حالة موسى مثلاً؟ وماذا ستكون ردة فعلنا لو علمنا أن محمداً نفسه لم يصبر على علم ذلك الرجل كما حصل في حالة موسى؟

ليتنا – عزيزي القارئ- لا ننسى أننا نتحدث عن موسى الذي:

1. حصلت له مواعدة مع الذات الإلهية أكثر من مرة **"وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ" (51) البقرة**
2. كلّمه الله تكليما **"وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا" (164) النساء**
3. من كُتِبَ له في الألواح موعظة وتفصيلاً لكل شيء **"وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ........" (145) الأعراف**
4. من طلب الرؤيا المباشرة للذات الإلهية **(وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ......." (143) الأعراف**

5. من آتاه الله تسع آيات **"وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ.........." (101) الإسراء**
6. من آتاه الله سلطاناً مبينا **"وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ" (96) هود**
7. من كان من أولي العزم من الرسل **"فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ"**، فذُكِر مع محمد ونوح وإبراهيم وعيسى على وجه الخصوص **"وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا" (7) الأحزاب**
8. الخ

وبالرغم من هذا كله، يذهب موسى بنفسه ليطلب العلم عند شخص لا نعرف هويته:

- **قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66) الكهف**

والأهم من ذلك كله أن موسى لم يستطيع أن يصبر على صحبة ذلك الرجل:

- **قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67) الكهف**

ولم يكن ذلك الرجل متحمسا – إن صح القول- لصحبة موسى كما كان موسى متحمسا لصحبة ذاك الرجل، ورضي موسى أن يكون تابعاً طائعاً لذاك الرجل لا يعصي له أمرا:

- **قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (69) الكهف**

السؤال الافتراضي: تخيل عزيزي القارئ المسلم ما يمكن أن تكون ردة فعلك أنت لو حصلت مثل تلك الحادثة بحق نبينا محمد كما حصلت مع نبي الله وكليمه موسى؟ وكيف يمكن أن تتخيل شخصية ذلك الرجل؟ وكيف ستكون عندها نظرتك لنبيك الكريم؟ من يدري!!!

المطلوب: إن ما أظنه مطلوب منا هو أن لا نتسرع في إطلاق الأحكام على غيرنا قبل أن نحاول إيقاع التجربة (ولو بالتخيّل) على أنفسنا، ثم لننظر كيف يمكن أن تكون ردة فعلنا عليها لو أنها فعلاً حصلت معنا.

فلكي أعرف نفسي إن كنت متبعاً للحق أم مجرد متبع لما ألفيت عليه آبائي وأجدادي فأنا أحاول أن أتخيل ما يمكن أن يكون قد بدر مني لو كنت من أهل مكة يوم أن جاءها محمد بالرسالة طالباً منهم أن يتركوا دين آبائهم وأجدادهم، فهل كنت سأتقبل دعوته؟

جواب شخصي: إذا كان من الصعب عليّ أحياناً أن أتخلى عن فكرة ولو جزئية ورثتها عن آبائي وأجدادي، فهل أتوقع من نفسي أن أكون قادراً وعندي الجرأة الكافية أن أتخلى عن دين آبائي وأجدادي كله مرة واحدة وإلى الأبد بتلك البساطة، إن أعظم ما يمكن أن أكون قد فعلته أنا شخصياً لو وضعت في ذلك الموقف ربما كنت من المذبذبين الذين ينتمون **"لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء"**

- **مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (143) النساء**

دعاء: اللهم أسألك وحدك أن أكون على الدوام ممن يتبع الحق حيثما كان. وأسألك أن أكون ممن يتخذون إليك سبيلا، فاجعل اللهم لي إليك سبيلا.

رحلة موسى لملاقاة الرجل

تبدأ الرحلة بموسى قاطعاً العهد على نفسه ومخاطباً فتاه بأن لا يبرح حتى يبلغ مجمع البحرين أو يمضي حقباً:

- وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60) الكهف

وقد ظننا أنه لما كان موسى قد بلغ حينئذ من الكبر عتياً، اتخذ لنفسه فتىً ليساعده في رحلته حتى الوصول إلى المكان المنشود وهو مجمع البحرين.

السؤال: لماذا قصد موسى مجمع البحرين؟ وأين هو مجمع البحرين؟

رأينا: نحن نظن أن مجمع البحرين هو المكان الذي سيكون موعد لقاء موسى بذلك الرجل (أو لنقل ميقات موسى مع الرجل)، ولكن موسى لا يقطع الأمر بذلك على التأكيد، فيبقي فسحة من الظن بأنه قد يضطر أن يتابع مسيره بعد مجمع البحرين إن لم يتمكن من لقاء الرجل هناك.

سؤال: ماذا لو لم يجد موسى ذلك الرجل هناك؟ ماذا سيفعل عندها؟

جواب: سيمضي حقبا،"أَو أَمْضِيَ حُقُبًا".

سؤال: ما معنى أن يمضي موسى حقبا؟

رأينا: نحن نظن أن المضي حقبا هو ركوب البحر والسفر فيه؟ ولكن أين الدليل على ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن الدليل على ذلك يأتي من أول ما فعله موسى والرجل عندما انطلقا في رحلتهما، فلقد كان أول ما قاما به هو ركوب السفينة:

- فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) الكهف

السؤال: لماذا ركبا في السفينة؟ وإلى أين كان ينويان الذهاب عندما ركبا في السفينة؟

رأينا: نحن نظن أن الرجل كان يقصد الذهاب بموسى إلى المكان الذي جاء منه أصلاً، حيث سيقوم بتعليم موسى هناك، فقد كان شرط الرجل على موسى منذ البداية أن لا يسأله عن شيء خلال الرحلة حتى يحدث له منه ذكرا:

- قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (70) الكهف

سنرى لاحقاً (بحول الله وتوفيقه) الحاجة إلى دراسة التقابل بين ما وعد به الرجل موسى وهو أن يحدث له ذكرا وما جاء في الآية الكريمة التالية:

- وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (113) طه

دعاء: فالله وحده أسأل أن أكون ممن يحدث لهم القرآن الذي أنزله الله عربياً ذكرا

افتراء من عند أنفسنا: لذا نحن نظن أن الرجل ربما كان ينوي أن يصحب موسى إلى المكان الذي يقيم فيه حيث سيقوم بتعليمه هناك. لأننا نعتقد أن علم ذلك الرجل ليس من النوع الذي يتم تعليمه في أي مكان، وإلا لربما فعل ذلك في المكان الذي تلاقيا فيه، ولربما ما كان موسى مضطراً أن يذهب معه في رحلة إلى أماكن لا يعرفها خصوصاً إذا ما تخيلنا موسى وقد تقدم به العمر وربما أصبح لا يطيق كثيراً أعباء السفر.

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن الرجل كان قادماً من ما وراء مجمع البحرين لأن موعد اللقاء كان (1) إما عند مجمع البحرين (حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ) أو (2) أن يضطر موسى لقطع البحر (أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا)، ولكن الهدف واحد وهو الوصول إلى مكان تواجد ذلك الرجل الصالح.

أين هو إذن مجمع البحرين؟

رأينا: نحن نظن أن القصة قد حصلت بعد أن فرق الله بين موسى وأخيه هارون من جهة والقوم الفاسقين من بني إسرائيل من جهة أخرى، وكان ذلك يوم أن رفض النفر من بني إسرائيل دخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، لذا نحن نفتري الظن بأن موسى كان قادماً من جهة الأرض المقدسة، فأين يكون مجمع البحرين الذي كان يقصد موسى أن يذهب إليه ليلاقي ذلك العبد العالم؟

رأينا: نحن نظن أن الصورة التالية توضح ميقات رحلة موسى للقاء الرجل الصالح:



افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن مجمع البحرين هي المنطقة الواقعة بين خليج السويس وخليج العقبة حيث شبه جزيرة سيناء (انظر الخريطة).

أين تم اللقاء؟

أين لقي موسى (مع فتاه) ذلك الرجل؟

جواب: عند مجمع البحرين

وكيف حصل ذلك؟

جواب: بعد أن وصل موسى مع فتاه إلى مجمع البحرين لم يتلاقيا مباشرة مع الرجل، وهناك (عند مجمع البحرين) نسيا حوتهما:

- **فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (61) الكهف**

فاضطرا أن يذهبا في الرحلة البحرية (حُقُبًا) أو على الأقل لنقل أن يتجاوزا منطقة مجمع بينهما **"فَلَمَّا جَاوَزَا"**. وما أن جاوزا حتى تعبا من البحث عن الرجل، فأخذا قسطاً من الراحة، وهنا يطلب موسى من فتاه أن يأتيه بالغداء:

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا (61) الكهف

وهنا نطلب من القارئ الكريم أن يتفكر بقصة موسى مع الأكل، فما أن يبلغ مكان ما حتى يطلب الطعام، فعندما هرب إلى مدين وسقى للمرأتين تولى إلى الظل ودعا ربه أن يرزقه:

- **فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24) القصص**

وها هو يطلب من فتاه أن يحضر الغداء:

- **فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا (62) الكهف**

ولما وصل إلى القرية حتى طلبا الطعام قبل أن يقيما الجدار:

- **فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77) الكهف**

السؤال: ما بال موسى ينشغل كثيراً بالأكل؟

فيأتي الغلامُ موسى بالغداء، فيتناولاه ويأخذا قسطاً من الراحة.

ماذا كان غداؤهما؟

تفنيد الفكر السائد: إن من أغرب ما وجدته عند أهل الدراية في تفسيراتهم لهذه القصة هو ظنهم بأن موسى وفتاه قد أخذا حوتاً معهم ليكون قوتاً (طعاماً) لهما في الرحلة، وأن الحوت قد أصبح حياً يوم أن وصل إلى البحر فاتخذ له طريقاً مفتوحاً في البحر، وكانت تلك – في ظنهم هي الإشارة على المكان ميقات اللقاء مع الرجل.

رأينا: نحن لا نتردد أن نفتري الظن بأن ما قاله سادتنا العلماء هو من أساطير الأولين ومن تخاريف الأمم السابقة، وهو من باب القول الذي لا يستند إلى الدليل، ويمكن دحضه بأبسط أنواع التفكير، فلو قالها لي المعلم عندما كنت في الصف الرابع ب لربما ما ترددت في طرح السؤال عليه مستغربا: ألم يكن موسى وفتاه ذاهبان إلى مجمع البحرين؟ ألم يكن موسى وفتاه إذاً قادمان من اليابسة؟ ألم يكونا متجهان إلى البحرين؟ فكيف بمن كان ذاهبا إلى البحر يأخذ معه الحوت (السمك) إلى البحر ليكون قوتا له هناك؟ ألا يوجد في البحرين اللذين ينويان أن يذهبا إليهما من الحيتان ما يمكن أن يكون طعاماً لهما؟ ثم من أين حصل موسى وفتاه على الحوت إن كانا أصلاً قادمين من اليابسة ومتجهين إلى البحر؟ ولماذا أصبح الحوت حياً يوم أن وصلا إلى البحر؟ والأهم من هذا كله هو: هل لو فعلا حصل أن أصبح الحوت الميت المشوي (كما أحب بعض أهل الدراية أن ينخروا في عقول العامة) حياً مرة واحدة أمام أعينهم هل يمكن أن ينسياه؟ هل يمكن أن ينسى إنسان حدث كهذا يحصل أمام ناظريه؟ فما بالك باثنين كموسى وفتاه؟ من يدري!!!

قصة الحوت: رواية جديدة مفتراة من عند أنفسنا

عندما لم نصدّق علم من سبقنا من أهل الدراية حاولنا أن نفتري قصة من عند أنفسنا عن قصة حوت موسى وفتاه، وإليك عزيزي القارئ ما نظنه قد حصل فعلا من أمر الحوت.

أما بعد،

نحن نتخيل موسى قادماً مع فتاه من جهة اليابسة (حيث لا يوجد حيتان يأخذانه معهم في الرحلة)، وكانا متجهين إلى البحر (حيث تكثر الحيتان)، لذا نحن نتخيل أن الحوت كان علامة ميقات موسى مع ذلك الرجل، والأهم من ذلك هو أن ذلك الحوت يختلف عن بقية حيتان البحر لأنه سيقوم بفعل غاية في الغرابة (عَجَبًا). ولكن كيف ذلك؟

أولاً، نحن نظن أنه ما أن وصل موسى مع فتاه عند مجمع البحرين حتى جاء ذلك الحوت (علامة اللقاء بالرجل) وقام بفعل غاية في الغرابة، ولكن فتى موسى لم يشغله مجيء ذلك الحوت كثيرا لأنه ظن أن ذلك الحوت كان كأحد الحيتان الأخرى التي رءاها في البحر تسير بأسرابها:

- فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (61) الكهف

لاحظ عزيزي القاري كيف يصور القرآن الكريم أن كلا من موسى وفتاه ينسيان الحوت معاً (فهل يعقل أنه لو فعلاً تحرك الحوت الميت المشوي المعد للأكل وقفز في البحر – كما تصوره تفسيرات أهل الدراية من قبلنا- هل يعقل أن ينسى موسى ذلك؟ وإذا كان موسى قد نسي ذلك، فهل يعقل أن ينسى الغلام مثل هذا الحدث؟ من يدري!!!)

ثم لاحظ - عزيزي القاري- كيف أن فعل النسيان حصل من موسى ومن فتاه معاً هذه المرة **"نَسِيَا حُوتَهُمَا"**، فليس موسى هو من نسي فقط، وليس الفتى هو من نسي فقط، ولكن كلاهما وقع في فعل النسيان **"نَسِيَا حُوتَهُمَا"**.

ثانياً، لننظر الآن ما الذي حصل عندما جاوزا المكان وأخذا غداءهما:

- **فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا (62) الكهف**

فنحن نتخيل فتى موسى يحضر الغداء وربما يتناوله مع نبي الله موسى وربما يأخذا قسطاً من الراحة، وهنا أخذ الفتى يتذكر تفاصيل الرحلة من جديد ربما بعد أن تداولا الأمر معاً، فهدف رحلتهم هو لقاء الرجل، ولا أظن أن حديثهما مهما تشعب يمكن أن يغيب عنه هدف الرحلة التي خرجوا فيها من أجله، وهنا أظن أن الفتى قد فطن إلى تفصيل من تفاصيل الرحلة التي لم يركز عليها جيداً ألا وهي أنه قد رأى الحوت (أشارة الميقات مع ذلك الرجل) فعلاً عند مجمع البحرين، ولكنه نسي أن يذكر ذلك لموسى:

- **قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63) الكهف**

لاحظ - عزيزي القارئ- كيف ينسب هنا الفتى فعل النسيان لنفسه فقط (فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ)، ولا يلقي باللائمة على موسى، فلماذا؟

رأينا: نحن نظن أنه لما كان العمر قد تقدم بموسى لم يكن باستطاعته مراقبة الأشياء بدقة، لذا أوكل المهمة إلى فتاه، فكان من المفترض أن يراقب الفتى حركة الحيتان في البحر بدقة، ويخبر موسى إذا رأى من أمر حوت ما من بينها ما يلفت الانتباه (نَسِيَا حُوتَهُمَا). وأكاد أجزم الظن بأن هذا كان من أهم أسباب أن يصحب موسى الغلام معه حتى هذا المكان، فلو تفحصنا القصة جيداً لوجدنا أن موسى يترك الغلام في ذلك المكان بعد أن لقي الرجل الذي سيتعلم منه، فبالرغم أن فتى موسى قد صحبه إلا أن وجد الرجل إلا أنه لم يكمل الرحلة معهما لطلب العلم.

فاللذان انطلقا في الرحلة بعد أن وجدا الرجل هما موسى والرجل نفسه ولم يكن الغلام يصحبهما بدليل ضمير الغائب المثنى **"فَانطَلَقَا"**:

- **فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) الكهف**

الدليل :نحن نظن أن الدليل يأتي من الوقوف عند ألفاظ الآيات الكريمة نفسها بشيء من الدقة:

أولاً: انظر – عزيزي القارئ- التقابل اللفظي في الآيتين الكريمتين التاليتين اللتان تبيّنان كيفية حركة ذلك الحوت في البحر، ففي حين أن الفتى يرى الحوت يتخذ سبيله في البحر "سَرَبًا" عندما وصلا إلى مجمع البحرين:

- **فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (61) الكهف**

يعود الفتى ليقول لموسى بملء فيه أنه قد رأى الحوت يتخذ سبيله في البحر عجباً:

- قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63) الكهف

فما الفرق؟ ولماذا ظن الفتى أن الحوت قد اتخذ سبيله في البحر سَرَبًا في البداية؟ ولماذا عاد ليظن أن الحوت قد اتخذ سبيله في البحر عَجَبًا في النهاية؟

رأينا: لم يكن موسى (ربما بسبب تقدمه في السّن يستطيع مراقبة الحوت) لذا نحن نظن أن موسى قد أوكل المهمة إلى الفتى، ولكن الفتى لم يكن صاحب خبرة كبيرة بما يفعل، فبعد أن أنهكه التعب، وعندما رأى الحوت في المرة الأولى ظن أنه حوت عادي كباقي الحيتان بدليل قوله أن الحوت قد فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا، فنحن نظن أن الحيتان تسير في البحر بأسراب (أو schools باللسان الأعجمي) .

يعرّف أحد قواميس اللغة الإنجليزية كلمة school التي تستخدم مع الكائنات البحرية على النحو التالي:

(a large number of fish or other sea animals swimming in a group) (***a school of dolphins/whales***)

لذا نحن نتخيل أنه عندما وصل موسى مع فتاه عند مجمع البحرين قام ذلك الحوت بحركة غريبة جداً (عَجَبًا) ولكن الفتى ظن أنها حركة عادية من باب حركة الحوت في سربه (سَرَبًا)، أي الحركة الطبيعية المعتادة والمتوقعة من حوت في البحر، لذا لم تجلب انتباهه كما يجب، ولم يقم بإخبار موسى بذلك الحدث.

ولكن بعد جاوزا مجمع البحرين وأنهكهما البحث عن الرجل، اضطرا إلى أخذ قسطاً من الراحة، وبعد أن تناولا طعام الغداء من عناء السفر أخذ يسترجع الفتى في نفسه تفاصيل الرحلة، فتذكر على الفور ذلك الحوت الذي ظن في البداية أنه قد اتخذ سبيله في البحر سَرَبًا، فطار إلى ذهنه – في ظننا- شيئاً لم يخطر على باله في البداية، فتوجه بحديثه إلى موسى بالقول أنه قد رأى الحوت المنشود عند مجمع البحرين، وأن ذلك الحوت لم يتخذ سبيله في البحر سرباً (كما ظن الفتى في البداية) ولكنه اتخذ سبيله في البحر عَجَبًا:

- قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63) الكهف

ربما ليقول لموسى بأن الحوت قد قام بحركة عجيبة ليست كحركة الحيتان التي تتخذ طريقها في البحر سربا (بالطريقة الطبيعية). وهنا ما يكون من موسى إلى أن يرد على قول الغلام بالتالي:

- قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (64) الكهف

وهنا نصل إلى ذروة مبتغانا من النقاش السابق فنتوقف لنسأل القارئ الكريم سؤالاً واحد ربما يصدّق جوابه ظننا هذا، والسؤال هو: على ماذا يعود اسم الإشارة " ذَٰلِكَ " في الآية الكريمة نفسها؟

رأينا: يعود اسم الإشارة على الحوت، أليس كذلك؟

افتراء من عند أنفسنا: إن صح ظننا بأن اسم الإشارة ذَٰلِكَ يعود على الحوت، فإننا نستطيع أن نستنتج أن الحوت لم يكن محمولاً مع موسى وفتاه ولكنه كان هو الهدف المنشود في بحثهما عن الرجل. فموسى وفتاه

كانا يبغيان الحوت الذي يتخذ سبيله في البحر عجباً "**ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ**". فهم قد خرجا من ديارهما وتوجها جهة مجمع البحرين وكانت بغيتهما ذلك الحوت الذي يتخذ سبيله في البحر عجباً "**ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ**"، ولما وصلا إلى هناك لم يستطيعا أن يلحظا حركة ذلك الحوت، فظنا أن الحوت قد اتخذ سبيله في البحر سربا (أي بطريقة الأسراب التي تتجمع فيها الحيتان مع بعضها البعض)، ولكن الفتى تذكّر ذلك الحوت بعد فترة من الزمن، فأخبر موسى بما رءاه فعلاً، فما كان منهما إلا أن يرتدا على آثارهما قصصا "**فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا**" إلى المكان الذي وجدا فيه ذلك الحوت عندما وصلا عند مجمع البحرين. وما أن يصلا إلى المكان حتى وجدا ذلك الرجل ينتظرهما عند الصخرة:

- **فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (65) الكهف**

سؤال: لماذا نسي الفتى الحوت في المرة الأولى؟

رأينا: نحن نظن أن الإجابة على هذا التساؤل موجودة في الآية الكريمة نفسها:

- **قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63) الكهف**

لاحظ - عزيزي القارئ- كيف يعترف الفتى بأن السبب الحقيقي الذي أنساه ذكر الحوت هو الشيطان، ولكن كيف ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن الفتى قد انشغل عن المهمة التي أوكلها له موسى (وهي مراقبة حركة الحيتان في البحر وإخباره بأمر الحوت الذي يتخذ سبيله في البحر عجباً) بأشياء أخرى أقل أهمية. فنحن نفتري الظن بأن الفتى ما كان سينسى أمر الحوت لولا أنه قد انشغل بأمور جانبية من اللهو والمتعة الشخصية والتي هي من عمل الشيطان، فالفتى لم يقم بالمهمة الموكلة إليه خير قيام وذلك – في ظننا-لانشغاله بملذات دنيوية شخصية، ولكن أين الدليل على ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن الدليل ربما يمكن استنباطه من سيناريو مشابه تماماً لما فعل هذا الفتى، والسيناريو الآخر يتمثل بما فعل فتى آخر وهو من نجا من صاحبي يوسف من السجن، فلا ننسى أن الذي دخل مع يوسف السجن كانا فتيان:

- **وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (36) يوسف**

ولكن واحد منهما فقط نجا من العقاب، فأوكل إليه يوسف مهمة أن يذكره عند ربه، ولكن ذلك الفتى لم يقم بالمهمة التي أوكلها إليه يوسف خير قيام، وكان ذلك بسبب انشغاله بملذات نفسه والتي هي من عمل الشيطان:

- **وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (42) يوسف**

فكلّف يوسف ذلك النسيان أن يقضي سنين من عمره في السجن. وكذلك كلف نسيان فتى موسى أن يذهب موسى في رحلة أطول من تلك التي كان من المفترض أن يذهب فيها. ولو راقبنا فعل النسيان لوجدنا أنه يحدث بسبب عمل الشيطان متى غاب ذكر الله:

- إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا (24) الكهف

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نتخيل أن موسى لم يكن قادراً بنفسه أن يراقب حركة الحيتان في البحر بشيء من الدقة وذلك لأن العمر قد تقدم به، فأوكل المهمة إلى ذلك الفتى الذي صحبه إلى المكان المنشود وترك هناك عندما وجد الرجل الذي سيتبعه ليتعلم منه، ولكن ما أن وصل الفتى مع موسى إلى مجمع البحرين حتى وقع في فعل النسيان، فانشغل بنفسه، ربما لأنه وجد هناك ما يمكن أن يجلب انتباهه أكثر من مجرد مراقبة حركة الحيتان في البحر، عندها لم يدقق الغلام جيداً في المهمة التي أوكلها موسى إليه، لذا عندما جاء ذلك الحوت واتخذ سبيله في البحر عجبا، ظن الفتى بسبب عدم تركيزه أن ذلك من باب الحركة الاعتيادية للحيتان (أي سربا). ولكن بعد أن أخذ يسترجع الفتى شريط الأحداث مرة أخرى في نفسه بعد أن أخذ قسطاً من الراحة تذكر أنه قد رأى الحوت المنشود فعلاً، وأنه قد اتخذ سبيله في البحر عَجَبًا، فأخبر موسى بذلك على الفور، فارتدا على آثارهما قصصا يطلبان هذه المرة ليس الحوت وإنما المكان الذي وجدا فيه الحوت عندما وصلا إلى مجمع البحر، وكان ذلك عند الصخرة:

- قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63) الكهف

السؤال: لماذا كان الحوت هو علامة "ميقات" موسى مع ذلك الرجل؟

رأينا: نحن نظن أن إشارة لقاء موسى مع ذلك الرجل كانت ذلك الحوت الذي يتخذ سبيله في البحر عَجَبًا لأن ذلك الحوت –ببساطة- سيقوم بشيء عجبا أمام ناظريهما، والعجب – برأينا- هو ما يصعب على الناس تصديقه كالأمثلة التي ترد في الآيات الكريمة التالية:

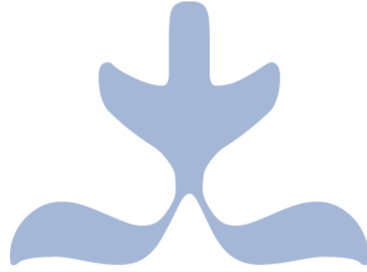
- أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ (2) يونس
- أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (9) الكهف
- قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) الجن

السؤال: ما هو الشيء العجب الذي قام به الحوت وسيصعب عليكم تصديقه إن نحن صرحنا به:

- قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63) الكهف

افتراء خطير جدا جداً هو بلا شك من عند أنفسنا: لقد جاء ذلك الرجل الذي ذهب موسى ليطلب العلم عنده من ما وراء مجمع البحرين عن طريق البحر راكباً على الحوت، فأنزله الحوت عند الصخرة، وعاد ليتخذ سبيله في البحر سربا مع مجموعة من الحيتان بعد أن قام بما هو عجبا عندما أنزل الرجل من على ظهره عند الصخرة. ففتى موسى لم يلاحظ في البداية كيف قام ذلك الحوت بإنزال الرجل عند الصخرة، وانتبه فقط عندما عاد الحوت في ربه، ولكن بعد أن حاول استرجاع الشريط في ذهنه مرة أخرى تذكر أن ذلك الحوت الذي دخل في سربه (سَرَبًا) كان قد نزل إلى الماء من اليابسة (أي من عند الصخرة) بعد أن أنزل من كان يحمله على ظهره (عَجَبًا). فهل تصدق ذلك عزيزي القارئ؟

وللحديث بقية.



الجزء الخامس

باب العزير

(2)



باب العزير (2)

زعمنا في الجزء السابق من هذا الكتاب أن الذي ذهب موسى ليطلب العلم عنده هو العزير الذي زعمت اليهود بأنه ابن الله كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (30) التوبة**

وحاولنا عقد مقارنة بينه وبين المسيح ابن مريم الذي زعمت النصارى أنه ابن الله كما ورد في الآية الكريمة نفسها، فخرجنا بالاستنباط المفترى من عند أنفسنا والذي مفاده أنّ هذان الشخصان من دون البشر جميعاً هم من جعلهم الله آية للناس كما جاء في السياقين القرآنيين التاليين حيث يتحدث الأول عن الرجل الذي مر على القرية وهي خاوية على عروشها فأماته الله مئة عام ثم بعثه ليكون آية للناس ويتحدث الآخر عن عيسى بن مريم الذي جعله الله آية للناس:

- **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ۖ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259) البقرة**
- **قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (21) مريم**

نتيجة مفتراة: لو حاولنا التدقيق في ألفاظ القرآن الكريم في هاتين الآيتين الكريمتين لوجدنا أن عيسى بن مريم (وذاك الرجل) لم يكونا آية لمجموعة أو لطائفة محددة من الناس ولكنهما – بنص الآيات الكريمة- كانا آية للناس (أي لكل الناس الذين جاءوا من بعدهم، بدليل أن الله قد جعلهما جعلا). فذاك الرجل أصبح منذ تلك الحادثة آية للناس" وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ"

وكذلك أصبح عيسى بن مريم آية للناس منذ أن ولدته أمه **"وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ"**.

السؤال: كيف يمكن أن يكون العزير وعيسى ابن مريم آية للناس؟ كيف بهم آية لي ولك ونحن اللذين لم نعاصرهم؟ وكيف بهم آية لكل الناس الذين جاءوا من بعدهم؟

رأينا: سنرى لاحقاً أن من جعله الله آية للناس لا بد أن يبقى موجوداً على الدوام بالضبط كما جعل الله فرعون ببدنه آية لمن خلفه:

- **فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (92) يونس**

نتيجة: لقد كان ذلك الرجل الذي مرّ على القرية آية للناس كما كان عيسى بن مريم آية للناس، وكان فرعون ببدنه آية لمن خلفه.

دعاء: اللهم أسألك وحدك أن لا أكون من الغافلين عن آياتك، وأسألك وحدك أن تريني آياتك فأعرفها، إنك أنت السميع العليم.

افتراء من عند أنفسنا: ونحن نفتري الظن أن النصارى قد فتنوا بنبيهم عيسى بن مريم لدرجة أنهم ظنوا أنه ابن الله وكذلك – برأينا- فعل اليهود من قبلهم، فلقد فتنوا بذلك الرجل الذي جعله الله آية للناس فظنوا أنه ابن الله، لما بدر منهما على مرأى من الناس من أفعال. فلقد تحصل لهؤلاء الشخصين من العلم الإلهي المباشر ما لم يتحصل لغيرهم (ربما سوى آدم الذي أضاع ذلك العلم فيما بعد).

سؤال: لماذا توقف اليهود عن زعمهم بأن لله ولد بينما استمر النصارى في ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن هذه القضية (وجود أم عدم وجود ولد لله) كانت من المحاور المفصلية في الديانة اليهودية والنصرانية، فلقد وقع اليهود تحت تأثير الاعتقاد الكاذب بأن لله ولد (فجعلوا العزير الذي - هو برأينا- معلم موسى ابن الله) وكذلك وقع النصارى تحت الاعتقاد الكاذب نفسه (فجعلوا المسيح بن مريم ولد الله). وإنهم لكاذبون. ولكن كيف تخلى اليهود عن هذا الاعتقاد واستمر النصارى فيه؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن هذه الفكرة بحد ذاتها كانت كفيلة بأن يقع القوم بسببها في الاختلاف، فلا أظن أن اليهود بمجموعهم سيتقبلون فكرة أن يكون لله ولد وكذلك لا أظن أن اليهود بمجموعهم سيتنازلون عن فكرة أن لله ولد، وكذلك كان الأمر بالنسبة للنصارى كما تصور ذلك – برأينا- الآية الكريمة التالية:

- **وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ۚ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (157) النساء**

فمما لا شك فيه أن القرآن الكريم يثبت أن عيسى بن مريم نفسه لم يقل يوماً للناس أنه إله من دون الله أو أنه ابن لله، فها هو عيسى بن مريم يبرئ نفسه من هذه التهمة التي ألصقها بعض أتباعه فيه:

- **وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (116) المائدة**

ولكن الذي حصل بالفعل كان – برأينا – على نحو أنه ما أن قضى عيسى عن هذه الأرض بالوفاة حتى دب الخلاف في القوم فاختلفوا فيه:

- **.... وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ۚ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ .... (157) النساء**

فجاء ذلك من باب الشك في البدء، فما كان لهم به من علم، ولم يأتي ذلك إلا من باب الظن فيما بعد.

نتيجة مفتراة: بعد أن توفى الله عيسى بن مريم ورفعه إليه، دب – برأينا- الخلاف بين أتباعه بخصوص كينونة عيسى نفسه، فظن فريق منهم أن عيسى ليس بإنسان مثلنا، فرفعوه إلى منزلة أعلى من منزلة الناس العاديين، ولكن دون منزلة الإله نفسه، فقالوا عنه بأنه ولد الله:

- **قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ الْغَنِيُّ ۖ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَٰذَا ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (68) يونس**

فكذّب الله زعمهم هذا وتوعدهم من إفكهم هذا:

- **وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (4) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (5) الكهف**
- **أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (151) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (152) الصافات**

وبرر السبب في أن الإله لا يتخذ ولدا ولا ينبغي أن يكون له شريك في الملك:

- **مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (91) المؤمنون**
- **قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (110) الإسراء**
- **الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (2) الفرقان**

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نتخيل الذي حصل بعد أن توفى الله عيسى بن مريم على النحو التالي: أنقسم أتباع عيسى بن مريم حول إلوهية عيسى بن مريم بادي الأمر إلى فريقين: فريق يظن أن عيسى ولد الله وفريق آخر يؤمن أن عيسى ليس ولد الله، وربما نستطيع أن نجزم بمثل هذا الظن من الآية الكريمة التالية:

- **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (253) البقرة**

نتيجة: كانت نتيجة الاختلاف وجود فريقان يقتتلان بين بعضهم البعض، ولكن لم كانت الغلبة؟

الجواب: للفريق الأول الذي ظن أن عيسى ولد الله. فاستمر أهل الديانة النصرانية في الاعتقاد بأن لله ولد.

سؤال: لماذا كانت الغلبة لهذا الفريق؟ ولِم لَم تكن للفريق الآخر؟

رأينا: نحن نظن أن السبب في ذلك يعود إلى الحقيقة التي مفادها أنّ النصارى كان عندهم الإنجيل بأكثر من نسخة (وسنتعرض بالتفصيل لهذه القضية في مقالاتنا حول عيسى بن مريم بحول الله وتوفيقه.

دعاء: فالله وحده أسأل أن يأذن لي بعلم لا ينبغي لغيري إنه هو السميع العليم.

فكان – برأينا- من الاستحالة بمكان أن يحصل الاتفاق بينهم مادام أنهم يرجعون إلى أكثر من مصدر للمعلومة المتنازع عليها.

سؤال: ولكن ما الذي حصل في حالة اليهود؟ لم لم يستمر اليهود بالاعتقاد بأن لله ولد كما فعلت النصارى من بعدهم؟

نحن نظن أن النفر من بني إسرائيل الذين عادوا من التيه بعد أن فرق الله بينهم وبين موسى وأخيه وحرم عليهم دخول الأرض المقدسة أربعين سنة هم الذين هادوا:

- **وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (156) الأعراف**

وما أن هادوا (أي رجعوا) حتى وجدوا في سيرة نبيهم موسى التي حصلت في غيابهم ما يثير الدهشة ويدعو إلى الاختلاف:

- **وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (93) يونس**
- **وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (17) الجاثية**

فنحن نظن أن واحدة من دواعي الاختلاف بينهم أنهم قد وجدوا –في ظننا- أن نبي الله موسى (على مكانته) قد ذهب يطلب العلم عند شخص آخر، ولم يصبر على صحبته، وهنا كان لابد منهم أن يتفكروا بماهية هذا الرجل الذي كان معلماً لموسى نفسه، وكان موسى تابعاً له.

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نظن أن الذي حصل كان (كما هو في مخيلتنا) على النحو التالي: لا شك أن بني إسرائيل يعلمون نسب موسى، وأنهم على دراية تامة بأنه قد جاء من أم وأب من بني إسرائيل، كما أنهم كانوا على علم بتفاصيل حياته:

- **قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129) الأعراف**

لذا لم يكن لديهم بدا إلاّ الإقرار بأن موسى نفسه (إنسان مثلهم)، فلا مجال إذن أن ينسبوا تبني الإله للولد لنبيهم موسى، كما أنهم لم يجدوا في قصة موسى شيئا يخص إحياء الموتى أو النبأ بالغيب (كما حصل في حالة عيسى من بعدهم). ولكن هذه الصفات مجتمعة وجدوها عند ذاك الرجل الذي ذهب موسى ليطلب العلم من عنده، ورضي موسى أن يكون تابعاً له، كما أقر موسى بنفسه أن هذا الرجل قد اختصه الله برحمة من عنده وبعلم من لدنه:

- **فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (65) الكهف**

وطلب موسى بنفسه أن يكون تابعاً مطيعاً لهذا الرجل مقابل الحصول على شيء من العلم الذي اختصه الله به:

- **قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66) الكهف**

وأظن كذلك أنه قد انتهى إلى أولئك النفر من اليهود أن موسى نفسه لم يصبر على علم هذا الشخص:

- **قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (68) الكهف**

فموسى نفسه لم يحط خبرا بما عند هذا الرجل من العلم، ولما لم يكن لهم علم بنسب هذا الرجل (فهم لا يعلموا من هو أب أو من هي أم هذا الرجل أو على الأقل من أين جاء)، كان السؤال (الذي نظن أنه قد احتار اليهود حينئذ في إجابته) هو: من هو ذلك الشخص الذي تعلم منه موسى يا ترى؟ أهو إنسان مثلنا (ومثل موسى)؟

- أظن أن الإجابة عندهم كانت بالنفي، فنحن نظن أن القوم ربما اعتقدوا أن من كانت صفاته كصفات هذا الرجل الذي يكون معلماً للأنبياء أنفسهم ربما لا يمكن أن يكون شخصاً عادياً مثلنا

أهو إله إذن؟

- أظن أن الإجابة كانت عند القوم بالنفي أيضاً، وذلك لأن موسى نفسه خاطب الإله في الواد المقدس عند النار:

- **فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (30) القصص**

من هو إذن؟ ربما تساءل القوم.

جواب مفترى من عند أنفسنا: إن صح منطقنا المفترى هذا، فإننا نتخيل أن منطق القوم كان على النحو التالي: لابد أن ذاك الشخص الذي ذهب موسى ليتعلم منه هو أكثر من مجرد أن يكون إنسانا عاديا مثلنا ولكنه في الوقت ذاته أقل درجة من الإله نفسه الذي خاطبه موسى في الواد المقدس.

فمن يكون؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نتخيل أن الإجابة التي توصل لها نفر من اليهود آنذاك هي أن ذلك الشخص هو ابن الإله.

سؤال: لماذا لم تستمر اليهود في تبني هذا الاعتقاد؟

رأينا: لا شك أن اعتقاداً كهذا سيؤدي إلى وقوع الاختلاف (بالضبط كما حصل في حالة النصارى من بعدهم)، وسيقسم الناس إلى فريقين، فريق يتبنى وجهة النظر القائلة بأن للإله ولد وفريق آخر يرفض الفكرة جملة وتفصيلاً، لذا كان لابد من حسم الخلاف بين الفريقين (ولو بعد حين) بالرجوع إلى الكتاب نفسه، وهنا (على عكس النصارى) جاءت المفارقة التي حصلت عند اليهود وهي وجود كتاب واحد (التوراة) عندهم، ولم تكن التوراة أكثر من نسخة كما في حالة الإنجيل. لذا – نحن نفتري الظن- أنهم عندما رجعوا إلى الكتاب الذي ورثوه لم يجدوا فيه أي إشارة أن يكون للإله ولد، فكانت الغلبة في نهاية المطاف (على عكس النصارى) للفريق الرافض لفكرة وجود ولد للإله:

- **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (213) البقرة**

دقق – عزيزي القارئ- في هذه الآية الكريمة جيداً لترى أنه بالرغم أن الاختلاف كان دافعه البغي بينهم "**وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ**" إلا أن هداية الله كانت للذين آمنوا قد أوصلتهم إلى الحق "**فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ**".

ولو حاولنا أن نقارن ذلك بحالة الاختلاف التي حصلت بعد عيسى لوجدنا أن النتيجة كانت مختلفة بعض الشيء:

- **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (253) البقرة**

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: ففي حين أن الاختلاف في حالة اليهود قد حسمت لصالح الذين آمنوا "**فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**"، بقي الاختلاف قائماً بالاقتتال بين الفريقين في حالة النصارى "**وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ**".

وهذا الاختلاف في المنهجية بين اليهود والنصارى واضحة – برأينا- في الآيات الكريمة التالية:

- وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (113) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (114) وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115) وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (116) البقرة

رأينا: لمّا كانت اليهود لا تستند إلا إلى "كتاب" بنسخة واحدة (العهد القديم) لم يستمروا في الاعتقاد بأن للإله ولد لأنهم لا يجدوا في ذلك المصدر الرباني إشارة إلى أن للإله ولد، ولكن بالمقابل- لما كانت النصارى تستند إلى العهد القديم وإلى العهد الجديد (بنسخه المختلفة)، استمروا في الاختلاف فيما بينهم.

- ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (176) البقرة

وقد نهانا الله عن الوقوع في الاختلاف كالذي حصل في حالة من سبقنا:

- وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (105) آل عمران

وأنزل الله الكتاب على نبيّنا، وكانت واحدة من أهداف هذا التنزيل هو أن يبين لهم الذي اختلفوا فيه:

- وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (64) النحل
- إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76) البقرة

لذا نحن مدعوون إلى أن نقرأ في قرآننا قصص بني إسرائيل لأنه يصوّر حقيقة ما اختلفوا فيه، فقرآننا هذا يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون، لذا نحن مدعوون – على الدوام- أن نترك تخاريف الأمم السابقة وأن لا ننجرّ وراءهم في كل أكذوبة ابتدعوها من عند أنفسهم، ولكن من المؤسف – في رأينا- هو أنه لو فتحنا أي كتاب من أمهات كتب التفاسير لدينا لوجدناها حبلى بتفاسير بني إسرائيل المفتراة، وفي تفاسير قصص سورة الكهف مثلاً الدليل الوفير على صحة ما نزعم. فالتفاسير الخاصة بقصص أهل الكهف والرقيم وصاحب الجنتين وصاحب موسى وذو القرنين مأخوذة بمجملها عن تخاريف الأمم السابقة، ومن أراد أن يجادل فليقرأ في المصادر جميعها عند أهل الإسلام وعند بني إسرائيل. وأنا لا أظن – مفتري القول كالعادة- أن الفكر الإسلامي قد اشتغل بأكثر من مهمة النقل من عند غيره. لذا فإن واحدة من أهدافنا كانت على الدوام هو قراءة هذه القصص من جديد بطابع لا تشوّهه موروثات الأمم السابقة بل بالاحتكام الكامل إلى النص القرآني ولا شيء غيره، فالقص القرآن في الوقت الذي يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون يقص علينا الحق ولا شيء غير الحق. والله أسأل أن يهدينا إلى الحق الذي نقوله فلا نفتري عليه الكذب.

وأسأله وحده أن يختصني برحمة من عنده وأن يعلمني من لدنه علماً لا ينبغي لغيري إنه هو السميع المجيب

أما بعد،

رحلة موسى مع صاحبه العزيز

بعد أن أخبر الفتى نبي الله موسى بأنه قد رأى الحوت عند الصخرة:

- قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63) الكهف

ما كان جواب موسى إلا أن قال " ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ":

- قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (64) الكهف

وزعمنا الظن في مقالتنا السابقة أن اسم الإشارة "ذلك" يعود على الحوت نفسه، ربما لنفهم أن ذلك الحوت كان مقصد الرحلة، فموسى وفتاه انطلقا إلى مجمع البحرين بحثاً عن الحوت ولم يكونا – كما زعم معظم أهل الدراية- يحملان الحوت معهما ليكون لهما طعاماً في الرحلة.

كيفية القصص

نحن نفهم من السياقات القرآنية الخاصة بالقصص بأنه عبارة عن إتباع التفاصيل الواحدة تلو الأخرى، فالقصة لا يمكن أن تقص إلا عندما تفضي تفاصيلها إلى بعضها البعض دون انقطاع:

- إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (62) آل عمران
- وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176) الأعراف
- نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (3) يوسف
- قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (5) يوسف
- لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111) يوسف
- وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (118) النحل
- فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (25) القصص

- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (78) غافر

لذا نحن نفتري الظن بأن موسى وفتاه قد ارتدا وهم يراقبون تفاصيل المنطقة التي سلكوها في رحلة الذهاب واحدة تلو الأخرى لكي يعودوا إلى نفس المكان الذي آووا إليه عندما وصلوا مجمع بين البحرين:

- قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63) الكهف

وذلك لأن هناك عند الصخرة اتخذ الحوت (علامة اللقاء) سبيله في البحر **"عَجَبًا"**.

ولا يجب أن ننسى أيضاً أن فعل الرجوع كان بطريقة الارتداد:

- قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (64) الكهف

والارتداد – برأينا- هو عبارة عن الحركة نفسها ولكن بالاتجاه المعاكس:

- يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (217) البقرة
- يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (21) المائدة
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (54) المائدة
- فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (96) يوسف
- مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (43) إبراهيم
- قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40) النمل
- إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (25) محمد

السؤال: كيف تم الارتداد قصصا؟

لو تابعنا قصة موسى نفسها عندما ذهبت أخته بطلب من أمه لتقصه وجدناها تتبع أثره حتى لا يغيب عن ناظريها لتعرف أين ستنتهي به الرحلة:

- وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (11) القصص

ولكن الملفت للانتباه أن أخت موسى – كما تصور هذه الآية الكريمة- قد قصت موسى ولكنها بصرته به عن جنب، فهي – برأينا- لم تتبعه في الماء حيث قذفته أمه، ولكنها بقيت في اليابسة القريبة من الماء تتابع حركة التابوت في الماء حتى وقع في أيدي آل فرعون كما جاء الوحي الإلهي بذلك إلى أم موسى من ذي قبل:

- أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (39) طه

فبقيت الأخت مجاورة لأخيها الذي في التابوت **"عَن جُنُبٍ"** في تتبع أثره كحال الجار بالجنب أو الصاحب بالجنب:

- وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًاۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (36) النساء

فما أن استقر بين أيدي القوم حتى دلّتهم على من يكفله لهم:

- إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًاۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (40) طه
- وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (12) القصص

أما في حالة موسى وفتاه فإن عملية قص الرجل لم تحدث تماماً كما فعلت أخته من قبل وذلك لأن موسى وفتاه لم يبصران بالرجل عن جنب وإنما كان بطريقة الارتداد (فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا)، أي السير في الطريق نفسها ولكن بالمعكوس حتى وصلا إلى المكان الذي وجدا فيه الرجل:

- فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (65) الكهف

وكان ذلك عند الصخرة حيث "أويا" إليها في البداية عندما وصلا مجمع البحرين، فمما لا شك فيه – عندنا- أن الإنسان إذا ما ذهب إلى المكان المنشود الذي سيجد عنده من واعده فإنه يمكث في المكان بعض الوقت، وهذا ما نظن أنه جاء في النص القرآني بمعنى "أَوَيْنَا" في الآية الكريمة التالية:

- قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63) الكهف

ولو تتبعنا المفردة ومشتقاتها في السياقات القرآنية لوجدناها تدل على المكوث بعض الوقت ولكن ليس على سبيل الدوام، ويدل على ذلك مثلاً ما جاء في قوله تعالى في حالة ابن نوح حيث ظن الغلام أن مكوثه بعض الوقت في الجبل سيعصمه من الماء حتى انتهاء العاصفة:

- **قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43) هود**
- **وها هو لوط يتمنى أن يأوي إلى ركن شديد يحميه من تدبير القوم به وبضيوفه:**
- **قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (80) هود**

وها هو يوسف يؤوي إليه أخاه:

- **وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (69) يوسف**

وكذلك فعل بأبويه:

- **فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (99) يوسف**

ولا شك أن أهل الكهف قد آووا إلى الكهف وكان غرضهم المكوث فيه بعض الوقت:

- **إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (10) الكهف**

والله هو من آوى المسيح وأمه إلى ربوة ذات قرار ومعين، فمكثت هناك بعض الوقت حتى عادت إلى قومها وهي تحمله:

- **وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (50) المؤمنون**

وأظن أن جنات المأوى تختلف عن جنات الخلد بأنها جنات مؤهلة لاستقبال زبائنها فترة قصيرة من الزمن حتى يتم نقلهم بعد ذلك إلى جنات الخلد:

- **أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (19) السجدة**

تلخيص: وبهذا الزعم نعود لنلخّص القصة بالقول بأنه ما أن وصل موسى وفتاه إلى مجمع البحرين في البداية حتى مكثا هناك فترة من الزمن **"أَوَيْنَا"** عند تلك الصخرة التي تفصل الماء عن اليابسة. ولكن لم يستطيع الفتى مراقبة حركة الحوت الذي سيحدث أمراً عجباً ربما لانشغال الفتى بأشياء أخرى، فكان ذلك من باب ما أنساه الشيطان **"وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ"**، فتابعا مسيرهما في البحر باستخدام السفينة التي سيأتي ذكرها بعد قليل حتى جاوزا البحر، وهناك طلب موسى من فتاه أن يحضر الطعام بعد هذه الرحلة الشاقة:

- **فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا (62) الكهف**

فمفردة **"جَاوَزَ"** المكانية غالباً ما ترد في النص القرآني في حدود المكان الذي يتواجد به الماء:

- فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (249) البقرة
- وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138) الأعراف
- وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) يونس

فعادا مرتدين في السفينة نفسها التي انطلقا يقطعان البحر فيها إلى الشاطئ المقابل، ولما ارتدا على آثارهما قصصا عاد إلى المكان نفسه ليجدا الرجل هناك:

- فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (65) الكهف

ولو تأملنا مفردة "وجد" في النص القرآني لاستطعنا القول بأن العثور على الرجل كان بالصدفة (أو لنقل بطريقة مفاجئة) كما حصل مع موسى يوم أن وجد امرأتين تذودان من دون الأمة من الناس الذين كانوا يسقون:

- وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) القصص

أو كحال الهدهد الذي وجد المرأة:

- إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23) النمل

وهنا تبدأ مقابلة موسى لهذا الرجل للمرة الأولى فيبتدئه موسى بالطلب التالي:

- قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66) الكهف

ولو دققنا في معنى "الإتباع" لربما فهمنا أن موسى يطلب أن يكون أقل منزلة من الرجل عندما قبل أن يتبعه، فالمتبِع (بكسر الباء) لا شك أقل شأناً من المتبَع (بفتح الباء). لأن المتبع هو المتعلم بينما المتبع هو المعلم.

- يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (64) الأنفال
- فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (27) هود
- إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (42) الحجر
- قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (111) الشعراء
- وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) الشعراء
- قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (35) القصص

نتيجة: لقد قبل موسى أن يكون هذا الرجل معلماً له، لا بل واتخذ موسى على نفسه شرطاً آخر بأن لا يعصي للرجل أمرا:

- **قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (69) الكهف**

نتيجة: يقبل موسى أن يأتمر بأمر هذا الرجل فلا يعصي له أمرا. وحصل ذلك بعد أن أخبر الرجل موسى بأنه لا يستطيع معه صبرا:

- **قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67) الكهف**

وكانت هذه هي النبوءة الأولى (إن صح القول) التي أنبأ بها الرجلُ موسى، لذا فإن عدد نبوءات هذا الرجل كانت أربعة وليست ثلاث وهي:

1. أن موسى لن يستطيع معه صبرا
2. خرق السفينة
3. قتل الغلام
4. بناء الجدار

لذا نحن نفترض أن النبوءة الأكبر لهذا الرجل هي الأولى، وهي أن موسى لن يستطيع معه صبرا، ولو صبر موسى على ذلك لأصبح علم الرجل عملاً من باب التنجيم الذي يصدق بعضه ويكذب بعضه، ولكن عدم صبر موسى على صحبة الرجل (بالرغم من الوعود الكثيرة التي قطعها موسى على نفسه وبالرغم من تحذيرات الرجل المتكررة له) يدلنا – بما لا يدع مجالاً للشك- بأن علم هذا الرجل هو علم حقيقي وليس ضرباً بالغيب.

كما أننا نظن أن قبول الرجل بصحبة موسى كان – في جانب منه- ليثبت الرجل لموسى عدم قدرة موسى على تحمل ما لم يحط به خبرا:

- **وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (68) الكهف**

وربما يرشدنا هذا أن الإنسان مهما بلغ من العلم (وربما الإيمان) لا يستطيع الصبر على ما لم يحط به خبرا. فلا أظن أن موسى ولا غيره يستطيع الصبر على ما لم يحط به خبرا. فالرجل يسأل بصيغة المستغرب عن كيفية (وبالتالي نفي) قدرة موسى على الصبر على ما لم يحط به خبرا **"وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا"**، ربما لأن الإحاطة خبرا بالأمور هي من شأن الله أو من كان علمه مباشرة من الله:

- **كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (91) الكهف**

وعندما ألح موسى في طلب صحبة الرجل وظن أنه قادر عليها، قبل الرجل صحبته شريطة أن لا يسأله عن شيء حتى يحدث له منه ذكرا:

- **قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (70) الكهف**

نتيجة مهمة جداً: الرجل يطلب من موسى أن لا يسأله عن شيء حتى يحدث هو بنفسه لموسى من الأمر ذكرا، لنفهم أن الاتفاق كان على نحو أن يحدث الرجل لموسى من الأمر ذكرا إن هو صبر على صحبته. ولكن لو راقبنا الذي حصل عندما لم يصبر موسى على صحبة الرجل (وسأله عن ما كان من المفترض من موسى أن لا يسأله عنه) قام الرجل بفعل التأويل بدل أن يحدث له من الأمر ذكرا:

- قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (78) الكهف

الفرق بين أن يحدث له من الأمر ذكرا وأن يؤول له الأمر

السؤال: ما الفرق بين أن يحدث الرجل لموسى من الأمر ذكرا أو أن يقوم بتأويل ما لم يستطع عليه موسى صبرا؟

لو راقبنا النص القرآني لوجدنا أن الاتفاق كان على النحو التالي: أن لا يسأل موسى الرجل شيئاً، فإن هو صبر فسوف يحدث الرجل لموسى من كل أمر فعله ذكرا. ولكن كيف سيكون ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن الإجابة ربما يمكن استنباطها لو استطعنا الإجابة على سؤال آخر وهو: لماذا انطلق الرجل مع موسى؟ ولماذا تركا فتى موسى في مكانه؟ وإلى أين كانا ينويان الذهاب؟

جواب: لو دققنا في اللفظ القرآني في الآيات نفسها لوجدنا أن أول ما فعله الرجل مع موسى هو فعل الانطلاق:

- فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) الكهف

وحصل الانطلاق مرة أخرى بعد حادثة السفينة:

- فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (74) الكهف

وحصل مرة ثالثة بعد حادثة قتل الغلام:

- فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77) الكهف

ف إلى أين كانا متجهين؟

جواب: إن المتتبع لفعل الانطلاق في النص القرآني يجد أن من يقوم بهذا الفعل تكون لدية فكرة تامة عن المكان الذي ينوي الذهاب إليه، لأن فعل الانطلاق لا يأتي في النص القرآني – نحن نظن- إلا لمكان محدد بعينه:

- وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (6) ص

- سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (15) الفتح
- فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (23) القلم
- انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (26) انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (3) المرسلات

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نظن أن الرجل كان ينوي أن يصحب موسى إلى مكان محدد بعينه لكي يحدث له من الأمر ذكرا هناك. وحصلت جميع تلك الأحداث من خرق السفينة وقتل الغلام وبناء الجدار وهم – برأينا- في طريقهم إلى ذلك المكان. ولكن ما هو ذلك المكان؟

رأينا: إنها القرية التي بعثه الله فيها بعد أن أماته مئة عام:

- أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259) البقرة

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن الرجل كان ينوي أن يصحب موسى إلى المكان الذي جاءه فيه العلم مباشرة من الله، ولو راقبنا في النص القرآني تلك القرية الخاوية على عروشها لوجدنا ذكرها أيضاً في الآية الكريمة التالية فقط:

- فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (45) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46) الحج

إن هذه الآية الكريمة تعيدنا مباشرة إلى السبب الذي من أجله مر هذا الرجل على تلك القرية الخاوية على عروشها، فنحن نظن أنه كان يسير في الأرض باحثاً عن حقيقة الأقوام التي سبقت، فالدعوة إلى السير في الأرض والنظر في كيفية العاقبة للأمم السابقة جاءت في السياقات القرآنية التالي:

- وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (109) يوسف
- أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46) الحج
- أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (9) الروم

- **أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (44) فاطر**
- **أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (21) غافر**
- **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (82) غافر**
- **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (10) محمد**

ولما كان الرجل بيسير في الأرض لينظر كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، هناك في تلك القرية آتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علماً، وبقي ذلك الرجل في تلك القرية حيث البئر المعطلة والقصر المشيد.

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن الرجل كان ينوي أن يصطحب موسى إلى هناك حيث سيحدث له من الأمر ذكرا، لأن إحداث الذكر في رأينا يتطلب وجود الدليل على ذلك، ولكن كيف سيكون ذلك الدليل، نحن نظن أن الدليل لا يكون بأقل من وجود شيء عظيم كالذي تصوره الآية الكريمة التالية:

- **وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (113) طه**

فالآية الكريمة توضح بأن القرآن الكريم يمكن أن يحدث لنا ذكرا، بالضبط كما كان الرجل ينوي أن يفعل لموسى:

- **قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (70) الكهف**

نتيجة مفتراة: لكي يحدث الرجل لموسى من الأمر ذكرا فلابد أن يذهب به إلى مكان حيث يوجد شيء مكتوب لكي يعلمه هذا الرجل لموسى، حتى يستطيع موسى أن يتعلم كيفية القيام بمثل هذه الأفعال التي قام بها الرجل وهم في طريق الذهاب إلى ذلك المكان كخرق السفينة وقتل الغلام وبناء الجدار. فلو صبر موسى على صحبة الرجل لربما تحصل له مثل ذلك العلم اللّدنّي.

ولو توقفنا عن مفردة **"لَّدُنَّا"** في الآية الكريمة التي تتحدث عن مصدر علم هذا الرجل لوجدناه علماً لدنّي:

- **فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (65) الكهف**

السؤال: ما هو مصدر العلم اللدني؟

رأينا: إنه علم الكتاب:

- **الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) هود**

- الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (1) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (2) الكهف

بالضبط كعلم القرآن الذي جاء محمداً من لدن حكيم عليم:

- وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6) النمل

فمن تحصل على ذلك العلم اللدني استطاع القيام بمثل هذه الأفعال عن علم، كما فعلها عيسى بن مريم الذي كان بنفسه هو من لدن الله:

- وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةًۖ وَكَانَ تَقِيًّا (13) مريم

لأن يكون عنده الذكر:

- كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَۚ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (99) طه

لأن مهمة الذكر هو أن يبين للناس:

- بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِۗ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44) النحل
- لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِيۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا (29) الفرقان
- إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْۖ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (41) لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (42) فصلت

نتيجة مفتراة: لقد تحصل لهذا الرجل الذكر، فكان يستطيع القيام بتلك الأعمال عن علم حقيقي. لذا نحن نفتري الظن بأن الرجل كان ينوي أن يصحب موسى لكي يحدث له من الأمر ذكرا، أي ليطلعه على علم الكتاب الذي هو الحق بعينه.

دعاء: اللهم رب أسألك أن تعلمني الذكر وتجعلني لأهل الذكر إماما

لكن عندما لم يستطع موسى أن يصبر على صحبة الرجل لم يحدث الرجل لموسى من الأمر ذكرا واكتفى بتأويل ما لم يستطع عليه موسى صبرا:

- قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (78) الكهف

السؤال: ما هو التأويل؟

رأينا: التأويل هو الإخبار عن ما سيحدث مستقبلاً كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (37) يوسف

فلقد كان يوسف ينبئ صاحبيه السجن بالطعام الذي سيرزقانه قبل أن يأتيهما، فكان ذلك من باب التأويل، وكذلك فعل بالنسبة لرؤيا الملك، فلقد أخبرهم بما ستؤول إليه الأمور لاحقاً:

- **وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (36) يوسف**
- **قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (44) يوسف**
- **وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (45) يوسف**
- **وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100) يوسف**

فكان علم يوسف هو علم تأويل الأحاديث، أي الإخبار عن ما ستؤول إليه الأمور مستقبلاً، وهو علم علمه الله إياه في صغره:

- **وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6) يوسف**
- **وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (21) يوسف**

وانتهت حياة يوسف به:

- **رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101) يوسف**

ويدل على هذا آيات عديدة في كتاب الله، فلو تدبرنا كتاب الله جيداً وعلمنا تأويله لاستطعنا أن نفهم كيف ستنتهي بنا الأمور:

- **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (7) آل عمران**

والتأويل يحتاج إلى من يتذكر "**وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**".

دعاء: أسألك اللهم رب أن أكون من أولي الألباب الذين يتذكرون، فأكون أكثر أهل الأرض رسوخاً في العلم، وأسألك تعالى أن تعلمني تأويله إنك أنت السميع العليم.

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (59) النساء
- هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (53) الأعراف

دعاء: رب أشهد أن رسلك قد جاءت بالحق، فأسألك رب أن أتذكره فلا أكون ممن ينساه

- بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (39) يونس

لقد قام هذا الرجل بتأويل ما لم يستطع عليه موسى صبرا:

- وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (82) الكهف

نتيجة مفتراة: لكننا نظن أن الرجل كان لديه من العلم ما يفوق مجرد التأويل، لقد كان لديه الذكر، وهذا في ظننا ما جعله معلماً لنبي الله وكليمه موسى.

السؤال: كيف نفهم تأويل الرجل لخرق السفينة وقتل الغلام وبناء الجدار؟

هذا ما سنتناوله في الجزء القادم من هذا الكتاب بحول الله وتوفيقه.

دعاء: فالله أسأل أن يؤتيني وعليا رحمة من عنده وأن يعلمنا من لدنه علما لا ينبغي لغيرنا إنه هو السميع العليم.



الجزء السادس

باب العزير

(3)



باب العزير (3)

حاولنا في نهاية الجزء السابق من هذا الكتاب تسليط الضوء على جزئية في قصة موسى مع العزير خاصة بالاتفاق الذي حصل بينهما كشرط للرحلة المشتركة بينهما:

- **قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (70) الكهف**

فظننا أن الرجل قد اشترط على موسى أن لا يسأله عن شيء يفعله مقابل أن يحدث الرجل بنفسه لموسى من الأمر ذكرا. ولكن الذي حصل على أرض الواقع كان على نحو إنه عندما لم يصبر موسى على صحبة الرجل وسأله أكثر من مرة عن ما كان من المفترض من موسى أن لا يسأله عنه، قام الرجل بفعل التأويل بدل أن يحدث له من الأمر ذكرا:

- **قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (78) الكهف**

وزعمنا الظن بأن الرجل قد أخذ موسى وانطلق به ليصل معه إلى مكان محدد بعينه لكي يحدث لموسى من تلك الأمور ذكرا هناك، وقد افترينا القول بأن الرجل كان ينوي أن يصحب موسى إلى تلك القرية الخاوية على عروشها التي بعثه الله فيها بعد أن أماته مئة عام هناك، حيث تلقى ذلك الرجل العلم الإلهي مباشرة من الله هناك:

- **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَـٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259) البقرة**

ولما بحثنا في كتاب الله عن القرية الخاوية على عروشها لم نجدها قد ذكرت إلا في موقع آخر من كتاب الله في الآية الكريمة التالية:

- **فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (45) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَـٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46) الحج**

فافترينا الظن من عند أنفسنا بأن تلك القرية هي نفسها التي مرّ بها الرجل وأماته الله فيها مئة عام ثم بعثه هناك. فالرجل في ظننا كان يسير في الأرض لينظر كيف كان عاقبة الذين من قبلهم. ولكن المدقق في السياق القرآني نفسه يجد أنه قد تبقى هناك شيئان فقط في تلك القرية الخاوية على عروشها، ألا وهما :

1. بئر معطلة **"وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ"**.
2. قصر مشيد **"وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ"**. فما قصة تلك البئر المعطلة؟ وأين هو ذاك القصر المشيد؟

جواب: لقد دفعنا هذا التساؤل في البحث عن الأقوام التي سكنت تلك القرية الخاوية على عروشها، وبكلمات أكثر دقة طرحنا التساؤل التالي: من هي الأقوام التي كانت تلك نهايتها "**خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا**"؟

جواب: عندما حاولنا أن نتتبع السياقات القرآنية وجدنا أن هذه النهاية كانت من نصيب اثنين من الأقوام التي أهلكهم الله بذنوبهم وهما:

1. عاد

- **سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (7) الحاقة**

2. ثمود

- **فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (52) النمل**

وعندما حاولنا تدقيق النظر أكثر في هذين السياقين القرآنيين وجدنا أنه في حين أن عاد (قوم هود) كانوا بأنفسهم كأعجاز نخل خاوية "**كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ**"، كانت بيوت ثمود (قوم صالح) هي الخاوية بنفسها "**فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً**".

لاحظ في الآية الكريمة التالية كيف كانت نهاية ثمود أنفسهم:

- **كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (23) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (24) أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (25) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (26) إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (27) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (28) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (29) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (30) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (31) القمر**

ففي حين أن عاد كانوا "**كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ**" كان ثمود "**كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ**".

نتيجة: بيوت ثمود (قوم صالح) هي من كانت خاوية.

وعندما حاولنا البحث في كتاب الله عن الترتيب الزمني لتلك الأقوام وجدنا ذلك جلياً في سورة الأعراف، حيث أن ثمود (قوم صالح) هم ورثة عاد (قوم هود) الذين هم أصلاً ورثة قوم نوح:

- **وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ (65) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (66) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (67) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ(68) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (69) الأعراف**

- **وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (73) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (74) الأعراف**

ليصبح الترتيب على النحو التالي:

1. قوم نوح.
2. قوم هود (عاد).
3. قوم صالح (ثمود).

والآيات الكريمة التالية تؤكد هذا التسلسل الزمني:

- **أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۚ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (9) إبراهيم**
- **مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (31) غافر**

ولكن المفارقة العجيبة – برأينا- جاءت في السياق القرآني على نحو أنه في حين أن قوم هود قد كانوا خلفاء قوم نوح **"وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ"** وزادهم الله في الخلق بسطة **"وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً"**، كان ثمود (قوم صالح) قد خلفوا عاد **"وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ"** وتبوؤوا الأرض **"وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ"**، فاتخذوا من سهولها قصورا **"تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا"**، ونحتوا الجبال بيوتا **"وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا"**.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن ثمود (قوم صالح) قد سكنوا الأرض نفسها التي كان قد سكنها عاد (قوم هود) من قبلهم، فالله الذي جعل ثمود خلفاء عاد قد بوأهم الأرض (وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ). فوقع العذاب على عاد التي لم يخلق مثلها في البلاد فأصبح القوم كأنهم أعجاز نخل خاوية، ثم وقع العذاب من بعد ذلك على ثمود فأصبحت بيوتهم خاوية.

- **وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (56) يوسف**
- **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87) يونس**

- وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (74) الزمر
- وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (9) الحشر

ولو راقبنا قصة ثمود أكثر لوجدنا أن القوم كانوا يتخذون من السهول قصورا وينحتون الجبال بيوتا "تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا"، ولو حاولنا ربط ذلك بما وجد الرجل في القرية التي مرّ عليها وهي خاوية على عروشها لوجدنا البئر المعطلة والقصر المشيد، ربما لتكون بقايا تلك القصور التي اتخذتها ثمود في ذلك المكان:

- فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (45) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَـٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46) الحج

دقق - عزيزي القارئ- في الآية الكريمة نفسها لتجد – كما أسلفنا- أن الرجل كان يسير في الأرض لينظر كيف كان عاقبة الذين من قبلهم "أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ"، وكان نتيجة بحثه ليكون له قلب يعقل به "فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا" وآذان يسمع بها "آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا"، فأصبح مبصر القلب الذي في صدره بعد أن علمه الله "فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَـٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ".

انظر السياقات القرآنية التالية التي تؤكد على السير في الأرض والنظر في عاقبة الأمم السابقة لمن أراد أن يكون له قلب يعقل به وآذان يسمع بها:

- أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَـٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46) الحج
- أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (9) الروم
- أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (44) فاطر
- أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (21) غافر
- أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (82) غافر
- أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (10) محمد

افتراء خطير من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن القرية التي مرّ عليها الرجل في رحلته وهو يسير في الأرض لينظر كيف كان عاقبة الذين من قبلهم هي قرية ثمود (قوم صالح) التي كانت في الأصل ديار عاد. وربما الشاهد على ذلك هو ذلك القصر المشيد الذي نظن أنه بقايا تلك القصور التي كانت ثمود تشيّدها في سهولها.

سنتعرض لاحقاً بحول الله وتوفيقه إلى جغرافية المنطقة التي كانت تسكنها ثمود حيث جاء في النص القرآني أنها تتميز بوجود السهول والجبال:

- **وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (73) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (74) الأعراف**

ومادام أن هناك جبال فهناك أيضاً واد:

- **وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9) الفجر**

وكانت هناك الجنات والعيون:

- **كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (142) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (143) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (144) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (145) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (148) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (149) الشعراء**

وسنتعرض بحول الله وتوفيقه إلى الربط الحاصل في الآيات الكريمة التالية بين عاد وثمود وقوم فرعون:

- **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13) الفجر**

حيث أن هناك من مساكنهم ما يتبين لنا:

- **وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (38) العنكبوت**

دعاء: فالله وحده أسأل أن يختصني برحمة من عنده وبعلم من لدنه لا ينبغي لغيري إنه هو السميع العليم.

سؤال: إذا كان ذلك القصر المشيد هو بقايا تلك القصور التي كانت تشيّدها ثمود، فما قصة تلك البئر المعطلة؟

جواب: لو حاولنا العودة إلى قصة ثمود نفسها لوجدنا أن الحدث الأميز في سيرتهم مع نبيهم صالح هي الفتنة التي أوقعهم الله بها بسبب الناقة:

- إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (27) القمر

ولو تابعنا قصة فتنة الناقة لوجدناها على نحو أن يكون الماء قسمة بينهم:

- وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (28) القمر

تساؤلات:

- كيف كانت الماء قسمة بينهم؟ أي كيف كانت تتم عملية قسمة الماء بينهم؟
- والأهم من ذلك في ظننا هو: كيف كان كل شرب محتضر؟

رأينا: لمّا كان الماء قسمة بينهم كان لابد من تواجدهم (أي حضورهم) عند القسمة:

- وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (8) النساء

فمن أراد أن يكون له حصة في القسمة، فعليه أن يحضر تلك القسمة، ويشهد على أن القسمة كانت عادلة. فمن متطلبات القسمة توافر شرط العدل في التوزيع، وإلاّ لأصبحت تلك إذاً قسمة ظيزى، لذا نحن نتصور أن القوم كانوا يحضرون قسمة الماء بينهم، وبهذا يكون كل شرب محتضر، أي يحضر الجميع عند عملية القسمة ليشهدوها بأنفسهم. ولكن كيف كانت تتم آلية التوزيع؟

رأينا: لو كان الماء متواجدا فيما يشبه النهر أو البحيرة أو البركة لما كانت قسمة الماء - برأينا- ممكنة، وربما لما كان حضورهم ضرورياً أصلاً، ولربما ذهب كثير من الماء دون قسمة، ولربما ما كان كل شرب محتضر. ولكن لو تتبعنا السياق القرآني نفسه لوجدنا أن القسمة كانت تتم بالشرب:

- وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (28) القمر

فلقد كان للقوم شرب وكان للناقة شرب يوم معلوم:

- قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (155) الشعراء

فكيف كانت تتم آلية تقسيم الماء بالشرب إذن؟

رأينا: نحن نظن أن ذلك غير ممكن إلا أن يتم استخراج الماء من بئر، فتعطى الناقة شرب، ويأخذ القوم شرب، وبهذه الطريقة يتم تقسيم الماء بينهم. فيكون بذلك كل شرب محتضر، فلا يذهب شيء من الماء هباء.

افتراء من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأنه لمّا اعتدى القوم على الناقة وعقروها (أي طردوها من المكان فلم يسمحوا لها أن تأخذ حصتها من ماء تلك البئر) نزل العذاب بهم، فذهبوا هم عندما أصبحوا كهشيم المحتضر **"فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ"**، وبقيت ديارهم من بعدهم حتى أصبحت آثاراً في الأرض:

- **فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (52) النمل**

انظر الفرق بين العاقر والعقيم في مقالاتنا السابقة حيث كانت امرأة زكريا عاقرا:

- **قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (40) آل عمران**
- **وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (5) مريم**
- **قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8) مريم**

بينما كانت امرأة إبراهيم عقيم:

- **فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29) الذاريات**

انظر السياق الأوسع لترى ما حل بالقوم أنفسهم:

- **إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (27) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (28) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (29) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (30) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (31) القمر**

ولو حاولنا أن نربط ذلك بما جاء في الآية الكريمة التالية التي زعمنا منذ البداية أنها تخص صاحب موسى ربما استطعنا أن نفتري شيئاً جديدا:

- **فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (45) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46) الحج**

السؤال: ما هو البئر المعطلة والقصر المشيد؟

افتراء خطير من عند أنفسنا: نحن نظن أن القصر المشيد هو من بقايا قصور ثمود التي كانوا يشيدونها، كما نفتري الظن في الوقت ذاته بأن البئر المعطلة هي تلك البئر التي كان من المفترض أن يقسم ماءها بين القوم والناقة قسمة بالشرب المحتضر. وما أن هلكت ثمود حتى بقيت تلك البئر منذ ذلك الوقت معطلة لا يردها أحد.

دعاء: اللهم أسألك وحدك أن أكون أول من يرد ماء تلك البئر.

تلخيص: نحن نحاول أن نلخص ما سبق من افتراءات قدمناها من عند أنفسنا على النحو التالي: نحن نظن أن الرجل (الذي افترينا القول بأنه العزيز) قد انطلق بموسى في تلك الرحلة ليصل به إلى ذلك المكان حيث البئر المعطلة والقصر المشيد، وهناك كان يمكن للرجل أن يحدث لموسى من الأمر ذكرا. وقد حاولنا في الجزء السابق من هذه المقالة الوقوف عند مفردة الذكر حيث ظننا أن إحداث الذكر يتطلب وجود علم من الكتاب، فالآية الكريمة التالية توضح بأن القرآن الكريم نفسه:

- وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (113) طه

بالضبط كما كان الرجل ينوي أن يفعل لموسى:

- قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (70) الكهف

لذا حاولنا أن نفتري القول بأنه لكي يحدث الرجل لموسى من الأمر ذكرا، فلابد أن يذهب به إلى مكان حيث يوجد علم (ربما شيء مكتوب) لكي يعلمه هذا الرجل لموسى، وإن حصل ذلك وتعلم موسى الذكر، فإنه سيستطيع أن يتعلم بنفسه كيفية القيام بمثل هذه الأفعال التي قام بها الرجل وهم في طريق الذهاب إلى ذلك المكان كخرق السفينة وقتل الغلام وبناء الجدار. وبكلمات أخرى نقول بأنه لو صبر موسى على صحبة الرجل لأحدث ذلك الرجل لموسى من الأمر ذكر، وربما تحصل لموسى مثل ذلك العلم اللدني الذي كان متوافرا للرجل، فنحن لا ننسى أن الله قد شهد بنفسه أنه قد علم ذلك الرجل من لدنه:

فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا

السؤال: ما هو مصدر العلم اللدني إذن؟

رأينا: إنه علم الكتاب:

- الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) هود
- الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (1) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (2) الكهف

بالضبط كعلم القرآن الذي جاء محمداً من لدن حكيم عليم:

- وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6) النمل

فمن تحصل على ذلك العلم اللدني استطاع القيام بمثل هذه الأفعال عن علم، كما فعلها عيسى بن مريم الذي كان بنفسه هو من لدن الله:

- وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا (13) مريم

لأنه يكون قد تحصل له الذكر:

- كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (99) طه

لأن مهمة الذكر هو تبيان ما نزل للناس من ربهم:

- بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44) النحل
- لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا (29) الفرقان
- إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (41) لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (42) فصلت

السؤال: فكيف سيبين الرسول بالذكر الذي أنزل إليه ما نزل للناس من ربهم؟

للإجابة على هذا التساؤل فلابد من طرح تساؤل أولي وهو: ما الذي أنزل للناس من ربهم؟

جواب: لا شك عندنا أن الذي أنزل علينا من ربنا هو الكتاب والحكمة:

- وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (231) البقرة

وكان ذلك (أي الكتاب والحكمة) هما ما أنزل الله على رسله كما جاء به محمد:

- وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ۚ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (113) النساء

إذا كان الله قد أنزل على رسوله الكتاب والحكمة، فما هو الشيء الذي علمه الله لرسوله ولم يكن الرسول يعلمه **"وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ"**؟

رأينا: نحن نظن أنه الذكر، أي كيفية ربط ما في الكتاب بالحكمة منه.

دعاء: اللهم رب ورب محمد أسألك أن تعلمني ما لم أكن أعلم وأسألك أن يكون فضلك عليّ عظيما.

أو كما علمه الله لعيسى ابن مريم:

- إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (110) المائدة
- وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ (48) آل عمران

أو كما كانت من نصيب آل إبراهيم:

- أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (54) النساء

نتيجة: لقد توافر لنا علم الكتاب والحكمة كما كان متوافر لعيسى بن مريم ولآل إبراهيم. ولكن يبقى الفيصل في العلم هو وجود الذكر حيث وكانت مهمة الرسول تكمن في أن يعلم الناس الكتاب والحكمة:

- رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129) البقرة
- كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (151) البقرة

إذا كان محمد سيعلمنا الكتاب والحكمة (وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) فما هو الشيء الآخر الذي سيعلمنا إياه ولم نكن نعلمه (وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) كما جاء في هذه الآية الكريمة؟

رأينا: إنه الذكر.

دعاء: اللهم رب أسألك أن أكون ممن علمهم رسولك محمد الكتاب والحكمة وممن علمهم ما لم يكونوا يعلمون.

- لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (164) آل عمران
- هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (2) الجمعة

ولكن حتى يستطيع الرسول أن يبين للناس ما نزل إليهم من ربهم من الكتاب والحكمة كان لابد من توافر الذكر الذي يستطيع من خلاله أن يبين لهم ما نزل إليهم من ربهم من الكتاب والحكمة:

- بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44) النحل

لاحظ عزيزي القارئ أن الله قد أنزل علينا الكتاب والحكمة، فما متوافران بين أيدينا، لذا فإن الذي يحتاج منا إلى أن نتفكر به هو الذكر أي ربط ما في الكتاب بالحكمة المصاحبة له.

دعاء: اللهم أسألك وحدك أن أكون أكثر أهل الأرض تفكراً، وأسألك وحدك أن تهديني إلى الذكر، وأن تجعلني لأهل الذكر إماماً.

فتكون الصور على النحو التالي:

1. كتاب (منزل علينا وعلى محمد)

2. الذكر (منزل على محمد وقد علمنا إياه ونحن نحتاج أن نتفكر به)
3. الحكمة (منزل علينا وعلى محمد)

فمن خلال الذكر الذي أنزله الله على نبيه أستطاع محمد أن يبيّن للناس ما نزّل إليهم من ربهم من الكتاب والحكمة (أي ربط ما في الكتاب بالحكمة المصاحبة له).

وبالمنطق نفسه نقول بأنه قد تحصل لهذا الرجل صاحب موسى الذكر، فكان يستطيع أن يربط ما في الكتاب بالحكمة المصاحبة له: فهو قد أحاط خبرا بتلك السفينة فعلم أن عليه أن يخرقها (فيستطيع أن يحدث لموسى من الأمر ذكرا، فيبين له الحكمة من وراء ذلك)

- وهو قد أحاط خبرا بذلك الغلام من علم الكتاب فعلم أن عليه قتله (ويستطيع أن يحدث لموسى من الأمر ذكرا)
- وهو كذلك قد أحاط خبرا بالكنز الذي تحت الجدار، فأقام الجدار (ويستطيع أن يحدث لموسى من الأمر ذكرا)

لذا نحن نفتري الظن بأنه قد تحصل لهذا الرجل الذكر، فكان يستطيع القيام بتلك الأعمال عن علم حقيقي من الكتاب وذلك بربط الأحداث بالحكمة المصاحبة لها عن علم حقيقي، ولا أظن أن العلم الحقيقي (كعلم هذا الرجل الذي جاءه بتعليم مباشر من الله) يمكن أن يأتي إلا من علم ما في الكتاب الذي هو الحق بعينه.

دعاء: اللهم رب أسألك أن تعلمني الذكر وتجعلني لأهل الذكر إماما.

لكن كانت المفارقة تكمن في أن موسى لم يستطع أن يصبر على صحبة الرجل، فما كان الرجل ليحدث لموسى من الأمر ذكرا، واكتفى بتأويل ما لم يستطع عليه موسى صبرا:

- قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (78) الكهف

نتيجة: الرجل لم يحدث لموسى من الأمر ذكرا، واكتفى بأن يقوم بتأويل ما لم يستطع عليه موسى صبرا.

فما هو التأويل؟

لقد افترينا في الجزء السابق من هذا الكتاب أن التأويل هو الإخبار عن ما سيحدث مستقبلاً كما جاء الحديث عن يوسف في الآية الكريمة التالية:

- قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (37) يوسف

فلقد كان يوسف ينبئ صاحبيه السجن بالطعام الذي سيرزقانه قبل أن يأتيهما، فكان ذلك من باب التأويل، وكذلك فعل بالنسبة لرؤيا الملك، فلقد أخبرهم بما ستؤول إليه الأمور لاحقاً:

- وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (36) يوسف

قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (44) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (45) يوسف

- وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100) يوسف

فكان علم يوسف هو علم تأويل الأحاديث، أي الإخبار عن ما ستؤول إليه الأمور مستقبلاً، وهو علم علمه الله إياه في صغره:

- وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6) يوسف
- وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (21) يوسف

وانتهت حياة يوسف به:

- رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101) يوسف

افتراء من عند أنفسنا: التأويل هو علم أدنى درجة من الذكر.

سنرى لاحقاً أنه في حين أن علم التأويل علم قائم بذاته:

- هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (7) آل عمران
- هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (53) الأعراف

أما الذكر فهو – برأينا- علم تفصيل الكتاب:

- وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52) الأعراف

دعاء: اللهم رب أسألك أن تختصني برحمة من عندك، وأن تعلمني من لدنك علم التأويل وتفصيل الكتاب إنك أنت الحكيم العليم.

ونحن نظن أن علم التأويل هذا قد تحصل لكثيرين من مثل يوسف عليه السلام:

- وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6) يوسف

وكصاحب موسى هذا:

- قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (78) الكهف
- ... وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (82)الكهف

السؤال: كيف كان تأويل الرجل للأحداث التي مرا بها والتي لم يستطع موسى صبرا عليها؟

جواب: انظر الجدول التالي، وحاول – عزيزي القارئ- أن تربط الحدث مع تأويله الذي قدّمه الرجل لموسى، فهل ترى أن الكلام مفهوما؟ وهل تجد أن الحجة مقنعة؟ أي هل فهمت فعلاً لم فعل الرجل تلك الأحداث؟ وهل تأويله لما فعل يبرر فعلاً ما قام به؟

هذا ما سنحاول أن نقحم أنفسنا فيه فيما تبقى من هذا الجزء من المقالة، سائلين الله وحده أن يؤتينا رحمة من عنده وأن يعلمنا من لدنه علماً فلا نفتري عليه الكذب، إنه هو السميع البصير.

الحدث	الحقيقة	التأويل
السفينة	فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) الكهف	أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (79) الكهف
الغلام	فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (74) الكهف	وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (81) الكهف
الجدار/الكنز	فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77) الكهف	وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (82) الكهف

أما بعد،

السؤال الأول: لماذا قام الرجل بهذه الأفعال الثلاثة: خرق السفينة وقتل الغلام وبناء الجدار؟

رأينا: نحن نظن – بادئ ذي بدء- أن جزءا من الإجابة على هذا التساؤل يكمن في فعل الإرادة عند ذلك الرجل، ولكن كيف ذلك؟

جواب: لو دققنا في تأويل الرجل لهذه الأحداث الثلاثة لوجدنا أنه يستخدم فعل الإرادة (المشتق من الفعل أراد) في كل مرة بطريقة مختلفة:

1. فعندما تحدث عن خرقه للسفينة (الحدث الأول) جاء قوله **"فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا"**.
2. وعندما جاء حديثه عن الجدار (الحدث الثالث) نسب الإرادة لله وحده **"فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا"**.
3. ولكن في الحدث الثاني وهو قتل الغلام جاء حديثه عن الإرادة بصيغة الجمع **"فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا"**.

السؤال: لماذا جاء فعل الإرادة بصيغ متعددة؟ لماذا لم يأت بالصيغة نفسها في الأحداث الثلاثة؟ ألم يكن الرجل نفسه هو من قام بتلك الأحداث جميعها؟ لماذا إذن اختلفت الإرادة في كل حدث؟ ومن الذي فعلا نفذت إرادته في ذلك؟

رأينا (1): لا شك أن فعل الإرادة في عملية خرق السفينة كانت نابعة من الرجل نفسه، فهو من أراد أن يخرق السفينة ويعيبها لكي لا تصل أيدي ذلك الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصبا إليها. لذا فقد قال الرجل **" فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا"**، ناسباً الإرادة في ذلك إليه.

رأينا (2): كما أننا لا نشك أن الإرادة في الحدث الثالث والأخير وهو بناء الجدار كانت من الله وحده، فالله هو من أراد أن يبلغ اليتيمان أشدهما ويستخرجا كنزهما. لذا فقد قال الرجل "فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا". فنسب الإرادة في ذلك إلى الله وحده.

رأينا (3): لكننا نظن أن المشكلة في فهم الإرادة لدينا تكمن في فعل قتل الغلام حيث جاءت الإرادة بصيغة الجمع (فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا)، ليكون السؤال على النحو التالي: إرادة من هي إذن؟ أهي إرادة الرجل؟ أم هي إرادة الله؟ أم هي إرادة الرجل وإرادة الله معاً؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأنها إرادة ذلك الرجل أولاً وإرادة الله ثانيا. فذاك الرجل – برأينا- كانت إرادته أن يبدلهما الله خير منه زكاة وأقرب رحما وكذلك كانت إرادة الله بأن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما.

لاحظ كيف جاء تأويل الرجل لحادثة السفينة في آية واحدة (الآية 79) حيث كانت الإرادة تخصه **"فَأَرَدتُّ"**، وكيف جاء تأويل الرجل لبناء الجدار في آية واحدة (الآية 82) حيث كانت الإرادة تخص رب موسى

فقط **"فَأَرَادَ رَبُّكَ"**، بينما جاء تأويل الرجل لحادثة قتل الغلام في آيتين اثنتين (الآيات 80-81)، حيث كانت الإرادة مشتركة **"فَأَرَدْنَا"**.

السؤال: لماذا؟

لنبدأ الحديث عن الإرادة من الحدث الثالث والأخير وهو بناء الجدار، حيث نجد أن الإرادة كانت نابعة من الله وحده، فالرجل ينأى بنفسه أن يكون له دخل بالأمر من قريب أو من بعيد، فتلك كانت إرادة الله **"فَأَرَادَ رَبُّكَ"**:

- وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (82) الكهف

فالمتدبر للنص القرآني يجد أن الرجل ينسب الإرادة في ذلك إلى رب موسى، وأن ليس له دخل بذلك على الإطلاق كما كان الحال في الحدثين السابقين، أليس كذلك؟

السؤال: إنْ صح ما تزعم، كيف يمكن تعليل ذلك؟ أي لماذا كانت هي إرادة الله وحده في بناء الجدار؟ ولِم لَم تتدخل إرادة الرجل في ذلك؟

رأينا: لأن ذلك الأمر خاصاً بالرزق.

- قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (31) يونس
- وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (6) هود
- اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (26) الرعد
- وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (73) النحل
- وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ (132) طه
- وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (58) الحج
- أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (64) النمل
- وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (57) القصص
- وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (82) القصص
- إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (17) العنكبوت

- وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (60) العنكبوت
- قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (24) سبأ
- يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (3) فاطر
- وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22) الذاريات
- مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58) الذاريات
- أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (21) الملك

نتيجة: لمّا كان الرزق هو من الله وحده، ما كان لهذا الرجل الصالح أن يدخل إرادته في ذلك، فالله هو الرزاق ذو القوة المتين، وهو الذي يرزقنا، ولا خالق غير الله يرزقنا من السماء والأرض. لذا نحن نظن أن الرجل كان يعلم يقيناً أن ذلك رزق من الله وحده لهؤلاء اليتيمين، وليست منّة من أحد غير الله. فكانت هي إرادة الله أن يبني لهما الجدار ليحفظ لهما ما رزقهما الله.

خروج عن النص في استراحة قصيرة

تخيل - عزيزي القارئ- ما فعل هذا الرجل مع موسى جيداً لتأخذ من ذلك الدرس والعبرة الحقيقية، ولكن كيف؟

نحن نعلم أن موسى وصاحبه كانا في أمس الحاجة إلى الطعام بدليل أنهما استطعما أهل القرية التي أتيا عليها:

- فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا ... (77) الكهف

ونحن نعلم من تتمة الآية نفسها أن أهل تلك القرية الذين مروا بهم قد رفضوا أن يضيفوهما:

- ... فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77) الكهف

ومع ذلك، يقوم الرجل ببناء الجدار لهما ليحفظ لهما كنزهما، ولا يتعدى عليه، أليس هذا ما حصل؟

السؤال: تخيل نفسك - عزيزي القارئ يا من تعتبر نفسك من أهل الإسلام الذين يلتزمون بتعاليم القرآن- تخيل أنك تملك علماً كعلم هذا الرجل، فتمر على الأرض، فتحيط خبرا بما هو مدفون في داخلها من الكنوز، فما الذي ستفعله إذاً؟ هل كنت ستستطيع أن تصبر على ذلك؟ هل تستطيع أن لا تنبش الأرض لتستخرج ما في باطنها من الكنوز؟ هل لو كانت تلك الأرض التي تحتوي في باطنها الكنوز الوفيرة ليست ملكاً لك، وإنما ملكا للآخرين، هل كنت ستتركها لهم؟ وماذا يفعل لصوص الليل الذين يحملون فؤوسهم ولا يتركون قطعة أرض يظنون أن بها شيئاً دفيناً إلا وينبشوها وهي ليست ملكاً لهم؟ ألا نراهم في اليوم التالي يصطفون في الصلاة ويزاحمون الناس على الصف الأول لما به من خير (كما تعلموا من مشايخهم)؟ ألا نراهم يلحّون في السؤال عن مشروعية استخدام السواك بعد العصر للصائم؟ من يدري!!!

ولكن ماذا كنت ستفعل أنت أيها المسلم لو فعلا كنت تملك علماً كعلم هذا الرجل، علماً يمكنك من معرفة ما في باطن الأرض من الكنوز؟

تخيلات من عند أنفسنا (1): نحن نظن أن الغالبية العظمى من الناس (ممن يظنون أنهم من أهل الإسلام بالطبع) لن تصبر على ذلك، وستنبش الأرض لتستخرج تلك الكنوز وإن لم تكن من حقهم.

تخيلات من عند أنفسنا (2): لكننا نظن أن الخير لم يعدم كلّياً من بين الناس، فهناك – في ظننا- قلة قليلة يمكن أن تتصرف بطريقة أكثر تهذيباً وذلك ربما لتوافر الوازع الإيماني عندهم كأصحاب اللحى والعمائم، أتدرون ما يمكن أن يفعل هؤلاء يا سادة إن هم أحاطوا علماً بما في داخل الأرض من الكنوز؟

رأينا: نحن نظن أنهم سيتوجهون فوراً إلى أقرب بنك إسلامي (بغض النظر عن الفرع) للحصول على قرض (طبعاً حلال) ليشتروا قطعة الأرض التي تحتوي في باطنها الكنز، فسيدفعون لأصحاب الأرض ثمناً بخساً دراهم معدودة ليستخرجوا هم من باطن الأرض الكنوز الوفيرة، فيأكلونها ويتنعمون بها، ظانين أنه هنيئاً مريئا بالطبع. من يدري!!!

لكن يبقى السؤال - يا سادة- أهذا هو الدرس الذي يمكن أن نتعلمه من قصة موسى مع صاحبه من حادثة بناء الجدار على الكنز؟

رأينا: كلا وألف كلا، إن ما في كتابنا الكريم يأمرك أيها المسلم أنه مهما بلغت بك الحاجة (وإن وصلت بك إلى درجة الجوع) بأن لا تعتدي على ما هو ليس رزقاً لك، فما دام أن الله قد أوجد ذلك الكنز في أرض غير أرضك، فهو إذن ليس رزقاً لك، بل هو رزق لأصحابه، ويصبح من واجبك أن تحاول أن تحافظ عليه كما فعل ذلك الرجل الصالح صاحب موسى حتى لا يقع في أيدي ضعاف النفوس.

وهناك في الجهة المقابلة لصورة هذا الرجل الذي كان يملك هذا العلم العظيم (فلم يستخدمه لجشع في نفسه) تقع صورة قارون، الذي قال الله في حقه:

- إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) القصص

ولكن كان رده المباشر على ذلك:

- قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78) القصص

نعم، لقد كان عند قارون ذلك العلم الذي تحصل به على كل تلك الكنوز، فهو – برأينا- الصورة المطابقة في العلم والمعاكسة في التصرف لصاحب موسى، ففي حين أن صاحب موسى كان يجد الكنز فيحافظ عليه لأصحابه، كان قارون لا يترك كنزاً في باطن الأرض إلا وينبشه ليضعه في خزائنه.

والقصة لم تنتهي منذ قارون إلى يومنا هذا، فها هو صاحب السلطان لا يترك كنزاً مدفونا في داخل الأرض إلا ويستخرجه، ويسلبه من أصحابه ليضعه في خزائنه، ثم ها هو يخرج على الأمة في احتفالاتها الدينية والفكرية لينظّر عليهم في الفكر الديني، أليست هذه هي المهزلة بعينها؟ من يدري!!!

وها هو رجل الدين الذي لا يترك تعويذة (ولا بخوراً هندياً قديماً أو صينياً حديثاً مقلدا) إلاّ ويتحايل بها على المغفلين ليشاركهم ما يستخرجون من باطن الأرض التي ليس لأحد منهم حق فيها، وهو يتلوا على مسامعهم آيات الكتاب الحكيم ليظن هؤلاء المغفلون أنه هو من أوصلهم إلى هذا الكنز الدفين، أليست هذه هي المهزلة بعينها؟ من يدري!!!

وها هو الجار "المسلم" الذي إن علم أن في أرض جاره شيء دفين بات ليله يفكر في كيفية استغفال جاره لينبش الأرض ويستخرج ما في باطن أرض جاره وهو الذي يقرأ في صلاته الجهرية والسرية:

- **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (36) النساء**

أليست هذه هي المهزلة بعينها؟ من يدري!!!

يا ليت علماؤنا الأجلاء قد أوصلوا للناس درساً مستفاداً من قصة موسى وصاحبه من بناء الجدار وأفهموا العامة معنى السرقة، وكيف يصبح من واجب المسلم أن يحافظ على رزق غيره حتى وإن كان في أمس الحاجة إليه. (طيب وأنا شو دخلني بالسوالف هاي، لنعد إلى قصة الرجل)

عودة على بدء: قصة بناء الجدار

لماذا بنا الرجل الجدار لأهل القرية وهم الذين أبوا أن يضيفوهما؟

حاولنا أن ننبش في كتب التفاسير عن هذه القصة علّنا نجد جواباً على تساؤلنا هذا، وكلما نبشنا أكثر كلما رسخت القناعة عندنا أننا نضيع وقتنا في أقوال وآراء كان من المستحسن أن توضع في recycle bin أساساً، فهي – في ظننا- لم تكن يوماً أكثر من شطحات وتخيلات لا تستند إلى دليل ولا تدعمها الحجة، فآثرنا - كالعادة- أن نحاول أن نحبك خيوط القصة من جديد علّنا بحول الله وتوفيق منه أن نصل إلى تصورات ربما تكون أكثر دقة لأحداث القصة كما حصلت فعلاً، لا كما أراد غيرنا أن ينخرها في أذهاننا طواعية فإن أبينا فكراهية.

بناء الجدار: تصور جديد من عند أنفسنا

عند التعرض لهذه القصة تطير إلى الأذهان تساؤلات كثيرة جداً نذكر منها:

- ما هي تلك القرية التي مروا عليها؟
- لماذا استطعما أهلها؟
- من هم أهلها أولئك الذين استطعموهما؟

- لماذا رفض أهل القرية أن يضيفوهما؟
- لماذا أقام صاحب موسى الجدار بالرغم أن أهل القرية قد أبوا أن يضيفوهما؟
- لماذا أقام صاحب موسى الجدار بنفسه؟
- لماذا لم يساعد موسى صاحبه في إقامة الجدار؟
- من هم اليتيمان اللذان كان الجدار لهما؟
- لماذا طلب موسى من الرجل أن يتخذ أجرا على عمله؟
- ومن الذي يمكن أن يطلب منه الرجل أجرا على عمله وهم الذين أبوا أصلاً أن يضيفوهما؟
- وماذا لو فعلاً طلب الرجل الأجر، هل كان أهل القرية سيدفعون لهم أجرا؟
- ألا يمكن أن يكون ردهم على نحو "أننا لم نطلب منكم القيام بذلك"؟
- وكيف أوّل الرجل ذلك لموسى؟
- وكيف فهم موسى تأويل الرجل لفعلته تلك؟
- وأخيراً هل فهمت أنت – عزيزي القارئ- من تأويل الرجل لموسى شيئاً؟
- وهل أدركت حكمة من وراء ذلك كله؟
- الخ.

هذه – برأينا- مجموعة قليلة من الأسئلة التي يمكن إثارتها حول القصة، ولابد من إيجاد التبريرات المرضية لها إن نحن كانت غايتنا فهم ما حصل فعلاً، وإلا لبقي فهمنا للأحداث فهماً عقائدياً مدفوعاً بمبدأ التسكيت الذي مفاده: هذا ما قاله السادة العلماء وعليك إن تؤمن به وإلا رموك في نار جهنم لأنك خرجت عن الجماعة، وخالفت أسيادك من أهل الدراية وكذبت مشايخك من أهل الرواية، فالويل كل الويل لك لأنك أصبحت في خطر عظيم.

إذا كان المنطق على هذا النحو وهو القبول بالأمور عنوة دون تدبر، فإني استميحكم العذر - يا سادة- بالخروج شيئاً عن إجماع أهل الدراية لأضع بين أيديكم في الصفحات القليلة التالية فلتات ذهنية هي – لا شك- من عند نفسي حول القصة، وأترك للقارئ الكريم الحكم على ما نفتريه من عند أنفسنا، ومنهاجنا الموجه إلى سادتنا العلماء ملخصه ما جاء في كتاب الله:

- **قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (25) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (26)** سبأ

دعاء: اللهم رب اجمع بيننا ثم افتح بيننا بالحق وأنت الفتاح العليم

أما بعد،

إن أول ما دعانا أن ننفلت لنطعن في تفسيرات من سبقونا لهذه القصة ملاحظة بسيطة غاية في الأهمية نظن أن جميع التفسيرات السابقة قد غفلت عنها يتلخص مفادها في الإجابة على التساؤل التالي: أين هم اليتيمين أصحاب الجدار؟

للإجابة على هذا التساؤل كان لابد – برأينا- من التطرق إلى أسئلة ذات صلة بهذا السؤال الرئيس نذكر منها: هل فعلاً قابل موسى وصاحبه اليتيمين؟ وإذا كانا قد قابلاهما، فكيف بموسى يطلب أجراً على عمل يقوم به للأيتام؟ أهي من أخلاق موسى النبي أن يعلم أن الجدار لليتيمين ويقوم بعد ذلك بطلب الأجر على عمل يقوم به لهما؟ ألم يكن موسى يغيث الملهوف ولا يتخذ على ذلك أجرا؟ هل نسينا قصة موسى مع المرأتين على ماء مدين؟ ألم يسقي لهما ويتولى إلى الظل ليطلب الرزق من ربه؟ فما بال موسى - يا سادة- يطلب الأجر على فعل يخص أيتاماً؟ لم لا يتولى إلى الظل ليطلب الرزق من ربه هذه المرة أيضاً؟

جواب: إن الجواب الجاهز عند كل من تطرح على مسامعه هذه التساؤلات هو أن موسى لم يكن يعلم أن الجدار يخص اليتيمين، وإلا لما طلب أجراً على ذلك، وأن صاحب موسى هو من كان يعلم أن الجدار يخص اليتيمين.

رأينا: هذا صحيح، موسى لم يكن يعلم أن الجدار يخص اليتيمين، وصاحبه هو من كان يعلم أن الجدار يخص اليتيمين وهذا واضح من تأويل الرجل للحدث:

- **وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (82) الكهف**

لكن هذا الجواب يعيد إلى الأذهان التساؤل نفسه: لماذا لم يعلم موسى أن الجدار كان يخص اليتيمين فيسكت فلا يطلب على ذلك أجرا؟ وأين هم (اليتيمين أقصد) أصلاً؟

رأينا: اليتيمان كانا في المدينة **"وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ"** وليس في القرية التي وجدا فيها الجدار. دقق - عزيزي القارئ- في هذه المعلومة البسيطة جداً: الغلامان اليتيمان كانا في المدينة بينما كان الجدار في القرية:

- **فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77) الكهف**

قارن – عزيزي القارئ- بين الحدث وتأويله كما يرد في كتاب الله، في الجدول التالي:

الحدث	التأويل
فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا (77) الكهف	وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا (82) الكهف

نتيجة: لقد مر موسى وصاحبه على أهل قرية وهناك وجدا الجدار الذي يريد أن ينقض، فما كان من صاحب موسى إلى أن يعمد إلى إقامة الجدار على الكنز لأن ذلك الجدار كان لغلامين في المدينة، لذا في حين أن الجدار كان في القرية كان صاحباه اليتيمين في المدينة.

إن هذا الفهم يقودنا على الفور إلى طرح التساؤلات التالية:

- من هم أهل القرية الذين أتوا عليهم؟
- ولماذا أبوا أن يضيفوهما؟
- ولماذا عمد الرجل الصالح إلى إقامة الجدار بالرغم أن أهل القرية قد أبوا أن يضيفوهما؟

افتراء من عند أنفسنا: عندما نستطيع أن نتفهم أن الجدار كان في القرية وأن صاحبيه الغلامين اليتمين كانا في المدينة ربما نستطيع أن نتخيل من هم أهل القرية اللذين أبوا أن يضيفوا موسى مع صاحبه، ولكن كيف؟

رأينا: غالباً ما غلفت التفسيرات السابقة هذه القصة بالفهم الشعبي بأن من يأبى أن يضيف الزائر فهو بلا شك شخص بخيل، لذا انهال أهل الدراية على أصحاب تلك القرية بالاتهام بالبخل، وكالوا لهم كل التهم التي لا تليق بأخلاق العرب أصحاب الضيافة والكرم ولا تليق بأخلاق المسلمين وهم أصحاب الدين المستقيم الذي يحث على إكرام الضيف. لكننا نستميح سادتنا العلماء العذر لنقول بأن الصورة كانت معكوسة تماماً. ولكن كيف؟

رأينا المفترى: لمّا كان الجدار في القرية، ولمّا كان صاحباه اليتيمين في المدينة، كان من مر عليهم موسى وصاحبه من أهل القرية ليسوا أكثر من عمال يخدمون أرض الأيتام، وهم مؤتمنون عليها، وما كان لهم حق في أن يضيفوا أحداً على مال ليس من مالهم، فهم يعملون في أرض الأيتام ويقومون على خدمتها، ولما كانوا (برأينا على عكس ما ظن أسيادنا من أهل العلم) أصحاب ضمائر حية وأصحاب عقائد سليمة، كان عليهم أن يحافظوا على أموال الأيتام ولا يتصرفوا بشي منها:

- وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (152) الأنعام
- وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (34) الإسراء

نعم، نحن نظن أن أهل تلك القرية الذين أتى عليهم موسى مع صاحبه كانوا موكلين بأموال اليتامى حتى يبلغ الأيتام أشدهم، ونحن نظن أنهم كانوا أصحاب عهد وهم يعلمون أن العهد كان مسئولا (انظر الآية السابقة جيداً)، لذا نحن نتخيل أنهم قد أبوا أن يضيفوا موسى وصاحبه ليس بخلاً ولا شحاً وإنما حفظاً للأمانة ورعاية للعهد. من يدري!!!

لذا نحن نتخيل أنه لمّا وجد منهم ذلك الرجل الصالح أنهم يحافظون على أموال الأيتام كما يجب، فلا يفرطون بها ويرعون العهد في ذلك، ما كان منه إلا أن شمّر عن ساعديه ليساعدهم على المحافظة على رزق أولئك الأيتام بإقامة الجدار الذي يريد أن ينقض، فلو دققنا النظر في النص جيدا لوجدنا بكل سهولة ويسر أن الجدار لم يكن قد انقض بعد ولكنه كان يريد أن ينقض:

- فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77) الكهف

فالرجل يرى حجم العمل الذي كان يقوم به هؤلاء المؤتمنون على أرض الأيتام ويرعون العهد فيهم، فيحاول أن يساعدهم ليخفف عنهم جزء من العناء الذي يتكبدونه مقابل ما رأى من أمانتهم وحفظهم للعهد. والله أعلم.

من الذي أقام الجدار؟

ولو دققنا في النص أكثر لوجدنا أن الذي وجد الجدار في القرية هما موسى وصاحبه ولكن الذي أقامه هو صاحب موسى فقط، انظر – عزيزي القارئ- إلى التناوب في اللفظ في الآية نفسها:

- ..... فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ......... (77) الكهف

نتيجة: موسى وصاحبه وجدا الجدار ولكن الذي أقامه هو صاحب موسى فقط.

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نتخيل المشهد على النحو التالي: جلس موسى (ربما) غاضباً من فعلة صاحبه الرجل عندما أبى أهل القرية أن يضيفوهما، ربما لأن موسى ظن (كما ظن سادتنا العلماء) بأن عدم استضافة أهل القرية لهم جاء من باب البخل، فجلس يرقب دون أن يشارك.

نحن نظن أن عدم مشاركة موسى الرجل في بناء الجدار كان له سبباً آخر وهو تقدم موسى في السن وعدم قرته الجسدية على المساعدة في عمل بدني كهذا.

ولم يكتفي بذلك بل سأل الرجل أن يطلب منهم أجرا مقابل ما فعل من بناء الجدار، ولكن الذي فهم السبب الحقيقي من وراء رفضهم تقديمهم واجب الضيافة لهم هو من شمّر عن ساعديه وقام ببناء الجدار لهما **"فَأَقَامَهُ"** ولم يطلب منهم أجرا على ذلك، لا بل وساءه تصرف موسى ذلك، فكانت تلك القصة هي سبب فراق الرجل لموسى:

- **قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (78) الكهف**

من هم اليتيمان؟

السؤال: من هم أولئك اليتيمان؟ ولماذا هما في المدينة؟ ولم لم يكونا في القرية عند جدارهما؟ وكيف فهم موسى تأويل الرجل للحدث فسكت على الفور؟ وهل فهمنا نحن ما فهمه موسى من تأويل القصة؟

جواب: إن هذه التساؤلات تعيدنا فوراً إلى طرح سؤال تعرضنا له في مقالاتنا السابقة يخص الفرق بين لفظتي القرية والمدينة في النص القرآني، لنطرح التساؤلات على النحو التالي:

- ما هي المدينة في النص القرآني؟
- ما هي القرية في النص القرآني؟
- كيف تختلف القرية عن المدينة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: كل مدينة هي قرية ولكن ليس كل قرية هي مدينة، ولكن كيف؟

لقد تعرضنا في مقالة سابقة لنا تحت عنوان لماذا قدم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه؟ لهذا التساؤل، ونحن لا نجد ضيراً في إعادة جزءاً كبيرا مما افتريناه هناك متعرضين للفرق بين مفردتي المدينة والقرية في النص القرآني، فزعمنا القول بأن ما يميز المدينة عن القرية في النص القرآني - حسب ظننا- ليس عدد السكان أو المساحة الجغرافية (كما يفضل الكثيرون الآن الفصل بينهم)، ولكنها المكانة السياسية، فالقرية هي قرية والمدينة هي قرية كذلك، فعندما تحدث القرآن الكريم عن مكان سكن قوم لوط الذين أنزل الله عليهم العذاب تحدث عنهم تارة بلفظة القرية:

- **وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَـٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (31) العنكبوت**
- **وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (33) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَـٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (34) العنكبوت**

وتارة أخرى بلفظة المدينة:

- فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (65) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (66) وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (67) الحجر

فافترينا عندها القول بأنه متى كانت القرية هي نفسها العاصمة السياسية للدولة، أصبحت (بالإضافة إلى أنها قرية) مدينة. فلا نجد في كتاب الله لفظة المدينة ترتبط بقرية إلا إذا كانت تلك القرية هي العاصمة السياسية للدولة.

الدليل: أولاً، لنقرأ في قصة موسى مع فرعون حيث تحصل أحداثها في المدينة (وليس فقط في قرية عادية):

- قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (123) الأعراف
- وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (15) القصص
- فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (18) القصص

ثانياً، لنقرأ في قصة يوسف حيث تحصل أحداثها في المدينة:

- وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (30) يوسف

ثالثاً، لنقرأ في قصة أهل الكهف الذين نظن أنهم قد هربوا من ذلك الظالم الذي يحكم المدينة خوفاً على دينهم يبعثوا من مرقدهم، فيحاولوا إرسال أحدهم متخفياً إلى المدينة (فلو كان في قرية أخرى غير المدينة التي هربوا منها لما كانوا بحاجة أن يخفوا هويتهم):

- وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (19) الكهف

رابعاً: وها هو موسى مع صاحبه يرفعون جدارا في القرية يملكها يتيمين في المدينة:

- فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77) الكهف
- وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (82) الكهف

خامساً، وها هو رسول الله محمد يستقر في يثرب فتصبح على الفور مدينة (بعد أن كانت قرية):

- وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (101) التوبة
- مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (120) التوبة

سادساً، وها هي مكة (على مكانتها) لم تكن يوماً مدينة وإن كانت هي أم القرى:

- وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (92) الأنعام
- وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (7) الشورى

صحيح أن نيويورك أكثر أهمية من الناحية الاقتصادية والعمرانية والسكانية من واشنطن إلا أن نيويورك بمفردات القرآن ليست المدينة لأن العاصمة السياسية للدولة واشنطن هي فقط ما يمكن أن يطلق عليه اسم المدينة، فتبقى نيويورك قرية (وربما أم القرى) في السياق القرآني بينما تصبح واشنطن هي القرية المدينة.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: إننا نعتقد جازمين أن السبب في تسمية يثرب بالمدينة كان بسبب مكانتها السياسية التي اكتسبتها بعد أن هاجر إليها محمد واتخذها عاصمة سياسية للدولة الناشئة. فقد كانت مكة في ذلك الوقت أكثر أهمية من الناحية الدينية أو الاقتصادية أو حتى السكانية (من حيث العدد)، إلا أن مكة لم تصبح يوماً مدينة ولكنها بقيت أم القرى.

ما علاقة ذلك بقصة اليتيمين والجدار؟

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نتخيل الموقف على النحو التالي: موسى يذهب مع صاحبه في رحلتهما باتجاه المكان الذي كانا ينويا الانطلاق إليه، وفي طريقهما إلى ذلك المكان يأتيا أهل قرية، فيستطعمها أهلها (ربما نتيجة المجهود البدني الذي بذلاه في السفر)، فيأبوا أن يضيفوهما. ونحن نفهم من السياق القرآني أن موسى وصاحبه قد تجاوزا البحر كثيرا وإلا لربما استطاعا أن يحصلا على طعام من البحر بدل أن يطلبوا الضيافة من أهل القرية، وهناك يأبى أهل تلك القرية أن يضيفوهما لأنهما (برأينا) لم يكونوا أكثر من مؤتمنين على أموال الأيتام التي يعود إليهما الكنز الموجود تحت الجدار، وكان اليتيمان من سكان المدينة، بالضبط كحال رجل ميسور الحال يسكن في المدينة ولديه من الأملاك في الأرياف ما يتخذ له من العمال من يقوم على رعايته، فلم يكن اليتيمان يتواجدان في نفس مكان الجدار وإلا لاستحال أن يقع في خاطر موسى أن يطلب الأجر من أيتام لقاء عمل قام به الرجل لهما. فموسى لم يكن يعلم أن الجدار يعود لأيتام ولم يكن قد قابل اليتيمين عند الجدار

لأن اليتيمين كانا من سكان المدينة (أي العاصمة السياسية آنذاك). وكان أهل تلك القرية هم من يقومون بواجب الحفاظ على أموال أولئك الأيتام فلم يكن لهم حق التصرف في أموال ليست ملكاً لهم، لذا أبوا (وليس فقط رفضوا) أن يضيفوا موسى وصاحبه، فلو راقبنا فعل "يأبى" في النص القرآني لوجدنا أنه يعني استحالة القيام بالفعل نتيجة مانع شرعي كما في السياق القرآني التالي:

- **يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (32) التوبة**

فمن الاستحالة أن لا يتم الله نوره، لأن تمام نور الله هي سنة الله التي لا محال حاصلة. لذا نحن نفتري الظن أنه مادام أن أهل المدينة قد "فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا" فيستحيل أن يقوموا بذلك مهما حاول موسى وصاحبه ذلك، لأن عدم تضييف أهل القرية لهم قد جاء عن مانع لامحالة نافذ.

وكما في السياق القرآني التالي:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (282) البقرة**

فمن الواجب الشرعي على الكاتب ومن الواجب الشرعي على الشهداء أن يقوموا بدورهم كما علمهم الله. وبالمنطق نفسه نقول أن أهل القرية كانوا يقومون بواجبهم كما علمهم الله وهو على نحو أن لا يقربوا هم بأنفسهم مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن وأن يوفوا بالعهد لأنهم على علم أن العهد كان مسئولا:

- **وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (34) الإسراء**

السؤال: كيف فهم موسى تأويل الرجل له للأمر؟ وما الذي أدركه موسى من كلام الرجل وكان قد خفي عليه من ذي قبل؟

افتراء من عند أنفسنا: لقد علم موسى من خلال كلام الرجل هذا من هم فعلاً هؤلاء الغلامين اليتمين، أي لقد تعرف على هويتهم، وأدرك في الوقت ذاته فداحة الخطأ الذي ارتكبه، وشحّ علمه مقابل ما تفضل الله به على هذا الرجل من علم لدني، ولكن كيف ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن كل ذلك جاء لموسى من العبارة التي قالها الرجل لموسى وهي **"وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ"**. فنحن نظن أن الفهم الحقيقي لهذه العبارة ستوصل لنا رسالة الرجل بكل سهولة

ويسر بحول الله وتوفيقه بالضبط كما فهمها موسى حينئذ فسكت ولم ينبت ببنت شفة (كما تقول العبارة التي لا أكاد أفهمها)، ولكن كيف ذلك؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن موسى أدرك أن الرجل يتحدث عن:

1- يتيمين اثنين.

2- هؤلاء اليتيمان كان يقطنان حتى الساعة في المدينة (وليس في القرية حيث الجدار).

3- كان أبوهما صالحاً.

إذن، كان على موسى أن يسترجع من ذاكرته شريط تاريخه وخبرته السابقة فوراً ليتحصل على المعلومات الضرورية التي ترشده إلى هوية هؤلاء اليتيمين، فماذا دار في ذهن موسى بعد مقوله الرجل هذه له؟

رأينا: نحن نظن أن موسى قد فهم على الفور أن الخطاب يخص يتيمين في المدينة، فكان عليه أن يجول في خاطره في تلك المدينة التي يتحدث عنها صاحبه، فما هي المدينة التي قصدها الرجل والتي أصبحت صورتها تجول في خاطر موسى حينئذ؟

جواب: إنها العاصمة السياسية حينئذ؟

سؤال: وما هي؟

افتراء خطير من عند أنفسنا: نحن نظن أن هذه المدينة التي لازال اليتيمان يسكناها هي المدينة نفسها التي دخلها موسى يوما على حين غفلة من أهلها:

- **وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (15) القصص**

لذا كان على موسى أن يتذكر على الفور أن الخطاب يخص يتيمين لازال يسكنان تلك المدينة. فالخطاب القرآني في حادثة الغلامين اليتمين وفي دخول موسى جاء بلفظ المدينة، ولم ترد لفظة المدينة في قصة موسى بأكملها إلا في هذين السياقين القرآنيين، لذا نحن نفتري أن تلك المدينة التي دخلها موسى يوماً على حين غفلة من أهلها هي المدينة نفسها التي لازال الغلامان اليتمان يسكنان فيها. فما هي تلك المدينة يا ترى؟

جواب: نحن نظن أن موسى قد أدرك أيضاً من خطاب الرجل أن أولئك اليتيمين هما غلامان لأب كان هو أيضاً متواجداً في المدينة، والأهم من ذلك أن ذلك الرجل كان صالحاً (وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا). فمن هو يا ترى ذلك الرجل الذي كان يسكن في المدينة وكان رجلاً صالحاً؟

رأينا: للإجابة على هذا التساؤل كان لابد من العودة والنبش في قصة موسى في المدينة من أولها إلى آخرها، وعندما حاولنا القيام بذلك وجدنا أن هناك على الأقل ثلاثة سيناريوهات محتملة وهي على النحو التالي:

1. الرجل المؤمن الذي كان يكتم إيمانه من آل فرعون:

- **وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28) غافر**

2. الرجل الذي كاد موسى أن يبطش به:

- **فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ(19) القصص**

3. الرجل الذي جاء من أقصى المدينة ليحذر موسى من الملأ الذين يأتمرون به

- **وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20) القصص**

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن والد الغلامين اليتيمين كان أحد هؤلاء الثلاثة، فمن هو يا ترى؟

افتراء رقم (1): نحن نعتقد جازمين أن اليتيمين لا يعودان للرجل الذي يكتم إيمانه من آل فرعون، ربما لسبب بسيط وهو أن ذلك الرجل كان مؤمنا "**وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ**"، لكن السياق القرآني الذي يتحدث عن والد هؤلاء اليتيمين يدلنا صراحة على أن الرجل كان صالحاً "**وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا**". لذا نحن نظن أنه لو كان ذلك الرجل المؤمن هو والد اليتيمين لربما جاء النص القرآني على نحو:

وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما مؤمنا (بدل صَالِحًا)، للتفصيل حول مفردة الصلاح وللتفريق بين الصلاح والإيمان نحن ندعو القارئ الكريم للرجوع إلى سلسلة مقالاتنا تحت عنوان: ماذا كتب في الزبور؟

افتراء رقم (2): نحن نعتقد أيضاً بأن والد الغلامين اليتيمين في المدينة لم يكن ذلك الرجل الذي أراد أن يبطش به موسى، لأسباب عديدة نذكر منها:

لم يكن ذلك الرجل من شيعة موسى بل كان من عدوه "**فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا**".

لا نظن أن من كان صالحاً سيقع في شجار بدني ربما يؤدي إلى قتل نفس بغير نفس **"قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ"**

نحن لا نملك دليلاً أن الرجل الذي كان موسى يريد أن يبطش به هو أصلاً من أهل المدينة، فلو تفقدنا النص كله لما وجدنا أن مفردة المدينة قد صاحبت هذا الرجل. انظر السياق مرة أخرى:

- **فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19) القصص**

افتراء رقم (3): يكاد الظن أن يميل إلى اليقين عندنا أن والد الغلامين اليتيمين اللذين في المدينة هو ذاك الرجل الذي جاء من أقصى المدينة ليحذر موسى من الملأ الذين كانوا يأتمرون به ليقتلوه، وهذا الظن مدفوع عندنا بمشاهدات عديدة، نذكر منها:

أن القرآن لم يذكر بصريح اللفظ بأن الرجل كان مؤمنا كما كان الحال بالنسبة لذاك الرجل الذي كان يكتم إيمانه من آل فرعون

أن هذا الرجل لم يكن من أعداء موسى كما كان الحال بالنسبة للرجل الذي أراد موسى أن يبطش به.

أن الرجل جاء محذراً موسى من مؤامرة الملأ، لذا فهو رجل لا يميل إلى سفك الدماء، بل يريد حقنها.

أن الرجل كان مِنَ النَّاصِحِينَ **"إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ"**، ولم يكن **"لَمِنَ النَّاصِحِينَ"**، فنحن نظن أن اللام بمفردة الناصح تدل على تدبير مكيدة كما في حالة إبليس عندما أوقع بآدم:

- **وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21) الأعراف**

وكما في حالة إخوة يوسف عندما أوقعوا بأخيهم:

- **قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (11) يوسف**

أما من جاء ناصحاً أو كان من الناصحين (دون هذه اللام المصاحبة) فإنه يكون من الدّالين على الخير كما في السياقات التالية:

- **أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (21) الأعراف**
- **فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (79) الأعراف**
- **وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (12) القصص**
- **وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20) القصص**

ونحن نظن أن ذاك رجل هو والد الغلامين اليتيمين لأنه هو الوحيد الذي قرنت معه في السياق نفسه لفظة المدينة:

- **وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20) القصص**

نتيجة: فبالرغم أن الرجل الذي كان يكتم إيمانه من آل فرعون كان متواجداً في المدينة، وبالرغم أن الرجل الذي كان موسى يريد أن يبطش به كان أيضاً متواجداً في المدينة، وبالرغم أن هذا الرجل أيضاً كان متواجداً في المدينة نفسها، إلا أنه هو الوحيد الذي اقترنت المدينة معه في السياق الذي يتحدث عنه **"وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ"**

وأخيراً، لو تدبرنا السياق القرآني لوجدنا أن هذا الرجل قد جاء موسى من أقصى المدينة، لنطرح عندها سؤالاً على النحو التالي: لماذا كان ذلك الرجل قادماً من أقصى المدينة، لم لم يأتي من المدينة نفسها؟

رأينا: نحن نظن أن الرجل كان يتخذ لنفسه في المدينة مكاناً قصيا:

- **فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (22) مريم**

وكان يحاول أن لا يختلط بالناس، ليتخذ لنفسه خلوة، فكان يرى ما كان يقوم به أهل المدينة (آل فرعون) من الفظائع والفساد في الأرض، ولكنه لم يكن يوافقهم على ذلك الفساد، وكان رجل يميل إلى الإصلاح.

وليس أدل على ذلك من قدومه إلى موسى ليحذره من الخطر الذي يهدده من مؤامرة الملأ به.

سنحاول أن نبيّن بحول الله وتوفيقه في الجزء القادم أن الرجل الذي كان يكتم إيمانه من آل فرعون هو الذي بعث هذا الرجل الصالح ليخبر موسى بما كان يدور في القصر بين الملأ من تآمر لقتل موسى.

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نظن أن الصورة التي تشكلت في ذهن موسى بعد أن أوّل له صاحبه العزيز قصة الجدار والكنز كانت على النحو التالي: موسى يعلم الآن أن الحديث عن غلامين يتيمين في المدينة، وهي المدينة نفسها التي دخلها يوماً على حين غفلة من أهلها، وقتل فيها نفساً وأراد أن يبطش بالأخرى في اليوم التالي عندما كانت المدينة غارقة في فوضى بعد موت الفرعون الأول وخلال فترة انتقال الحكم إلى الفرعون الثاني (انظر الأجزاء الأولى من هذه المقالة)، وهناك في المدينة (كما يعلم موسى) فأن أهلها كانوا مفسدين:

- **ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (103) الأعراف**

ولكن موسى يعلم في الوقت ذاته أن في تلك المدينة كان هناك رجل يتخذ مكان قصيا **"وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ"**، ولم يكن يشارك أهل المدينة فسادهم، وكان رجل لا يحب سفك الدماء، لا بل يريد الإصلاح، لذا نحن نظن أنه نفسه هو الذي جاء ذكره في الآيات الكريمة التالية:

- **وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20) القصص**

- وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) يس

فالرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى "**وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ**" ليحذر موسى من مؤامرة الملأ هو نفسه الذي جاء من أقصى المدينة يسعى مرة أخرى "**وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ**" ليقول للقوم أن يتبعوا المرسلين.

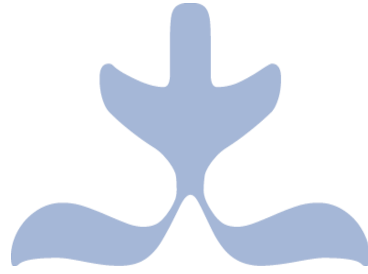
نتيجة مفتراة: نحن نتخيل أن رسالة صاحب موسى لموسى حول الغلامين اليتيمين اللذين أقام لهما الجدار كان مفادها ما يلي: أتدري يا موسى من هؤلاء اليتيمين اللذين أقمت لهما الجدار وتريد مني أن أتخذ على ذلك أجرا؟ إنهما (يا موسى) يتيمان ذاك الرجل الصالح الذي تعرفه في المدينة (التي كان أهلها مفسدون)، وهو نفسه الذي جاءك يوماً محذراً لك من مؤامرة الملأ بك. أتريدني الآن (نحن نتخيل الرجل يقول لموسى) أن أتخذ أجرا من مال اليتيمين اللذين ساعد والدهما في نجاتك (بحول الله وتوفيقه) من بين أيدي آل فرعون الذين كانوا يأتمرون بك ليقتلوك؟ أهذا هو علمك يا موسى؟ ألا ترى أنك لا تستطيع معي صبرا؟

النتيجة:

- قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (78) الكهف

وللحديث بقية.

دعاء: فالله وحده أسأل أن يؤتيني رحمة من عنده وأن يعلمني من لدنه علماً، وأسأله وحده أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يجعل فضله عليّ عظيما، والحمد لله رب العالمين.



الجزء السابع

باب العزير

(4)



باب العزير (4)

حاولنا في الأجزاء السابقة من هذا الكتاب تسويق افتراء من عند أنفسنا مفاده أن الشخص الذي ذهب موسى ليطلب العلم من عنده هو العزيز الذي نسب إليه يهود صفة الألوهية عندما ظنوا أنه ابن الله كما فعلت النصارى من بعدهم عندما نسبوا ذلك لنبيهم عيسى بن مريم:

- وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (30) التوبة

وظننا أن هذا الشخص هو نفسه الذي مرّ على تلك القرية الخاوية على عروشها وطلب من ربه أن يريه كيف يحي الموتى فأماته الله مئة عام ثم بعثه:

- أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259) البقرة

فكان هذا الرجل هو من جعله الله آية للناس "**وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ**" كما كان عيسى بن مريم آية للناس:

- قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (21) مريم

(للتفصيل انظر الأجزاء السابقة من هذا الكتاب)

وعندما ذهب موسى ليطلب صحبته وجده زاهدا في ذلك، لأن موسى لا يستطيع – كما أخبره الرجل بذلك- أن يصبر على صحبته:

- قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (68) الكهف

ولكن إصرار موسى دفع الرجل أن يثبت له بالتجربة العملية عدم قدرته على صحبته، فوافق على مصاحبة موسى شريطة أن يسكت موسى على ما يرى من فعل الرجل:

- قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أمْرًا (69) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (70) الكهف

ولكن نبوءة الرجل قد صدقت بعدم قدرة موسى على الصبر معه، فما طاق موسى ذرعا بما فعل الرجل، فظهرت معارضته في ثلاث مواقف وهي:

1. خرق السفينة
2. قتل الغلام
3. بناء الجدار

وقد حاولنا أن ننبش في تفاصيل هذه المواقف، فبدأنا الحديث في الجزء السابق على وجه التحديد من عند قضية بناء الجدار، وكان الافتراء الأكبر الذي سقناه حينئذ أن الجدار الذي كان في القرية:

- **فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77) الكهف**

كان مملوكا لغلامين في المدينة:

- **وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (82) الكهف**

وأن والد هذين الغلامين كان هو نفسه ذلك الرجل الصالح الذي جاء محذرا موسى من البقاء في المدينة عندما قتل رجلا من بني إسرائيل يوم أن دخل المدينة على حين غفلة من أهلها:

- **وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (15) القصص**

فهو – في ظننا- الرجل نفسه الذي جاء من أقصى المدينة يسعى ليحذر موسى من مؤامرة الملأ به فنصحه بالخروج منها:

- **وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20) القصص**

وما أن أدرك موسى ضعف علمه مقابل علم هذا الرجل الذي يصحبه (وهو العزير) حتى كان ذلك سببا كافيا في أن يتقبل طلب الرجل له بأن يفارقه:

- **قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (78) الكهف**

فترك موسى الرجلَ وشأنه لعدم استطاعته على صحبته كما جاء في نبوءة الرجل له عندما جاءه موسى طالبا صحبته في بداية القصة:

- **قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67) الكهف**

بعد أن أثبت له بالخبرة العملية أنه لن يستطيع معه صبرا:

- **قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (72) الكهف**
- **قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا (75) الكهف**

(للتفصيل انظر الجزء السابق)

وسنتابع في هذا الجزء من الكتاب وفي الأجزاء القادمة الحديث عن قصة موسى مع هذا الرجل لنتعرض على وجه التحديد إلى ثلاثة أسئلة رئيسة وهي:

1. كيف يمكن أن نفهم قصة قتله للغلام الذي لقياه؟
2. كيف يمكن أن نفهم قصة خرقه لسفينة المساكين؟
3. من هو ذلك الرجل؟ وأين يمكن أن نجده؟

وسنحاول في هذا الجزء من الكتاب على وجه التحديد أن نتطرق (بحول من الله وتوفيق منه) للتساؤل الأول وهو: كيف نفهم قصة قتل هذا الرجل للغلام الذي لقياه في الطريق؟ على أن نتابع (إن أذن الله لنا بشيء من علمه) في الأجزاء اللاحقة النبش في التساؤلين الأخريين.

أما بعد،

باب قتل الرجل للغلام

- **فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (74) الكهف**

التساؤلات المطروحة:

- لماذا قتل الرجل (صاحب موسى) الغلام الذي لقياه؟
- من هو ذلك الغلام الذي قتله؟
- كيف أعطى الرجل لنفسه الحق بأن يقتل غلاما؟
- كيف أولّ الرجل القصة لموسى؟
- هل تأويل الرجل هذا لموسى مقنعا؟
- كيف فهم موسى تأويل الرجل لحادثة القتل فسكت على ذلك وتقبله؟
- هل هذا التأويل مقبول لنا نحن الذين نقرأ القصة من كتاب الله؟
- الخ.

لماذا قتل الرجل الغلام؟

بداية نحن نظن أن قتل النفس مبررا في كتاب الله في حالتين اثنتين لا ثالث لهما، وهما:

1. قتل النفس بالنفس
2. محاربة الله من أجل الفساد في الأرض

وهذا ما نفهمه من الآيات الكريمة التالية:

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاء تْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (32) إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (33) المائدة

ولو دققنا في ردة فعل موسى على حادثة قتل صاحبه للغلام لما ترددنا أن نستنبط أن موسى قد ظن بأن قتل الرجل للغلام يقع في باب قتل النفس بغير نفس:

- فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (74) الكهف

فلقد ظن موسى – نحن نفتري القول- بأن ما فعله الرجل يمكن أن يقارن بما فعله هو نفسه عندما قتل نفسا وأقدم على قتل الآخر:

- فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19) القصص
- إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (40) طه

وهنا تبدأ أولى حلقات ضعف علم موسى تبين مقابل ما كان لهذا الرجل من علم علمه إياه ربه:

- فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (65) الكهف

ونحن نظن – مفترين القول من عند أنفسنا- أن موسى قد أخطأ في تفسيره للسبب الذي من أجله قتل صاحبُه الغلامَ، فلقد ظن موسى أن قتل النفس هنا يقع في باب قتل نفس بغير نفس، ولربما غفل موسى – نحن نظن- أن قتل النفس يمكن أن يبرر إذا كان بحق من يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا كما تنص على ذلك الآية الكريمة التي ذكرناها آنفا ونعيدها هنا لتأكيد الفكرة:

- مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاء تْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (32) المائدة

وقد جاء الجزاء بالقتل لمن يفسد في الأرض صريحا بلفظ القرآن نفسه في الآية الكريمة التالية:

- إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (33) المائدة

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن السبب الذي دفع بالرجل (صاحب موسى) أن يقتل الغلام لم يكن من باب قتل النفس بالنفس وإنما كان – برأينا- من باب كف الفساد من الأرض لأن هذا الغلام كان من الذين يحاربون الله ورسوله. لذا نحن نتجرأ على القول بأن عدم قتل الرجل لذاك الغلام كان يمكن أن يؤدي إلى فساد في الأرض، وما جاء قتل الرجل للغلام (عن علم) إلا لكف ذلك الفساد.

- فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (251) البقرة

فنحن نظن أن صاحب الغلام قد دفع فتنة أكبر من القتل عندما أقدم على قتل الغلام:

- ... وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (217) البقرة

السؤال: ما هو الفساد (أو لنقل الفتنة) الذي كان يمكن أن يحدثه هذا الغلام؟ أو ما هو الفساد الذي كان هذا الغلام قد أحدثه من ذي قبل؟

الجواب: أن يرد والديه عن دينهما:

- وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) الكهف

السؤال: فمن هو هذا الغلام؟

أولا، نحن نظن أن الإجابة يمكن أن تستنبط من قوله تعالى:

- وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ (205) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (206) البقرة

فذاك الغلام كان ممن يسعون في الأرض ليحدث فيها الفساد، وإذا ما قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم، فمن هو؟ من يدري!!!

ثانيا، نحن نظن أن ذاك الغلام لم يكن فقط ممن يسعون في الأرض فسادا ولكنه كان أيضا من الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا:

- إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (33) المائدة

ثالثا، وهو – برأينا- من الذين كان من الممكن أن يوقدوا نار للحرب سعيا لإحداث الفساد في الأرض:

- وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (64) المائدة

ونحن نفتري القول من عند أنفسنا أنه لن يكون أقل فسادا من قارون نفسه الذي حاول قومه أن ينصحوه بأن يكف عن الفساد في الأرض فما أفلحوا في جهدهم ذاك:

- إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77) القصص

رابعا، ونحن على يقين بأن ذلك الفتى لن يكون من الفائزين في الدار الآخرة لأنه كان من الذين يردون الفساد في الأرض:

- تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83) القصص

وهذا يدعونا إلى الاعتقاد (ربما مخطئين) بأن فعل هذا الغلام سيكون أقرب إلى فعل قارون منه إلى فعل فرعون، ففي حين أن فرعون كان من الذين يريدون علوا في الأرض كان قارون من المفسدين:

- إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) القصص
- إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77) القصص

لذا نحن نتجرأ على الاستنباط (ربما مخطئين) أن هذا الغلام كان أقرب في فعله إلى ما فعله قارون منه إلى ما فعله فرعون. وهو - بلا شك- على النقيض تماما من موسى الذي كان يريد أن يكون من المصلحين:

- **فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19) القصص**

ففي حين أن موسى كان يريد أن يكون من المصلحين (وإن كان قد قتل نفسا)، إلا أن فرعون قد نسب إليه فعل إظهار الفساد في الأرض:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (26) غافر**

خامسا، وهذا الغلام – نحن نتخيل- كان من قوم فرعون الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد:

- **وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) الفجر**

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن صاحب موسى كان يريد من وراء قتله ذلك الغلام أن يكف الفساد من أن يظهر في البر والبحر:

- **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (41) الروم**

ونحن نظن أن ذاك كان من باب دفع الناس بعضهم ببعض حتى لا يكثر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس:

- **فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (251) البقرة**
- **الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40) الحج**

السؤال: ما هو الفساد الذي كسبته (أو كان يمكن أن تكسبه) يد هذا الغلام؟

جواب مفترى: للإجابة على هذا السؤال لابد من التعرض للسؤال التالي وهو: من هو هذا الغلام الذي قتله صاحبُ موسى؟

افتراء خطير جدا جدا من عند أنفسنا: نحن نظن مفترين القول من عند أنفسنا أن الغلام الذي قتله صاحبُ موسى هو من جاء خبره في الآية الكريمة التالية:

- وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (18) الأحقاف

الدليل: لو تدبرنا تأويل صاحب موسى لقتله ذاك الغلام لوجدنا أن أبواه كانا مؤمنين:

- وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) الكهف

وأن السبب الذي دفع بصاحب موسى أن يقتل الغلام يعود إلى الخشية من أن يرهقهما طغيانا وكفرا **"فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا"**. وأن الإرادة **"فَأَرَدْنَا"** كانت منصبه على أن يبدلهما الله خيرا منه زكاة وأقرب رحما:

- فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (81) الكهف

فالقصة تدور – كما نتخيلها- حول عائلة فيها غلام قد خرج عن دعوة والديه اللذين كانا يستغيثان الله **"وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ"** لدعوته إلى الإيمان **"وَيْلَكَ آمِنْ"** ويحذرانه من وعد الله الحق **"إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ"**، فما كان رده إلا أن وضع ذلك كله في باب أساطير الأولين **"مَا هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ"**.

ولو تدبرنا الآية الكريمة في سياقها القرآني الأوسع، لوجدنا التقابل بين من كان بارا بوالديه:

- وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (16) الأحقاف

ومن كان غير بار بهما:

- وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (18) الأحقاف

وهو الذي نظن أن الآية الكريمة تتحدث عنه. لكن السؤال الذي يبقى قائما هو: كيف علم صاحب يوسف بخبر هذا الغلام؟ وهل ما قاله لموسى يكفي أن يكون سببا مقنعا لقتله الغلام؟

جواب: نعم، نحن نظن أن الرجل صاحب موسى كان عنده ما يكفي من العلم ليبرر قتله الغلام. وأين الدليل على ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن الدليل متوافر في ما قاله الغلام لوالديه وهو **"أُفٍّ لَّكُمَا"** فما معنى قول الغلام لوالديه **"أُفٍّ لَّكُمَا"**؟

جواب: غالبا ما ساق أهل العلم الآية الكريمة التالية لتدل على ضرورة البر بالوالدين:

- **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23) الإسراء**

وقد صوّر علماؤنا الأجلاء التأفف للوالدين بأنه " أدنى مراتب القول السيئ". ونحن نرى ضرورة مخالفة أهل الدراية الرأي وذلك لظننا أن هذا يجعل ما جاء بعده من قول غير ضروري في الآية الكريمة نفسه. فانظر - عزيزي القارئ- الآية جيدا، ثم تدبرها من هذا الجانب خاصة قوله تعالى: **"فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا"**.

فإذا كان التأفف – نحن نستغرب- هو أدنى مراتب القول السيئ **"فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ"**، فلم ينهانا الله عن ما هو أكبر منه وهو نهرهما **"وَلَا تَنْهَرْهُمَا"**، فمراد القول هو إذا كان الله قد نهانا أن نقول لهما أف (كأدنى مراتب القول السيئ) فهل نحتاج بعد ذلك أن ينهانا الله عن ما هو أكبر منه **"وَلَا تَنْهَرْهُمَا"**؟

جواب مفترى، كلا وألف كلا لأنه بمجرد أن نكون منهيين أن نقول لهما أف كأدنى مراتب القول السيئ فإن ما هو أكبر منه منهي عنه لا محالة. لذا نحن نتجرأ على تقديم الافتراء التالي الذي هو من عند أنفسنا: التأفف هو أكبر من النهر لأننا نظن أن التأفف هو – على عكس ما ظن علماؤنا الأجلاء- أكبر مراتب القول السيئ. لذا فإن قولك لوالديك (أف لكما) هو – برأينا- أعظم ذنبا من أن تنهرهما. لذا فإن الله قد نهانا أولا عن التأفف **"فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ"** كعمل شنيع جدا بحق الوالدين ثم نهانا بعد ذلك عن ما هو أقل منه وهو نهرهما **"وَلَا تَنْهَرْهُمَا"**، ثم دعانا إلى أن نقول لهما قولا كريما **"وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا"**، وأن نتبع ذلك بأن نخفض لهما جناح الذل من الرحمة والدعوة لها:

- **وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (24) الإسراء**

وقد جاءت الدعوة صريحة في قوله تعالى على أن عدم البر بالوالدين هو مما حرم الله علينا، وهو يأتي مباشرة بعد دعوته لنا بعدم الإشراك به:

- **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151) الأنعام**

خروج في استراحة قصيرة

بداية نحن نجد لزاما علينا هنا الخروج عن فحوى الموضوع لتصحيح غلط شنيع نظن أن علماؤنا أهل الدراية قد وقعوا أوقعوا الناس فيه لقرون طويلة من الزمن. والغلط هو – في ظننا- إخفاقهم في تفسير هذه الآية الكريمة إلى العامة، ولكن كيف ذلك؟

جواب: لعل القارئ العادي للقرآن الكريم (من مثلي) ربما يجد الإرباك الشديد في أن يجد عبارة بالوالدين إحسانا **"وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا"** واقعة في هذا السياق القرآني تسبقها الدعوة إلى عدم الإشراك بالله **"أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا"** ويتبعها الدعوة إلى عدم قتل الأولاد خشية الإملاق **"وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ"**:

- قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151) الأنعام

فلقد كنت على الدوام أتساءل عن السبب أن يحرم الله علينا البر بالوالدين كما حرم علينا أن لا نشرك به شيئا، فكان السؤال الذي يخالجني هو: هل البر بالوالدين من الأشياء التي حرمها الله علينا؟

وقد حاول أحد القراء لمقالاتنا أن يثير هذا التساؤل سابقا، فحاولنا أن نقدم له إجابتنا على هذا الأمر على عجل حينئذ، لكننا سنحاول التفصيل بالقضية هنا لعلاقتها بفحوى موضوع النقاش هنا عن البر بالوالدين.

أما بعد،

نحن نكاد نجزم أن السبب في هذا الخطأ في الفهم يعود إلى طريقة قراءة الآية الكريمة، فبالرغم أن هناك المتخصصون بعلم القراءات إلا أننا نظن أنهم قد فشلوا جميعا في قراءة هذه الآية الكريمة كما يجب، والغلط الذي وقع به هؤلاء يكمن – في ظننا- في علامات الوقف والوصل في هذه الآية الكريمة، فنحن نظن أن علامات الوقف على هذه الآية الكريمة يجب أن تكون على نحو استبدال علامة (ۖ) بعد مفردة عَلَيْكُمْ كما في الرسم القرآني

- قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151) الأنعام

بعلامة الوقف الإلزامي (ۘ) قبل مفردة عَلَيْكُمْ، لتصبح علامات الوقف على الآية الكريمة على النحو التالي:

- قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ ۘ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151) الأنعام

بالضبط كما نقرأ الآية الكريمة التالية بالوقف بعد مفردة يَسْمَعُونَ:

- إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (36) الأنعام

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن ذلك يعود لأن مفردة عليكم لا تعني أن الله قد خصّنا نحن بالذات بهذه المحرمات، فأنت عندما تقرأ الآية بالوقف بعد مفردة عليكم كما أراد أهل اللغة (وأهل الدين) الذين وضعوا علامات الوقف على كتاب الله: **"قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ"**

فإنك تؤكد بأن ذلك يخصنا ولا يخص غيرنا، ويكأن لسان حالهم يقول لنا أن هذه ما حرمه الله علينا نحن، لنطرح السؤال الآن على النحو التالي: أليست هذه من المحرمات علينا وعلى غيرنا؟ فما بالنا نخص أنفسنا (دون غيرنا) بها.

رأينا: كلا وألف كلا، هذا ما لا نتقبله إطلاقا لأن هذه – نحن نظن- من الأشياء التي حرمها الله على كل الأمم وليس علينا فقط. لذا يجب أن تقرأ الآية بالوقف على النحو التالي: **"قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ ۖ"** فتصبح بذلك شريعة نافذة على الجميع.

ثانيا، نحن نظن أن أهل الدراية من سادتنا العلماء قد أخفقوا في فهم معنى مفردة عليكم في هذه الآية الكريمة. ولكن كيف ذلك؟

جواب: لو تدبرنا الآيات الكريمة التي ترد فيها هذه المفردة (عَلَيْكُمْ) لوجدناها بمعنى الظرفية التي تخص مجموعة محددة بذاتها في كثير من الآيات الكريمة:

- **يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (40) البقرة**
- **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54) البقرة**
- **ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (64) البقرة**
- **مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105) البقرة**
- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ۖ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (178) البقرة**

ولكن الذي ربما يؤسف له أن علماءنا الأجلاء أهل الدراية والرواية قد غفلوا (ربما عن غير قصد) أن هناك في كتاب الله استخدام آخر لمفردة عليكم تدل على معنى الإلزام أو الإجبار كما في الآية الكريمة التالية:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (105) المائدة**

فنحن بنص الآية الكريمة ملزمين بأنفسنا وغير ملزمين بما يفعل غيرنا. والآية الكريمة التالية تلزمنا بنصر من استنصرنا من الذين آمنوا:

- **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (72) الأنفال**

والشيطان ليس ملزما بما نفعل لأن مهمته لم تتجاوز حدود الدعوة التي قبلناها بأنفسنا لانتفاء وجود سلطان له علينا:

- وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (22) إبراهيم

ويتكرر هذا الاستخدام لمفردة عليكم في سياقات قرآنية كثيرة:

- لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (29) النور
- قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (54) النور
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ۚ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (58) النور
- لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (61) النور
- ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (5) الأحزاب
- وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (30) الصافات

نتيجة: نحن نظن أن مفردة عليكم تعني توجيه الخطاب ليخص مجموعة محددة بعينها لتلزمهم بأمر من ربهم كما في الآيات التالية:

- اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (16) الطور
- وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (78) الحج

السؤال: ما علاقة هذا كله بالمحرمات في الآية الكريمة التي نحن بصددها؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: دعنا نعود إلى الآية الكريمة التي انطلق هذا النقاش منها لنقرأها على هذه الشاكلة التي افتريناها من عند أنفسنا وهي أن مفردة عَلَيْكُمْ الواردة فيها تعني الإلزام للجميع، وربما يبين هذا على الفور بالوقف التام قبلها كما في الرسم التالي الذي افتريناه من عند أنفسنا:

- **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ ۖ..... عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151) الأنعام**

لتصبح الآية تنقسم إلى جزئين رئيسيين هما:

- **الجزء الأول:** **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ ۖ...**
- **الجزء الثاني:** ... **عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151) الأنعام**

لتصبح المحرمات هي:

1. عليكم **أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**
2. عليكم **بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**
3. عليكم أ**لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ**
4. عليكم أ**لَاتَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**
5. عليكم أ**لَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ**

فتصبح مفردة عليكم معطوفة على كل هذه المحرمات وتصبح جميعها من الوصايا التي وصانا الله بها **"ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ"**، لنخرج من ذلك بالوصايا الإلهية على النحو التالي:

1. ألا نشرك به شيئا
2. بالوالدين إحسانا
3. لا نقتل أولادنا خشية إملاق
4. لا نقرب الفواحش ما ظهر منها وما بطن
5. لا نقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق

دعاء: اللهم أسألك أن أكون ممن يعقلون وصاياك.

عودة على قصة قتل صاحب موسى للغلام الذي لقياه في الطريق

لو تدبرنا الوصية الخامسة والأخيرة لوجدنا أنها تنهانا عن قتل النفس إلا بالحق، لنطرح بناء على ذلك تساؤلنا التالي: هل قتل صاحبُ موسى تلك النفس (أي الغلام) بالحق؟

الجواب: نعم، لأنه كان من الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا.

السؤال: وما الدليل على ذلك؟

جواب: لأنه قال لوالديه أُفٍّ لَّكُمَا:

- وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (18) الأحقاف

السؤال: وكيف ذلك؟ وما علاقة ذلك بقتله؟

الجواب: نحن نرى الدليل يمكن استنباطه بعد التعرض للمعنى الحقيقي لعبارة (أُفٍّ لَّكُمَا) التي نهانا الله عن قولها للوالدين.

الدليل: نحن نحاول أن نستجلب الدليل بأن عبارة **"أُفٍّ لَّكُمَا"** هي أعلى درجات القول السيئ وليس أدناها (كما ظن من سبقونا من سادتنا أهل الدراية والرواية) وذلك بطرح التساؤل البسيط التالي: إذا كان الله قد نهانا عن التأفف بحق الوالدين **"فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ"**، فما بال إبراهيم (نبي الله وخليله) يفعل ذلك؟ ألم يكن إبراهيم هو أول من قال أف لقومه جميعا بمن فيهم أبيه الذي تبيّن له أنه عدو لله؟

- أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِۦأَفَلَا تَعْقِلُونَ (67) الأنبياء

السؤال: ما معنى قول إبراهيم لقومه أف لكم **"أُفٍّ لَّكُمْ"**؟ هل كان يقصد إبراهيم بذلك أدنى درجات القول السيئ أم أعظمها وأشدها وقعا على أسماعهم؟

رأينا: لقد كان قصد إبراهيم – نحن نفتري القول- أن يغلظ لهم القول وأن يقل لهم في أنفسهم قولا بليغا:

- أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (63) النساء

السؤال: ما معنى عبارة **"أُفٍّ لَّكُمْ"** في النص القرآني إذن؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذه العبارة تعني القطيعة التامة بين الطرفين لأن عقائدهم قد وصلت إلى درجة من الاختلاف يستحيل أن يحدث التلاقي بعدها. فهذا نبي الله إبراهيم قد قال أف لقومه:

- **أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (67) الأنبياء**

فما كان منهم إلا أن تكون ردة فعلهم على النحو التالي:

- **قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (68) الأنبياء**

السؤال: هل لو كانت مفردة "أُفٍّ لَّكُمْ" التي قالها إبراهيم تعني أدنى درجات القول السيئ كما ظن معظم أهل الدراية وتفجرت حناجر خطبائهم بذلك على المنابر، هل كانت ردة فعلهم ستكون بهذه الشدة **"حَرِّقُوهُ"**؟

جواب: كلا وألف كلا. فنحن نظن أن ما قاله إبراهيم كان قولا بليغا، استوجب في نظر القوم عقوبة تصل إلى درجة التحريق (قَالُوا حَرِّقُوهُ).

السؤال: لماذا؟

رأينا: لأن قول الأف تعني تسفيه الإله الذي يعبده القوم، وهذا في ظننا واضح من قول إبراهيم:

- **أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (67) الأنبياء**

وهذا واضح أيضا من رد القوم:

- **قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (68) الأنبياء**

فقول الأف هو المسبّة الأعظم التي يمكن أن يقولها الشخص بحق الإله الذي يعبده قوم آخرون، أو بحق دين الوالدين. فأنت عندما تقول لوالديك أف لكما فإنك بذلك قد أحدثت القطيعة بينك وبينهم بسبب الاختلاف في المعتقد.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: ما أن تصل العلاقة بين الابن والوالدين لدرجة أن يقول الابن لوالديه أف لكما حتى تكون علاقتهما قد وصلت إلى القطيعة التامة، فهذا والد إبراهيم يطلب من إبراهيم أن يهجره:

- **قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) مريم**

وبهذا الفهم المفترى من عند أنفسنا نعود إلى قصة الابن الذي قال لوالديه أُفٍّ لَّكُمَا كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- **وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (18) الأحقاف**

فلقد كان الخلاف بينهما – كما هو واضح من تتمة الخطاب- خلافا عقائديا **"أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي"** حيث يقبع كل طرف منهم على النقيض التام من الطرف الآخر، فالوالدين مؤمنين يدعوان ولدهما للإيمان **"وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ"** والولد كافر بدين والديه ناعتا إياه بأنه ليس أكثر من

أساطير الأولين "فَيَقُولُ مَا هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ". والمشكلة التي ينكرها الولد إنكارا تاما هي الخروج من بعد الموت "أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي". لذا وصلت العلاقة بينهما إلى درجة القطيعة لأن كل منهما لم يتزحزح عن موقفه، فأصبح – والحالة هذه- الهجران هو الحل الأمثل للطرفين، أي أن يهجر طرف منهم الطرف الآخر.

وأظن أن الولد هو – عادة- من يرحل. فقد طلب والد إبراهيم من ولده إبراهيم أن يهجره "وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا"، وهذا الفتى – نحن نتخيل- قد خرج من عند والديه هاجرا إياهم بعد أن سفّه إلههم وعقيدتهم، وبعد أن نعت ما يؤمنون به على أنه من أساطير الأولين. فما كان – نحن نظن- يستطيع العيش مع والديه، فخرج من عندهم غاضبا، كافرا (غير مؤمن) بدينهم حتى حق عليه القول، انظر الآيات نفسها في سياقها الأوسع:

- وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17) أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (18) الأحقاف

نتيجة: لقد خرج الفتى من بيت والديه هاجرا لهم وقد حق عليه القول، وهناك في الطريق لقيه موسى مع صاحبه، فما كان من صاحب موسى إلا أن يعمد إلى قتله بعد أن رءاه مباشرة.

- فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (74) الكهف

نتيجة مهمة جدا جدا: صاحب موسى يقتل الغلام عندما لقياه مباشرة.

السؤال: لماذا؟

جواب: لأن صاحب موسى قد علم (بما علّمه الله من لدنه) أن هذا الغلام قد حق عليه القول "أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ"؟

والأهم من ذلك أن القول قد حق عليه على النحو التالي كما تصوره آيات من قال لوالديه أف لكما:

- وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17) أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (18) الأحقاف

السؤال: ما معنى "حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ"؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: وجوب إنزال العقاب فيه.

الدليل: نحن نظن أن من حق عليه القول انتفى حصول الإيمان عنده. انظر الآية الكريمة التالية جيدا:

- لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7)

نتيجة: من حق عليه القول لا يمكن أن يؤمن. انتهى.

دعاء: أعوذ بك ربي أن أكون ممن حق عليهم القول.

لذا فإن القول لا يحق إلا على الكافرين بصريح اللفظ القرآني:

- لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (70) يس

نتيجة: القول يحق على الكافرين الذين لم يؤمنوا، وستكون عاقبة من حق عليهم القول على النحو التالي:

- وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَـٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (13) السجدة
- قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَـٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (63) القصص
- أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (18) الأحقاف

معلومة خطيرة جدا جدا تخص من حق عليه القول:

لو راقبنا الآية الكريمة التالية لوجدنا أن الله قد قيض لمن حق عليه القول قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم:

- وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (25) فصلت

والآن انظر التطابق العجيب مع ما جاء في سياق الآية التي تخص من قال لوالديه أف لكما وأنكر البعث ونعت ذلك أنه من باب أساطير الأولين:

- وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17) أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (18) الأحقاف

نتيجة: من قال لوالديه أف لكما فقد حق عليه القول فكانوا ممن "حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ"

سؤال: ما الآلية التي يحق بها القول على هؤلاء؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: أن يُقيّض لهم قرناء كما نفهم ذلك من الآية الكريمة السابقة في سياقها الأوسع:

- وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (25) فصلت

نتيجة مفتراة خطيرة جدا: من حق عليه القول فقد قيض له قرناء فزينوا له ما بين يديه وما خلفه، وهنا يكون القول - لا محالة- قد حق عليه.

السؤال القوي جدا: من هم هؤلاء القرناء الذين تم تقيضهم لمن حق عليه القول؟

أولا، إن أكبر قرين هو الشيطان نفسه:

- وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (38) النساء

ونحن نفتري الظن بأن القرين - لا محالة - هو شيطان:

وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (37) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (38) الزخرف

ولعل هذا القرين يلازم من حق عليه القول من الجن والإنس:

- وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (25) فصلت

نتيجة مهمة جدا جدا: الشيطان هو قرين للإنس وللجن، لأن هناك من الجن من هو مؤمن ومنهم من هو كافر كما جاء على لسان من سمع منهم الهدى فآمن به:

- وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ۖ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (13) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (14) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (15) الجن

ولعل همّ القرين (الشيطان) الأول والأخير هو أن يصد الناس عن السبيل وذلك بزعزعة إيمانه بالبعث والخروج بعد أن يصبح الإنسان ترابا وعظاما. فيدخل القرين (وهو شيطان) لمن قيّضه الله له من الجن والإنس من هذا الباب:

- قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (51) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (52) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (53) الصافات

فتصبح الصورة على النحو التالي لمن صدّق قرينه:

- وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (20) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (21) لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22) وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (23) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (24) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (25) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (27) ق

وهنا لن تكون دعوة من كانت هذه حاله إلا على النحو التالي:

- حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (38) الزخرف

نتيجة: من كان له قرين فإنه يشككه بالبعث:

- أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (52) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (53) الصافات

فيصبح من صدّق قرينه من المكذبين بالبعث. ولو عدنا إلى سياق الآية التي تتحدث عن من قال لوالديه أف لكما لوجدنا هذا الخطاب جليا في كلام الولد.

- وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (18) الأحقاف

نتيجة مهمة جدا: من كان له قرين (شيطان) فهو يزين له ما بين يديه وما خلفه حتى يصل في نهاية المطاف إلى إنكار البعث (أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي) ويضع الحديث عن العقيدة بأكمله في إطار (مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ). وذلك لأنه صدّق قول قرينه "أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ: أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ"؟)

السؤال: ما علاقة هذا بقتل صاحب موسى للغلام بمجرد أنهما لقياه؟

جواب: نحن نظن أن مجرد أن يحق القول فهذا بحد ذاته مقدمه للعقاب الإلهي المباشر:

- وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (16) الإسراء

نتيجة: ما دام أن القول قد حق، فإن العذاب لا محالة حاصل:

- أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ (19) الزمر

ولا شك أن من حق عليه القول واستحق العذاب، فهو في ضلاله وإن كان يحسب أنه من المهتدين:

- فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۗ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (30) الأعراف

عودة على قصة الغلام

لو تدبرنا ما قاله والديه له وهما يستغيثان الله لوجدنا أنهما يحذرانه من أن يحق عليه القول:

- **وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (18) الأحقاف**

نتيجة: لقد خرج ذلك الغلام كافرا بدين والديه اللذين كانا يدعوانه إلى الله **"وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ"**، وقد حذراه من أن وعد الله الحق **"إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ"**، فما استجاب لدعوتهم بل أصر على استكباره ناعتا كلام والديه بأنه لا يعدو أن يكون أكثر من أساطير الأولين **"مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ"**، فكان من الذين حق عليهم القول **"أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ"**، وكانت تلك سنة الله التي قد خلت من قبله **"فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ"**، فكان هذا الغلام (كما كانت تلك الأمم) من الخاسرين **"إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ"**.

تخيلات من عند أنفسنا: هناك في الطريق لقياه موسى وصاحبه ، فلم يكن علم موسى يؤهله أن يعلم أن هذا الفتى قد حق عليه القول فوجب نزول العقاب بحقه، ولكن علم هذا الرجل (الذي علمه إياه ربه من لدنه) كان يؤهله أن يصل إلى هذه المعلومة، فما تردد أن يقتل الغلام:

- **فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (74) الكهف**

السؤال: لماذا قتل صاحب موسى الغلام؟

جواب: لدر الفساد عن الأرض مادام أن الولد كان من الذين يحاربون الله ورسوله

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب خطير جدا مفترى من عند أنفسنا: لأن هذا الغلام قد قُيّض له قرين لأنه كان من الكافرين المنكرين للبعث

السؤال: كيف عرف صاحب موسى ذلك؟

جواب: نحن نظن أن ذلك حصل بمجرد رؤية صاحب موسى لهذا الغلام:

- **فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (74) الكهف**

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا الذي نطلب من القارئ الكريم أن لا يصدقه ما لم يجد أن الدليل من كتاب الله يثبته: نحن نفتري القول بأنه ما أن رءا صاحب موسى ذلك الغلام حتى استطاع (بما علمه الله من لدنه من العلم) أن يرى قرين هذا الفتى، أي لقد كان هذا الرجل يملك من العلم ما يمكنه من رؤية القرين، الأمر

الذي دفعه لقتل الغلام بمجرد أن رءا قرينه، لأن ذلك يعني أن هذا الفتى قد أصبح ممن حق عليهم القول كما تشير الآية الكريمة التالية التي تشير إلى عاقبة من قال لوالديه أف لكما:

- **وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17) أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (18) الأحقاف**

فما كان ليؤمن:

- **لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7) يس**

وكان بذلك من الكافرين:

- **لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (70) يس**

السؤال: لماذا أقدم صاحب موسى على قتله؟ فهل كل من حق عليه القول يجب أن يقتل؟

جواب: لو راقبنا ما قاله صاحب موسى لموسى لوجدنا أن الذي دفع بصاحب موسى أن يقدم على قتل الغلام الذي حق عليه القول والذي (كما افترينا القول) قد قيض له قرين هو الخشية بأن يحدث هذا الفتى فسادا أكبر في الأرض، وذلك بأن يرهق أبويه طغيانا وكفرا كما جاء بصريح اللفظ القرآني:

- **وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) الكهف**

رأينا المفترى: نحن نفتري القول (ربما مخطئين) بأنه لو لم يعمد صاحب موسى إلى قتل الغلام لكانت النتيجة لا محالة هو أن يرهق ذاك الغلام أبويه طغيانا وكفرا. لذا نحن نؤمن أن صاحب موسى قد قتل الغلام الذي حق عليه القول لكي لا يرهق أبويه طغيانا وكفرا وهو بذلك قد كف فتنة هي أكبر من لقتل:

- **وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ (191) البقرة**
- **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (217) البقرة**

فما أن ثقف صاحبُ موسى ذلك الغلام حتى علم أنه من الذين يحاربون الله ورسوله وأنه من الذين لا يألون جهدا في أن يردوا المؤمنين عن دينهم إن استطاعوا. ولكن كيف ذلك؟

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نظن أن ذلك الغلام قد خرج من عند والديه وهو في أشد حالات غضبه منهما، منكرا البعث "**أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي**"، وقد كان شاتما مسفهاً لهما ولدينهما،

ناعتا إياه بأنه من أساطير الأولين (فَيَقُولُ مَا هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)، عازما على أن يهجرهما لاستحالة التلاقي بينهما مادام أن كل طرف منهم يقف على النقيض العقائدي من الآخر. فالأبوان مؤمنين يدعوان ولدهما للإيمان **"وَيْلَكَ آمِنْ"** ويحذرانه من وعد الله الحق **"إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ"**. والغلام –بالمقابل- كافر رافض دعوة والديه له.

وهنا نتوقف قليلا لنشير إلى أن هناك في خطاب صاحب موسى القرآني مفارقة عجيبة يجب التنبيه إليها وهي استحالة أن يرجع الغلام عن كفره في حين أن هناك احتمالية (وإن كانت ضئيلة) أن يتراجع الوالدان عن إيمانهما.

الدليل: في حين أن كفر الغلام بدين والده كان أمرا لا رجعة فيه بدليل أنه قد قال لهما أف لكما، وبدليل أنه كان من الذين حق عليهم القول فكان من الخاسرين:

- **وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17) أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (18) الأحقاف**

كان قرار الأبوين – في ظننا- غير نهائي. ونحن نظن أن بالإمكان استنباط ذلك مما قاله صاحب موسى في تأويله لما حصل:

- **وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) الكهف**

فلو دققنا في كلام صاحب موسى هذا لوجدنا أن الخشية من أن يرهق الغلام والديه طغيانا وكفرا كانت لازالت قائمة، أليس كذلك؟

ولكن لماذا؟

جواب: لو حاولنا أن نتخيل موقف أي أبوين من ولدهما الذي سيهجرهما لمجرد الاختلاف العقائدي لربما وجدنا أن الآباء غالبا ما يغلّبون منطق العاطفة الجامحة في حب أبنائهم. لذا نحن نتخيل أن أحد الأبوين لهذا الغلام ربما كان سيقول للآخر (بعد خروج ولدهما من البيت قاصدا هجرهم) بأن مجاراة الولد (الكافر) على كفره ربما هي أهون عليه من هجره لهما، وأظن أن هذا كان موقف الوالدة المحبة لولدها، وربما كان مثل هذا الشعور سيشكل دافعا يؤدي بها للتنازل عن موقفها بعض الشيء، وربما يدفعها لأن تؤثر على زوجها من هذا الباب، مما قد يدفعها معا في النهاية إلى تقديم بعض التنازلات شيئا فشيئا، حتى يصل الأمر في نهاية المطاف إلى غلبة الابن (الكافر) على والديه المؤمنين من الناحية العقائدية. وهذا ما نظن أن الرجل صاحب موسى كان يخشاه عندما قال **"فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا"**:

- **وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) الكهف**

وهذا ما نظن أنها الفتنة الأكبر من القتل التي درئها صاحب موسى عندما أقدم على قتل الغلام.

السؤال: كيف كان سيستطيع ذلك الغلام أن يرهق والديه طغيانا وكفرا لو أن الرجل صاحب موسى لم يعمد إلى قتله؟

جواب: بطريقة الإرهاق **"أَن يُرْهِقَهُمَا"**.

سؤال: وكيف ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن الرهق (يُرْهِقَهُمَا) يحدث بالتدرج. فهذا موسى نفسه يطلب من الرجل أن لا يرهقه من أمره عسرا:

- **قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (73) الكهف**

فموسى يطلب من الرجل أن لا يصبّ عليه الأمر كله دفعة واحدة ربما لعدم قدرته على التحمل.

والرهق يمكن أن يزيد أو أن ينقص، فها هم رجال الجن يردون رجالا من الجن رهقا:

- **وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (6) الجن**

والرهق هو النقيض للبخس:

- **وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِۦفَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (13) الجن**

ولا شك أن الرهق إذا ما وقع على الشخص فإنه قد لا يقوى عليه:

- **سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (17) المدثر**

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لقد كانت الخشية حاضرة عند صاحب موسى من أن في عدم قتل الغلام احتمالية كبيرة جدا أن يسبب ذلك طغيانا وكفرا لوالديه، بعد أن كانا مؤمنين نتيجة حبهما لولديهما الذي رفض دينهما رفضا قاطعا فآثر أن يهجرهما هجرا غير جميلا (أي إلى غير رجعه) لأن الهجر الجميل يكون فيه الصبر على من هجرت:

- **وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (10) المزمل**

فلو كان هجر الغلام لوالديه من باب الهجر الجميل لكان فيه صبر عليهما ولربما كان ذلك إلى حين، ولكن كان هجر الغلام – نحن نفتري القول- هجرا غير جميل، فكان لا محالة راحلا عنهما وإلى الأبد مادام أنه قد قال لهما أف لكما بالضبط كما حصل مع إبراهيم نفسه وإن كانت هي الصورة المعاكسة، ومثل هذا الهجران غير الجميل كان يمكن (نحن نفتري القول) أن يحرك عاطفة الوالدين تجاه ولديهما ليردوه عن هجره لهما حتى لو كان ذلك على حساب التنازل بعض الشيء عن عقائدهم، ولو حصل أن تنازل الوالدين عن شيء من ذلك مقابل أن يرجع إليهما والديهما لما توقف ذلك الغلام عند ذلك الحد، ولأصر على أن يرهقهما طغيانا وكفرا، ولربما وصل الأمر بالوالدين إلى درجة الكفر التام، لان الولد يكون بذلك قد استطاع أن يردهما عن دينهما:

- يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ ... (217) البقرة

ولو حصل ذلك لكانت النتيجة على نحو أن تحبط أعمال الوالدين في الدنيا والآخرة كما تصور ذلك تتمة الآية الكريمة:

- ... وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (217) البقرة

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نتخيل أن الموقف قد حصل على النحو التالي: يصل الأمر بين الوالدين من جهة وولدهما (الغلام) من جهة أخرى إلى طريق مسدود، يحاول الوالدان أن يردا ولدهما عن طغيانه وكفره فلا يفلحان لتعنت الغلام على موقفه الرافض تماما لدين والدين، وهو يحسب أنه من المهتدين. وتصل به درجة التعنت إلى أن يوجه لوالديه أقسى درجات الشتم وهو التأفف (أُفٍّ لَّكُمَا)، وهنا تحدث القطيعة التامة بين الوالدين والغلام، فيستحيل أن يتواجد الطرفان معا في المكان نفسه، فما يكون من ذلك الغلام إلى أن يخرج من البيت هاجرا والديه هجرا غير جميل (أي إلى غير رجعة). وهنا (نحن نتخيل فقط) تتحرك العاطفة عند الوالدين جامحة، فيحصل النقاش بين الطرفين (الوالدين فقط في غياب ولدهما)، فيبديان قدرا من الجاهزية للتنازل بعض الشيء عن موقفهما، رغبة في ثني ولديهما عن ما هو مقدم عليه، ويحدث هذا الحوار بين الوالدين بعد أن خرج الغلام من البيت مهاجرا، ونحن نتخيل أيضا بأنه ما أن يرى الوالدان ما كان ولدهما فاعلا حتى يخرج أحدهما (وأظن أنه الوالد) من البيت لاحقا ولده ليثنيه عن موقفه، وربما ليقدم له بعض التنازلات، ولو تمكن الوالد (نحن نتخيل) من اللحاق بالولد لربما حصل ذلك، ولكن يحصل – أقول نحن نتخيل فقط- أن يلقيا موسى وصاحبه ذلك الغلام في الطريق قبل أن يتمكن والده من اللحاق به، فما يكون من صاحب موسى (الذي آتاه الله علما من لدنه) إلا أن يقدم على الفور إلى قتل ذلك الغلام قبل أن يتمكن والده من اللحاق به. تاركا إياه جثة هامدة، وما أن يصل والده (نحن لا زلنا نتخيل) إلى المكان حتى يجد ولده مصروعا، لا يدري من فعل هذا به. فما كان من رجل لازال على إيمانه السابق إلا أن يكون قوله:

- وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَـٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157) البقرة

فيكون قتل الغلام الذي أقدم عليه صاحب موسى سببا كافيا بأن لا يقع والداه في فتنة هي أكبر من القتل، فينتقلا (لو أن الأمر حصل على غير تلك الشاكلة) من الطرف الإيماني إلى طرف الطغيان والكفر.

- وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (75) المؤمنون

دعاء: رب ارحمني واكشف ما بي وأهلي من ضر وأنت أرحم الراحمين. وأعوذ بك رب أن أكون ممن إذا ما رحمتهم وكشفت عنهم ضرهم لجوا في طغيانهم يعمهون.

ولكن لمّا كانت النتيجة على هذا النحو، بقي الوالدان مؤمنين لا يعدمان الأمل والرجاء (بل الدعاء والتضرع إلى الله) أن يبدلهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما:

- فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (81) الكهف

وما كان ذلك ليعجز الله الذي اتخذ على نفسه العهد بأن يجيب دعوة المضطر:

- وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (186) البقرة

ويصبح الأمر كلّه يقع في باب **"وعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا"**:

- كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216) البقرة
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (19) النساء

ويصبح ذلك كله من باب البلاء ليتم العلم الإلهي بما في قلوبنا:

- وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (31) محمد

دعاء: اللهم رب أشهدك قولي أنك أنت الإله الواحد الأحد، وأشهدك أني آمنت بأنه لا شريك لك، فأعوذ بك وحدك من أن تبلوني لتعلم صبري وأعوذ بك أن تبلوا أخباري.

السؤال: كيف يحق القول على الكافرين؟ أو بكلمات أكثر دقة كيف عرف صاحب موسى أن هذا الغلام قد حق عليه القول أصلا؟

جواب: إن هذا السؤال يعيدنا على الفور إلى جدلية كبيرة جدا طرحناها في مقالاتنا تحت عنوان مقالة في التسيير والتخيير، و هل لعلم الله حدود: جدلية القلب والعقل؟ و صلاة الاستسقاء. وسنحاول أن نعيد هنا بعض تفاصيل بعض افتراءاتنا السابقة لعلاقتها بقصة قتل صاحب موسى للغلام.

أما بعد،

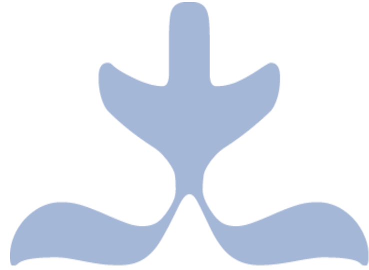
التساؤلات:

- لماذا أنزل الله قرآنا يتلى بحق عم النبي أبي لهب قاطعا خبره وخبر امرأته؟

- لماذا لم ينزل الله قرآنا يتلى بحق عم النبي العباس الذي بقي على دين آباءه وأجداده حتى فتح مكة كما تقول بعض رواياتهم؟
- لماذا لم ينزل الله قرآنا يتلى بحق أبي سفيان الذي لم يسلم حتى فتح مكة؟
- لماذا لم ينزل الله قرآنا يتلى بحق أبي جهل أو سهيل بن عمر أو أمية بن خلف وغيرهم اللذين ماتوا على الكفر؟
- والأهم من هذا كله، لماذا لم ينزل الله قرآنا يتلى بحق فرعون نفسه؟ ألم يقل فرعون أنه ربهم الأعلى؟
- لماذا أرسل الله لمن ادعى الأولوهية (فرعون) رسولين ليقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى؟
- الخ

وللحديث بقية.

دعاء: فالله وحده أسأل أن يؤتيني رحمة من عنده وأن يعلمني من لدنه علماً، وأسأله وحده أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يجعل فضله عليّ عظيما، والحمد لله رب العالمين.



الجزء الثامن

باب العزير

(5)



باب العزير (5)

سنحاول في هذا الجزء أن نكمل حديثنا عن قصة قتل صاحب موسى للغلام الذي لقياه في الطريق بعد أن كان هذا النقاش هو جلّ موضوعنا في الجزء السابق من هذه المقالة. وقد كنّا قد وعدنا القارئ الكريم أن نتابع البحث في سؤالين اثنين يخصان قصة صاحب موسى وهو الذي نظن أنه العزير، والسؤالان هما:

1. ما قصة خرقه لسفينة المساكين؟
2. ومن هو صاحب موسى هذا الذي ظننا أنه العزير؟ فأين هو وأين يمكن أن نجده اليوم؟

وقد وصلنا في نهاية الجزء السابق إلى طرح التساؤل التالي عن قصة قتل صاحب موسى للغلام:

كيف عرف العزير (صاحب موسى) أن هذا الغلام قد حقّ عليه القول؟ وكيف عرف أن هذا الغلام قد قيّض الله له قرينا (شيطانا) فما كان ليؤمن فكان إذن من الكافرين؟ وكيف استطاع صاحب موسى أن يدرأ بقتله للغلام فتنة هي أكبر من القتل نفسه؟

(للتفصيل انظر الجزء السابق)

وقد دعانا هذا النقاش المفترى من عند أنفسنا إلى أن نعاود النبش في افتراءات سقناها في كتابات سابقة، منطلقين من تساؤلات محيّرة لنا ذكرناها في نهاية الجزء السابق من المقالة، وها نحن نعيد إثارتها هنا لتشكل شرارة الانطلاق في النقاش في هذا الجزء من الكتاب.

دعاء: سائلين الله وحده أن يهدينا رشدنا، وأن يهدينا إلى نوره الذي أبى إلا أن يتمه ولو كره الكافرين، وأن يعلمنا الحق الذي نقوله فلا نفتري عليه الكذب، إنه هو الواسع العليم.

أما بعد،

التساؤلات:

- لماذا أنزل الله قرآنا يتلى بحق عمّ النبي أبي لهب قاطعا خبره وخبر امرأته حمالة الحطب؟
- لماذا لم ينزل الله قرآنا يتلى بحق عمّ النبي العباس الذي بقي على دين آباءه وأجداده حتى فتح مكة (كما تقول بعض رواياتهم)؟
- لماذا لم ينزل الله قرآنا يتلى بحق أبي سفيان الذي لم يسلم حتى فتح مكة (كما تقول معظم رواياتهم)؟
- لماذا لم ينزل الله قرآنا يتلى بحق أبي جهل أو سهيل بن عمر أو أمية بن خلف وغيرهم اللذين ماتوا على الكفر؟

- والأهم من هذا كله، لماذا لم ينزل الله قرآنا يتلى بحق فرعون نفسه ليقطع خبر كفره او إيمانه؟ ألم يقل فرعون أنه ربهم الأعلى؟
- لماذا أرسل الله لمن ادعى الإلوهية (فرعون) رسولين ليقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى؟
- لِم لَم يأتي الخبر الإلهي اليقين بحق نهاية فرعون كما جاء بحق نهاية أبي لهب وامرأته حمالة الحطب؟
- الخ

أما بعد،

تعرّض أهل العلم إلى سورة كريمة في كتاب الله تخص عبد العزى (الملقب بأبي لهب) عمّ النبي محمد بالنسب (كما تقول رواياتهم)، وهو من ظنوا أنه المقصود بالآيات الكريمة التالية:

- **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (5) المسد**

فلنبدأ النقاش هنا بما جاءنا من عند أهل الدراية كما أوصله لنا أهل الرواية في تفسير الطبري مثلا:

القول في تأويل قوله تعالى: {تبت يدا أبي لهب وتب} يقول تعالى ذكره: خسرت يدا أبي لهب، وخسر هو. وإنما عني بقوله: {تبت يدا أبي لهب} تب عمله. وكان بعض أهل العربية يقول: قوله: {تبت يدا أبي لهب}: دعاء عليه من الله. وأما قوله: {وتب} فإنه خبر. ويذكر أن ذلك في قراءة عبد الله: "تبت يدا أبي لهب وقد تب". وفي دخول "قد" فيه دلالة على أنه خبر، ويمثل ذلك بقول القائل، لآخر: أهلكك الله، وقد أهلكك، وجعلك صالحا وقد جعلك. وبنحو الذي قلنا في معنى قوله: {تبت يدا أبي لهب} قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: 29586 - حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة {تبت يدا أبي لهب}: أي خسرت وتب. 29587 - حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، في قول الله: {تبت يدا أبي لهب وتب} قال: التب: الخسران، قال: قال أبو لهب للنبي صلى الله عليه وسلم: ماذا أعطى يا محمد إن آمنت بك؟ قال؟ " كما يعطى المسلمون "فقال: ما لي عليهم فضل؟ قال: " وأي شيء تبتغي؟ "قال: تبا لهذا من دين تبا، أن أكون أنا وهؤلاء سواء، فأنزل الله: {تبت يدا أبي لهب} يقول: بما عملت أيديهم. * حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثور، عن معمر، عن قتادة {تبت يدا أبي لهب} قال: خسرت يدا أبي لهب وخسر. وقيل: إن هذه السورة نزلت في أبي لهب، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما خص بالدعوة عشيرته إذ نزل عليه: {وأنذر عشيرتك الأقربين} وجمعهم للدعاء، قال له أبو لهب: تبا لك سائر اليوم، ألهذا دعوتنا؟ ذكر الأخبار الواردة بذلك: 29588 *حدثنا أبو كريب، قال: ثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم الصفا، فقال: "يا صباحاه!" فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: ما لك؟ قال: "أرأيتكم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم، أما كنتم تصدقونني؟ "قالوا: بلى، قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد "فقال أبو لهب: تبا لك، ألهذا دعوتنا وجمعتنا؟! فأنزل الله: {تبت يدا أبي لهب} إلى آخرها. *حدثني أبو السائب، قال: ثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، مثله. *حدثنا أبو كريب، قال: ثنا ابن نمير، عن الأعمش، عن عمرو بن

مرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لما نزلت {وأنذر عشيرتك الأقربين} قام رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصفا ثم نادى: "يا صباحاه" فاجتمع الناس إليه، فبين رجل يجيء، وبين آخر يبعث رسوله، فقال: "يا بني هاشم، يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني ... يا بني أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل "يريد تغير عليكم "صدقتموني؟" قالوا: نعم، قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد"، فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم، ألهذا دعوتنا؟ فنزلت: {تبت يدا أبي لهب وتب}. *حدثنا أبو كريب، قال: ثنا أبو أسامة، عن الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: {وأنذر عشيرتك الأقربين} ورهطك منهم المخلصين، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى صعد الصفا، فهتف: "يا صباحاه"، فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ فقالوا: محمد، فاجتمعوا إليه، فقال: "يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف"، فاجتمعوا إليه، فقال: "أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ "قالوا: ما جربنا عليك كذبا، قال "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد "، فقال أبو لهب: تبا لك ما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام فنزلت هذه السورة: "تبت يدا أبي لهب وقد تب" كذا قرأ الأعمش إلى آخر السورة. 29589 -حدثنا ابن حميد، قال: ثنا مهران، عن سفيان، في قوله: {تبت يدا أبي لهب} قال: حين أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إليه وإلى غيره، وكان أبو لهب عم النبي صلى الله عليه وسلم، وكان اسمه عبد العزى، فذكرهم، فقال أبو لهب: تبا لك، في هذا أرسلت إلينا؟ فأنزل الله: {تبت يدا أبي لهب}

لو دققنا – عزيزي القارئ- في هذا التفسير "العظيم" لوجدنا أن جلّه يتحدث عن ما يسميه أهل العلم بأسباب النزول، فهم يكرّرون الروايات (ربما غير المتطابقة تماما) عن السبب الذي من أجله (كما يظنون) أنزل الله هذه السورة العظيمة. ولكننا نود أن نجلب انتباه القارئ الكريم إلى عدة ملاحظات نظن أن لها صلة بما نُقِل عن لسان أهل العلم في هذه الروايات.

1. هناك من قرأ الآيات على نحو غير ما هو مكتوب في المصحف، ففي قراءة عبد الله والأعمش هناك مفردة "قد" في الآية على النحو التالي: (تبت يدا أبي لهب وقد تب). انظر ما جاء في تفسير ابن كثير السابق. السؤال: إنْ كانت قراءة هؤلاء صحيحة تستحق أن توضع في بطون أمهات كتب التفسير التي وثق بها العامة دون تمحيص، فأين ذهبت "قد" يا أهل العلم؟ يسأل بعض العامة من مثلي.
2. هل كان عبد العزى (أبو لهب) هو الوحيد من بين من سمع النبي فقال له تبا لك؟ ألم يقل غيره أكثر من ذلك؟
3. ألم يحاول الكثيرون إلحاق أذى أكبر من ذلك بمحمد؟ لِم لَم ينزل الله قرآنا يتلى بكل من قال تبا لمحمد أو حاول أن يوقع الأذى به؟ فلم أبو لهب على وجه الخصوص؟ نحن نتساءل.
4. وإذا كان هذا الكلام قد بدر من عبد العزى (أبي لهب) – كما جاء في رواياتهم- فما بال امرأته حمالة الحطب تشمل في الخطاب معه؟ هل قالت امرأت أبي لهب مثل ما قال بعلها بحق النبي؟ فلِم لم ينزل قرآنا يتلى بحق من مضغت من كبد حمزة (كما شاهدنا في فلم الرسالة)؟

رأينا: لعلي أكاد أجزم أن ثقافتنا لم تتعدى ما شاهدناه في فلم الرسالة، فلو أنت تحدثت مع أهل العلم (والعامة على حد سواء) لربما ما وجدت عندهم أكثر مما رسخت في أذهانهم من صور رسمها العقاد كمخرج لذاك الفلم في أذهانهم. فلقد شاهدت بأم عيني على شاشة القناة التلفزيونية الأردنية وزير أوقاف أردني سابق مع عميد كلية شريعة في جامعة أردنية محترمة في برنامج تلفزيوني يحمل مقدّمه درجة الدكتوراه يتحدثون جميعهم (فيما يسمونه ذكرى الهجرة) أن أهل المدينة قد خرجوا يستقبلون النبي الكريم عندما هاجر إليهم وهم ينشدون طلع البدر علينا كما جاء في أحد مشاهد فلم الرسالة.

السؤال لهؤلاء الجمع من العلماء الأجلاء من شخص سطحي التفكير من مثلي هو: هل فعلا خرج أهل المدينة يستقبلون النبي الكريم وهم ينشدون طلع البدر علينا؟ وهل تعلمون - يا سادة- متى كتبت قصيدة طلع البدر علينا؟ وأنا مالي. اللي بده يعرف يبحث بنفسه في بطون الكتب أو باستخدام بعض محركات البحث على الشبكة العنكبوتية.

موقفنا المبدئي: نحن نظن أن ما جاء في بطون أمهات كتب التفسير مثل هذا التفسير "العظيم" الذي أوردناه سابقا لا يعدو أن يكون أكثر من ... يتسامر به القوم في ليال الشتاء الباردة أو ليال الصيف الحارة لإضاعة قسطا من الوقت الذي لا يجدون ما يشغلونه به. وذلك لأن ما يسمّونها تفسيرات لا تجيب عن أي شيء، بل على العكس فهي تجعل كتاب الله كتابا خاصا بقبيلة من قبائل جزيرة العرب في سالف الأيام.

السؤال: ما المخرج؟

جواب: نحن نظن أن المخرج من مثل هذه المواقف المحرجة التي وضعنا بها أهل الدراية من سادتنا العلماء هو البحث عن العلم الحقيقي في كتاب الله بطرح تساؤلات كبيرة مثل:

1. لماذا أنزل الله قرآنا يتلى بحق أبي لهب؟
2. وما دخل امرأته بذلك؟
3. ولم لم ينزل الله قرانا يتلى بحق كل من قال "تبا" كما جاء في رواياتهم؟
4. الخ.

قصة أبي لهب: رواية جديدة مفتراة من عند أنفسنا:

أما بعد

سنحاول بداية أن نعيد النظر في مفردات هذه السورة العظيمة علّنا نخرج (إن أذن الله لنا بشيء من علمه) بشيء من الحديث الجديد الذي قد يقنع من وجد في نفسه تساؤلات تخالجه مثل تلك التي أوردناها سابقا، والهدف من ذلك كله – يجب أن لا ننسى- هو أن نحاول أن نعود من هناك ببعض الافتراءات التي نظن أنها قد تساعدنا في فهم قصة قتل صاحب موسى للغلام الذي لقياه في الطريق الذي هو موضوع نقاشنا الرئيس في هذه الأجزاء من الكتاب.

افتراءات من عند أنفسنا عن قصة أبي لهب وامرأته حمالة الحطب:

الافتراء الأول: أبو لهب لم يقل تبا لمحمد إطلاقا.

الافتراء الثاني: امرأته (حمالة الحطب) لم تقل تبا للنبي.

الافتراء الثالث: لقد فعل أبو لهب شيئا خاصا جدا لم يفعله غيره حتى نزل بحقه قرآنا يتلى إلى يوم الدين.

الافتراء الرابع: لقد شاركت امرأت أبي لهب (حمالة الحطب) بعلها فيما فعل حتى استحقت أن تذكر معه لتلاقي المصير نفسه.

الافتراء الخامس: لم يفعل فرعون نفسه ما فعله أبو لهب، وإلاّ لأنزل الله قرآنا يتلى بحق فرعون كما أنزله بحق أبي لهب.

الافتراء السادس: إن كل من فعل أو سيفعل ما فعله أبو لهب فإن مصيره ما كان لأبي لهب وامرأته حمالة الحطب.

هذه هي جملة الافتراءات التي نظن أنها صحيحة وسنحاول الدفاع عنها تباعا.

أما بعد،

- **الافتراء الأول:**

أبو لهب لم يقل تبا لمحمد إطلاقا، نحن نفتري الظن بأن ما جاءنا من عند أهل الدراية كما نقله لنا أهل الرواية بأن أبا لهب قد قال تبا لمحمد (انظر تفسير القرطبي السابق) لا أساس له من الصحة، وذلك لأنه لو حصل الأمر على تلك الشاكلة – نحن نفتري القول- لأثبت القرآن نفسه قول أبي لهب نفسه. فالمتفحص للنص القرآني يجد – ربما بما لا يدع مجالا للشك- أن النسق القرآني يكون على نحو أن يثبت ما قاله الكافرون أولا ثم يرد عليهم حجتهم الكاذبة بالحجة الصادقة، فنحن نجد في كتاب الله ما قاله الكافرون يسبق الرد الإلهي عليهم. انظر الآيات الكريمة التالية كيف يأتي قول الكافرين واضحا فيها أولا (وهو ما وضعنا تحته خطا) ثم يأتي الرد الإلهي بعده مباشرة (ما وضعنا تحته خطين):

- **وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (18) المائدة**
- **وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (64) المائدة**

- وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (30) التوبة
- وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (80) البقرة
- وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (111) البقرة
- وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (93) الإسراء
- وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135) البقرة

إن مراد القول الذي نود أن نوصله للقارئ الكريم هو أن النهج القرآني – كما نفهمه- يكون عادة برد الدعوى التي قالها الكافرون. لذا لو كانت الآية القرآنية الخاصة بأبي لهب – نحن نتخيل- هي رد على ما قاله أبو لهب أو ما قالته امرأته لأثبت القرآن الكريم قولهما أولا ثم لرد عليهم القول بقول يدحض ما قالوا. ولربما جاء النص على النحو التالي:

وقال أبو لهب تبا لمحمد قل تبت يدا أبي لهب وتب... إلى آخر السورة.

- **الافتراء الثاني:**

امرأته (حمالة الحطب) لم تقل تبا للنبي، نحن نفتري الظن بأنه لو كانت الرواية التي نقلها لنا سادتنا العلماء أهل الرواية عن سادتهم العلماء أهل الدراية صحيحة لربما وجدنا فيها شيئا يخص امرأت أبي لهب التي شُملت بالخطاب الرباني. فإذا كان هذا ما قاله أبو لهب (كما جاء في رواياتهم) فما بال رواياتهم نفسها تخلوا مما جاء على لسان امرأة أبي لهب؟ لم لا نجد في رواياتهم أن امرأت أبي لهب قد كانت حاضرة ذاك الجمع الذي حصلت فيه القصة كما جاء في رواياتهم؟ أم هل هذه سنة من عند أهل العلم بأن تؤخذ المرأة بذنب بعلها؟ من يدري!!!

لعل أحدا من أهل العلم بحاجة أن يجيب عن تساؤلنا هذا: ما الذي بدر من امرأت أبي لهب حتى يشملها الخطاب القرآني لتلاقي المصير الذي لقيه بعلها نفسه؟ فهل حضرت هي ذلك الجمع الذي دعا إليه النبي قومه ليخبرهم برسالة الله لهم؟ وإذا كان بعلها (كما تقول رواياتهم) قد قال تبا لمحمد فهل قالت هي الأخرى تبا لمحمد كما قال بعلها؟

رأينا: نحن نظن أنه لو حصل الأمر على تلك الشاكلة لربما أصبح النص القرآني على الشاكلة التالية:

وقال أبو لهب تبا لمحمد وقالت امرأته مثل ذلك قل تبت يدا أبي لهب وتب... إلى آخر السورة.

- **الافتراء الثالث:**

لقد فعل أبو لهب شيئا خاصا جدا لم يفعله غيره حتى نزل بحقه قرآنا يتلى إلى يوم الدين، نحن نظن أن ما بدر من أبي لهب هو فعل وليس قولا بدليل أن القرآني الكريم جاء يتحدث عن ماله الذي كسبه، فلنقرأ السورة الكريمة مرة أخرى:

- **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (5) المسد**

وهنا لا نتوقف عن طرح التساؤلات التالية:

- ما علاقة مال أبي لهب بالأمر؟
- وما هو ماله الذي كسبه أصلا؟
- ومن أين جاء لأبي لهب المال الذي لن يغني عنه؟
- وهل كان عبد العزى (أبي لهب) صاحب مال أصلا؟

رأينا: نحن نظن أن الحاجة ملحة لجلب الآيات الكريمة مع بعضها البعض لنخرج بتصور أكثر دقة لما حصل فعلا. فنحن بحاجة أن نربط مال أبي لهب بالقصة لنطرح التساؤلات عن المال نفسه وعن طريقة كسبه له: "**مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ** ".

- **الافتراء الرابع:**

لقد شاركت امرأت أبي لهب (حمالة الحطب) زوجها فيما فعل حتى استحقت أن تذكر معه لتلاقي المصير نفسه، نحن نفتري القول بأن ما فعلته امرأت أبي لهب لم يكن أقل خطورة مما فعله بعلها حتى جاء القرآن الكريم ليثبت لها المصير نفسه الذي كان لبعلها. وهذا يدعونا إلى النبش في التساؤلات التالية:

- من هي امرأت أبي لهب هذه؟
- لماذا كانت حمالة الحطب؟ "**وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ**"
- لماذا كان عقابها على نحو أن يكون في جيدها حبل من مسد؟
- فما قصة جيدها وما قصة ذلك الحبل من المسد الذي هو في جيدها؟ "**فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ**".

- **الافتراء الخامس:**

لم يفعل فرعون نفسه ما فعله أبو لهب، نحن نفتري القول بأن أبي لهب قد فعل شيئا لم يفعله فرعون نفسه، وذلك للأسباب التالية:

1. لم يثبت الله في كتابه الكريم لفرعون المصير بالعذاب في حياته.

2. أرسل الله لفرعون رسولين وطلب منهما أن يقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى.

- **اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44) طه**

3. مات فرعون وقد آمن برب هارون وموسى، فكان من المسلمين:

- **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) يونس**

4. أنجاه الله ببدنه ليكون آية لمن خلفه:

- **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (92) يونس**

5. الخ.

السؤال الكبير جدا جدا: ما الذي فعله أبو لهب على وجه التحديد حتى استحق أن ينزل بحقه قرآنا يتلى ينبئ بمصيره؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن أبا لهب قد قام بفعل لم يفعله فرعون نفسه، وأنه قد كسب من خلال فعله ذاك شيئا من المال (مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)، كما نفتري القول بأن امرأته حمالة الحطب قد شاركته في ذلك الفعل وفي ذلك الكسب (وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ)، وأن عقابها على نحو "**فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ**" له علاقة مباشرة بما كانت قد فعلت مع زوجها.

السؤال: وهل كان ما فعله أبو لهب (بمساعدة امرأته) وكسبه لهذا المال أعظم ذنبا مما فعل فرعون نفسه عندما كان يقتّل أبناء بني إسرائيل ويستحي نساءهم؟ وهل كان أعظم ذنبا مما قاله فرعون بملء فيه؟

- **فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) النازعات**

جواب: نعم لقد كان ما فعله أبو لهب وساعدته في ذلك امرأته حمالة الحطب عملا شنيعا جدا لم يقم به فرعون نفسه. فما الفرق بين أبي لهب وفرعون؟

جواب: في محاولتنا لمعرفة الإجابة على الفرق بين أبي لهب (من جهة) وفرعون (من جهة أخرى)، وجدنا الحاجة ملحّة للتعرض للسؤال التالي مباشرة: ما هو الفعل الذي قام به أبو لهب وساعدته عليه امرأته حمالة الحطب حتى استحق أن ينزل بحقه قرآنا ينبئ بمصيره ومصير امرأته حمالة الحطب؟

جواب خطير جدا لا تصدقوه إلا إن ظننتم أن الدليل من كتاب الله يدعمه: نحن نفتري القول أن أبا لهب قد فعل فعلا شنيعا جدا وكسب من خلال هذا الفعل شيئا من المال، وكان غرضه في ذلك تقديم الدليل للناس على "بطلان" رسالة محمد.

السؤال: ماذا كان فعله؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لقد كتب أبو لهب بيديه شيئا من القول مدّعيا أن هذا قرءانا جاء به محمد نفسه. وقد كانت امرأته هي من تقوم بتوصيل تلك الرسالة للقوم، والغرض من فعلتهما تلك هو أن يثبتا للعامة من الناس بأن رسالة محمد باطلة، وبكلمات أكثر دقة فإننا نفتري من عند أنفسنا القول بأن أبا لهب كان يحاول أن يدسّ للناس من الكلام (الذي هو من عنده ومن عند امرأته) ليزعم بأن هذا الكلام قد جاء به محمد.

ونحن نظن أن هدف أبي لهب من وراء فعلته تلك هو لكي يلغوا في القرآن الذي جاء به محمد من عند ربه (أي ليضع فيه شيئا هو بالأصل ليس منه). فهو يحاول أن يدسّ بالقرآن ما ليس منه أصلا ليشوش على الناس الرسالة الحق التي جاء بها محمد من ربه.

– **الدليل: علاقة مفتراة من عند أنفسنا بين أبي لهب والغلام الذي قتله صاحب موسى:**

انظر - عزيزي القارئ- إلى الآية الكريمة التي تتحدث عن من قيّض الله له قرناء ليزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم والتي كانت في لبّ نقاشنا السابق عن ذلك الغلام الذي قتله صاحب موسى:

- **وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (25) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (26) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (27) ذَلِكَ جَزَاء أَعْدَاء اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاء بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (28) فصلت**

والآن حاول – عزيزي القارئ- أن تتدبرها في ضوء ما جاء في كتاب الله عن أبي لهب وامرأته:

- **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (5) المسد**

فلو تدبرنا الآيات التي تتحدث عن أبي لهب وربطناها بما جاء في الآيات السابقة لوجدنا (مفترين القول من عند أنفسنا) أن جزاء أبي لهب النار، وأن هذا هو الجزاء بحق من جاء فيهم قوله تعالى:

- **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (26) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (27) ذَلِكَ جَزَاء أَعْدَاء اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاء بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (28) فصلت**

وأن هؤلاء هم من قُيّض لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم:

- **وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (25) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (26) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ**

أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (27) ذَلِكَ جَزَاء أَعْدَاء اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاء بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (28) فصلت

لربما دعانا هذا الظن إلى تقديم الاستنباطات المفتراة من عند أنفسنا التالية:

1. كان أبو لهب من الذي قيض الله لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم
   - وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ..... (25) فصلت
2. كان من الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين
   - ...... وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (25) فصلت
3. كان هذا الكافر – نحن نظن- من الذين حالوا أن يلغوا في القرآن
   - .....لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (26) فصلت
4. كان جزاءه أن الله سيذيقه عذابا شديدا
   - فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا ..... (26) فصلت
5. كان عقابه على نحو أنه
   - سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (3) المسد
6. كان هذا العذاب جزاء بما كان يعمل
   - ..... وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (27) فصلت
7. كان هذا الكافر من أعداء الله الذين لهم النار جزاء بما كانوا يجحدون بآيات الله
   - ذَلِكَ جَزَاء أَعْدَاء اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاء بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (28) فصلت
8. الخ

الدليل: "مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ"

السؤال: أين الدليل أن أبا لهب كان من الذين جحدوا بآيات الله، فكتب بيديه شيئا من القول، ونسبه إلى محمد لكي يلغي فيما جاء به محمد من القول الحق من عند ربه؟

جواب: نحن نجد الدليل على ذلك في عبارة "وَمَا كَسَبَ" التي وردت في السورة نفسها التي تتحدث عن أبي لهب وامرأته حمالة الحطب في الآية الكريمة التالية على وجه التحديد: "مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ"

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: دعنا نرد على السؤال بتساؤل مثله: ما الذي كسبه أبو لهب؟ وما الذي يمكن أن يكسبه شخص مثل هذا الكافر الجاحد بآيات الله حتى يتحدث الله عنه بصريح اللفظ القرآني **"مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ"**؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لو تدبرنا مفردة الكسب في كتاب الله لوجدناها قد وردت في سياقات قرآنية كثيرة، فالإنسان قد يكسب السيئات:

- **بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81) البقرة**

والكسب يمكن أن يكون بالأمور المادّية التي يمكن أن تنفق من الطيبات من الرزق ومما أخرج الله لنا من الأرض:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (267) البقرة**

والكسب قد يكون بالقلب:

- **لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِيَ أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (225) البقرة**

ولكن الكسب يكون أيضا بالأيدي:

- **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ (79) البقرة**

وفي جميع هذه الحالات تكون هذه المكتسبات (المادية وغير المادية) مما كسبت نفس الإنسان:

- **الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (17) غافر**
- **وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (22) الجاثية**
- **كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) المدثر**

السؤال الحتمي: ما الذي كسبه أبو لهب حتى جاء القرآن الكريم ليتحدث عنه بصريح اللفظ **"مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ"**؟

جواب: لقد كسب أبو لهب شيئا بيديه بدليل أن الله قد أنزل العقاب بكلتا يديه:

- **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (5) المسد**

السؤال: لماذا تبت يدا أبي لهب وتب؟ لم لم تنزل "المتبة" (إن صح القول) برأسه أو برجليه أو بقلبه أو بكليّته؟ لِم لَم يكن النص القرآني على نحو:

(تب رأس أبي لهب وتب) أو (تبت رجلا أبي لهب وتب) أو (تب أبو لهب كلّه وتب) الخ.

جواب: لأنه كسب شيئا بيديه؟ فلقد كان جزاء ما فعله أبو لهب جزاء بما فعله بيديه؟

سؤال: وماذا فعل بهما؟

جواب: لقد كسب بهما مالا بدليل أن السورة تتحدث عن ماله الذي كسبه: "**مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ**".

السؤال: من أين كسب أبو لهب ذلك المال الذي أخبر الله بأنه لن يغني عنه؟

جواب مفترى: مما كتب بيديه.

السؤال: وأين الدليل على ذلك؟

جواب مفترى من عند أنفسنا خطير جدا: نحن نجد الدليل على ذلك بما نفهمه من الآية الكريمة التالية:

- **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ (79) البقرة**

اقرأ -عزيزي القارئ – هذه الآية الكريمة جيدا علّك تساعدنا في الخروج بالاستنباطات التالية:

➢ هناك من يمكن أن يكتبوا الكتاب بأيديهم.

- **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ**

➢ هناك من يمكن أن يكتبوا الكتاب بأيديهم ثم يقولون أن هذا من عند الله.

- **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ**

➢ هناك من يمكن أن يكتبوا الكتاب بأيديهم ثم يقولون أن هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا:

- **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً**

➢ الجزاء لكل من كتب الكتاب بأيديهم هو الويل، والجزاء لمن كتبوا الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله هو الويل، والجزاء لمن كتب الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا هو الويل. انظر كم مرة تكررت مفردة الويل في الآية الكريمة نفسها:

- **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ (79) البقرة**

➢ الخ.

- **الافتراء السادس:**

إن كل من فعل أو سيفعل ما فعله أبو لهب فإن مصيره ما كان لأبي لهب وامرأته حمالة الحطب.

السؤال: كيف حصلت قصة أبي لهب هذه حتى أنزل الله بحقه قرآنا ينبئ بمصيره وهو لا زال على قيد الحياة؟

جواب: تخيلات مفتراة من عند أنفسنا

نحن نظن أن أبا لهب كان من الذين يكذّبون بيوم الدين، فكان معتد أثيم، وعندما تليت عليه آيات الله نعتها بأنها أساطير الأولين، ولم يتوقف عند ذلك كله، بل ران على قلبه ما كان يكسبه:

- **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (10) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (11) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (13) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14) المطففين**

ولما ران على قلبه ما كان يكسبه من ذلك، قام (بمساعدة امرأته حمالة الحطب) بالكتابة بيده ما زعم أنه من عند الله ليخلطه بما جاء به محمد، فيلغي فيه، فكان ممن قيّض الله له قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم. والآن انظر عزيزي القارئ إلى سياق هذه الآيات الكريمة السابقة الأوسع كيف تسبقها الآية التي تتحدث عن من قيض الله له قرناء ليزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم:

- **وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (25) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (26) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (27) ذَلِكَ جَزَاء أَعْدَاء اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاء بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (28) فصلت**

وكانت النتيجة الحتمية من عمله هذا (نحن نفتري القول) أن حق عليه القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين. فكانت خسارة أبي لهب أعظم خسارة:

- **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (5) المسد**

لذا نحن نتخيل القصة وقد حدثت على النحو التالي: عَمَدَ نفر من قريش إلى مناصبة النبي محمدا العداء جهارا نهارا، وكانت واحدة من وسائل هجومهم على محمد هي أن يكذّبوا بدعواه ويصدّوا الناس عن هذه الدعوة الجديدة، فسلكوا إلى ذلك طريقين وهما:

1. أن لا يسمعوا لهذا القرآن
2. أن يلغوا فيه

- **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (26) فصلت**

ولما باءت جهودهم بأن يقنعوا الناس بعدد الاستماع لهذا القرآن (الطريقة الأولى) بالفشل، ما كان منهم إلاّ أن أخذوا يسلكون الطريق الثانية وهي أن يلغوا فيه، فكيف حصل ذلك؟

جواب: كان القوم بحاجة إلى شخص يملك من الفصاحة في القول ما يملك، وعلى درجة من المكانة الاجتماعية لا يستطيع الناس أن يقدحوا بها، ولا شك أن في قربه للنبي سببا أكبر لنجاح التجربة، فما وجدوا ضالتهم إلا في بيت ذلك الشقي أبي لهب، فاستأجروه (نحن نتخيل) حتى يلغي في قرآن محمد. أي حتى يأتي بالكلام المعسول شكلا الفارغ مضمونا يسوقه للناس على أنه كلام من عند محمد أُنزِل إليه من ربه، فيختلط اللغو من القول (ما جاء به أبو لهب) مع القول الحق (ما جاء به محمد)، فتضيع الرسالة بين العامة. فكان أبو لهب (نحن نفتري القول) هو من لغي (أي قال لغوا من القول) ليدسّه في قرآن محمد بمساعدة امرأته حمالة الحطب. وكان يكسب من وراء ذلك بعض المال. فجاء قول الحق – كما نظن- ليفضح على العلن ما كان يقوم به هذا الداهية في الخفاء:

- تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (5) المسد

وقد كان أبو لهب جِبِلًّا من الذين ضلوا وحاولوا أن يضلوا غيرهم، فكانت عاقبتهم أن يصلَوا نار جهنم بما كانوا يكسبون بقلوبهم وأيديهم:

- وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (62) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (63) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (64) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (65) يس

وقد كان لهذه السورة العظيمة مردودات إيجابية على رسالة محمد، نذكر منها على عجل:

1. صدق الخبر الإلهي باستحالة أن يؤمن هذا الكافر مادام أنه قد حق عليه القول
2. الفضح على رؤوس الأشهاد في العلن ما كان يدور في السر
3. التزام محمد بدعوته حتى لو كان في ذلك إيذاء له في آله، فبالرغم أن أبا لهب كان (كما تقول رواياتهم) هو عمّ النبي محمد بالنسب، إلا أن محمدا لم يكن يستطيع أن يسكت على فضحه بقرآن يقرأه الوحي الإلهي عليه. فمحمد لا يستطيع أن يخفي من القرآن شيئا.

خروج من قصة أبي لهب وعودة على قصة الغلام الذي قتله صاحب موسى

لقد كان الهدف من هذا الخروج في هذه الشطحات الفكرية (لمن ظن أنها كذلك) هو العودة منها بالاستنباط التالي: بأن أبا لهب كان ممن حق عليهم القول وممن قيّض الله له قرناء فزينوا له، وممن ران على قلوبهم، وممن حقت عليه كلمة العذاب.

ونحن نفتري القول بأن هذا بالضبط ما كانت عليه حال الغلام الذي لقيه موسى وصاحبه في الطريق. فلقد وصل ذلك الغلام إلى درجة من الكفر يستحيل بعدها الرجوع خطوة واحدة إلى الوراء لأن القول قد حق عليه مادام أنه قد قال لوالديه المؤمنين "أُفٍّ لَّكُمَا" صراحة:

- **وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (18) الأحقاف**

فكان من الذين قيّض الله لهم قرناء:

- **وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (25) فصلت**

فكان من الكافرين الذين حق عليهم القول: فأصبح من الاستحالة بمكان أن يكون مؤمنين مادام أن الله قد قيض له قرين:

- **لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7) يس**
- **لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (70) يس**

فكان كشر الدواب الذين لا يؤمنون:

- **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (55) الأنفال**

فأصبح قتله أو عدمه لا يعدو أكثر (نحن نفتري القول) من أن يكون كمن يقتل من الدواب شرها.

السؤال: لماذا قتل صاحب موسى الغلام؟

جواب: لأنه كان من الممكن أن يحدث بقاؤه فتنه لوالديه فيرهقهما طغيانا وكفرا:

- **وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) الكهف**

سؤال: لماذا لم يلقى أبو لهب المصير نفسه بالقتل إن صح ما تقول؟ يسأل صاحبنا.

جواب (1): لأنه لم يعد أبو لهب (بعد هذا التنزيل) يشكل بقاؤه فتنة لأحد ما دام أن أمره قد فضحه الوحي

جواب (2): لأن الله لم يجعل سنته الكونية أن يعجل العذاب لكل من ظلم بما كسبت يداه:

- **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (57) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا (58) الكهف**

لأنه سيكون في تعجيل العذاب لكل من ظلم عاقبة لا شك وخيمة:

- وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (45) فاطر

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: في حين أن الله قد عجّل لهذا الغلام العذاب لم يعجل الله العذاب لأبي لهب.

السؤال: لماذا عجل الله لهذا الغلام العذاب على يد صاحب موسى؟

جواب: لأن في ذلك رحمة له.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نؤمن أن في قتل ذلك الغلام رحمة إلهية لوالديه لأن الإرادة (كما صاغها صاحب موسى) كانت منصبة على نحو أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما:

- فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (81) الكهف

لكن يبقى التساؤل الكبير قائما: ألم يزل ذلك المقتول غلاما؟ كيف بصاحب موسى يقتل غلاما ربما لم يبلغ بعد سن التكليف؟ ألن يكون لذاك الغلام حجة بأنه لازال دون سن التكليف؟ ألن تبقى حجته على نحو أنه لو تقدم به العمر ربما أصبح من المؤمنين؟

جواب: لعلي أظن أن في هذا الطرح ربما تقع أخطر التساؤلات في الوجود، تساؤلات مفادها: ما بال أناس يعيشون من العمر المديد ما يعيشون بينما يموت غيرهم في ريعان شبابهم؟ وما بال أناس يمرضون وآخرون يتمتعون بصحة لا يعكر صفوها شيء؟ الخ.

أما بعد،

دعنا بداية نطرح السؤال الكبير التالي: لِم لَم يقضي الله أمره بالقضاء على فرعون مباشرة بدل أن يرسل إليه رسولين ويطلب منهما أن يقولا له قولا لينا:

- اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44) طه

فما الداعي أن يذهب رسولان إلى فرعون ليقولا له قولا لينا؟ والأهم من ذلك: لم لم يكون رد موسى على ربه في تلك اللحظة (نحن نتساءل فقط): أليس أنت الله العليم؟ فكيف ستكون نهاية فرعون: الإيمان أم الكفر؟ نحن نتخيل موسى وأخوه هارون يسألان.

وإذا كانت نهايته الكفر: فما الداعي أن تدفعنا إلى مصير مجهول مع هذا الكافر؟ ألم يكن رد موسى على طلب ربه بالذهاب إلى فرعون يظهر بعض التردد؟

- اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى (45) طه

ولِم لَم يأت التطمين الإلهي لهما بأنه لن يفرط عليهما فاكتفى الإله بالقول:

- قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (46) طه

هذه تساؤلات أثرناها في سلسلة مقالاتنا تحت عنوان: هل لعلم الله حدود؟ جدلية القلب والعقل.

وقد حاولنا حينئذ أن نطرح تصورا لم يألفه أهل الدين من قبل، ولا يستطيع العامة أن يتقبلوه إطلاقا ما لم يرخّصه لهم أهل دينهم الذين يثقون بهم في كل ما يرددونه على أسماعهم دون عناء تفكر ولا تدبر مادام أنهم يظنون أنهم يتلقون المعلومة ممن يعتقدون أنهم أهل صلاح وتقوى، ولكن مادام أن المعلومة قد جاءت من غير تلك المصادر الموثوقة فلا شك أنها ستلقى المقاومة الشديدة. ولكن بغض النظر عن ما ستؤول إليه الأمور، فإننا عازمون على المضي قدما في افتراءاتنا مادام أننا لا زلنا لا نجد الدليل على بطلانها، وما دام أن أحدا لم يقدم لنا بعد دليلا على نقضها، والافتراء هو: محدودية علم الله عن ما في قلب عباده. فبالرغم أن الله عليم بكل شيء، إلا أن علم الله لا يصبح مطلقا إلا بعد أن يتحصل الشيء نفسه. وبكلمات فلسفية من كلامنا نحن البشر فإننا نقول: أن الله عليم بالأشياء لكنه ليس عليما بما لم يصبح شيئا بعد. ولعلي أظن أن في هذا الطرح المفترى من عند أنفسنا يمكن أن نجد مخرجا للتساؤلات التي تخص أبي لهب وفرعون وهذا الغلام الذي قتله صاحب موسى، كما نظن أنها فيها إجابات للتساؤلات الخاصة بالوجود التي سنتعرض لها لاحقا إن أذن الله لنا بشيء من علمه.

دعاء: فالله وحده أسأل أن يعلمني من لدنه ما لم أكن أعلم، وأن يختصني برحمة منه إنه هو العليم الحكيم.

السؤال: لماذا لم ينزل الله قرآنا يتلى بحق فرعون يحق فيه القول عليه؟

جواب: لأن هناك شيء في قلب فرعون لم يكن الله يعلمه فجاء القول الإلهي على نحو:

- فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44) طه

فالله لم يكن يعلم أن فرعون سيتذكر أو أنه سيخشى، فكان لابد من تمحيص قلب فرعون لتظهر حقيقته، فأرسل إليه رسولين ليقولا له قولا لينا، وأيد الله رسولاه بالآيات، إلا أن ذلك كله لم يكن ليخرج ما كان في قلب فرعون.

نحن نميّز بين فرعون الذي تربى موسى في بيته عندما كان صغيرا وفرعون الذي جاءه موسى بالرسالة.

(انظر الأجزاء السابقة من هذا الكتاب)

فما حق على فرعون هذا القول بعد ولم يكن الله ليقيض له قرينا ليزين له ما بين يديه وما خلفه، ولو راقبنا ما طلب بنو إسرائيل من هذا الفرعون وراقبنا رد فرعون على طلبهم لوجدنا أن فرعون لم يحسم أمره بعد:

- وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127) الأعراف

ولو راقبنا هذا السياق القرآني لوجدنا أن هذا الفرعون كان حتى الساعة يتخذ لنفسه آلهة بدليل ما قاله الملأ من قومه له "**وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ**". ونحن نظن أن هذه ملحوظة غاية في الأهمية سنحتاج لها لاحقا عندما نتحدث عن فرعون الذي قال:

- فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) النازعات

ونحن نظن أن الدليل على أن هذا الفرعون لم يكن قد حسم أمره بعد واضح عندما سنحت الفرصة له أكثر من مرة ليتخلص من موسى إلا أنه لم يكن في حقيقة الأمر راغبا في ذلك حتى وإن جهر بالقول للملأ:

- وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (26) غافر

فالمتدبر لهذه السياقات القرآنية يجد صيغة التردد واضحة في قول فرعون. لنخرج من ذلك بالاستنباط التالي: لم يحسم فرعون أمره بالكفر بعد وكان لازال ممن يتخذ آلهة، فكانت الفرصة لازالت قائمة أن يتذكر أو أن يخشى. لذا نحن نظن أن القول لم يحق عليه بعد لكي ينزل الله قرآنا يتلى يقطع خبره كما كان في حالة أبي لهب.

وما خرج ما في قلب فرعون إلا لحظة أن أدركه الغرق:

- وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) يونس

وهنا جاء العتاب الرباني لفرعون بالقول:

- وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (92) يونس

السؤال: لماذا لم ينزل الله قرآنا يتلى بحق فرعون كما أنزله بحق أبي لهب؟

جواب مفترى: لأن القول لم يحق على فرعون إطلاقا، فكان هناك فرصة محتملة أن يؤمن فرعون، لأن من حق عليه القول يستحيل أن يؤمن:

- لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7) يس
- لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (70) يس

ونحن نفتري الظن بأن فرعون لم يكن ممن قيض الله له قرناء:

- **وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (25) فصلت**

فكانت احتمالية إيمان فرعون قائمة مادام أن القول لم يحق عليه، وهذا بالضبط ما نظن أنه قد حدث في نهاية المطاف عندما أخرج فرعون ما كان في قلبه من الإيمان:

- **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) يونس**

فلقد مات فرعون مسلما مؤمنا بالإله الذي آمنت به بنو إسرائيل – رضي من رضي وغضب من غضب. ففرعون حتى لحظة غرقه لم يكن من شر الدواب الذين كفروا فهم لا يؤمنون:

- **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (55) الأنفال**

السؤال: وكيف كانت حال أبي لهب؟

جواب: لقد حق القول على أبي لهب، فما كان ليؤمن وكان من الكافرين لأنه لم يبقى في قلب أبي لهب (نحن نفتري القول) مثقال ذرة من إيمان يمكن أن تخرج منه، فما كان نتيجة لذلك أكثر من دابة من شر الدواب:

- **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (55) الأنفال**

فما كان بقاؤه من عدمه (نحن نظن) سيحدث فرقا. فأنزل الله بحقه قرآنا يتلى ينبئ بمصيره مادام أن القول قد حق عليه:

- **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (5) المسد**

السؤال: ماذا عن الغلام الذي قتله صاحب موسى؟

جواب: لقد حق عليه القول؟

سؤال: لماذا قتله؟

جواب: هذا ما نجده في نهاية تأويل صاحب موسى لما لم يسطع عليه موسى صبرا:

- **... رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (82) الكهف**

سؤال: وكيف في قتل الغلام رحمة من ربه؟

جواب: بما أن الغلام قد حق عليه القول فقد تضاءلت (نحن نفتري القول) فرصته في أن يكون من المؤمنين. فكان من الأفضل له (نحن نظن) أن يموت وهو دون سن التكليف، لأنه لو حصل أن بقي حيّا حتى سن التكليف ولم يؤمن لأصبحت حاله كحال أبي لهب وسيصلى نارا ذات لهب. ولكن لمّا كان موته قد حصل قبل أن يصل سن التكليف فإن في ذلك (نحن نظن) رحمة له من ربه، مادام أنه لن يحاسب على فعلته تلك في

يوم الحساب الأكبر هذا إذا كانت عقيدتنا تتلخص بأن الحساب لا يقع إلا على من بلغ سن التكليف كما نخر ذلك سادتنا أهل العلم في أذهاننا.

السؤال: كيف عرف صاحب موسى ذلك؟

رأينا: من رؤيته للقرين الذي قيّضه الله لذاك الغلام ليزيّن له ما بين يديه وما خلفه.

- فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (30) الأعراف

سؤال: هل وجود هذا القرين يعني انتفاء حصول الإيمان؟

جواب: كلا، ذلك لا يعني انتفاء حصول الإيمان ولكن يعني أن الفرصة تضاءلت كثيرا

سؤال: وأين الدليل على ذلك؟

جواب: نحن نقرأ الدليل على ذلك في الآيات الكريمة التالية:

- إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (38) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (39) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (40) أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (41) فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (42) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (43) عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (44) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ (45) بَيْضَاء لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (46) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (47) وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (48) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ (49) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ (50) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (51) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ (52) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (53) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (54) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاء الْجَحِيمِ (55) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ (56) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (57) الصافات

لو تدبرنا هذا السياق القرآني لوجدنا أنه يتحدث عن حال بعض عباد الله المخلصين "**إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ**" الذين يتنعمون بخيرات جنات النعيم (فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)، حيث يثبت السياق القرآني أنّ من هؤلاء من كان له قرين "**قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ**". وقد كان هدف هذا القرين هو أن يشكك ذلك العبد بالبعث "**يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ (52) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (53)**". وبالرغم من أن ذلك القرين كاد أن ينجح في ذلك "**قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ**" إلا أن نعمة الله قد تداركته "**وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ**". فلقد استطاع من كان له قرين (من أهل النعيم) أن يفلت من ذلك القرين بنعمة من الله وفضل منه، فلم يكن من المحضرين. لأن أولئك ممن متعهم الله متاع الحياة الدنيا حتى كان يوم القيامة من المحضرين

- أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61) القصص

السؤال: من الذي استطاع أن يفلت من قرينه بعد أن قيّضه الله له؟ هل هناك دليل على أن أحدا من عباد الله المخلصين استطاع أن يفلت من قرينه الذي قُيِّض له؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: موسى.

نعم، لقد قيّض الله لموسى قرينا (شيطانا) ولكن موسى استطاع أن يفلت من شَرِكه لأنّ نعمة الله قد تداركته.

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب: لو تدبرنا ما حصل مع موسى يوم أن دخل المدينة على حين غفلة من أهلها لربما استطعنا أن نتصور حصول ذلك على أرض الواقع. فها هو موسى يدخل المدينة على حين غفلة من أهلها بعد أن آتاه الله حكما وعلما:

- **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (15) القصص**

وما أن يدخل موسى المدينة حتى يجد العراك قائما بين من هم من شيعته (بني إسرائيل) ومن هم من عدوه (قوم فرعون) حتى يقدم موسى على قتل نفس بعد أن استغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه (للتفصيل انظر الأجزاء السابقة). لكن الذي يهمنا هنا أمران:

1. لم يتردد موسى لحظة واحدة أن يرجع ذلك إلى أنه عمل من عمل الشيطان **"قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ"**
2. لم يتردد موسى أن يعترف بذنبه: **"قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي"**

لذا نحن نفتري القول (بناء على ما نفهمه من ذلك) أنه في اللحظة التي أقدم فيها موسى على قتله لهذا الرجل الذي هو من عدوه أصبح له قرين (شيطان) ملازما له:

- **...... قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (15) القصص**

الدليل: نحن نظن أن موسى قد اعترف بذنبه واستغفر ربه على فعلته تلك مباشرة. انظر السياق القرآني:

- **وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (15) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (17) القصص**

ولكن بالرغم من ذلك، ها هو في اليوم التالي لا يكاد يتردد بأن يقدم على قتل نفس أخرى:

- فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (18) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19) القصص

السؤال: لماذا حاول موسى أن يقتل نفسا أخرى في اليوم التالي وهو الذي أقر بذنبه في اليوم الأول واستغفر ربه على فعلته تلك؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لأن ذلك الشيطان وهو قرينه الذي قيّضه الله له (نحن نظن) قد أخذ يزين لموسى ما بين يديه وما خلفه، ولولا أن الرجل الذي من عدوه نبّهه إلى خطر ذلك لما تردد موسى أن يبطش به.

السؤال: كيف ولماذا تداركت نعمة الله موسى ولم تتدارك فرعون مثلا أو أبا لهب أو هذا الغلام الذي قتله موسى؟

جواب: لأن موسى رجع إلى ربه على الفور وأقر بخطأه: انظر السياق القرآني كاملا لتجد أن موسى قد قضى وقته بين قتله الرجل الأول ومحاولة قتله الرجل الثاني مستغفرا ربه:

- وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (15) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (17) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (18) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19) القصص

السؤال: كيف تداركت نعمة الله موسى؟

جواب: لقد كانت من النعمة الإلهية على موسى (نتيجة استغفاره وتعهده بأن لا يكون ظهيرا للمجرمين) أن قيّض الله عدوه نفسه أن يذكره بربه:

- فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19) القصص

فالله لم يمنع موسى عن القتل في المرة الأولى وما كان الله ليمنع موسى عن القتل في المرة الثانية، ولكن الله (العالم بما في الصدور) هيأ لموسى (الذي لم ينسى ربه بعد ارتكابه الذنب) من يذكّره بسوء فعلته

ليوقفه عن التمادي في الغلط، ولو أن موسى اختار أن لا يتذكر (كما فعل فرعون) لكان موسى نفسه نسخة طبق الأصل عن فرعون ولربما ازداد في طغيانه وأكثر من القتل في الذين هم من عدوه (كما كان يفعل فرعون) لأن قرينه (ذلك الشيطان) كان حينها سينجح في أن يرديه.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لقد كاد قرين موسى أن يرديه لولا نعمة ربه:

- قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ (56) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (57) الصافات

إن هذا المنطق المفترى من عند أنفسنا يقودنا إلى جملة من الاستنباطات التي نظن أنها مصيرية بالنسبة للإنسان في حياته الدنيا وفي حياته الأخرى:

1. **أن الله لا يتدخل بشؤون العباد.**

فلو كان الله يتدخل بشؤون العبد لمنع موسى عن قتل رجل ولمنعه أن يريد البطش بالآخر في اليوم التالي. لكن السنَّة الإلهية التي تمثل العدل المطلق تقضي بأن ينأ الله بنفسه عن أعمال البشر ليكونوا هم المحاسبون عليها

- إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَياةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (7) أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النُّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (8) يونس
- هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (63) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (64) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (65) يس

2. **أن الله لا يعلم ما في قلوب العباد فيمحصها ليعلم ما فيها.**

اقرأ – إن شئت- قول الله تعالى:

- ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (154) آل عمران

مادام أنه يطلع عليها من الخارج فقط، فهو يقضي أمره لكي يمحّص ما فيها:

- وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (141) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (142) آل عمران

فالابتلاء الإلهي يأتي للناس لكي يخرج الله أضغانهم:

- **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (29) وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (30) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (31) محمد**

فنحن نفتري القول بأنه كان في قلب موسى شيئا من المرض (المتمثل بحبه المفرط لبني إسرائيل وكرهه لآل فرعون) على حساب إحداث الصلاح في الأرض كما جاء على لسان من أراد موسى أن يبطش به في اليوم التالي "**قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ**". فجاء الابتلاء الرباني ليخرج ذلك المرض من قلب موسى، على شكل فتنة قتله لمن هو من عدوه استنصارا لمن هو من شيعته "**فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ**" دون أن يحاول موسى أن يتبين من هو صاحب الحق منهم، فلربما كان الذي من شيعته هو المعتد على الذي هو من عدوه إلا أن موسى لم يتثبت من الأمر، فما كان منه إلا أن يقتل من هو من عدوه لمجرد أنه من عدوه "**فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ**". ونحن نكاد نقرأ هذا من قول الرجل الثاني الذي هو من عدوه الذي أراد موسى أن يقتله في اليوم التالي:

- **فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19) القصص**

فنحن نفهم أن هذا الرجل الذي من عدوه كان شخصا ذا رجاحة عقل يبحث عن الصلاح بدليل أنه طلب ذلك من موسى وحثّه عليه، لذا لا نتردد أن نفتري القول أن الرجل الذي هو من شيعته كان المعتدي بدليل أن موسى نفسه قد اعترف بذلك عندما وجّه له الخطاب قائلا "**إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ**":

- **فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (18) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19) القصص**

ولو دققنا في هذا السياق القرآني لربما تأكدت لنا الفكرة التي مفادها أن قلب موسى لازال يعاني من بعض المرض (في حبه المفرط لبني إسرائيل على حساب الإصلاح) فموسى يدرك أن هذا الذي يستنصره هو غوي مبين "**قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ**"، إلا أن ذلك لم يمنع موسى أن ينصره على حساب الرجل الذي هو من عدوه والذي كان أكثر رجاحة عقل وتأني "**قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ**".

ولعلي أكاد أجزم أن موسى لم يشفى من مرضه هذا إلا بعد هذه الحادثة التي قيّضها الله له ليخرج ما تبقى في قلبه من أضغان:

- **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (29) محمد**

وهنا فقط (نحن نظن) أدرك موسى أن الحق لا يكون على الدوام مع من هو من شيعته، فقد يكون من هو من عدوه على الحق، لذا لا يجب أن يؤخذ الناس بمواقف أقوامهم، فلا يجب أن يؤخذ كل من كان من قوم فرعون بذنب فرعون نفسه، وليس أدل على ذلك من ذلك الرجل الذي جاءه من أقصى المدينة ليحذر لموسى من مؤامرة الملأ به مباشرة بعد هذه الحادثة:

- **وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20) القصص**

فلقد كان من قوم فرعون من يريدون الإصلاح وكان من بني إسرائيل من يريدون الإفساد في الأرض. وليس أدل على ذلك من موقف الرجل المؤمن الذي كان يكتم إيمانه من آل فرعون:

- **وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (30) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (31) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (32) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33) غافر**

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: كانت هذه الحادثة لحظة فارقة في حياة موسى، ففي حين أنه كان هناك شيء من المرض لازال يعاني منه قلب موسى حتى الساعة، استطاع موسى أن يتشافى تماما من مرضه هذا فما عاد ليكون ظهيرا للمجرمين بعد، حتى وإن كان هذا على حساب من هم من شيعته، فأصبح موسى يدور مع الحق حيثما دار لا يحيده عن ذلك حبه لأحد أو كرهه للآخر، فأصبح منذ هذه اللحظة متمثلا لقول الحق:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقَيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (135) النساء**
- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (8) المائدة**

3. **أن الله يعلم ذات صدور العباد فيبتليها.**

اقرأ – إن شئت- قول الله تعالى:

- **ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ**

لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (154) آل عمران

مادام أن الله عليم بذات الصدور، فقد كان مطلعا على ما قاله موسى في نفسه بعد أن قتل الرجل الأول الذي هو من عدوه:

- قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16) القصص

فموسى قد تلقى المغفرة من ربه لمجرد أنه قد طلبها منه، ولكن الملفت للانتباه أن موسى قد قطع على نفسه عهدا جديدا بعد هذا الكرم الإلهي مباشرة:

- قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (17) القصص

لكن ذلك لم يكن ليخفى على الله. فبالرغم من أن موسى قد قطع العهد على نفسه بذلك، جاء الاختبار الإلهي له ليخرج الله حقيقة ما تعهد به موسى على نفسه. فكانت فتنته في اليوم التالي:

- قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (17) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (18) القصص

وهنا جاء الابتلاء الإلهي ليخرج ما كان في صدر موسى وليمحص ما في قلبه "وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ":

- أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (29) محمد

فكاد موسى أن يقع في فتنة أكبر لو أنه قتل ذلك الرجل، ولربما أخرج ما في قلبه من أضغان على نحو ما لا يرضي.

4. **أن الله يقيض شيطانا قرينا (شيطانا) لكل من ارتكب إثما.**

نحن نظن أنه في اللحظة التي يرتكب فيها العبد إثما يقيض الله له قرينا (شيطانا) على الفور، لتكون مهمة هذا القرين تكمن في أن يزين لمن وقع في الذنب ما بين يديه وما خلفه. فما أن قتل موسى نفسا في اليوم الأول حتى قيض الله له قرينا شيطانا، فأصبح يزين له ما بين يديه (من إقدامه على قتل هذا الرجل الآخر) وما خلفه (من قتله فعلا للرجل الأول بالأمس). وما كان موسى يستطيع أن يتخلص من هذا الموقف الذي لا يحسد عليه إلا أن تتداركه نعمة ربه. فكيف جاءت تلك النعمة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: ما أن همّ موسى بقتل الرجل (أي أنصت إلى صوت قرينه الشيطان الذي كان يحثه على القتل) حتى جاء صوت أعلى من صوت ذلك القرين الشيطان، وهو صوت الرجل الذي أراد موسى أن يبطش به من عدوه:

- ... قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19) القصص

وهنا كان لابد لموسى أن يقرر بنفسه حقيقة ما في قلبه وما في صدره ليظهر إلى أي الفريقين هو أقرب: فريق القرين الذي يزين له الأمر ويحثه على المضي قدما في الغلط، أم فريق الذي هو من عدوه ولكنه يدعوه إلى الحق والصواب. وهنا بالضبط (نحن نظن) جاء التمحيص الإلهي لما في قلب موسى والابتلاء لما في صدره. ولما اختار موسى طريق الحق وتخلى عن قرينه استطاع أن يفلت منه فما عاد ليكون من المحضرين:

- أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61) القصص

فما عاد موسى من المحضرين بنعمة من ربه الذي قيض له من ينبهه إلى الرجوع عن الغلط (وهو من عدوه) بعد أن قيض الله له قرينا يحثه على التمادي في الخطأ:

- وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (57) الصافات

5. **أن القرين يهدف إلى أن يوصل العبد المذنب إلى النقطة التي لا رجعة فيها وهي إنكار البعث.**

نحن نكاد نجزم القول بأنه لو صدّق موسى دعوة قرينه الشيطان لربما تمادى في طغيانه ولربما أصبح من القانطين من رحمة ربه، ولو وصل إلى هذه الحال لجاءه القرين في نهاية المطاف بهدفه النهائي وهو أن يصده عن ربه بالدعوة إلى إنكار البعث:

- قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (51) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ (52) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (53) الصافات

ولربما وصلت الحال بموسى أن يكفر بربه (كما فعل فرعون) بعد أن ينكر البعث، فيخسر عندها خسارة كبيرة جدا لا تقل عن خسارة أبي لهب نفسه.

6. **أن العبد المذنب إذا عاد عن غلطه فتذكر ربه واستغفر لذنبه تلوح له فرصة أن يفلت من قرينه، فلا يكون من المحضرين**

لما استطاع موسى أن يتذكر، ولما عَدَلَ أن يكون جبارا في الأرض، وأصبح أقرب إلى أن يكون من المصلحين، استطاع أن يفلت من قبضة قرينه، فكان هروبه من المدينة هو الحل الأسلم حتى يستطيع أن يطهر قلبه تماما من تلك الأضغان التي كانت تعيش فيه. فمكث في مدين سنين من عمره تائبا مستغفرا ربه، ناذرا نفسه بأن لا يكون فعلا ظهيرا للمجرمين، وأن يكون من المصلحين في الأرض. فعاد بالرسالة التي تظهر منتهى القسط وهو الطلب من فرعون بأن يرسل معه بني إسرائيل ليخرجهم من أرض مصر:

- حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (105) الأعراف

فلقد عاد موسى لا يقول على الله إلا الحق، يقر بأن مصر هي حق لأهلها، وأن بني إسرائيل هم دخيلون عليها، وأن الإنصاف يقضي بأن يخرج بنو إسرائيل من الأرض التي ليست لهم، فيكون بذلك إقرار من موسى بأحقية فرعون بملك مصر:

- وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) الزخرف

وسنتعرض لهذه الجزئية بالتفصيل لاحقا بحول الله وتوفيق منه عندما نحاول في الأجزاء القادمة أن نربط قصة موسى هذه بقصة من سبقه من أنبياء بني إسرائيل وهو يوسف الصديق. ففي حين أن يوسف هو من أدخل بني إسرائيل أرض مصر كان موسى هو من جاء ليخرجهم منها.

دعاء: فالله أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم من الحق الذي أقوله فلا أفتري عليه الكذب، إنه هو الواسع العليم.

---

7. **أن الله يبقى يمحص ما في قلوب العباد ويبتلي ما في صدورهم مهما بلغوا من الذنوب.**

وأخيرا، نحن نفتري القول أن الله يبقى يمحص ما في قلوب العباد ويبتلي ما في صدورهم ليخرج كل أضغانها مهما عظم ذنب الإنسان. فقد يرتكب الإنسان من المعاصي الكثير، ولكن هذا لا يعني أن يقنط الإنسان من رحمة ربه، فمادام أن في قلب الإنسان ذرة من إيمان فإن الله لا يضيعها ويبقى يمحص تلك القلوب ليخرج أضغانها. فبالرغم من كل الذنوب التي ارتكبها فرعون، إلا أن الله قد أرسل له رسولين ليقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى:

- اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44) طه

السؤال: لماذا أرسل الله رسولين إلى فرعون؟

جواب: لعله يتذكر أو يخشى؟

السؤال: وهل كان هذا ممكنا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نعم. لقد كان في قلب فرعون من الإيمان ما لم يظهره على الملأ، وقد كان فرعون هذا (نحن نظن) عارفا بربه.

نحن لا نتحدث هنا عن فرعون الذي تربى موسى في بلاطه، لأن هذا الفرعون الذي أخذ موسى كان منذ تلك اللحظة عدو لله:

- أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (39) طه

بعد أن التقطه آله في اليم ليكون لهم عدوا وحزنا:

- **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8) القبصص**

ولكننا نتحدث عن هذا الفرعون الذي جاءه موسى بالرسالة، وهو الذي وإن كان قد طغى إلا أنه لم يصبح بعد عدوا لله:

- **اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44) طه**

مقرا بخطئه كلما وقع فيه، فما كان القول سيحق عليه وهو على تلك الشاكلة. فما أنزل الله قرآنا يتلى يقطع خبره كما حصل في حالة أبي لهب. فبعث الله رسولين لفرعون، وأيدهما بالآيات البيّنة ليقدمان له الدليل حتى يخرج فرعون ما كان في قلبه من الإيمان.

ونحن نكاد نجزم القول أن فرعون هذا كان ذا شخصيتين: إحداهما تبين على الملأ من قومه والأخرى يحتفظ بها لنفسه فلا يعلم بها إلاّ ربه. ففي حين أنه كان قد طغى كما يبين من أفعاله إلا أنه كان يدرك حقيقة ما يقوم به على أنه عمل خاطئ، ويعلم أنه يجب أن يتراجع عن ذلك. وعندما ارتكب فرعون من الخطايا ما ارتكب، قيّض الله له شيطانا (مثله مثل الآخرين) ليزين له ما بين يديه وما خلفه، ولكن بالمقابل تداركت نعمة الله فرعون بأن قيض الله له من يذكره بالحق، فكان الذي من عدوه (موسى) هو من جاءه بصوت الحق. وهنا كان لابد أن يحسم فرعون أمره إلى أي الفريقين يجب أن يصغي: إلى صوت قرينه الذي يدلّه على السوء ويزينه له أم إلى صوت الحق الذي يدفعه للرجوع عن طغيانه وإن كان على لسان من هو من عدوه. وهنا تحدث المفارقة: ففي حين أن موسى استمع إلى صوت الحق (وإن كان قد جاءه من عدوه) إلا أن فرعون آثر أن يستمع إلى صوت قرينه الشيطان، فكانت ردة فعله على النحو التالي:

- **اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (19) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) النازعات**

نتيجة مفتراة: لا يقيض الله القرين للعبد إلا بعد أن يقوم العبد نفسه بارتكاب المعصية. فمادام أن العبد لم يرتكب معصية فإن القرين لا يستطيع أن يحثه عليه. فالذي يحث الإنسان على الوقوع في السوء هي نفسه الأمارة به:

- **وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (53) يوسف**

وما أن يستمع الإنسان لصوت نفسه الأمارة بالسوء ويقع بالمحظور حتى يجد القرين (وهو شيطان) قد حضر على الفور ليقوم بتزين السوء الذي وقع فيه ويحثه على التمادي فيه:

- **وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (25) فصلت**

وهنا يأتي الابتلاء لما في الصدور والتمحيص لما في القلوب لتخرج أضغانهم:

- .... وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (154) آل عمران

ونحن نفتري القول بأنه عندما جاء الابتلاء الرباني لما في صدر موسى خرج منه الإيمان بدليل أنه تراجع عن خطأه وأقر بذنبه واستغفر ربه على ما فاته، ولكن لما جاء الابتلاء الرباني لما في صدر فرعون خرج منه الكفر:

- فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) النازعات

السؤال: لماذا لم يستمع فرعون إلى صوت الحق الذي جاء على لسان من هو من عدوه؟ ولماذا آثر أن يستمع إلى صوت قرينه (الشيطان)؟

جواب مفترى: كان حب آل فرعون في قلب فرعون وكرهه لبني إسرائيل أكبر من حبه للحق، فانتصر الظلم عنده على القسط.

السؤال: لماذا استمع موسى إلى صوت عدوه وأفلت من قبضة قرينه؟

جواب مفترى: كان حب القسط في قلب موسى أكبر من حبه بني إسرائيل وكرهه لآل فرعون، فانتصر القسط عنده على الظلم.

السؤال: لماذا انتصر حب آل فرعون في قلب فرعون على القسط؟

جواب: إنه الكِبْر

سؤال: وكيف ذاك؟

جواب: نحن نظن أن الذي حصل في حالة فرعون يشبه إلى حد كبير ما حصل في حالة إبليس يوم أن رفض الأمر الإلهي بالسجود لآدم.

سؤال: وكيف ذلك؟

جواب: نحن نؤمن يقينا بأن الكِبْر هو الذي منع إبليس من الامتثال للأمر الإلهي بالسجود لآدم:

- قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (12) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13) الأعراف

ونحن نكاد نجزم الظن بأن مثل هذا السيناريو قد تكرر في حالة فرعون. فعندما رءا فرعون (الذي وإن كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان) أن الفضل أصبح لا محالة لبني إسرائيل مادام أن الرسول منهم، جن جنونه حسدا لما آتاهم الله من فضله:

- أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (54) النساء

دعاء: اللهم أعوذ بجلال وجهك الذي لا يهلك وعظيم سلطانك الذي لا يفتر أن أكون ممن يحسدون الناس على ما آتيتهم من فضلك. وأسألك رب أن ترحمني وتكشف ما بي وأهلي من ضر وأعوذ بك أن أكون من الذين يلجون في طغيانهم يعمهون

فلو تدبرنا السياقات القرآنية لوجدنا أن فرعون لم يكن ملحدا بمعنى إنكار وجود الآلهة، بل على العكس، فقد كان (وملأه) ممن يؤمنون بالآلهة:

- **وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127) الأعراف**

فهذا السياق القرآني يدل – ربما بما لا يدع مجالا للشك- بأن فرعون كان من الذين يؤمنون بوجود الآلهة. ولكن لو تدبرنا السياق القرآني التالي:

- **فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) النازعات**

لما وجدنا أن فرعون قد أنكر الوجود الإلهي إلا لحظة أن أراه موسى الآية الكبرى. ففي هذه اللحظة بالذات أصبح فرعون منكرا ليس فقط لإله موسى وإنما للآلهة التي كان يتحدث عنها الملأ من قومه. ونسب لنفسه الإلوهية المطلقة "**فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى**".

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: إن مراد القول هو أن فرعون لم يكن يقول للناس بأنه ربهم الأعلى إلا لحظة أن أدرك أن الآية الكبرى قد أصبحت في يد موسى الذي هو من بني إسرائيل. فعندها لم يستطع فرعون أن يتمالك نفسه، فما كان منه إلا أن يزيد في التمادي على ما فعله إبليس نفسه، ففي حين أن مشكلة إبليس قد توقفت عند التكبر على آدم ولم تصل إلى مرحلة التعالي (التطاول على الذات الإلهية) كما نفهم ذلك من السياق القرآني التالي:

- **قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (75) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (76) ص**

لم تتوقف مشكلة فرعون عند التكبر على موسى (أو على بني إسرائيل) وإنما تجاوزت إلى العلو في الأرض:

- **مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ (31) الدخان**
- **فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) النازعات**

نتيجة مفتراة: عندما رأى فرعون الآية الكبرى في يد موسى، أظهر احتجاجه الشديد على رب موسى نفسه فأدعى لنفسه بالإلوهية المطلقة.

السؤال: لماذا؟ أي لماذا تعالى فرعون في الأرض؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لا نطلب من القارئ الكريم أن يصدقه ما لم يجد أن الدليل من كتاب الله يثبته وهو: لأن فرعون كان طامعا أن يكون هو الرسول الذي يمسك بيده تلك الآية الكبرى التي أراها إياها موسى. فكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نفتري القول من عند أنفسنا أن فرعون كان ضانا أن الرسالة ليست حكرا على بني إسرائيل، وأن من حق آل فرعون أن تكون رسالة السماء فيهم. فكان يظن أن هناك انحيازا إلهيا غير مبرر لبني إسرائيل إن ظهرت الرسالة فيهم من جديد بعدما هلك يوسف. لذا نحن نظن أن علة فرعون في الأرض كان سببه الاختيار الإلهي لبني إسرائيل على غيرهم:

- **وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (30) مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ (31) وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (32) وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاء مُّبِينٌ (33) الدخان**

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نظن أن هذا الفرعون كان من الطامعين في أن تقع الآية الكبرى في يده، فيكون هو بذلك رسول من الله إلى الناس. فكان ساكتا لا يقتل أبناء بني إسرائيل ولا يستحيي نساءهم كما طلب الملأ من قومه:

- **وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127) الأعراف**

فجاء رده على طلب قومه من باب الوعد بأن يقوم بذلك لاحقا. وبقي هذا الفرعون صامتا مترددا في أن يحسم أمره، تثنيه عن التقتيل في بني إسرائيل (كما فعل الفرعون الذي سبقه) الرغبة في الحصول على تلك الآية الكبرى. وما أن رأى هذا الفرعون أن أمر الآية الكبرى قد حسم لتقع من جديد في واحد من أبناء بني إسرائيل حتى جن جنونه ليس انتقاما من موسى وبني إسرائيل وإنما تعاليا على رب موسى الذي ظن فرعون أنه لم يكن منصفا بهذا الاختيار الجديد للرسالة، فجاءت ردة فعله على الفور على النحو التالي:

- **فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) النازعات**

التساؤلات:

1. ما هي تلك الآية الكبرى؟
2. ما الذي كذبه فرعون؟
3. وكيف عصى؟
4. لماذا فرعون هو من أدبر يسعى؟ ألم يكن الأولى بموسى أن يدبر؟ فكيف بفرعون هو من يدبر؟
5. إلى أين كان فرعون يسعى بعد أن أدبر؟
6. لماذا حشر ونادى؟

7. ومن الذي حشرهم فرعون وناداهم؟
8. وكيف بفرعون يقول للملأ جميعا أنا ربكم الأعلى فيسكتوا له على ذلك وهم الذين كانوا قبل هذه اللحظة يقرون بوجود آلهة لفرعون نفسه؟

- **وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127) الأعراف**

9. الخ.

السؤال: كيف حصل ذلك كله؟

تخيلات من عند أنفسنا: لقد كان التنافس شديدا في الأرض (أرض مصر) بين بني إسرائيل من جهة وآل فرعون من جهة أخرى. وقد كان كل منهما يظن أن الاصطفاء الإلهي حق له على غيره. فبنو إسرائيل يظنون أن النبوة حق مكتسب بالوراثة فيهم، وكان آل فرعون (وخاصة فرعون نفسه) يظنون أن النبوة (ولنقل الرسالة) اصطفاء إلهي لا يكتسب بالوراثة وأن لهم نصيب في هذا الاصطفاء الإلهي. ولعلي أكاد اجزم القول بأن هذا الجدل هو الذي أشعل فتيل العداوة المزمنة بين الطرفين بعد أن كانوا يعيشون فيها آمنين، فلقد دخل بنو إسرائيل أرض مصر في زمن يوسف الصديق آمنين:

- **فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ (99) يوسف**

كما كاد أجزم القول بأن هذا الجدل بين الطرفين قد نشب مباشرة بعد هلاك يوسف:

- **وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (34) غافر**

فكانت الفكرة السائدة حينها (أنا أتخيل فقط) هو الظن بأن الله لن يبعث رسولا من بعد يوسف. ولكن لو وضعنا هذه الآية الكريمة في سياقها الأوسع لوجدنا أن هذا كان من باب الجدال في آيات الله بغير سلطان:

- **وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (34) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35) غافر**

فلقد كانت الفكرة المسيطرة على قلوب نفر من بني إسرائيل أن النبوة (أو الرسالة) قد انقطعت وللأبد بسبب أن يوسف قد هلك. فمادام أن يوسف قد هلك فإن الرسالة قد توقفت لأن خط وراثة النبوة قد انقطع. فلا شك عندنا أن يوسف قد هلك فلم يكن له ولد:

- يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُواْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (176) النساء

فكانت وراثة يوسف من باب الكلالة مادام أنه قد هلك، فلم يكن له ولد ولكن لا شك أن يوسف كان له إخوة رجالا. وهنا احتدم الجدل داخل بني إسرائيل أنفسهم، فحتى لا يتفضل بعض منهم على البعض الآخر (نحن نتخيل) خلص نفر منهم إلى القول بأن الله لن يبعث رسولا من بعد يوسف:

- وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (34) غافر

ولكن هذه النتيجة لم تكن مرضية لنفر من بني إسرائيل كما لم تكن بكل تأكيد مرضية لغيرهم. فلِم يجب أن تكون النبوة (ومن ثم الرسالة) في بني إسرائيل؟ ولم يجب أن تنقطع مادام أن يوسف قد هلك؟ أليس هذا (إن صح) تحيّز إلهي واضح لبني إسرائيل على حساب الآخرين؟ ربما تساءل البعض.

جواب: نحن نظن أن آل فرعون (من بين كل سكان المحروسة – كما يرغب أهل مصر أن يدلعوها) هم من تزعموا حركة "معاداة السامية" (بالمصطلحات الحديثة) حينئذ. فكيف حصل ذلك؟

جواب: لا شك عندنا أن بني إسرائيل قد دخلوا مصر زمن يوسف الصديق بطلب من يوسف يوم كان هو عزيزها:

- اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (93) يوسف

فجاء يعقوب النبي مع بني إسرائيل ودخلوا مصر آمنين:

- فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ (99) يوسف

ولا شك عندنا أن يعقوب وبنيه قد جاءوا أصلا من البدو:

- وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100) يوسف

وأن شيئا من ملك مصر (وليس ملك مصر كله) قد وصل إلى يوسف:

- رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101) يوسف

وقد عاش بنو إسرائيل في أرض مصر في عصر الملوك، وليس أدل على ذلك من الملك الذي رءا في منامه:

- وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (43) يوسف

ويؤكد الله هذه الحقيقة بحق بني إسرائيل:

- وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ (20) المائدة

فكان النظام السياسي السائد في مصر حينئذ هو نظام ملكي ينتقل الحكم فيه بالوراثة. وقد استطاع بنو إسرائيل أن يسيطروا على ذلك النظام، فتحكموا بمقدرات البلد (مصر) على حساب بعض أهلها الأصليين.

فما كان من بعض أهل البلد (المصريين) خاصة آل فرعون منهم إلا أن بدأوا يبدون امتعاضهم شيئا فشيئا لهذا النفوذ المتنامي لبني إسرائيل في أرض مصر على حساب أهل البلد الأصليين.

لمّا أخذ بنو إسرائيل ينشغلون بتسوية خلافاتهم بخصوص من ستؤول إليه النبوة (أي خلافاتهم الدينية العقائدية):

- وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (34) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35) غافر

وأصبح جدالهم من باب الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ضعفت شوكتهم لصالح آل فرعون الذين كانوا يتزعمون حركة "معاداة السامية" حينها.

وأصبح آل فرعون يدبرون الأمر للإطاحة بنفوذ بني إسرائيل في أرض مصر. فتمكنوا من ذلك عندما استطاع الفرعون الأول الوصول إلى الحكم، فكان أول ما فعله هذا الفرعون الأول هو استعباد بني إسرائيل وتقتيل أبنائهم واستحياء نساءهم (انظر مقالاتنا تحت عنوان: قصة موسى: فرعون الطفولة):

- إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) القصص

ولكن ما أن استتب الأمر لهذا الفرعون العسكري حتى أصبح بنو إسرائيل مستعبدين في الأرض:

- قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129) الأعراف

وكان هذا الفرعون الأكبر هو عدو لله، فكانت حكمة الله تقضي بأن يتربى طفل من بني إسرائيل في بيته، فكان موسى هو ذلك الطفل:

- أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (39) طه

ما أن نشأ موسى في بني إسرائيل حتى أدرك أن هذا الفرعون هو عدو لله، فكان موسى عدوا وحزنا ليس فقط لهذا الفرعون وإنما لآل فرعون:

- فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8) القصص

ونحن نظن أن موسى قد تعلم ذلك كله في أهل البيت الذين كفلوه لهم، فكانوا له ناصحين:

- وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (12) القصص

كما تعلم ذلك من امرأة فرعون نفسها التي طلبت من الله أن ينجيها من فرعون وعمله:

- وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11) التحريم

وهنا حصلت المفارقة الأولى العجيبة التي تمثلت في هروب موسى الأول من بلاط فرعون وخروجه من المدينة كلها. وما عاد إلى ليدخل المدينة من جديد إلا يوم موت ذلك الطاغية، فكانت المدينة كلها على حين غفلة:

- وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (15) القصص

ولقد زعمنا الظن بأن المدينة كانت على حين غفلة من أهلها لأن ذلك الفرعون الأول قد مات، ولم يكن له ولد يتولى الحكم من بعده بدليل أن امرأته قد بررت كفالة موسى بأن يتخذاه ولدا:

- وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9) القصص

فلم ينتقل الحكم بطريقة سلسة في غياب الوريث الشرعي للفرعون. فبقيت الفوضى تعمّ المدينة، واستطاع بنو إسرائيل أن يبدوا شيئا من المقاومة بدليل أن موسى عندما دخل المدينة على حين غفلة من أهلها وجد الصراع على أشده بين من هم شيعته مع من هم من عدوه:

- وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (15) القصص

وما توقف ذلك إلا لحظة أن وصل فرعون جديد إلى سدة الحكم، فكانت النصيحة الأولى له من ملأه تتمثل بأن لا يذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض، فقطع هذا الفرعون الجديد العهد للملأ من قومه بأنه سيقتل أبناء بني إسرائيل ويستحي نساءهم.

- وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127) الأعراف

عودة على قصة الغلام الذي قتله صاحب موسى

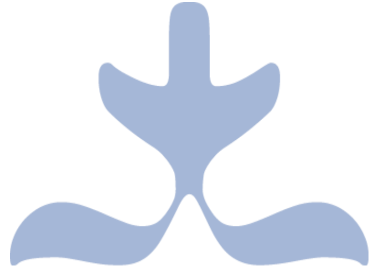
وهنا نعود إلى قصة الغلام الذي قتله موسى بالقول بأن وجه الشبه بين هذا الغلام وفرعون كانت منعدمة تماما بينما كان هناك تشابه كبير بين ذاك الغلام وأبي لهب. ففي حين أن أبا لهب قد حق عليه القول وأن هذا الغلام قد حق عليه القول فكان قتله من باب قتل من الدواب شرها، لم يكن فرعون كذلك، فحتى اللحظة الأخيرة من حياته (لحظة أن أدركه الغرق) لم يكن فرعون من الذين حق عليهم القول فهم لا يؤمنون، بدليل أنه فعلا مات مؤمنا بالإله الذي آمنت به بنو إسرائيل فكان من المسلمين:

- وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) يونس

والله أعلم.

وللحديث بقية.

دعاء: فالله وحده أسأل أن يؤتيني رحمة من عنده وأن يعلمني من لدنه علماً، وأسأله وحده أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يجعل فضله عليّ عظيما، والحمد لله رب العالمين.



الجزء التاسع

باب العزير

(6)



باب العزير (6)

افترينا القول من عند أنفسنا في الجزء السابق من هذا الكتاب أن الغلام الذي قتله صاحب موسى في الطريق قد خرج من بيت أبويه المؤمنين معتزلا لهما، بعد أن قال لهما **"أُفٍّ لَّكُمَا"**، منكرا بالبعث من بعد الموت **"أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي"**، ناعتا كلامهما بأنه من باب ما جاء في أساطير الأولين **"مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ"**:

- **وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (18) الأحقاف**

فكان من الذين حق عليهم القول (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ)، فكان – نحن نفتري الظن- من الذين قيّض الله لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم:

- **وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (25) فصلت**

بعد أن كان من الذين ران على قلوبهم مادام أنّه من المكذبين الذين إذا تتلى عليهم آيات الله قالوا أساطير الأولين:

- **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (10) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (11) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (13) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14) المطففين**

ومادام أن القول قد حق عليه، فهو إذن من الكافرين الذين لن يؤمنوا:

- **لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (70) يس**
- **لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7) يس**

فالإيمان أصبح مستحيلا بالنسبة لهذا الغلام مادام أن الله قد قيض له قرينا، فصدّق ما كان قرينه يحثّه عليه من إنكار البعث:

- **قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (51) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (52) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (53) الصافات**

فأصبحت حالته كحالة من هم من شر الدواب:

- **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (55) الأنفال**

ولكن – بالمقابل- لم يكن أمر الإيمان والكفر محسوما تماما بالنسبة للوالدين بدليل أن الخشية من أن يرهقهما هذا الغلام طغيانا وكفرا قد كانت لازالت قائمة:

- وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) الكهف

لذا نحن نعتقد أن أبواه كانا على استعداد لتقديم بعض التنازلات لولدهما (هذا الغلام) من أجل أن يردّوه إلى البيت الذي خرج منه غاضبا، مدفوعين بالعاطفة الجامحة في حب ولدهما هذا، ولو حصل ذلك لكانت النتائج كارثية على العائلة بأكملها، لأن الغلام حينها (ربما) سيستطيع أن يرهق أبويه طغيانا وكفرا. فتصبح العائلة بأكملها كافرة من الذين حقّ عليهم القول. لذا نحن نتخيل أن الوالدان (أو على الأقل أحدهما) قد خرج ليلحق بالغلام فيرده إلى البيت، ربما ليقدم له بعض التنازلات العقائدية، لأن الصراع بينهما كان صراعا عقائديا.

وجاءت المفاجأة من صاحب موسى الذي كان أسبق إلى ذلك الغلام من والده الذي كان يحاول اللحاق به، فما أن رءاه صاحب موسى حتى أسرع على الفور إلى قتله قبل أن يلحق به والده، ولا أظن أن خطابا قد جرى بينهما، فالقتل حصل مباشرة لحظة أن لقياه:

- فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (74) الكهف

ونحن نفتري الظن من عند أنفسنا أن صاحب موسى كان يستطيع أن يصل إلى هذه المعلومة بكل سهولة ويسر. فقد علم أن والد هذا الغلام يحاول اللحاق به ليرده إلى البيت مقدما له بعض التنازلات. فصاحب موسى هذا يستطيع (نحن نعتقد) أن يحيط خبرا بما لا يستطيع الآخرون أن يحيطوا به خبرا كموسى مثلا:

- قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (68) الكهف

وسنرى ذلك جليا بعد قليلا عندما نتحدث (بحول الله وتوفيق منه) عن خرق السفينة التي كان الملك سيأخذها غصبا لو أن صاحب موسى هذا لم يعمد إلى خرقها. وهذا يعني – كما نفهمه نحن- أن صاحب موسى كان يستطيع أن يرى ما سيحدث على أرض الواقع من أفعال قبل أن يحيط بها الآخرون خبرا، لذا كان يستطيع أن يرى مثلا أن والد هذا الغلام يلحق بولده ليرده إلى البيت، فأسرع إلى قتل الغلام قبل أن يصل والده إليه فتركه جثة هامدة لا تكون ردة فعل والده (وهو الذي لازال مؤمنا) إلا أن يقول:

- الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) البقرة

عندها فقط كفّ صاحب موسى بقتله لهذا الغلام كارثة أكبر كان يمكن أن تنزل بالعائلة بأكملها لو أن الوالد تمكّن من اللحاق بولده فرده إلى البيت، لأن النتيجة ستكون حينها أن يرهقهما طغيانا وكفرا. فكان في ذلك رحمة للأبوين فلم يرهقهما طغيانا وكفرا مادام أنه قد قضي عليه، وربما كان في ذلك رحمة للغلام نفسه لأن في قتله إنقاذا له من النار وذلك لأنه لم يبلغ سن التكليف بعد كما يرغب سادتنا أهل العلم أن يفهمونا عن سن التكليف الذي يصعب علي أن أفهمه، فالغلام (قبل كل شي) لازال غلاما. والمتدبر للنص القرآني يجد أن صاحب موسى لم ينكر أن في نفس هذا الغلام شيئا من الزكاة:

- فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (81) الكهف

ولو تدبرنا النص أكثر لربما استطعنا أن نفتري القول من عند أنفسنا بأن هذا الغلام هو الصورة المعاكسة تماما ليحيى بن زكريا. انظر هذا السياق القرآني الخاص بيحيى:

- **يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12) وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةًۖ وَكَانَ تَقِيًّا (13) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (14) مريم**

ونحن نعقد المقارنة بين الاثنين على النحو التالي:

أولاً، كان هذا غلاما، كما كان يحيى بن زكريا، غلاما بصريح اللفظ القرآني:

- **يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (7) مريم**

ثانيا، كان يحيى بارا بوالديه **"وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ"** بينما كان هذا الغلام عاقا لوالديه **"وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا"**.

ثالثا، كان يحيى هو الوريث الوحيد لوالديه **"يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا"** وكان هذا الغلام (نحن نظن) كذلك بدليل أن الإرادة في قتله كانت من أجل أن يبدله ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما **"فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا"**.

رابعا، نحن نظن – مفترين القول من عند أنفسنا- أن هذا الغلام قد آتاه الله الحكم صبيا كما آتى الله ذلك ليحيى:

- **يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12) مريم**

خامسا، على عكس يحيى بن زكريا كان هذا الغلام (نحن نفتري القول) قد انسلخ من آيات الله:

- **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَاۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176) الأعراف**

الخ.

الدليل: كان هذا غلاما، أليس كذلك؟

لو تفقدنا مفردة غلام في النص القرآني لوجدناها قد جاءت بحق إسماعيل (الغلام الحليم):

- **فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (101) الصافات**

وجاءت بحق إسحق (الغلام العليم):

- **قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (53) الحجر**
- **فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةًۖ قَالُوا لَا تَخَفْۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (28) الذاريات**

وجاءت بحق يوسف:

- وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (19) يوسف

وجاءت بحق المسيح عيسى بن مريم:

- قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (19) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20) مريم

وجاءت بحق يحيى:

- قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (40) آل عمران
- قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8) مريم
- يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (7) مريم

وجاءت بحق الغلامين اليتيمين أصحاب الجدار الذي بناه صاحب موسى لهما:

- وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (82) الكهف

وجاءت بحق هذا الغلام الذي كان أبواه مؤمنين:

- فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (74) الكهف
- وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) الكهف

السؤال: من هو الغلام إذن؟

جواب مفترى: لو دققنا في هذه السياقات جميعها لوجدنا أن الغلام هو من كان أبوهما صالحا، أو لنقل بشكل أكثر دقة أن الغلام هو من كان أهله يتصفون بصفة الإيمان، لنخلص إلى النتيجة المفتراة من عند أنفسنا التي مفادها أن كل من كان غلاما (ورد ذكره في كتاب الله) فهو قادم من شجرة طيبة، وما شذّ عن هذه إلا هذا الغلام الذي كاد أن يرهق أبويه طغيانا وكفرا.

السؤال: كيف كان سيستطيع القيام بذلك؟ كيف سيستطيع غلام لم يبلغ سن التكليف بعد أن يجادل أبويه المؤمنين في البعث وفي أساطير الأولين؟ نحن نسأل.

- وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17) الأحقاف

فهل يعقل – نحن لا زلنا نسأل- أن يكون هذا غلام عادي؟ من أين له أن يعلم بأساطير الأولين **"فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ"**؟ وكيف له أن ينكر البعث بهذه السهولة **"أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ"**؟ ومن أين جاءه خبر القرون التي خلت من قبله (وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي)؟ فهل هذا غلام لم يبلغ سن التكليف؟ نحن نسأل من أراد التصدي للإجابة من أهل العلم.

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأنه لمّا تحصل لهذا الغلام من الآيات التي آتاه الله إياها (كما كان ليحيى الذي أخذ الكتاب صبيا)، اختار هذا الغلام بنفسه أن ينسلخ منها وأن يخلد إلى الأرض **"أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي"** حتى أتبعه الشيطان، فأصبح مثله كمثل الكلب الذي إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث عندما اتبع هواه.

وهنا يبرز التساؤل الأكثر خطورة وهو: هل الغلام مكلف أصلا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نعم، نحن نظن أن التكليف يقع حتى على من كان غلاما، فالله قد آتى يحيى بن زكريا الحكم صبيا:

- **يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12) وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةًۖ وَكَانَ تَقِيًّا (13) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (14) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (15) مريم**

فماذا لو اختار يحيى أن ينسلخ من آيات الله ويخلد إلى الأرض؟ نحن نسأل فقط.

وكذلك نطق المسيح عيسى بن مريم بكلمة الحق وهو لازال في المهد صبيا:

- **فَأَشَارَتْ إِلَيْهِۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33) مريم**

السؤال مرة أخرى: من هو الغلام إذن؟

لو تدبرنا هذه السياقات القرآنية الخاصة بمفردة غلام جميعها، لوجدنا أن كل غلام ورد ذكره في كتاب الله قد جاء من شجرة طيبة وأن البر بالوالدين هو من صفات من كان غلاما كـ يحيى الذي كان بارا بوالديه **"وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا"** وكعيسى بن مريم الذي كان بارا بوالدته **"وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا"**، وكإسماعيل بن إبراهيم الذي لم يتردد أن يبر بوالده حتى وإن كان ذلك على حساب ذبحه بالسكين:

- **فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102) الصافات**

نتيجة مفتراة: لمّا كان هذا غلاما، فهو لا شك قادم من شجرة طيبة (بيت من المؤمنين). انظر ما قاله صاحب موسى بحق أبويه:

- وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) الكهف

لذا، كان يجب أن يكون بارا بوالديه، لأنه (نحن نفتري الظن) كان مؤهلا أن تأتيه الآيات من ربه. فلقد أخذ يحيى الكتاب صبيا، وكذلك فعل إسماعيل وإسحق، وكذلك فعل يوسف، لأن في ذلك تمام لنعمة الله عليه كما أتمها على أبويه من قبل:

- وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6) يوسف

وربما هذا ما فعله الغلامان اليتيمان في المدينة اللذان بنا لهما صاحب موسى الجدار. ولم يشذ عن ذلك إلا هذا الغلام الذي كان أبواه مؤمنين، فلم يكن بارا بهما، فكانت الخشية بأن يرهقهما طغيانا وكفرا قائمة:

- وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) الكهف

فكان هو من قال لهما أف لكما، منكرا البعث بعد الموت، وناعتا ما يقولانه له على أنه من أساطير الأولين:

- وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (18) الأحقاف

فكان لابد من تطهير تلك الشجرة الطيبة من ذلك الخبث الذي أصابها حتى تبقى شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، فجاءت الإرادة على نحو أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما:

- فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (81) الكهف

السؤال: ماذا لو أن صاحب موسى لم يقتل الغلام؟

جواب: لفسدت الشجرة بأكملها عندما سيستطيع هذا الغلام أن يرهق أبويه طغيانا وكفرا:

- وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) الكهف

السؤال: لماذا لم يبدل الله أبويه خيرا منهما دون الحاجة إلى قتله؟

جواب: لم يكن ذلك ممكنا

السؤال: لماذا؟

جواب: لأن من الاستحالة بمكان أن يخرج من الشجرة الطيبة فرعان أحدهما طيب والآخر خبيث دون أن يؤدي ذلك إلى نشوب الخلاف بينهما (ومن ثم فساد الشجرة بأكملها)، وسيؤدي ذلك إلى أن يتغلب الفاسد على المصلح كما حصل في حالة ابني آدم:

- فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (30) المائدة

التساؤلات:

- من هو هذا الغلام إذن؟
- من هم أبويه المؤمنين اللذين كانا يخشيا عليهما من أن يرهقهما هذا الغلام طغيانا وكفرا؟
- هل أبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما
- الخ

هذا ما سنحاول أن نتحدث عنه لاحقا إن أذن الله لنا بشيء من علمه،

دعاء: فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يهديني إلى نوره الذي أبى إلا أن يتمه ولو كره الكافرون.

أما ما يهمنا متابعته الآن في هذا الجزء هو التساؤل التالي: هل فعلا كان هذا الرجل (صاحب موسى) يستطيع أن يرى ما ستصير عليه الأمور لاحقا؟ هل فعلا كان يعلم أن والد الغلام قادم في الطريق ليلحق بولده ليرده إلى البيت مثلا؟ فكيف كان يستطيع أن يحيط خبرا بما لم يحط به غيره كموسى مثلا؟

الجواب: نعم، بكل تأكيد، كان يستطيع أن يحيط خبرا بما لم يحط به الآخرون.

السؤال: وكيف يستطيع ذلك؟

جواب: لأن يملك العلم بتأويل الأحاديث.

السؤال: وأين الدليل أن هذا الرجل (صاحب موسى) كان يملك علم تأويل الأحاديث؟

جواب: نحن نظن أن هذا واضح في تفسيره الذي قدّمه لموسى للأحداث التي قام بها.

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب: اقرأ - إن شئت- ما قاله الرجل لموسى:

- **قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (78) الكهف**
- **وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (82) الكهف**

السؤال: وما معنى تأويل الأحاديث؟

جواب: الإخبار عن ما ستصير عليه الأمور لاحقاً، أو بكلمات أكثر دقة "الإحاطة خبرا" بما لم يحط به الآخرون.

السؤال: وأين الدليل على ذلك؟

جواب: نحن نجد الدليل على ذلك في قصة يوسف خاصة في الآية الكريمة التالية:

- قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (37) يوسف

فلقد كان يوسف – كما نفهم من الآية الكريمة- يستطيع أن يؤول الأحاديث لصاحبيه السجن، فلا يأتيهما طعام يرزقانه إلا نبأهما بتأويله قبل أن يأتيهما، فلقد كان يأتيهما بخبر الطعام قبل أن يصل إليهم.

السؤال: وكيف كان يقوم يوسف بذلك؟

جواب: من خلال العرش

- وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100) يوسف

فملخص القول هو أنّ من كان عنده عرشا (كيوسف وكتلك المرأة التي كانت تملك قومها في سبأ) يستطيع أن يستطلع الأخبار قبل أن تصل إلى الناس، لأنه يستطيع أن ينظر في ذلك العرش فيرى ما هو قادم من بعيد. وبكلمات أكثر دقة نقول أن العرش هو عبارة عن شاشة مراقبة للأحداث عن بعد، فمن يملكها يستطيع أن يحيط خبرا بالأحداث قبل أن يحيط بها الآخرون.

(للتفصيل انظر مقالاتنا تحت عنوان ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته: باب العرش، ومقالاتنا تحت عنوان قصة يوسف: باب ورفع أبويه على العرش)

السؤال: وهل كان هذا الشخص (صاحب موسى) يملك عرشا؟

جواب: نعم

السؤال: وأين الدليل على ذلك؟

جواب: نحن نجد الدليل على ذلك في قصة خرقه السفينة.

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب: نحن نؤمن بأن صاحب موسى كان يستطيع الإحاطة خبرا بما لم يحط به الناس من حوله (كموسى مثلا). فهو كان يعلم أن هناك ملِك قادم في الطريق يأخذ كل سفينة غصبا:

- أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (79) الكهف

فالرجل متواجد مع موسى في مكان ما، لا يرى موسى أثرا لملك قادم في الطريق، ولا يستطيع أن يستطلع خبره. أما هذا الرجل فقد وصله خبر هذا الملك القادم من بعيد ليأخذ كل سفينة غصبا.

السؤال: كيف علم هذا الرجل أن هناك مِلك قادم في الطريق يأخذ كل سفينة غصبا؟ أو لنقل: كيف وصل خبر هذا الملِك القادم من بعيد إلى صاحب موسى في تلك الساعة؟

جواب: للإجابة على هذا التساؤل الكبير جدا، نحن نظن أن الحاجة ملحة لفهم قصة هذه السفينة وذلك الملك وأولئك المساكين:

- **أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (79) الكهف**

لنطرح بداية التساؤلات التالية:

1. ما هي السفينة التي كان الملك سيأخذها لو أن صاحب موسى لم يعيبها بالخرق؟
2. من هم أولئك المساكين أصحاب تلك السفينة؟
3. من هو الملِك الذي كان قادما ليأخذ كل سفينة غصبا؟

أما بعد،

لو دققنا – بداية- في علم هذا الشخص (صاحب موسى) لربما تأكد لنا ما افتريناه من قول في بعض الأجزاء السابقة من هذه المقالة بأن الناس قد فتنوا به لدرجة أن رفعوه من منزلة البشرية إلى منزلة الإلوهية عندما نعته بعض اليهود بأنه ابن الله:

- **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (30) التوبة**

فلقد كان الدافع عندهم قويا جدا بأن يجعلوا منه ابن للإله وذلك لأن علمه يكاد يكون إلهيا، ولكن كيف ذلك؟

جواب: لو تدبرنا في علم هذا الرجل قبل الدخول في تفاصيل الأحداث لوجدنا فيه العجب. ولربما استطعنا أن نتفهم كيف أن علمه يكاد لا يستطيعه بشر، فالرجل قد علم لمن تعود السفينة (أي من هم أصحابها)، وعلم من هم أهل الغلام الذي قتله، وعلم من هم أصحاب الجدار الذي بناه، أليس كذلك؟ فالرجل إذن كان عالما بأصول الأشياء.

لذا نحن نفتري القول بأن هذا الرجل كان عنده من العلم ما يمكنه أن يحيط خبرا بكل ما حوله. ولو دققنا أكثر في القصة لوجب علينا أن نطرح التساؤل التالي: لِم لم يسأل هذا الرجلُ موسى عن هويته؟ ألم يكن يعلم من هو موسى هذا؟ ألم يكن يعلم أن هذا نبي بني إسرائيل؟ ألم يكن يعلم أن هذا هو كليم الله؟ فلم إذن لم يسأله شيئا عن هويته؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الرجل لم يسأل موسى عن شيء يخص موسى وذلك لأنه ببساطة قد أحاط خبرا بكل تفاصيل حياة موسى الذي جاء طالبا صحبته. فهو يعلم كامل قصته من أولها إلى آخرها.

منطقنا المفترى: نحن نتخيل أنه كان الأولى بهذا الرجل أن يتحدث مع موسى (خلال تلك الرحلة) عن شيء من تفاصيل قصة موسى المثيرة منذ ولادته وتربيته في بلاط فرعون وهروبه إلى الأرض المقدسة، ثم قصته مع نبي الله شعيب، ثم عودته إلى فرعون وقصته من السحرة وقصته مع السامري، وقصته في مواعدته ربه وتكليمه إياه. ولكن على الرغم من جميع هذه الأحداث المثيرة في حياة موسى إلا أن هذا الرجل (صاحب موسى) لم يسأل موسى عن شيء منها، وهنا يبرز السؤال المثير التالي: لماذا؟ لماذا لم يتحدث الرجل مع موسى عن شيء من تفاصيل حياة موسى؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أنه لما كان هذا الرجل (صاحب موسى) يعلم تفاصيل قصة موسى كلّها، لم يكن يحتاج من أحد (حتى لو كان موسى نفسه) أن يقص عليه شيئا منها.

إن هذا المنطق المفترى من عند أنفسنا هو (نحن نظن) ما جعل كل الذين تفكروا في قصة هذا الرجل مفتونين به لدرجة أن ينسبوا إليه الإلوهية بالضبط كما فعلت النصارى مع عيسى بن مريم الذي كان ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم:

- وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (49) آل عمران

فلقد ظن كثير من أهل الدين حينئذ أن ما يملكه هذا الشخص من العلم قد لا يقدر عليه بشر، ولا هو (ربما ظنوا) من صنيع بشر، فما كان منهم إلا أن ينسبوا ذلك إلى من كان إله أو ابن إله، فقالت اليهود عزيرا ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله:

- وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (30) التوبة

السؤال: هل هذا النوع من العلم إلهي؟

جواب: نعم هو علم إلهي، ولكن هذا لا يعني أن الله قد لا يمنّ به على بشر، بل على العكس تماما فلقد من الله بهذا العلم على عيسى بن مريم، كما منّ الله به على هذا العبد الذي آتاه الله رحمة من عنده وعلّمه من لدنّه علما:

- فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (65) الكهف

نتيجة: إن هذا العلم الذي يمكّن صاحبه من الإحاطة خبرا بما لم يحط به غيره هو علم إلهي قد يعلمه الله لبعض عباده.

دعاء: رب أسألك بوجهك الذي لا يهلك، وبنورك الذي لا ينطفئ، أن تؤتيني رحمة من عندك وأن تعلمني من لدنك علما لا ينبغي لغيري إنك أنت العليم الحكيم.

إن مراد القول بعد هذه المقدمة الطويلة بعض الشيء هو القول بأن هذا الرجل (صاحب موسى) كان يعرف من يملك السفينة، وكان يعلم ما هي حرفتهم، وكان يعلم أن هناك ملك قادم في الطريق ويعلم من هو ذاك الملك، وما كان ذاك الملك سيفعل بسفينة المساكين وغيرها من السفن، ويعلم السبب الذي من أجله كان يأخذ كل سفينة غصبا:

- **أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (79) الكهف**

لذا يصبح لزاما علينا طرح التساؤلات الثلاثة التالية:

السؤال الأول: ما هي قصة تلك السفينة؟

السؤال الثاني: ما قصة المساكين أهل السفينة؟

السؤال الثالث: ما قصة ذاك الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصبا؟

باب السفينة

لو تدبرنا قصة موسى مع هذا العبد الصالح الذي آتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنّه علما، لما ترددنا في الخروج بالاستنباط بأن أول فعل قام به الرجل مع موسى هو ركوب السفينة:

- **فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) الكهف**

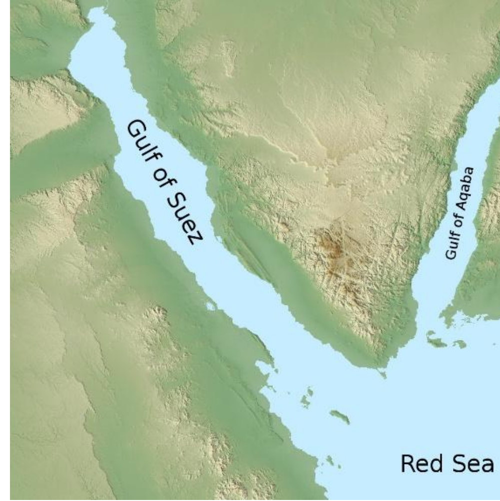
لنثير حول ذلك التساؤلات التالية:

1. لماذا ركبا في السفينة؟
2. ما هي السفينة التي ركبوها؟
3. إلى أين كانت السفينة متجهة؟
4. من أين كانت قادمة؟
5. من الذين كانوا داخل السفينة؟
6. الخ.

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن السفينة التي ركب فيها موسى مع صاحبه هي السفينة نفسها التي ركبها موسى مع غلامه بعد أن بلغا مجمع البحرين ولم يجدا الرجل هناك في المرة الأولى عندما مضيا حقبا:

- **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60) الكهف**

فعندما وصل موسى مع فتاه إلى مجمع البحرين كما في الشكل التالي:



وجدا الصخرة التي تدخل في الماء (انظر الخريطة جيدا)، وهناك عند الصخرة التي تقع عند مجمع البحرين نسيا هناك حوتهما، فما كان من موسى وفتاه إلا أن يمضيا حقبا بعد أن أويا إلى تلك الصخرة. وقد افترينا الظن سابقا أن المضي حقبا يعني الذهاب في رحلة بحرية، فعندما بلغ موسى مع فتاه مجمع البحرين لم يكن موسى ليرتدّ إلى الوراء، فما كان منهما إلا أن يمضيا قدما إلى الأمام حيث لا يوجد إلا البحر كما في الشكل التوضيحي التالي:



فلو دققنا النظر في هذه الصورة التي تبيّن تفرع البحر الأحمر إلى بحرين (خليج العقبة مع خليج السويس)، نجد النقطة التي تجمع بينهما وهي منطقة رأس محمد، حيث تبين الصخرة التي تدخل في الماء، فكانت تلك (نحن نظن) هي الصخرة التي أوى إليها موسى مع فتاه عندما بلغا مجمع البحرين.

السؤال: كيف كان لموسى وفتاه أن يمضيا حقبا؟ أو لنقل كيف كانا سيمضيان قدما في البحر؟

جواب: لابد من ركوب سفينة.

تخيلات من عند أنفسنا: ما أن وصل موسى وفتاه إلى تلك الصخرة عند مجمع البحرين حتى نسيا حوتهما، فما كان منهما إلا أن ينطلقا في رحلة بحرية، فركبا سفينة ليذهبا فيها في البحر بحثا عن ذاك العبد الذي آتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علما. وما أن كان وقت الغداء حتى لقيا (موسى وفتاه) نصبا من سفرهم هذا:

- **فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا (62) الكهف**

نتيجة مفتراة: مادام أن موسى قد نعت رحلتهما هذه على أنها سفر **"لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا"**، فهم قد قطعوا مسافة بعيدة بدليل أن من كان على سفر فله الحق أن يفطر في نهار رمضان ليقضيه في أيام أخر:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (184) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185) البقرة**

لذا، نحن نتخيل الأمر وقد حصل على نحو أن موسى يصل مع فتاه إلى الصخرة عند مجمع البحرين، فيكون ذلك في فترة في الصباح (قبل زوال الشمس في فترة الغدو)، فيأويان إلى تلك الصخرة **"قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ"**، أي يمكثان فترة قصيرة ليرقبان الحوت، لأن الإيواء في مكان ما يعني (كما نفهمه) المكوث في ذلك المكان لفترة قصيرة من أجل غاية محددة بذاتها كما حصل في الحالات التالية:

فهذا نوح ينادي أبنه ليركب معهم في السفينة إلا أنه يقرر أن يؤوي إلى جبل ليعصمه من الماء، لذا نحن نتخيل أن ولد نوح سيمكث في ذلك الجبل لفترة محددة تنتهي بانتهاء السبب الذي من أجله أوى إليه (وهو أن يعصمه من الماء):

- **قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43) هود**

وهذا يوسف يؤوي إليه أخاه، فمكث ذلك الأخ في مكان منفصل عن أخوته الآخرين حتى انتهى السبب الذي من أجله آوى يوسف أخاه إليه:

- **وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (69) يوسف**

وها هم فتية الكهف يؤون إلى كهفهم حتى انتهاء السبب الذي من أجله أووا إليه:

- إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (10) الكهف

والله هو من آوى مريم وابنها إلى ربوة ذات قرار ومعين حتى اليوم التالي لتعود به إلى محرابها:

- وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (50)

نتيجة: لقد أوى موسى مع فتاه إلى الصخرة باحثين عن الحوت الذي كان عبارة عن علامة اللقاء بذاك العبد الصالح، وعندما لم يتمكنا من رؤية الحوت (علامة اللقاء)، لأن فتى موسى قد ظن أن الحوت الذي رءاه هناك قد اتخذ سبيله في البحر سربا، فلم يدرك في تلك اللحظة أنه الحوت نفسه الذي يبحثون عنه:

- فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (61) الكهف

وعندما لم يدرك فتى موسى أن هذا الحوت هو المقصود لم ينقل خبره إلى موسى في تلك اللحظة، فما كان منهما إلا أن يمضيا حقبا. وما أن جاوزا مجمع البحرين من عند الصخرة يمضيان في البحر حقبا، حتى قطعا مسافة طويلة بدليل أن الجوع قد أخذ من موسى ما أخذ، فطلب من فتاه أن يحضر الغداء:

- فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (62) الكهف

وبدليل أنه قد أصبح سفرا بدليل ما قاله موسى بلسانه.

وما أن تناولا غداءهما (نحن نتخيل) حتى أعاد فتى موسى شريط أحداث الرحلة كاملة في ذهنه، وهناك تذكر أن الحوت الذي رءاه عند مجمع البحرين عندما أويا إلى الصخرة قد اتخذ سبيله في البحر عجبا وليس سربا (كما ظن عندما كان واقفا هناك):

- قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63) الكهف

فما كان من موسى إلا أن يطلب من فتاه أن يرتدا على آثارهما قصصا لأن هذا ما كانوا يبغونه:

- قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۦ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (64) الكهف

(للتفصيل انظر الأجزاء السابقة من هذا الكتاب)

السؤال: كيف عاد موسى مع فتاه من هناك إلى الصخرة التي أويا إليها في الصباح؟

جواب مفترى: نحن نظن أن موسى وفتاه قد عادا في السفينة نفسها. وقد نزلا من السفينة عن الصخرة التي هي عند مجمع البحرين كما في الشكل التوضيحي السابق نفسه:



وهناك عند تلك الصخرة التي تدخل في البحر حيث مجمع البحرين نزلا من السفينة ليجدا ذلك العبد جالسا منتظرا وصولهما:

- فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (65) الكهف

وهناك ترك موسى فتاه ينتظره إلى أن يعود من صحبته لهذا الرجل، فكان أول ما فعله موسى مع هذا الرجل بعد أن وافق على صحبته شريطة أن لا يسأله عن شيء حتى يحدث له الرجل بنفسه منه ذكرا هو ركوب السفينة:

- فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) الكهف

السؤال: لماذا كان ركوب السفينة هو أول فعل قاما به معا؟

جواب مفترى: لأن ذاك العبد الصالح كان ينوي أن يصحب موسى إلى مكان ما يتطلب الوصول إليه ركوب السفينة.

(للتفصيل انظر الأجزاء السابقة)

السؤال: ما هي السفينة التي ركباها؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أنها السفينة نفسها التي ذهب فيها موسى مع فتاه وعادا فيها في الرحلة الأولى بحثا عن الرجل في البحر.

الدليل: لو حاولنا أن نقرأ بشيء من التدبر الآية القرآنية نفسها التي جاء فيها ذكر السفينة لأول مرة، ربما نجد الدليل على زعمنا هذا جليا. فانظر – عزيزي القارئ- الآية مرة أخرى:

- فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) الكهف

السؤال: ألا تجد - عزيزي القارئ- أن مفردة السفينة قد جاءت معرفة بأداة التعريف (السَّفِينَةِ) وهي تذكر لأول مرة؟ ألم يكن الأولى بأن يأتي النص القرآني على نحو:

فانطلقا حتى إذا ركبا في سفينة...؟

نتيجة مفتراة: لابد أن السفينة التي ركبوها كانت معروفة بدليل أنها وردت بالنص القرآني معرفة عندما ذكرت لأول مرة (السَّفِينَةِ)؟

السؤال: فأي سفينة هي التي ركبوها إذن؟

جواب: مادام أن مفردة السفينة قد وردت معرفة (السَّفِينَةِ) وإن كان ذكرها قد جاء لأول مرة هنا، فلابد أن تكون تلك السفينة معروفة لمن ركب فيها (أو على الأقل لبعض من ركب فيها). فركوب موسى في تلك السفينة لم يكن (نحن نفتري القول) لأول مرة.

السؤال: متى ركب موسى السفينة من قبل حتى أصبحت معروفة بالنسبة له؟ أو متى ركب صاحب موسى السفينة حتى أصبحت معرفة بالنسبة له؟ أو متى ركبا معا السفينة من قبل حتى أصبحت معرفة بالنسبة لهما؟

افتراء 1: نحن نظن أن صاحب موسى لم يركب السفينة من قبل لأنه جاء قادما من البحر إلى الصخرة يحمله الحوت (انظر الأجزاء السابقة).

افتراء 2: نحن نظن أن موسى هو من ركب السفينة من قبل حتى أصبحت هذه السفينة معروفة، فوردت في النص القرآني معرفة بأداة التعريف **"السَّفِينَةِ"** وإن كانت تذكر لأول مرة، فتلك هي العهدية كما يحب أهل اللغة أن يسموها. لذا نحن نظن أن موسى كان له عهد سابق بهذه السفينة، وكان ذلك – برأينا- عندما ركبها مع فتاه في بداية اليوم وانطلقا فيها ليبحثا عن هذا الرجل في عرض البحر.

ثانيا، لو حالنا أن نتفكر في ردة فعل موسى على خرق صاحبه لتلك السفينة بعد ذلك، لربما وجدنا فيه العجب:

- **فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا (71) الكهف**

السؤال: كيف عرف موسى أن خرق السفينة سيؤدي إلى إغراق أهلها؟

جواب: لأنهم سيكونون داخل السفينة التي تم خرقها.

سؤال: ولماذا سيغرق أهلها إن غرقت السفينة؟ ألن يكون أهلُها خارج السفينة؟ ومن أين عرف موسى أن لهذه السفينة أهل (ربما أكثر من شخص واحد)؟

جواب: لابد أن صاحب موسى قد خرق السفينة بطريقة ما كانت النتيجة الحتمية (كما يشاهدها موسى حينئذ) أن يغرق أهلها (أكثر من شخص واحد).

السؤال: كيف تم ذلك؟

جواب: للإجابة على هذا التساؤل لابد من التعرض للتساؤلات التالية:

1. كيف خرق صاحب موسى السفينة؟ أي كيف كانت طريقة (أو آلية) خرقه لها؟
2. متى خرق صاحب موسى السفينة؟
3. وأين خرق صاحب موسى السفينة؟
4. الخ

نحن لا نعتقد أن صاحب موسى قد خرق السفينة وهي لازالت تقلّهم جميعا في وسط البحر، وإلاّ لأصبح السيناريو الذي سيرد به موسى أن ذلك سيؤدي إلى إغراق كل من في السفينة وليس فقط أهلها، كما لا نتوقع حدوث ذلك بتلك الطريقة لأن ذلك سيؤدي إلى إغراق موسى نفسه مع صاحبه (إلا إن كانا يستطيعان الخروج من البحر سباحة، وهو ما لا نجرؤ على افتراءه).

السؤال: أين ومتى قام صاحب موسى بخرق السفينة؟

جواب مفترى: نحن نظن أن صاحب موسى ربما أقدم على خرق السفينة عندما كانت على وشك الوصول إلى المكان الذي كانا (موسى وصاحبه) ينويان النزول فيه. فما أن اقتربت تلك السفينة من مكان محدد بذاته، حتى أقدم صاحب موسى (نحن نتخيل) على خرق السفينة، فما أن ينزل موسى مع صاحبه من تلك السفينة وتكمل السفينة مسيرها في البحر، ولم يتبق فيها إلا أهلها حتى يصبح غرقها حتمي بأهلها اللذين لازالوا متواجدين فيها. وهذا المنطق المفترى من عند أنفسنا يدفعنا إلى تقديم جملة من الافتراءات الجديدة:

- ربما يدلنا هذا إلى الظن بأن خرق السفينة لم يكن خرقا كبيرا لتفادي غرق السفينة الفوري. فصاحب موسى لم يكن ينوي أن يحدث خرقا يؤدي إلى إغراق السفينة في الحال.
- وربما يرشدنا هذا إلى الظن بأن خرق السفينة كان غير ظاهر للعيان مادام أن أهل السفينة لم يلحظوا ذلك بأنفسهم، فلربما أحدث صاحب موسى خرقا سيؤدي إلى غرق السفينة بعد فترة وجيزة من الزمن، وليس أدل على ذلك من الملاحظة بأن موسى وحده هو من راقب كيفية خرق ذلك الرجل للسفينة. وهذا يدعونا في الوقت ذاته إلى طرح السؤال التالي على الفور: لماذا لم يلحظ غير موسى ما قام به هذا الرجل من خرق للسفينة؟

جواب: نحن ظن أن هناك سيناريوهين مفترضين وهما:

1. أن السفينة كانت مأهولة بغيرهم، أي أن غيرهم كان يركب السفينة معهما وأن موسى فقط هو من لاحظ أن الرجل قد خرق السفينة

2. أن السفينة لم تكن تحمل إلا موسى وصاحبه، وبكأنهما قد استأجرا السفينة وذهبا فيها وحدهما، لذا لم يكن هناك من يلاحظ ما فعله الرجل بتلك السفينة إلا موسى نفسه.

افتراء من عند أنفسنا: نحن نرجح السيناريو الأول للأسباب التالية:

أولا، أن موسى وصاحبه لم يركبا السفينة وإنما ركبا في السفينة:

- **فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) الكهف**

فنحن ظن أن من يركب السفينة هو من يقود دفتها ويوجهها إلى مقصدها، ولكن من يركب في السفينة فهو ليس أكثر من زبون فيها لا دخل له بقيادتها. فها هو نوح مثلا يطلب ممن آمن معه أن يركبوا فيها، فلم يكونوا (نحن نظن) ليتدخلوا في توجيهها مادامت أنها تجري وترسو بسم الله:

- **وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (41) هود**
- **فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (65) العنكبوت**

ثانيا، كان خرق السفينة سيؤدي لا محالة إلى غرق أهلها كما جاء بصريح لفظ موسى:

- **فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) الكهف**

لذا لو أن موسى وصاحبه هما فقط من كانا يركبان السفينة لما كان خرقها سيؤدي بالضرورة إلى إغراق أهلها.

السؤال: كيف كان خرق السفينة بتلك الطريقة سيؤدي إلى إغراق أهلها؟

باب أهل السفينة

السؤال: من هم أهل السفينة التي أقدم صاحب موسى على خرقها؟

جواب: إنهم المساكين الذين يعملون في البحر.

السؤال: لماذا كان خرق صاحب موسى للسفينة سيؤدي إلى إغراق هؤلاء المساكين فقط؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لأنه عندما خرق السفينة صاحب موسى لم يتبقى فيها إلا أهلها.

السؤال: وأين بقية الركاب؟

رأينا: نحن نفتري الظن بأن موسى وصاحبه كانا آخر من نزل من السفينة من الركاب ولم يتبقى فيها إلا أهلها.

السؤال: وأين الدليل على ذلك؟

جواب: نحن نكاد نجد الجواب (كما نفتريه) من الآية الكريمة التالية (كما نفهمها):

- **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (14) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (15) العنكبوت**

فلو دققنا في اللفظ القرآني جيدا لوجدنا الضرورة تستدعي التفريق بين أهل السفينة (كما جاء على لسان موسى) من جهة وأصحاب السفينة (كما جاء في هذه الآية الكريمة) من جهة أخرى. فلنطرح التساؤل التالي على الفور: ما الفرق بين أهل السفينة وأصحاب السفينة؟

منطقنا المفترى من عند أنفسنا: كان نوح هو من صنع السفينة بنفسه بوحي وأمر من ربه، أليس كذلك؟

- **وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (37) هود**

فكان هو (نحن نظن) من يملكها. ولكن الله أمره أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهله (إلا من حق عليه القول) ومن آمن معه (وما آمن معه إلا قليل):

- **حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (40) هود**

ولمّا جاءت النجاة كانت لمن بنا السفينة وهو نوح نفسه وأصحاب السفينة. انظر الآية الكريمة التالية:

- **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (14) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (15) العنكبوت**

فمن هم أصحاب السفينة إذن؟

جواب: نحن نكاد نجزم القول بأن نوحا لم يكن منهم بدليل أن النجاة حصلت لنوح ولأصحاب السفينة **"فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ"**، فمن هم أصحاب السفينة إذن؟

جواب: نحن نظن أن أصحاب السفينة كانوا هم كل من كان يركب فيها حينئذ باستثناء نوح، وهم:

- أهله (إلا من سبق عليه القول).
- ومن آمن معه (وما آمن معه إلا قليل).
- وربما يضاف إلى ذلك ما كان يحمل فيها من كل زوجين اثنين.

السؤال: إذا كان هؤلاء هم أصحاب سفينة نوح، فمن هم أهل سفينة نوح إذن؟

جواب مفترى: إنه نوح نفسه لأنه هو من كان يملك تلك السفينة مادام أنه هو من صنعها.

السؤال: ما الفرق بين الصاحب والأهل إذن؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن من يملك الشيء على الدوام فهو أهله، ولكن من يملكه على انقطاع لفترة محددة فهو صاحبه.

الدليل: هذا يوسف الصديق يتحدث مع صاحبيه السجن:

- **يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39) يوسف**

فكانوا جميعا من أصحاب السجن لأن مكوثهم فيه سيكون على انقطاع لفترة من الزمن وليس ملكا على الدوام.

وكان الذي رافق النبي محمد في رحلته هو صاحبه في الغار:

- **إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (40) التوبة**

وكان ذا النون هو صاحب الحوت مادام أنه قد لبث في بطنه فترة من الزمن، ولم يمكث فيه إلى الأبد:

- **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) القلم**

والمرأة هي صاحبة لبعلها مادام أن التفريق بينهما قد يحصل في أي وقت:

- **يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (11) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (12) المعارج**
- **يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (35) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (36) عبس**

نتيجة: لمّا قال موسى لصاحبه أن خرقه للسفينة سيؤدي إلى إغراق أهلها (أي أهل السفينة) ولما لم يقل بأن خرق السفينة سيؤدي إلى إغراق أصحابها، فإننا نظن بأن كل من تبقى في السفينة لم يكونوا أصحاب السفينة الذين ربما كانوا يستخدمون السفينة لفترة محددة من الزمن كركابها مثلا، ولكنهم كانوا جميعا أهلها لأنهم هم المتواجدون فيها على الدوام مادام أن ملكيتها تعود لهم.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن صاحب الشيء هو من له الحق في استخدامه ولكنه لا يملكه كأمثال أصحاب الجنة:

- **أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (24) الفرقان**

كما نعتقد أن من كان صاحب للشي فهو لا يملكه على الدوام، لذا جاءت الحاجة ضرورية تأكيد الخلود لأصحاب الجنة:

- **وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (82) البقرة**

فلو كان الخلود من معاني الصحبة (أي من كان صاحبا لشيء) لما دعت الحاجة إلى تأكيد أن أصحاب الجنة خالدين فيها:

- وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (42) الأعراف
- لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (26) يونس
- إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُواْ إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (23) هود
- أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (14) الأحقاف

السؤال: لماذا من يدخل الجنة يصبح من أصحاب الجنة وليس من أهل الجنة (كما هو شائع عند العامة)؟

جواب: نحن لم نجد في كتاب الله عبارة "أهل الجنة" وأن كل الآيات الكريمة في هذا الجانب تتحدث عن أصحاب الجنة. ليبرز السؤال نفسه: لماذا أصحاب الجنة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لأن من كان من أصحاب الجنة فهو لا يملكها، مادام أنه لم يصنعها، ولم يساعد في إحداث شيء فيها، ولكنه فقط يستخدمها.

نحن نظن أن صاحب الشيء هو من له الحق في استخدامه ولكنه لا يملكه كأمثال أصحاب الجنة الذين حصل لهم الابتلاء كما تبين ذلك الآية الكريمة التالية:

- إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) القلم

لذا نحن نظن أن هؤلاء لم يكونوا هم المالكين الفعلين لها، ولكن كان لهم حق في ثمرها في ذلك العام، وهنا جاءت مؤامرتهم التي أدت إلى هلاكها. فهم قد تنادوا إلى حرثهم:

- أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ (22) القلم

فكانت الجنة حرثا لهم مادام لهم الحق في استخدامها والتمتع بثمراتها بالضبط كحالة النساء:

- نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (223) البقرة

فمادامت المرأة في عصمة زوجها (برابط عقد النكاح) فهي حق له أن يتمتع بها، ويتوقف هذا الحق بانقطاع هذا الرابط.

السؤال: إذا كان من يستخدم السفينة لغرض ركوبها على انقطاع هو صاحبها، فمن هم أهل السفينة التي ركبها موسى مع صاحبه؟

جواب: إنهم أولئك المساكين اللذين كانوا يعملون في البحر لأنهم هم – برأينا- من كانوا يملكون تلك السفينة.

باب المساكين

السؤال: لماذا كان أهل السفينة من المساكين مادام أن لديهم عمل؟ ألم يكونوا يعملون في البحر؟ وهل من يعمل يمكن أن يكون ممن يطلق عليه لفظ المسكين؟

السؤال: من هو المسكين إذن؟

جواب: نحن نظن أن المسكين يختلف عن كل من جاء مصاحبا لهم في اللفظ في الآية الكريمة التالية التي تتحدث عن من يحق له أن يأخذ من الصدقات عند توزيعها:

- **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (60) التوبة**

ولا شك أن المسكين يختلف أيضا عن من جاء مصاحب له في الآية الكريمة التالية:

- **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (8) الإنسان**

السؤال: ما الفرق بين الفقير والمسكين؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الفقير هو الذي لا يملك شيئا، فها هو موسى يشكو فقره إلى الله عندما وصل مدين:

- **فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24) القصص**

فلا أظن أن موسى حينئذ كان يملك شيئا يمكن أن يكفيه حاجته الملحة للطعام حينها.

ثانيا، نحن نظن أن الفقير هو الذي قد يكون أحصر في سبيل الله، فلا يستطيع أن يضرب في الأرض (أي لا يستطيع أن يعمل لسبب ما)، ولكنه في الوقت ذاته يأبى أن يسأل الناس تعففا، ولا نجد أكثر دقة في التفصيل مما جاء في الآية الكريمة التالية التي تصور حال من كان فقيرا أحسن تفصيلا:

- **لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ (273) البقرة**

لذا نحن نتجرأ على القول أن من يحق له أن يأكل من مال اليتيم هو من كان فقيرا فقط، أي لا يستطيع ضربا في الأرض:

- **وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيبًا (6) النساء**

وليس أدل على ذلك من فقر الناس جميعا إلى الله:

- **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (15) فاطر**

ثالثا، نحن نظن أن الفقير ربما لا يستطيع الاتكال المطلق على نفسه، فهو بحاجة إلى من يساعده، لأنه قد لا يستطيع أن يتحصل على الشيء بنفسه، فعلى الرغم من القوة الجسدية لموسى عندما ورد ماء مدين بدليل أنه هو من سقى لهما، إلا أنه في اللحظة ذاتها كان فقيرا إلى ما ينزله ربه عليه من خير هناك:

- فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24) القصص

السؤال: لماذا كان موسى في تلك اللحظة فقيرا ليطلب المساعدة من ربه؟ لم لا يبحث عن عمل يكسب من خلاله قوته؟

جواب: لا شك عندنا أن موسى كان في تلك اللحظة قد أحصر في سبيل الله فلم يكن يستطيع ضربا في الأرض حتى الساعة، ولكنه كان بحاجة إلى مساعدة عاجلة حتى يستطيع أن يضرب بالأرض فيجد له عملا يكفيه رزقه. فكان موسى – برأينا- فقيرا مادام أنه بحاجة إلى مساعدة عاجلة، ولكن مما لا شك فيه فإن موسى (على فقره في تلك الساعة) لم يكن ليسأل الناس، فموسى ليس من الذين يمدون أيديهم إلى الناس بغرض كسب شيء من فتاتهم. فعزة نفس موسى (وحفظ ماء وجهه) أقوى من حاجته إلى الطعام والشراب.

السؤال: لماذا لم يبحث موسى في تلك الساعة عن عمل يكسب رزقه من خلاله؟

جواب مفترى: صحيح أن موسى كان يستطيع أن يبحث له عن عمل، لكن ذلك ربما كان سيكلفه بعض الوقت الذي قد لا يقوى على إضاعته حتى يحصل على شيء من الرزق. فالجهد والتعب (من عناء السفر) قد أخذ منه شوطا بعيدا. ونحن نعلم أن موسى لا يستطيع الصبر على الجوع إطلاقا (كما لم يكن يستطيع الصبر على العلم مع صاحبه هذا.

وهذا يدلنا على أن موسى كان على الدوام على عجلة من أمره، فهو قد وكز الرجل وقضى عليه على عجل، وحاول أن يبطش بالآخر على عجل. ولم ينتظر ميعاد ربه، فاستعجل ليلاقي ربه، وها هو لم يستطع أن يصبر على صحبة الرجل فاستعجل بالسؤال عن كل ما كان يراه منه. فهل تعتقد - عزيزي القارئ- أنه كان يستطيع أن يصبر على الجوع؟ من يدري!!!

وليس أدل على ذلك من:

- منذ ولادته كان موسى بحاجة إلى الأكل حتى جاء الأمر الإلهي لأمه بأن ترضعه قبل أن تقذفه في التابوت فتقذفه في اليم:

- وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7) القصص

- ما أن وصل ماء مدين حتى طلب الطعام:

- فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24) القصص

- ➢ عندما ذهب مع غلامه في الرحلة، كان الجوع قد أخذ منه مأخذا:

- **فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (62) الكهف**

- ➢ ما أن صاحب هذا الرجل في رحلته وأتيا أهل القرية حتى استطعما أهلها، وبالرغم أن صاحب موسى عمد إلى بناء الجدار وهو في حالة من الجوع إلا أن موسى لم يساعده في ذلك. فما كان موسى (نحن نظن) يقوى على العمل متى ما أصابه الجوع:

- **فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77) الكهف**

- ➢ الخ.

إن ما يهمنا قوله هنا هو أن موسى كان في تلك اللحظة التي سقى فيها للامرأتين على ماء مدين فقيرا إلى خير ينزل إليه من ربه لأنه لا يستطيع الانتظار وتحمل عناء الجوع حتى يبحث له عن عمل يكسب من خلاله شيئا من الرزق. ولكنه لا يستطيع أن يسأل الناس إلحافا تعففا من السؤال:

- **لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ (273) البقرة**

لذا نحن نتجرأ على القول أن من يحق له أن يأكل من مال اليتيم هو من كان فقيرا فقط، أي لا يستطيع ضربا في الأرض:

- **وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيبًا (6) النساء**

ولكن الفقر كحالة موسى هنا (نحن نظن) لا يدوم لأنّ فقره سينتهي عندما يجد موسى عملا يكسب من خلاله الرزق، فموسى حتى الساعة لم يكن يستطيع ضربا في الأرض مادام أنه من الفقراء اللذين أحصروا.

افتراء من عند أنفسنا: بناء على ما سبق، نحن نظن أن الفقير هو:

- الذي لا يملك شيئا.
- الذي لا يسأل الناس إلحافا، لذا فهو قد لا يكون معروفا للآخرين.
- الذي قد يكون أحصر فلا يستطيع ضربا في الأرض.
- الذي قد لا يقوى على الكسب بمفرده بسبب أنه أحصر.
- الذي يحتاج إلى مساعدة عاجلة.
- الفقر قد يزول بمجرد انتهاء السبب لأنه آني.
- الخ.

لذا نحن نظن أنه لا يحق لكافل اليتيم أن يأكل من مال اليتيم إلا إذا كان فقيرا، أي معدما لا يستطيع ضربا في الأرض ولا يسأل الناس إلحافا:

- **وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيبًا (6) النساء**

ويجب أن يتوقف كافل اليتيم عن الأكل من مال اليتيم متى زال فقره، واستطاع الضرب في الأرض.

كما أننا نعتقد أنه لا يحق للفقير أن يأخذ من الغنائم، لأنها توزع على النحو الذي تنص عليه الآية الكريمة التالية:

- **وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (41) الأنفال**

السؤال: إذا كانت هذه هي بعض صفات من كان فقيرا، فمن هو المسكين إذن؟

جواب مفترى: المسكين قد يسأل الناس:

- **فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (23) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (24) القلم**

فمادام أن المسكين قد يدخل على أصحاب الجنة، فهو إذن يدخل عليهم يطلب شيئا من الرزق من عندهم.

ثانيا، نحن نظن أن المسكين معروف للآخرين مادام أنه هو من يسأل الناس:

- **إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (34) الحاقة**

ثالثا، نحن نظن أن المسكين من كان بحاجة إلى مساعدة تكاد تكون دائمة:

- وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (26) الإسراء
- وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (8) الإنسان

رابعا، نحن نكاد نجزم الظن بأن المسكين هو الذي يتلقى الكفارات كلها ككفارة الأيمان:

- لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (89) المائدة

وكفارة من قتل شيئا من الصيد وهو في حالة الإحرام:

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللّهُ عَمَّا سَلَف وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللّهُ مِنْهُ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (95) المائدة

وكفدية الذي يطيق الصيام:

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (184) البقرة

وككفارة العودة إلى النساء من بعد مظاهرتهن:

- وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (3) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (4) المجادلة

نحن نفتري الظن بأن من له الحق في الكفارات هو المسكين فقط (نظر جميع الآيات السابقة)، ولا تعطى الكفارات للفقراء الذين يحق لهم الأخذ فقط من الصدقات:

- إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (60) التوبة

وربما يتساءل البعض عن السبب في أن يكون للفقير حق في الصدقات (وليس له حق في الكفارات مادام أنه لا يسأل الناس، وما دام أنه غير معروف بينهم.

فنحن نظن أن السبب في ذلك ربما يعود إلى من يقوم بتوزيع تلك الأموال على الفقراء والمساكين وغيرهم، ففي حين أن الصدقات يقوم بتوزيعها ولي الأمر (أي بيت ما المسلمين) فإن ذلك لا يؤدي بأي حال من الأحوال إلى إراقة ماء وجه الفقير لأنه يأخذ المساعدة (الصدقة) من بيت مال المسلمين مادام أن الدولة هي المكلفة بالأمن الاجتماعي، ومادام أن الدولة يمكن أن تطلب منه في أي وقت أن يهب للدفاع عنها فينظم إلى جيشها. وربما لهذا السبب فأننا نعتقد أنه لا يحق للفقير أن يأخذ من الغنائم:

- وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (41) الأنفال

فمراد القول أن الفقير يتعفف أن يأخذ شيئا من أيدي الناس، لأن الفقير (على فقره) لا يتحمل المن والأذى من الناس:

- قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَاللّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (263) البقرة

أما الكفارات فإن توزيعها يكون من قبل أصحابها أنفسهم، لذا فإنها من حق المسكين الذي يسأل الناس، فهو يأخذ من أيدي الناس الذين ربما يتبعون ذلك بالمن والأذى. فالمسكين ربما يتحمل المن والأذى من الناس:

- قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَاللّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (263) البقرة

لذا فإن الفرق الجوهري بين الفقير واليتيم ربما يقع في نفس كل منهما، فالفقير هو الذي لا يطلب المساعدة بنفسه من الآخرين، ولكن المسكين هو الذي يمكن أن يطلبها فيصبر على أذى الناس الذي قد يلحقها.

خامسا، لا شك – عندنا- أن المسكين يستطيع أن يعمل بدليل أن السفينة التي ركبها موسى مع صاحبه نفسها كانت لمساكين يعملون في البحر:

- أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (79) الكهف

السؤال: من هو المسكين إذن؟

بناء على ما سبق، نحن نظن أن المسكين هو:

- الذي قد يملك شيئا من الرزق
- الذي قد يسأل الناس إلحافا، لذا فهو معروف للآخرين
- الذي قد يستطيع ضربا في الأرض
- الذي قد يقوى على الكسب بمفرده وإن كان ما يكسبه لا يكفيه

- ➢ الذي قد يحتاج إلى مساعدة
- ➢ المسكنة قد لا تزول بمجرد انتهاء السبب لأنها دائمة
- ➢ الخ.

لذا، نحن نتجرأ على القول بأنه إذا كان كافل اليتيم مسكينا، يستطيع أن يضرب في الأرض أو أنه من اللذين يسألون الناس فيعطوهم، فلا يحق له أن يأكل من مال اليتيم لأن مال اليتيم يمكن أن يأكل منه فقط من كان فقيرا:

- وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيبًا (6) النساء

وليحذر هؤلاء جميعا بأن عاقبة الأكل من مال اليتيم هي:

- إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (10) النساء

والجدول التالي يوضح بعض الفروق (المفتراة من عند أنفسنا) بين الفقير من جهة والمسكين من جهة أخرى

الفقير	المسكين
➢ الذي لا يملك شيئا من الرزق	➢ الذي قد يملك شيئا من الرزق
➢ الذي لا يسأل الناس إلحافا، لذا فهو قد لا يكون معروفا للآخرين	➢ الذي قد يسأل الناس إلحافا، لذا فهو معرف للآخرين
➢ الذي قد لا يستطيع ضربا في الأرض	➢ الذي قد يستطيع ضربا في الأرض
➢ الذي قد لا يقوى على الكسب بمفرده	➢ الذي قد يقوى على الكسب بمفرده وإن كان ما يكسبه لا يكفيه
➢ الذي يحتاج إلى مساعدة عاجلة	➢ الذي قد يحتاج إلى مساعدة
➢ الفقر قد يزول بمجرد انتهاء السبب لأنه آني	➢ المسكنة قد لا تزول بمجرد انتهاء السبب لأنها دائمة
➢ يأخذ من الصدقات	➢ يأخذ من الصدقات
➢ لا يأخذ من الكفارات	➢ يأخذ الكفارات جميعها
➢ الخ.	➢ الخ

نتيجة مفتراة: لمّا كانت السفينة التي خرقها صاحب موسى تعود ملكيتها إلى مساكين يعملون في البحر، كان من باب علم الرجل أن عليه أن يحسن إلى هؤلاء المساكين، لأن الله أمر بالإحسان إلى المساكين كما أمر بالإحسان إلى اليتامى وإلى ذي القربى وإلى الوالدين كما جاء في الآية الكريمة التالية بترتيب معكوس للأهمية:

- **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (83) البقرة**

والآيات الكريمة العديدة تفرق بين المسكين من جهة واليتيم من جهة أخرى، فاليتيم (نحن نظن) ينتهي "يُتمه" (إن صح القول) بمجرد أن يبلغ الحلم ويدفع إليه ماله:

- **وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيبًا (6) النساء**

عندها تكف عنه الكفالة فما يعود يقع في دائرة "اليُتم" (إن صحّ القول)، حتى وإن كان أبواه (أو أحدهما) متوفى. فموت الأب أو الأم لا يعني اليتم إلا إذا كان من الذرية الضعفاء الذين تركهم خلفه ويحتاجون إلى من يكفلهم:

- **وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا (9) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (10) النساء**

فأنا مثلا يتيم الأب والأم (يا حرام!)، ولكن هل أُصنّف ضمن فئة من هم من اليتامى؟

جواب: كلا وألف كلا، فمادام أني لم أعد من الذرية الضعفاء الذين تقع كفالتهم على أحد، فأنا لست من اليتامى.

لذا، قد يكون من هو من الفقراء أو المساكين ممن ليس لهم والدَين على قيد الحياة، ولكن هذا لا يعني أنهم من اليتامى مادام أن كفالتهم لا تقع على عاتق أحد، ومادام أنهم قد بلغوا النكاح وقد آنسنا منهم الرشد.

نتيجة مفتراة: من بلغ النكاح وآنسنا منه الرشد لا يعود يقع في دائرة من هم من اليتامى، ولا يصبح له الحق في الصدقات إلا إذا كان فقيرا أو مسكينا أو ابن سبيل أو من الغارمين.

عودة على قصة موسى

السؤال: لماذا خرق صاحب موسى السفينة؟

جواب مفترى: لأنها كانت تعود ملكيتها إلى مساكين، فكان من واجبه أن يحسن إليهم كإحسانه للوالدين واليتامى ولذي القربى:

- وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (83) البقرة

فكان ذلك في علمه من باب الإحسان للمساكين وهم أهل تلك السفينة، ولكن علم موسى لم يكن يؤهله للوصول إلى هذه المعلومة بيسر، فظن أن ذلك شيئا إمْرًا:

- فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) الكهف

السؤال: ما معنى قول موسى أن ما فعله صاحبه كان شَيْئًا إِمْرًا؟ أو كيف يمكن أن نفهم ما قاله موسى في هذا السياق؟

رأينا: لقد ظن موسى أن ما قام به صاحبه من خرق للسفينة لم يكن أكثر مما يفعله من ينكر الجميل. فهو بمفرداتنا العامية يقول لصاحبه أن ما قمت به لا يمكن أن يفعله إلا من هو من "البلطجية بلغة المصريين واليمنيين" أو "الشبيحة بلغة أهل الشام" أو "الزعران بلغة أهل بيت المقدس وأكناف بيت المقدس" في زمن الربيع العربي.

فموسى يظن أن ما فعله صاحبه من خرق للسفينة ليس أكثر من فعل من يشرب من بئر (كما يقول المثل الشعبي) ويرمي به حجرا. فهو يعتقد أنه ليس من الآداب العامة أن تعمد إلى إحداث خرق في سفينة كنت قد ركبتها لتوصلك إلى مكان ما لم تكن تقوى على الوصول إليه بدونها (إلا ربما بشق الأنفس).

السؤال: لماذا لم يلحظ أهل السفينة أن صاحب موسى قد خرق سفينتهم؟ لِم كان موسى هو فقط من لاحظ أن صاحبه قد أحدث في السفينة خرقا؟

جواب: لأن ما قام به صاحب موسى من خرق للسفينة لم يكن ليلحظه إلا من كان مراقبا له على الدوام كموسى مثلا؟

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب: لأن صاحب موسى لم يحدث في السفينة إلا الخرق؟

السؤال: وكيف أحدث صاحب موسى ذلك الخرق؟

جواب مفترى: نحن نفتري القول بأن صاحب موسى قد أحدث الخرق في السفينة برجليه (أو بأحدهما). فصاحب موسى لم يحدث الخرق بيده أو باستخدام أداة، فكان جل ما فعله الرجل هو – برأينا- أنه أحدث الخرق برجله، فما كان سيلحظ ذلك إلا من كان قريبا منه ومراقبا له على الدوام.

السؤال: وأين الدليل أن صاحب موسى قد خرق السفينة برجله؟

جواب: نحن نظن أننا نجد الإجابة في الآية الكريمة التالية:

- وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (37) الإسراء

السؤال: كيف يستطيع من يمشي في الأرض مرحا أن يحدث خرقا في الأرض؟ هل يحتاج أن يستخدم يداه في ذلك؟ وهل يحتاج أن يكون معه أداة ليقوم بذلك؟

جواب: كلا وألف كلا، يستطيع من ظن أنه يريد أن يخرق الأرض أو أن يبلغ الجبال طويلا أن يمشي في الأرض مَرَحا. عندها سيمشي بطريقة الخيلاء والتكبر، لأن من مشى في الأرض مَرَحا فهو مختال فخور:

- وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (18) لقمان

فلو أن من مشى في الأرض مرحا قد أحدث خرقا في الأرض، لما كان سيفعل ذلك بأكثر من استخدام قدميه، فهو يضرب الأرض برجليه كما لو أنه يحاول أن يحدث فيها خرقا وفي الوقت ذاته يبقى منتصب القامة رافعا رأسه إلى الأعلى، والأهم من ذلك أن من يمشي بتلك الطريقة لا يضع نظره على موطئ قدمه. وبمثل تلك الصورة نحن نتخيل الفعل الذي قام به صاحب موسى. لقد مشى في باطن السفينة بطريقة المختال الذي يضرب الأرض بقدميه ليحدث فيها خرقا، رافعا رأسه إلى الأعلى ويكأنه يمشي مختالا فخورا. ونحن نظن أنه قد بدأ بالنبش برجليه أو بأحدهما في باطن السفينة منذ أن ركباها:

- فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ... (71) الكهف

وبالفعل حصل له ذلك (إي أحدث خرقا فعليا في السفينة) عندما انتهت رحلتهما فيها، فنزل صاحب موسى من السفينة مع موسى تاركا أهلها فقط في بطنها وقد خُرِقت. وما أن نزل موسى مع صاحبه من السفينة وأنفرد بصاحبه بعيدا عن أهل السفينة حتى جاءت معاتبته له على فعلته تلك التي لم يلحظها إلاّ موسى.

أو على الأقل كان هناك مسافة كافية بين موسى وصاحبه من جهة وأهل السفينة من جهة أخرى. فلم يكن موسى (نحن نظن) لِيُسمِعَ أهل السفينة الحديث الذي دار بينه وبين صاحبه حتى يستطلع خبره منه. وإذا كان كلام موسى هذا قد حصل وهم لازالوا داخل السفينة قبل النزول منها، فهذا يشير (ربما بما لا يدع مجالا للشك) إلى أن حجم السفينة كان كبيرا بحيث يستطيع بعض ركابها (أصحابها) أن يتحادثوا فيما بينهم بعيدا عن أهلها.

- ... قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) الكهف

السؤال: لماذا كان موسى فقط هو من لاحظ أن صاحبه قد خرق السفينة؟ لِم لَم يلحظ هذا غيره كأهل السفينة من المساكين؟

جواب: نحن نظن أن السبب ربما يعود إلى أن موسى

- كان قريبا منه لأنه كان صاحبه
- لأن السفينة ربما كانت كبيرة الحجم، حتى ما تمكن من هو في بدايتها (أهلها) من رؤية ما يفعل من هو في وسطها أو في مؤخرتها (موسى وصاحبه)
- لأنه كان يراقبه على الدوام مادام أن الهدف من صحبته هو أن يتعلم منه

- **قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66) الكهف**

- والأهم من ذلك لأن موسى كان يمشي وراءه، فموسى كان يلحق بالرجل الذي يمشي أمامه مادام أن موسى هو التابع والرجل صاحبه هو المتبوع:

- **قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (70) الكهف**

كما نفتري الظن بأن أحد الأسباب التي جعلت موسى فقط هو من يلحظ خرق صاحبه للسفينة ربما يعود إلى التوقيت الذي حصلت فيه تلك الحادثة، فنحن نظن أن الوقت قد قارب على المغيب، مادام أن موسى قد انطلق مع صاحبه في تلك الرحلة في وقت متأخر من اليوم، أي بعد أن تناول غداءه مع فتاه وارتدا على آثارهما قصصا، فالوقت الذي وجدا فيه ذاك العبد الصالح كان (في ظننا) يقرب من وقت العصر (بمفرداتنا الدارجة)، وما أن ركبا السفينة معا للذهاب إلى المكان الذي ينويان النزول فيه حتى كان وقت المغرب (نحن نظن) قد اقترب.

تخيلات من عند أنفسنا عن خرق الرجل صاحب موسى لسفينة المساكين.

نحن نتخيل القصة وقد حصلت على النحو التالي: يترك موسى فتاه عند الصخرة التي هي عند مجمع البحرين (انظر الخريطة السابقة مرة أخرى)، وينطلق مع صاحبه الجديد (وهو هذا العبد الذي آتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علما) قاصدا التعلم منه، فكانت رحلتهما الأولى قد بدأت بركوب السفينة في عرض البحر، قاصدين الذهاب (نحن نفتري القول) إلى مكان محدد بعينه ليتعلم موسى من صاحبه مما علمه الله من لدنّه هناك. وما أن يركبا سفينة تعود ملكيتها إلى مساكين يعملون في البحر حتى يعمد ذلك الرجل (صاحب موسى) إلى إحداث خرق في السفينة، ويستخدم رجله للقيام بذلك. ولما كانت السفينة (نحن نظن) تقل ركابا لتنقلهم من مكان إلى مكان آخر في عرض البحر مادام أن هذه هي صنعة أهل السفينة (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ)، كان موسى وصاحبة هما آخر من نزل من تلك السفينة. وما أن يصل موسى مع صاحبه إلى المحطة التي ينويان النزول عندها حتى أكمل الرجل إحداث ذلك الخرق في السفينة في تلك المحطة التي سينزل فيها موسى مع صاحبه فيها، فلقد كانت (نحن نتصور) آخر ضربة برجله في باطن السفينة في تلك اللحظة، محدثا فيها خرقا بسيطا لا يُغْرِق السفينة على الفور، فلا يلحظ ما فعله صاحب موسى من خرق

للسفينة إلا موسى نفسه الذي كان تابعا له. فينزل صاحب موسى من السفينة في البداية ثم يتبعه موسى وقد اقترب الظلام، وهناك (خارج السفينة) يأتي العتاب من موسى لصاحبه على فعلته تلك، ظانا بأن ذلك الخرق الذي أحدثه صاحبه في باطن السفينة سيؤدي على غرق أهلها:

- قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) الكهف

فغرق أهلها لن يكون في الحال ولكن بعد فترة قصيرة من الزمن. ونحن نظن أن السبب في ذلك ربما يعود إلى أن أهل السفينة قد تابعوا مسيرهم بعد أن نزل موسى وصاحبه إلى المحطة التي سترسو بها السفينة في نهاية يوم شاق من العمل. لذا نحن نفتري الظن بأن تلك الرحلة كانت هي الرحلة الأخيرة التي تقوم بها تلك السفينة في ذلك اليوم، فكان وصول صاحب موسى إلى المكان الذي كان ينوي أن يصحب موسى إليه يقرب من وقت المغيب حيث تقل فرص الرؤية البصرية. وكان انطلاق أهل السفينة بسفينتهم إلى مكان رسوّها سيؤدي إلى تفاقم خطر ذلك الخرق في السفينة حتى يكاد أن يغرق أهلها قبل أن تصل مرساها كما ظن موسى:

- فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) الكهف

فكان ظن موسى أن ما قام به صاحبه من خرق للسفينة يقع في نطاق ما يقوم به البلطجية أو الزعران أو الشبيحة، أي أولاد الشوارع (إنْ صحّ القول)، فموسى يستنكر على الرجل ما فعل بتلك السفينة التي ركباها في عرض البحر، فنعته على أنه شيئا إمْرا.

ولكن بسبب محدودية علمه، لم يستطع موسى أن يدرك أن ما فعله ذلك الرجل بالسفينة لم يكن شيئا إمرا وإنما هو إحسان لأولئك المساكين:

- وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ (83) البقرة
- وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا (36) النساء

فجاء تأويل صاحب موسى لذاك الفعل على النحو التالي:

- أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (79) الكهف

فأنقذ صاحب موسى بفعلته تلك السفينة من قبضة ذلك الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصبا. فلو أن الملك قد وصل إلى المكان الذي ترسو فيه السفينة ووجدها صالحة لا عيب فيها، لما تردد لحظة أن يضمها إلى أسطوله بالقوة، فلا يستطيع أولئك المساكين أن ينقذوا سفينتهم من بين أيدي ذاك الطاغية.

فلقد سبق صاحب موسى ذلك الملك إلى السفينة فأنقذها لأصحابها من قبضته، بالضبط كما سيسبق إلى الغلام ليقتله قبل أن يصل إليه والده (كما افترينا القول في الجزء السابق من هذه المقالة).

السؤال: من هو ذلك الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصا؟

باب الملك

للتعرف على هوية ذلك الملك الذي كان قادما من بعيد ليأخذ كل سفينة غصبا، كان لابد من طرح التساؤلات التالية:

- من هو ذلك الملك؟
- أين هي مملكته؟
- من أين كان قادما؟
- إلى أين كان متجها؟
- لماذا كان يأخذ كل سفينة غصبا؟
- الخ.

بداية نحن نجد أن لفظ الملك جاء في هذه الآية الكريمة بصيغة التنكير على عكس السفينة التي جاءت بصيغة التعريف. انظر الآية نفسها:

- **أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (79) الكهف**

لذا نحن نظن أن هذا الملك لم يكن معهودا (معروفا) للسامع وهو موسى كما كانت السفينة. فصاحب موسى كان يعلم أن موسى قد خبر السفينة من قبل فجاء خطابه له عنها بصيغة التعريف **"أَمَّا السَّفِينَةُ"**، وبكأنه يقول لموسى (نحن نتخيل) أن تلك السفينة التي تعرف تعود ملكيتها لمساكين يعملون في البحر لا تعرفهم **"لِمَسَاكِينَ"**، وأن تلك السفينة كان من الممكن أن تقع في قبضة ملك أنت لا تعرفه يا موسى، فجاء خطاب صاحب موسى له عن ذلك الملك بصيغة التنكير **"وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ"**.

السؤال: من هو ذاك الملك الذي جاء ليأخذ كل سفينة غصبا؟

جواب: ما دام أنه غير معروف بالنسبة لموسى لذا فهو قد جاء من مكان (نحن نفتري القول) لم يخبره موسى من ذي قبل. لذا نحن نستبعد أن يكون ذاك الملك قد جاء من مصر أو من مدين لأنهما من المناطق التي كان يعرفها موسى جيدا مادام أنه قد لبث فيهما فترة من الزمن، فموسى تربى في ديار فرعون ولبث فيها سنين من عمره:

- **قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18) الشعراء**

وهو أيضا لبث سنين من عمره في أهل مدين:

- إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (40) طه

وإذا كانت معظم أرض مصر (نحن نظن) تقع إلى الغرب من البحر، بدليل أن بني إسرائيل قد خرجوا من مصر متجهين شرقا:

- فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (60) فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (64) وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (66) الشعراء

فإن معظم مدين (أرض شعيب) تقع إلى الشرق من البحر بدليل أن مدين لا تبعد كثيرا عن قوم لوط:

- قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (87) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (88) وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (89) هود

لذا نحن نستبعد أن يكون ذاك الملك قد كان قادما من شرق البحر أو من غربه. فمن أين كان قادما؟

جواب: لابد أن ذلك الملك (نحن نفتري القول) قد كان قادما من البحر نفسه.

الدليل: لو قرأنا ما قاله الرجل لموسى لوجدنا الخبر اليقين بأن ذلك الملك كان قادما من وراء المساكين الذين يعملون في البحر:

- أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (79) الكهف

السؤال: كيف يكون ذلك الملك قادما من ورائهم؟

جواب مفترى: مادام أن الحديث جاء عن المساكين الذين يعملون في البحر، فإن موقعهم الجغرافي هو البحر نفسه، أليس كذلك؟

السؤال: ما هو وراء من كان في البحر؟

جواب مفترى: البحر نفسه ولكن بالاتجاه المقابل. فإذا كان المساكين في شمال البحر فلابد أن الملك قادم من جنوبه، والعكس صحيح بالضبط كحالة من يقف وراء المصلين لحمايتهم في حالة الصلاة:

- **وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (102) النساء**

والآن لنلق نظرة على الخريطة مرة أخرى. فإذا كانت نقطة تواجد المساكين أصحاب السفينة هي مجمع البحرين (أي التقاء خليج العقبة مع خليج السويس في شمال البحر الأحمر، فإن الملك (حسب منطقنا المفترى هذا) يكون قادما باسطوله البحري من جنوب البحر الأحمر ليضم إليه كل سفينة غصبا:



الدليل: نحن نظن أننا قد نجد الدليل على هذا الظن من فهمنا للآية الكريمة نفسها خاصة في مفردة "**غَصْبًا**":

- **أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (79) الكهف**

السؤال: كيف كان ذلك الملك يأخذ كل سفينة غَصْبًا؟

جواب مفترى: نحن نظن أن ذلك الملك كان يأخذ كل سفينة غصبا لأن المساكين (أهل السفينة التي خرقها صاحب موسى) لا يقعون ضمن ناطق مملكته، وهم ليسوا جزءا من شعبه. فكان أخذه لسفينتهم (لو حصل) من باب أخذ الشيء غَصْبًا.

السؤال: وكيف عرفت ذلك؟ يقول صاحبنا.

جواب مفترى: نحن نظن أنه لو كان المساكين أهل تلك السفينة يقعون ضمن نطاق مملكة ذاك الملك ولو كانوا جزءا من شعبه، لربما جاء النص القرآني على نحو أن ذلك الملك

كان يأخذ كل سفينة كرها (وليس غصبا)

السؤال: ما معنى غصبا؟ وكيف تختلف عن كرها؟ وما الفرق بين أن تأخذ الشيء كرها أو أن تأخذه غصبا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأنه لم يكن لذاك الملك حق في تلك السفينة لأنه كان يأخذها غصبا، ولو كان لذاك الملك حق فيها لأخذها من أهلها المساكين كرها، وذلك لأن الأخذ كرها (نحن نظن) ربما يكون فيه شيء من الشرعية، فقد يؤخذ شيء منك كرها (أي تكون كارها لذلك) لكن هذا لا يمنع بأن من أخذ منك الشيء كرها كان مخطئا أو أنه كان معتديا فقط، أو أنه قد أخذه دون وجه حق على الإطلاق. بل على العكس فقد يكون لمن أخذ منك شيئا كرها بعض الحق فيما أخذ.

الدليل: **أولا**، نحن نجد في النص القرآني أن بعض الناس يكره الحق، أي يكون للحق كارها:

- أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (70) المؤمنون
- لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (78) الزخرف

ولكن كرهك لشيء ما، لا ينفي عنه صفة أن يكون حقا. فقد ينفق الإنسان كرها:

- وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ (54)

ولكن كرههم للإنفاق لا يعني أن الإنفاق شيء سيء. فأنت قد تكره شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا:

- كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (5) الأنفال
- كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (216) البقرة

وأنت قد تُكرِه الناسَ على شيء تظن أن فيه خير لهم:

- وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ (99) يونس

فلو حصل أن أكرهت شخصا على الإيمان لكان في ذلك خير له حتى ولو كان له كارها. وعلى الرغم أن حمل الطفل وفصاله هو من باب الكره إلا أن في ذلك خير للوالدين:

- وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15) الأحقاف

ثانيا، نحن نظن أن من يكرهك على شي عادة يكون له سلطانا عليك. فالله هو من طلب من السموات والأرض أن يأتيا طوعا أو كرها:

- ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11) فصلت

وولي الأمر مثلا قد يُكرِه فتياته على البغاء لأنه ببساطة هو ولي أمرهن قد يظن أن في ذلك خير لهن:

لتفصيل في هذا انظر مقالتنا تحت عنوان تعدد الزوجات (2).

- وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (33) النور

ولا يستطيع أن يكره النساء إلا من كان له حق في ميراثها كزوجها مثلا:

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهًا وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (19) النساء

ولكن الغصب (غصبا) - في المقابل- لا يكون (نحن نفتري القول) فيه خير لمن اغتصب منه الشيء، لأنه لو كان في أخذ ذلك الملك لسفينة المساكين خير لهما لما اضطر صاحب موسى أن يخرق السفينة لينقذها من أيدي ذلك الجبار. كما أن الغصب (غصبا) لا يقع (نحن نظن) إلا مِمن كان غريبا لا حق له فيما أخذه منك. لذا نحن ننتهي إلى الجملتين التاليتين:

- قد آخذ منك شيئا غصبا
- قد آخذ منك شيئا طوعا

فما الفرق بين الحالتين؟ نحن نسأل.

نتيجة مفتراة: نحن نظن أنه لمّا كان ما أخذه ذلك الملك يقع في باب الغصب (وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا) وليس في باب الإكراه، فإننا نتجرأ على القول بأن ذلك الملك:

- ➢ لم يكن له حق في تلك السفينة
- ➢ لم يكن المساكين يقعون في دائرة مملكته لأنه عندها يكون له حق فيها في وقت الحرب
- ➢ لم يكن ليعود ذلك بالخير على المساكين وإلا لما أضطر صاحب موسى أن يعيبها
- ➢ كان إذن من الغزاة المعتدين
- ➢ الخ

السؤال: من هو ذاك الملك؟ ومن أين كان قادما؟

جواب: من ورائهم:

- **أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (79) الكهف**

السؤال: أين هو "وراء" أولئك المساكين الذين يعملون في البحر؟

جواب مفترى: لقد تطرقنا في مقالة قديمة جدا لنا عن معنى مفردة ورائهم تحت عنوان والله من ورائهم محيط، وزعمنا الظن حينها أن مفردة ورائهم تحمل في ثناياها العنصر الزماني والمكاني. (للتفصيل في معنى مفردة ورائهم انظر مقالاتنا تحت عنوان والله من ورائهم محيط)

فكان مراد القول أن مفردة "وراء" تعني من الناحية الزمانية أن الحدث لم يحصل بعد، فالملك قادم في الطريق لم يصل بعد إلى المكان الذي ترسو به سفينة المساكين الذين يعملون في البحر، كما في الآيات التالية التي تتحدث عن ما سيلاقيه الكافر وراءه (أي بعد موته):

- **لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (100) المؤمنون**
- **مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (10) الجاثية**

أما من الناحية المكانية، فمفردة "وراء" تعني الاتجاه المعاكس الذي تنعدم رؤيته بالنسبة للشخص المقصود. فالملك كان قادما من الجهة المقابلة لمكان وجود المساكين مع سفينتهم كما في حالة القائمين في الصلاة والواقفين ورائهم لحمايتهم:

- **وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (102) النساء**

السؤال: أين ذلك المكان على الخريطة الجغرافية؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الملك كان قادما من جنوب البحر الأحمر، حيث مكان تواجد تلك الممالك الظالمة التي كانت تفسد في الأرض، وهي التي سنجد خبرها لاحقا عندما نربط قصة موسى هذه مع قصة سليمان الذي جاءه خبر المرأة التي كانت تملك قومها في سبأ على لسان الهدهد:

- **فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23) النمل**

وهناك سنجد خبر أولئك الملوك الذين كان يفسدون في الأرض، الذين إذا دخلوا قرية جعلوا أعزة أهلها أذلة بعد أن يفسدوا الأرض:

- **قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (34) النمل**

وسنجد لاحقا أن تلك هي المنطقة التي أخضعها سليمان بالكامل لملكه:

- **قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (35) ص**

دعاء: رب اغفر لي وعلمني علما لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت العليم.

وسنحاول حينئذ (إن أذن الله لنا بشيء من علمه) أن نتحدث بالتفصيل عن سبب غزوات هؤلاء الملوك المفسدين ونتيجة غزواتهم تلك وخاصة ما سلبوه من الأقوام الأخرى، وكيف انتهى كل ذلك إلى أن يقع في أيدي سليمان لاحقا، فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يجعل فضله عليّ عظيما – آمين.

والآن لنعد إلى موسى وصاحبه طارحين التساؤل التالي: إذا كان الملك قادما من وراء المساكين أهل السفينة الذين كانوا يعملون في البحر، فماذا عن موسى وصاحبه؟ ألم يكن ذلك الملك قادم من ورائهم أيضا؟

جواب مفترى: كلا، لأنه لو كان ذلك الملك قادما من وراء موسى وصاحبه لربما قال صاحب موسى أن ذلك الملك قادم من ورائنا

السؤال: أين كان موسى وصاحبه متجهين إذن؟

جواب: أظن أن موسى وصاحبه كانا على الجهة المقابلة للمكان الذي سترسو به سفينة المساكين، فهما لن يكونا متواجدين في المكان نفسه متى ما وصل ذلك الملك ليأخذ تلك السفينة، وإلا لما احتاج صاحب موسى أن يؤول ذلك لموسى لأن موسى كان حينها سيرى ذلك بأم عينه.

كما لا أظن أن صاحب موسى كان متجها مع موسى نحو ذلك الملك وإلا لربما لقياه في الطريق، ولربما عرف موسى حينها ما ستؤول إليه الأمور هناك. لذا لابد أن صاحب موسى (نحن نستنتج مفترين الظن من عند أنفسنا) قد راح مع موسى في طريق لا يلتقي فيها مع ذاك الملك. فما علم موسى خبر ذلك الملك إلاّ من تأويل صاحبه للقصة له:

- **أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (79) الكهف**

السؤال: أين كان صاحب موسى متجها بموسى في تلك الرحلة التعليمية؟

جواب: لا شك أن صاحب موسى كان ينوي أن يطوف بموسى في أماكن يخبرها هذا الرجل جيدا، ليعلِّم موسى مما علَّمه الله من لدنّه.

السؤال: وأين تقع تلك الأماكن؟ وما هي؟

جواب: إن هذا السؤال يعيدنا على الفور إلى قصة صاحب موسى من أولها، وبالتحديد إلى الآية الكريمة التي ظننا في بداية هذه السلسة من المقالات أنها تتحدث عنه وهي قوله تعالى:

- **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259) البقرة**

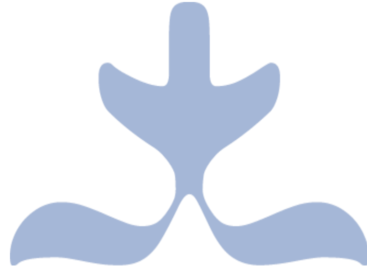
وهذا ما سنتحدث عنه بحول الله وتوفيق منه في الجزء القادم من هذه المقالة إن أذن الله لنا بشيء من علمه، طارحين التساؤلين التاليين فقط:

- أين هي الأماكن التي زارها موسى مع صاحبه؟
- وأين يمكن أن نجد هذا الرجل (صاحب موسى) اليوم؟

دعاء: فالله اسأل أن ينفذ أمره بمشيئته وإرادته لي الإحاطة بشيء من علمه اللدنّي لا ينبغي لأحد من بعدي إنه هو العليم الحكيم. وأسأله وحده أن يؤتيني رحمة من عنده، وأسأله وحده أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يجعل فضله عليّ عظيما، وأعوذ به أن أفتري عليه الكذب أو أن أقول عليه ما ليس لي بحق إنه هو السميع المجيب، والحمد لله رب العالمين.

والله أعلم.

وللحديث بقية.



الجزء العاشر

باب العزير

(7)



باب العزير (7)

وصلنا في الجزء السابق من هذا الكتاب عند الظن بأن صاحب موسى كان متّجها مع موسى إلى مكان محدّد بعينه بعد أن نزلا من السفينة التي خرقها. فظننا أنهما قد نزلا على الجهة المقابلة للمكان الذي سترسو فيه سفينة المساكين الذين كانوا يعملون في البحر. ولم يكونا ذاهبين نحو الجهة التي سيأتي منها الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصبا، وإلا لما احتاج (نحن نظن) صاحب موسى أن يؤول ذلك لموسى لأن موسى ربما كان سيرى ذلك بأم عينه.

ولمّا كان موسى مرافقا هذا العبد الصالح في رحلة تعليمية، كانا متجهين (نحن نظن) إلى المكان الذي سيتلقى فيه موسى تعليما من هذا العبد الذي آتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنّه علما. وقد طرحنا في نهاية ذاك الجزء من الكتاب التساؤل التالي: أين كان صاحب موسى متجها بموسى في تلك الرحلة التعليمية؟

فظننا بداية أن صاحب موسى كان ينوي أن يطوف بموسى في أماكن يخبرها هذا الرجل جيدا، ليعلّم موسى مما علّمه الله من لدنّه. وقد دعانا هذا الظن إلى العودة لتدبر الآية الكريمة التي ظننا أنها تتحدث عن هذا الرجل، وهي قوله تعالى:

- **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259) البقرة**

منطلقين هذه المرة من التساؤل الجديد التالي: هل كانت هذه هي التجربة الأولى لهذا الرجل مع ربه؟ أي هل كان طلب هذا الرجل من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى هو الطلب الأول والأخير؟ هل جاء طلبه هذا من باب المصادفة؟ من يدري!!!

رأينا: غالبا ما ظن من يقرأ هذه الآية الكريمة بأن ما حصل مع هذا الرجل عندما طلب من ربه أن يريه كيف يحيي القرية بعد موتها كان من قبيل المصادفة، ويكأن القارئ للنص القرآني ربما يظن بأن هذا الرجل قد مرّ على قرية ما بطريق الصدفة، فوجدها خاوية على عروشها، فهاله هذا المنظر، وهناك وقف ليتفكر متسائلا:

- **... أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا... (259) البقرة**

عندها جاء الرد الإلهي له على نحو ما حصل:

- **... فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا... (259) البقرة**

السؤال: إذا كان هذا ما حصل فعلا، فلم حصل هذا الموقف مع هذا الرجل فقط؟ لِم لم يحصل بعد ذلك مع غيره؟ ولِم لم يكن قد حصل مع من جاء قبله؟ ما هي خصوصية هذا الرجل حتى يجعله الله آية للناس؟

- ... وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ... (259) البقرة

السؤال: هل كل من ركب حمارا ومر على قرية خاوية على عروشها وتفكر فيها، حصل معه ما حصل مع هذا الرجل؟ وما دخل حماره إذا بالأمر؟ وماذا كان يفعل بطعامه وشرابه حتى جاء ذكرهم جميعا (الرجل، حماره، طعامه، وشرابه) في كتاب يتلى إلى يوم الدين؟

افتراء من عند أنفسنا: لفهم مثل هذه الجزئيات المهمة في القصة، أظن أن علينا بداية أن نتوقف عن الحديث عن هذه المواقف وبكأنها حصلت من قبيل المصادفة. فنحن نؤمن يقينا بأن تلك أحداث عظيمة حدثت بطريقة ما جعلتها مؤهلة أن تكون جزءا من قرآن يتلى إلى يوم الدين، لا بل جزءا من العقيدة التي نؤمن بها، لذا فإن إنكارها (أو ربما التقليل من أهميتها أو تشويهها) ربما يجعل عقيدتنا كلها عرضة للانتقاد الذي ربما لا نقوى على رده، فتكون العقيدة برمتها في مهب الريح. فلو أنت حدّثت بمثل هذه القصص من لا يتخذ من دينك عقيدة لما وجدته سيظن بأنها أكثر من تخاريف الأمم السابقة التي أكل عليها الدهر وشرب، وما عادت تصلح أن تكون مثار نقاش للباحثين عن المعرفة العلمية بأدوات التجريب والقياس، والأخطر من هذا أن البعض (بمن فيهم جزء من أهل العقيدة نفسها) قد ينسبها إلى قصص التسلية والترويح عن النفس في ساعات الفراغ التي تنفق على التندر والضحك وربما التهكم بمعتقدات الآخرين إذا لم يكن هو من المؤمنين بها. وكم من أهل العلم من ظن بأن بعض قصص القرآن (كقصة يوسف مثلا) جاءت لتسلية النبي والترويح على صحبه؟! من يدري!!!

السؤال: ما المخرج من مثل هذه "المطبات" التي أظن أنها كانت صنيعة سادتنا العلماء أهل الدراية والرواية؟

جواب مفترى: لابد من التفكر بمثل هذه المواقف وربطها بالسبب الذي من أجله وردت كآيات تتلى على مسامع الناس وتكون عليهم حجة، فتلاوة هذه الآيات بحد ذاتها هي حجة على الناس حتى لا يكفروا بالله كما جاء بصريح اللفظ القرآني:

- **وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (101) آل عمران**

نتيجة: نحن نظن أن تلاوة هذه الآيات علينا هي حجة كافية كحجة وجود الرسول فينا، لا بل فإننا نظن أنها حجة سابقة لحجة وجود الرسول فينا.

السؤال: ألم تصبح آيات الله هذه (كهذا الرجل الذي جعله الله آية للناس) هي السبب في الكفر بالله؟ دلوني - بالله عليكم- من يقبل من غير أهل هذا الدين أن يسمع مثل هذه الآيات التي تتحدث عن رجل يركب حمارا يحمل عليه طعامه وشرابه فيمر على قرية خاوية على عروشها، وما أن يطرح تساؤله عن بعثها من بعد موتها حتى يميته الله مئة عام ثم يبعثه ليريه كيف يحي الموتى وطعامه لم يتسنه بعد، ثم يرضى أن يؤمن بها كعقيدة صحيحة؟ وما بالك إن وجد هذه العقيدة تزخر بمثل هذه القصص التي لم تعد تربط إلا بالخرافات والأساطير القديمة؟

السؤال: ما الذي أوصلنا إلى هذه الحالة إن كنا نؤمن أن هذه الآيات قد جاءت فعلا من الإله الواحد الأحد؟ وكيف سنبرهن للناس جميعا بأن تلاوة هذه الآيات على مسامعهم هي حجة عليهم إن هم كفروا لا تقل أهمية عن حجة وجود الرسول فيهم؟

- **وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (101) آل عمران**

جواب مفترى: أظن أن الذي أوصلنا إلى هذا الحرج هو منهج السلف الصالح من سادتنا العلماء أهل الدراية الذين وقفوا عند حد فهمهم (الذي لا نثق به وثوقنا بصلاحهم) لهذه الآيات وزعموا أن ذلك هو نهاية المطاف، فأفهموا العامة من الناس أن هذه الآيات ليست أكثر من "معجزات" يجب الإيمان بها دون الحاجة إلى فهمها أو إدراك ماهيتها، وأظن أن دافعهم في ذلك لم يكن أكثر من عجز عقولهم أنفسهم عن إدراكها. فمنطقهم (نحن نتهمهم زورا) كان على النحو التالي: ما دام أن "عقولنا العظيمة" لم تستطع أن تدرك ماهيتها، فكيف ستقدر على ذلك "عقول الآخرين" على بساطتها؟! من يدري!!!

والأغرب من هذا – يا سادة- هو منطق هؤلاء العلماء ذاته، فأنا شخصيا لا أستطيع أن أفهم التناقض الذي يضعون به أنفسهم بين ليلة وضحاها. فلقد كنت أقلّب محطات الراديو في سيارتي لأجد عالمنا الجليل الذي سيطرت دروسه العظيمة في تفسير القرآن على معظم تلك المحطات، وكان هذا العالم لا ينفك عن التغني بأن هذا الدين (الدين الإسلامي الذي يروّج له) هو دين عقل وتدبر، وأننا مطالبون بإعمال العقل فيه لنصل في النهاية إلى الحقيقة، وهو لا يمل في معظم دروسه من تكرار ما يسميها "الحقائق العلمية" التي توصل إليها "العلم الحديث" (كما يحب أن يصفه)، والتي يظن أنها تؤيد ما جاء في كتاب الله، ليبرهن للمستمعين من الناس كيف أن هذا الكتاب زاخر بالعلم الذي يتطلب فهمه وإدراكه تشغيل العقول، فلا ينفك أن يحثّ الناس على ذلك في كل فرصة تتاح له. ولكن المفارقة العجيبة تكمن في أنه ما أن يصل إلى مثل هذه الآيات من كتاب الله كهذا الرجل الذي مر على قرية، أو كقصة قتل صاحب موسى للغلام، أو قصة البقرة في سورة البقرة حتى تكون الدعوة هذه المرة لديه واضحة جلية: أقفلوا عقولكم أيها المستمعون الأفاضل وعليكم أن تؤمنوا بهذه الأمور دون تدبر لأن الله (حسب ما فهمته من كلامه) أرادنا أن نأخذها على تلك الشاكلة، فهذه أمور تؤخذ بالأيمان (النقل) وليس بالعقل (العلم). سبحان الله العظيم!!!

السؤال الذي كنت على الدوام أرغب أن يصل إلى مسامع شيخنا وعالمنا الجليل (بطل مسلسل تفسير القرآن الحكيم على المحطات الفضائية) هو: متى يا شيخنا علينا أن نشغل عقولنا (switch on)؟ ومتى علينا أن نغلقها (switch off)؟ هل لنا بقائمة من الآيات التي تريدنا أن نشغل عقولنا بها وقائمة أخرى بالتي لا تريدنا أن نشغل عقولنا بها؟ أم هل علينا أن نبقى ننتظر الحلقة القادمة من حلقات مسلسلكم العظيم لتمنّ علينا أنت (وأمثالكم من سادتنا العلماء أهل الدراية) بما ترونه مناسبا لنا من العلم، فنبقى نتناقله نحن بيننا كما تريدوننا أن نفعل؟ هل كتب علينا أن تكونوا أنتم على الدوام أهل الدراية ونبقى نحن أهل الرواية ما حيينا؟ من يدري!!!

ولعلي أتجرأ على اتهامك يا شيخنا الجليل (واتهام كل من سلك طريقك في الفكر) أن هذه ليست أكثر من وسيلة دفاع لديكم عن عقولكم التي (أظن جازما) أنها قد عجزت عن فهم تلك الآيات العظيمة. وذلك لسبب بسيط جدا وهو أنه لو أنكم فهمتم ماهية تلك الآيات فعلا لأثقلتم رؤوسنا بترداداها صباح مساء.

رأينا: نحن نظن (معتذرين لكم يا شيخنا الجليل مقدما) أنكم قد أقنعتم العامة من الناس بعقيدة باطلة، والغاية من ذلك هو صدّ الناس العاديين (من مثلي) عن الخوض فيها لتكون هي شغلكم لا ينافسكم فيها الكثيرون. فأنتم من وضعتم آيات الله البينات في قائمة أحدثتموها بأنفسكم (ما أنزل الله بها من سلطان في زعمنا) تسمى "المعجزات". فأصبح عقل العامة يرتعد خوفا عندما يمر بهذه "المعجزات" المزعومة في كتاب الله، فيرضى أن يبقى مغلقا عقله لا يتدبرها، لتكونوا أنتم على الدوام مرجعيتهم في ذلك، وظن العامة من الناس أنهم بحاجة فقط إلى ترتيل الآيات على مسامعهم، مكتفين بالجرس الموسيقي الرائع لتلاوتها، فأصبح الإنسان العادي لا يبحث إلا عن صاحب الصوت الجميل ليسمع ترتيل الآيات من فمه، علّها تحدث في نفسه شيئا من "الطرب" الذي حرّمه على نفسه من طرق أخرى في حياته. فهو لا يريد أن يطرب من سماع أهل الغناء والمجون (كما سمّاهم أهل الدين) ولكنه يبحث عن حسن الصوت عند المقرئين وبعض المنشدين الدينيين. فراجت تجارة "التغني" بكتاب الله عندما أخذ "المقرئون" يتنافسون في "تلحين" الآيات ربما أكثر من تنافس المغنين في تلحين القصائد الشعرية. والأغرب من ذلك أن هذه الحرفة قد أصبحت في عصر تكنولوجيا الاتصالات وسيلة للتكسب والترزق، ولا يحتاج من يريد الدليل إلى أكثر من تقليب محطات التلفزة التي ترتل فيها آيات الذكر الحكيم.

وربما الأخطر من هذا كله أن هناك في جامعاتنا العتيدة دوائر متخصصة تمنح الدرجة العلمية الأعلى (الدكتوراه) في هذه القراءات. ويكأن لسان حالهم يقول أننا قد فهمنا آيات الكتاب الحكيم وما تبقى علينا إلا أن "نتغنى" في ترتيلها.

السؤال: هل هذه هي ذروة الرفاه الفكري لهذه الأمة؟ هل أفهم سادتنا العلماء أهلُ الدراية العامةَ من الناس آيات كتاب ربهم وما تبقى إلا أن "يلحنوه" (بلغة أهل الطرب والمجون كما ينعتوهم)؟ إن جلّ ما أود إثارته من هذا النقاش (غير المتزن بالطبع) هو التساؤل التالي: هل فعلا وصلنا إلى مرحلة أن يؤمن على الفور من سمع آيات الله تتلى عليه، فلا يكفر كما تصور ذلك الآية الكريمة التالية أحسن تصوير؟

- **وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (101) آل عمران**

إن ما يهمنا قوله هنا في سياق الحديث عن هذا الرجل الذي أماته الله مئة عام ثم بعثه هو: ألم يكن هذا الرجل آية من آيات الله:

- **... وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ... (259) البقرة**

أليست هذه آية من آيات الله التي يجب أن تكون سببا في عدم الكفر متى ما تليت على مسامع الناس؟ فما بال الناس يسمعونها ولا يؤمنون؟ وما بال بعضهم يكفر عندما يسمعها فلا ينعتها إلا بأساطير الأولين؟

عقيدتنا: نحن نؤمن إيمانا يقينيا بأنه لو استطعنا أن نفهم قصة هذا الرجل الذي جعله الله آية للناس "**وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ**" كما بيّنها الله في كتابه الكريم:

- **طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) القصص**

وكما بيّنها محمد للناس بلسان قومه قرآنا عربيا:

- **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (4) إبراهيم**

لأصبحت سببا كافيا في أن لا يكفر الناس:

- **وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (101) آل عمران**

ونحن على يقين أن الفهم الصحيح لقصة هذا الرجل ستجعل كل من يسمعها (متى ما عقلها) لا ينطلق لسانه إلا بكلمة واحدة، ألا وهي ما جاء في الآية الكريمة التالية:

- **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ (53) الأعراف**

وتصبح العقيدة الدامغة عنده تتمثل بقول الحق في كتابه الكريم:

- **وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (37) يونس**

السؤال: وكيف السبيل إلى ذلك؟ هل هذا ممكنا؟

جواب مفترى: دعنا نحاول أن تدبر (بحول من الله وتوفيق منه) قصة هذا الرجل الذي جعله الله آية للناس "**وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ**" إلى نهايتها، ثم انظر عزيزي القارئ أنت بنفسك ما ستنتهي إليه الأحداث، لتكون أنت بنفسك حكما على هذه الآية التي ليست أكثر من آية واحدة من آيات الكتاب الحكيم الكثيرة.

دعاء: فالله وحده أسأل أن يهديني رشدي وأن يعلمني الحق الذي أقوله فلا أفتري عليه الكذب، إنه هو العزيز الحكيم.

أما بعد.

إن نقطة البداية في هذا البحث هي الآية الكريمة نفسها التي تتحدث عن هذا الرجل الذي أماته الله مئة عام ثم بعثه:

- أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259) البقرة

فلو قرأنا هذه الآية الكريمة في سياقها الأوسع لوجدنا أن الآية التي تسبقها تتحدث عن إحياء الموتى (الخاصة بقصة إبراهيم مع ذاك الذي آتاه الله الملك)، وأن الآية التي تليها تتحدث عن إحياء الموتى كذلك (الخاصة بطلب إبراهيم نفسه من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى):

- أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258) أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (260) البقرة

ولو دققنا في السياق الأوسع أكثر لوجدنا الآية التي سبقت هذه الآيات الثلاث هي الآية رقم 257 التالية:

- اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (257) البقرة

لنخلص من ذلك إلى النتيجة التي مفادها أن هناك من الذين آمنوا من كان الله هو وليهم **"اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ"**، وهو الذي يخرجهم من الظلمات إلى النور (يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ). فنحن لا نشك قيد أنملة أن الله هو من أخرج إبراهيم من الظلمات إلى النور، وكذلك هي عقيدتنا بالنسبة لهذا الرجل: فالله هو من أخرج هذا الرجل من الظلمات إلى النور. فكما استجاب الله دعوة إبراهيم فأخرجه من الظلمات إلى النور عندما أراه ما كان يَشْكُل عليه من كيفية إحياء الموتى، استجاب الله لطلب هذا الرجل فأخرجه من الظلمات إلى النور عندما أراه كيفية إحياء الموتى.

نتيجة: الله هو من أخرج إبراهيم من الظلمات إلى النور والله هو من أخرج هذا الرجل من الظلمات إلى النور. فلقد كان كلا منهما في ظلام تام فيما يتعلق بكيفية إحياء الموتى، وجاء الفضل من الله لكليهما عندما أراهما كيفية إحياء الموتى، فخرجوا من تلك الظلمة (الجهل وعدم المعرفة والقلق) إلى النور (العلم والمعرفة واليقين).

ولكن هناك فرق بسيط بين الحالتين: ففي حين أن الله قد أرى خليله إبراهيم كيفية إحياء الموتى في مخلوقاته من الطير:

- **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (260) البقرة**

أرى الله هذا الرجل كيفية إحياء الموتى في نفسه عندما أماته ثم بعثه، كما أراه ذلك في مخلوقاته عندما جعله يشاهد بأم عينه كيف ينشز الله العظام ثم يكسوها لحما:

- **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259) البقرة**

وكانت النتيجة عندما تبين له هي قوله:

- **...... فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259) البقرة**

نتيجة مفتراة: مادام أن الله قد أخرجه من الظلمات إلى النور، فلابد أن هذا الرجل قد كان من أولياء الله، انظر الآية الكريمة التي تتحدث عن ذلك كما نفهمها:

- **اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (257)**

ولو كان هذا الرجل من أولياء الطاغوت الذين كفروا لأخرجه ذلك الطاغوت من النور إلى الظلمات "**وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ**"، وعندها لن تكون ردة فعله على نحو "**أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**".

ومادام أن هذا الرجل كان من أولياء الله، فيستحيل (نحن نعتقد) أن يكون من الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهو غرتهم الحياة الدنيا:

- **وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ (70) الأنعام**

ومادام أنه كذلك فهو إذن من المتقين:

- **إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (19) الجاثية**

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن هذا الرجل كان من المتقين، فاستحق ولاية الله له، فلم يكن يتخذ دينه لعبا ولهوا ولم يكن من الذين غرتهم الحياة الدنيا، فأخرجه الله من الظلمات إلى النور.

إن هذا المنطق يقودنا إلى التفكر من جديد في قصة هذا الرجل منطلقين من المبدأ العقائدي التالي: إن هذه القصة لم تحدث صدفة، وأن طلب هذا الرجل لم يكن من باب اللهو اللعب، وأن هذا الرجل لم يكن من الذين غرتهم الحياة الدنيا. لنصل إلى النتيجة المفتراة الكبيرة التالية: إن هذا الرجل كان طوّافا (على حماره الذي كان يحمله ويحمل طعامه وشرابه وأسفاره) في الأرض، باحثا عن آيات الله فيها، ليتفكرها ويتدبرها، وكانت آية إحياء الموتى هي آخر الآيات التي أشغلت تفكيره، وأعيته في الوصول إليها، لذا نحن نظن (مفترين القول من عند أنفسنا) أن هذا الرجل قد خبر من آيات الله الكثير، وما أن وصل إلى تلك القرية الخاوية على عروشها حتى كانت آية إحياء الموتى هي منتهى علمه.

نتيجة مهمة جدا جدا سنحتاج إليها لاحقا: ارتبطت قصة هذا الرجل بآية إحياء الموتى.

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نتخيل أن هذا الرجل كان من الباحثين على الدوام عن آيات الله، فعلم منها الكثير وما أشكل عليه في نهاية رحلته إلا كيفية إحياء الموتى. وما أن وصل إلى تلك القرية الخاوية على عروشها حتى جاء استفساره (كمؤمن بآيات الله كلها) عن كيفية إحياء الله لهذه القرية الخاوية على عروشها بعد موتها، فما ترك تلك القرية حتى جاءه الخبر اليقين في ذلك:

- **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259) البقرة**

الدليل: نحن نجد الدليل على افترائنا هذا من ملاحظات ثلاثة هي أنه:

- مر على قرية مرورا
- كان يركب حمارا
- قال في نهاية المطاف بعدما تبين له **"أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"**

السؤال الأول: كيف مر على تلك القرية؟

رأينا: نحن نظن أنه مادام أن الرجل قد مرّ على تلك القرية مرورا، فهو إذا لم يكن من أهلها، فالمنطق البسيط هو أن أهل القرية لا يمرون على قريتهم مرورا، لذا كان الرجل (نحن نظن) غريبا عن تلك القرية وعن تلك الديار برمتها، لأنه لو كان من أهل الديار لربما سمع بخبر القرية وتفكر فيها قبل أن يمرّ عليها. ولكننا نعتقد جازمين بأن مروره على تلك القرية كانت هي خبرته الأولى فيها لأنه لم يعهدها من ذي قبل.

لنطرح إذن التساؤل التالي: ماذا جاء يفعل هذا الرجل في تلك القرية، أو لماذا مرّ على تلك القرية مرورا؟ ومن أين كان قادما؟ وإلى أين كان متجها؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الرجل لم يكن قادما إلى القرية ليمكث فيها، فهو مسافر في الطريق وما كان مروره فيها إلا لأنها (نحن نظن) واقعة في طريقه:

- **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا... (259) البقرة**

ثانيا، إن هذا الرجل كان طوافا في الأرض باحثا عن آيات الله، وذلك لأن مروره عليها جعله يقف ليتدبر ما حل فيها. فكم من إنسان غير مؤمن يمكن أن يمر على آيات الله فلا يتدبرها:

- **وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (103) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (104) وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (105) يوسف**

بل على العكس فقد يصبح مرور هؤلاء الناس على آيات الله مثالا للتندر والسخرية كما فعل قوم نوح عندما كانوا يمرون عليه وهو يصنع الفلك التي تركت آية للناس:

- **وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38) هود**
- **وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (13) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ (14) وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (15) القمر**

فعلى الرغم أن الفلك التي كان نوح قائما يصنعها قد كانت آية (وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً)، إلا أن القوم كانوا يسخرون منها لأنهم لم يكونوا من المدّكرين (وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ).

السؤال: هل من مدّكر؟

جواب: بلى،

دعاء: أسأل الله أن أكون أول المدّكرين، فلا أسخر بآياته، إنه هو السميع المجيب.

ثالثا، كان هذا الرجل من المؤمنين، لأن الإنسان المؤمن –بالمقابل- إذا ما مرّ على آيات الله وقف ليتدبرها ويتفكر فيها، وتكون الحاجة ملحة لتعقلها إن هو كان من المدّكرين:

- **وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ (133) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (134) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (135) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (136) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (137) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (138) الصافات**

نتيجة مفتراة: نحن نظن أنه لمّا كان هذا الرجل مارا بالقرية فهو إذن من المسافرين.

السؤال: ما قصة حماره الذي كان يركبه؟ ولماذا جاء ذكر حماره في هذا السياق؟

نحن نظن أن الرجل كان معه حماره من أجل أن يركبه مادام أنه كان مسافرا، فنحن نعلم من النص القرآني أن الحمير تحجز لغايتين: للركوب وللزينة:

- **وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (8) النحل**

فلا أظن أن هذا الرجل كان متخذا حماره ذلك للزينة (من يدري!!!)، ولكن الظن أميل عندي أنه كان متخذا حماره للركوب مادام أن نص الآية يبيّن أنه قد مر على قرية لم تكن هي قريته.

ولو تدبرنا قصة الحمير أكثر في كتاب الله لوجدنا أن مثل الحمير قد ضرب في موطنين من كتاب الله الكريم وهما:

1. الذين حمّلوا التوراة ثم لم يحملوها، فكان مثلهم كمثل الحمار الذي يحمل أسفارا:

- **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (5) الجمعة**

لذا نحن نؤمن أن بالاستحالة بمكان أن يكون مثال هذا الرجل كمثل الحمار الذي كان معه. ولكننا نظن في الوقت ذاته أن الرجل كان متخذا حماره هذا ليحمله وربما ليحمل أسفارا له يستفيد منها هو وإن لم يستفد منها حماره الذي يحملها.

دعاء: أعوذ بك رب أن يكون مثلي كمثل الحمار الذي يحمل أسفارا.

2. أن أنكر الأصوات هو صوت الحمير

- **وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (19) لقمان**

لذا نحن نظن أن هذا الرجل كان يقصد في مشيته، وكان يغضض من صوته لأنه لا يريد أن يكون صوته كصوت الحمير.

وقد تحدثنا في مقالة سابقة لنا عن سبب أن يكون صوت الحمير هو أنكر الأصوات، فزعمنا القول أن صوت الحمار يصعب تميز مقصده، فسواء كان في الحمار حاجة من جوع أو حاجة من مرض أو عنده رغبة جنسية فهو يطلق الصوت ذاته. فصوت الحمار لا يتغير بتغير حاجة الحمار من إطلاق صوته. وهذا في ظننا يجعله أنكر الأصوات. فلو أنت سمعت صوت قط أو كلب، لوجدت أنه يغيّر نبرة صوته بتغير حاجته، فإذا كان الكلب جائعا مثلا، سمعت له صوتا يختلف بعض الشيء عن صوته في حالة الخوف أو المرض أو الرغبة

الجنسية، وهذا الإنكار (صعوبة التمييز) تختلف من حيوان إلى آخر حتى تصل ذروتها عند الحمير. فأنت لا تستطيع أن تميز ما يريده الحمار من الصوت الذي أطلقه.

دعاء: أعوذ بك رب أن يكون صوتي كصوت الحمار.

لذا فإن صوت هذا الرجل يقع على النقيض تماما من صوت الحمار، لأن درجة التمييز فيه عالية جدا تجعله يقع على الطرف المقابل من صوت الحمار الذي هو إنكارها، ولما كانت المعرفة هي نقيض الإنكار:

- وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (58) يوسف
- أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (69) المؤمنون
- وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (50) الأنبياء

فإن الذي لا يعرف الشيء يكون له منكرا، ولو تدبرنا قصة هذا الرجل من بدايتها، لما وجدناه منكرا لشيء، فهو قد أحاط خبرا بالسفينة والمساكين والملك، وأحاط خبرا بالغلام الذي قتله وبأبويه المؤمنين، وأحاط خبرا بالجدار وأهل القرية واليتيمين أهل الجدار، الخ. وليس أدل على إحاطته خبرا بما لم يحط به الآخرون من قدوم نبي الله وكليمه موسى بشخصه الكريم ليتعلم منه، فيكون له تابعا مطيعا لا يعصي له أمرا:

- قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (68) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (69) الكهف

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نتخيل أن هذا الرجل كان يمشي في الأرض باحثا عن آيات الله فوجد منها الكثير، وكان يركب حماره الذي يحمل أسفاره وطعامه وشرابه، وما أن وصل إلى تلك القرية الخاوية على عروشها حتى كانت آية إحياء الموتى حينئذ هي الآية الأخيرة التي يبحث عنها ربما ليسجلها في تلك الأسفار التي كانت معه على ظهر حماره. وما أن تبين له ذلك حتى كانت ردة فعله على النحو التالي:

- ... فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259) البقرة

السؤال: من أين كان يعلم أن الله على كل شيء قدير؟ ومادام أنه يعلم ذلك، فلم يطلب من الله أن يريه كيف يحيي الموتى؟

رأينا المفترى: لم يكن طلب الرجل ذاك من أجل التصديق أو الإنكار، وإنما كانت غايته من ذلك الطلب حتى يتبين:

- ... فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259) البقرة

فنحن نفتري الظن بأن هذا الرجل كان مؤمنا بالله، باحثا عن آياته، فكان ممن أخرجهم الله من الظلمات إلى النور لأنه لم يكن من الظالمين، فكان من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، لذا جاء طلبه (نحن نتخيل) من أجل العلم بالكيفية، أي بكيفية إحياء الله الموتى، فجاء سؤاله على النحو التالي:

- ... قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا .... (259) البقرة

فكانت النتيجة أن قدم الله له البرهان العملي على ذلك:

- ... فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259) البقرة

الدليل: نحن نجد الدليل على ذلك في صيغة طلب الرجل. ولكن كيف ذلك؟

جواب: لو تدبرنا ما قاله الرجل لوجدنا أنه ابتدأ طلبه بمفردة " أَنَّىَ"

- ...قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا .... (259) البقرة

ولو تتبعنا هذه الصيغة على وجه التحديد في كتاب الله كله لما وجدنا أن عبدا من عباد الله قد استخدمها إلا وجاءه الرد مباشرة ممن وجه خطابه إليه. فها هم نفر من بني إسرائيل يحاورون نبيهم بهذه الصيغة:

- وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ.. (247) البقرة

فما كان من نبيهم إلا أن يرد على ما قالوا على الفور:

- ... قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (247) البقرة

وها هو زكريا يخاطب مريم بهذه الصيغة:

- فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ... (37) آل عمران

فما كان من مريم أن تسكت، بل جاء ردها مباشرة:

- ... قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (37) آل عمران

وهذا لا ينطبق فقط في حوارات الناس فيما بينهم، بل ينطبق أيضا في سياق خطاب الناس مع ربهم. فهذا زكريا يحاور ربه باستخدام هذه الصيغة:

- قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ... (40) آل عمران

فجاءه الرد الإلهي الفوري

- ... قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (40) آل عمران

وتأكد الخطاب نفسه في موضع ثان من كتاب الله:

- قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (9) مريم

وجرى حوار مثله بين مريم وربها:

- قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (47) آل عمران

وجرى حوار مثله بين مريم من جهة وروح ربها من جهة أخرى:

- قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (21) مريم

وهذا ينطبق على حوارات كل من سأل بمثل هذه الطريقة:

- أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (156) آل عمران

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن صيغة **"أَنَّى ..."** هي صيغة سؤال من أجل تلقي رد وليست صيغة إنكار.

دعاء: أنى يكشف الله السوء والضر وهو أرحم الراحمين.

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نتخيل أنه ما أن وقف ذلك الرجل الصالح على أطلال تلك القرية الخاوية على عروشها حتى انطلق لسانه ليطلب من ربه أن يريه كيفية إحياء الموتى التي كانت حتى الساعة تَشْكُل عليه. وأظن أنه كان ينوي أن يسجل ذلك في أسفاره التي كان يحملها على حماره متى ما تبين له ذلك. وهناك جاءه البرهان العملي الفوري، فأماته الله مئة عام ثم بعثه، وما أن بعثه حتى أراه عملية إحياء الموتى خطوة بخطوة، وأظن أنه كان يسجل علم ذلك في أسفاره:

- ... فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259) البقرة

السؤال: إذا كان ما يريده الرجل هو أن يريه الله كيف يحيي الموتى فما الداع أن يميته الله مئة عام ليبعثه بعد كل تلك الأعوام فيريه كيفية إحياء الموتى؟ وما الداع أن تكون الفترة الزمنية هي مئة عام؟ وماذا حصل خلال تلك الفترة من الزمن؟

جواب مفترى: نحن نظن أن السبب الذي من أجله أماته الله مئة عام هي حتى يجعله الله آية للناس:

- **... فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259) البقرة**

ولو دققنا النظر في ترتيب مفردات الآية الكريمة نفسها لوجدنا أن الله قد جعله آية للناس **"وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ"** قبل أن يريه كيف ينشز العظام ثم يكسوها لحما **"وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا"**:

- **... وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا... (259) البقرة**

نتيجة: كان الرجل الذي أماته الله مئة عام ثم بعثه هو آية للناس بنفسه.

السؤال: لماذا جعل الله هذا الرجل على وجه التحديد آية للناس؟ ألم يطلب إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى؟

- **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (260) البقرة**

لم لم يميته الله مئة عام ثم يبعثه كما فعل مع هذا الرجل؟ لم لم يكن إبراهيم بنفسه آية للناس؟

جواب: لقد كان هذا الرجل آية للناس وكان عيسى بن مريم كذلك آية للناس:

- **قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (21) مريم**

السؤال: لماذا كان هذا الرجل وعيسى بن مريم هما فقط آية للناس من دون البشر جميعا؟

جواب: هذا ما تعرضنا لجزئية منه عند حديثنا عن كيفية خلق المسيح عيسى بن مريم، وسنتابع الحديث عنه هناك إن أذن الله لنا بشيء من علمه، ونكتفي هنا أن نذكر القارئ الكريم بالآيات القرآنية التالية التي جاءت خاصة بالمسيح عيسى بن مريم:

- **إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (45) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ (46) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا**

فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (47) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (48) وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِىءُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (49) آل عمران

حيث ترتبط آية المسيح بالخلق وإبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله.

(للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان: كيف تم خلق عيسى بن مريم؟)

دعاء: اللهم أنفذ أمرك بمشيئتك وإرادتك لي الإحاطة بشيء من علمك لا ينبغي لغيري إنك أنت العليم الحكيم.

أما ما يهمنا الحديث عنه هنا فهو الفرق بين إبراهيم (الذي أراه الله كيفية إحياء الموتى) وهذا الرجل الذي أماته الله مئة عام ثم أراه كيفية إحياء الموتى، لنطرح التساؤل على النحو التالي: لِم لَم يميت الله إبراهيم مئة عام ثم يبعثه بعد ذلك ليريه كيفية إحياء الموتى كما فعل بهذا الرجل الذي مرّ على القرية الخاوية على عروشها؟

جواب مفترى: نحن نظن أن هذا ربما يعود إلى كيفية صياغة الرجل لطلبه من ربه، فهو الذي طلب برهان ذلك بتطبيقه على نفسه.

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب مفترى: لأنه صاغ ذلك باستخدام مفردة **"أَنَّى"** بينما صاغ إبراهيم طلبه باستخدام **"أَرِنِي كَيْفَ"**، قارن بين الطلبين:

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (260) البقرة

الدليل: لو راجعنا كل السياقات القرآنية التي استخدمت فيها هذه الصيغة **"أَنَّى"** لوجدنا أن الخطاب يخص المتحاورين أنفسهم:

- وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (247) البقرة

- فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًاۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (37) آل عمران
- قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (40) آل عمران
- قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (9) مريم
- قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (47) آل عمران
- قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (21) مريم
- أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (156) آل عمران

دعاء: رب أرني كيف تكشف السوء والضر وأنت أرحم الراحمين.

السؤال: ولماذا أماته الله مئة عام على وجه التحديد؟ لِم لَم تكن الفترة يوما واحدا، أو عاما واحد أو عشرة أعوام أو تسع وتسعون عاما أو ألف سنة إلا خمسين عاما، أو سنين عددا، وهكذا؟

جواب مفترى: نحن نظن أن لهذا علاقة بسبب خروج هذا الرجل في رحلته على حماره ووقت مروره على تلك القرية. فلكي نتعرض للسؤال الخاص بالفترة الزمنية نظن أن علينا أن نتعرض لعدة تساؤلات سابقة له تشمل:

- من هو هذا الرجل؟
- من هم قوم هذا الرجل؟
- من أين جاء هذا الرجل راكبا حماره؟
- وأين كان متجها؟
- وماذا كان هدفه من تلك الرحلة؟
- متى خرج في رحلته تلك؟

الافتراءات التي ننوي أن نقحم أنفسنا فيها هي:

- كان هذا الرجل هو العزير الذي قالت عنه اليهود أنه ابن الله. وقد تعرضنا لهذا الافتراء بالتفصيل في الأجزاء السابقة.

- كان هذا الرجل من بني إسرائيل
- جاء هذا الرجل من مصر
- كان هذا الرجل قاصدا بيت المقدس
- كان يهدف أن يذهب إلى ربه ليهديه
- خرج هذا الرجل من مصر عندما تم استعباد بني إسرائيل في أرض مصر
- الخ.

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نتخيل الذي حصل مع هذا الرجل على النحو التالي: ما أن يهلك يوسف ويدب الخلاف بين بني إسرائيل في أرض مصر، حتى تقوى شوكة المعادين لهم من أبناء مصر الأصليين وعلى رأسهم آل فرعون. فنحن نظن أن آل فرعون لم تكن أكثر من عائلة واحدة من عائلات المصريين وهم السكان الأصليين لهذه الأرض (أي أرض مصر)، وأظن أن آل فرعون كانوا أشد أهل مصر عداء لبني إسرائيل الذين قويت شوكتهم في أرض مصر وسيطروا على مقاليد الحكم في زمن يوسف. فما مات يوسف حتى كان الله قد آتاه بعض الملك:

- رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101) يوسف

ولكن جاءت نهاية يوسف على شكل هلاك:

- وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (34) غافر

ونحن نفتري الظن بأن من هلك من الرجال (كيوسف مثلا) هو من لم يكن له ذرية من الذكور لترثه:

- يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُواْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (176) النساء
- ... وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَو امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوَاْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (12) النساء

فلقد كانت وراثة يوسف (نحن نظن) كلالة، وفي تلك الأثناء دب الخلاف بين بني إسرائيل حول قضية مفصلية خاصة بمن سيكون رسولا من بعد يوسف. فلقد عهد بنو إسرائيل النبوة وراثة في بيت من بيوتهم، فقد كان يوسف نفسه هو ابن يعقوب ابن اسحق ابن إبراهيم. لذا أصبح الشغل الشاغل (نحن نتخيل) لعلماء بني إسرائيل (خاصة أحبارهم ورهبانهم) حينئذ هو التنبؤ بمصير الرسالة من بعد هلاك يوسف:

- وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (34) غافر

وهنا أخذ آل فرعون (وهم الأشد عداء لبني إسرائيل في أرض مصر بدليل أن الذي كان يسومون بني إسرائيل أشد العذاب هم آل فرعون وليس فرعون نفسه):

- وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) البقرة
- وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (6)

يجمعون أمرهم للإطاحة بالملوك من بني إسرائيل من بعد يوسف في أرض مصر:

- وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ (20) المائدة

فبنو إسرائيل كانوا في أرض مصر ملوكا من قبل قدوم موسى. وكان ذلك – في ظننا- في الفترة التي أعقبت ملك يوسف. وما أن دبّ الخلاف في ملكهم حتى قويت شوكت آل فرعون واستطاعوا الإطاحة بحكم ملوك بني إسرائيل في أرض مصر. وهنا بدأت الفترة الأشد حرجا في تاريخ بني إسرائيل، وهي استعبادهم في أرض مصر:

- طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6) القصص

فأصبح بنو إسرائيل مستضعفين في الأرض، وكان الهدف الأساسي من قدوم موسى وأخيه هارون إلى فرعون هو أن يخرجهم من أرض مصر:

- فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (17) الشعراء

بعد أن كان فرعون قد عبّدهم فيها:

- وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22) الشعراء

وهنا ننطلق على الفور لطرح التساؤل التالي: كم استمرت فترة استعباد بني إسرائيل في أرض مصر؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: مئة عام.

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نتخيل الذي حصل على النحو التالي: ما أن تمت الإطاحة بعهد الملوك من بني إسرائيل في أرض مصر على يد آل فرعون، ووصول الفرعون الأول إلى سدة الحكم، حتى كان القرار الأول

له هو استعباد بني إسرائيل في الأرض. وكان هذا الرجل الذي مر على تلك القرية الخاوية على عروشها أحد علماء بني إسرائيل حينئذ (من أحبارهم ورهبانهم). وكان هذا العالم من بني إسرائيل عالما بشريعة الله التي لا تبطل، والخاصة بمن وجد نفسه في هذا الوضع وهو الاستعباد في الأرض:

- **إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا (97) النساء**

لذا نحن نتخيل أن بني إسرائيل قد انقسموا في أرض مصر حينما آل الحكم إلى آل فرعون إلى قسمين:

- قسم رضي بأن يستعبد في الأرض، فمكث في أرض مصر ولم يهاجر في أرض الله الواسعة
- قسم رفض الاستعباد، لأن أرض الله واسعة فهاجر فيها

ويستثنى من هذا من كان من المستضعفين من الرجال والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا. انظر الآية الكريمة السابقة في سياقها الأوسع:

- **إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا (97) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (98) النساء**

نتيجة: قضت سنة الله الكونية بإلزام كل من وجد نفسه مستضعفا في الأرض أن يهاجر في أرض الله الواسعة، ويستثنى من ذلك "**الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً**".

نتيجة مفتراة: نحن نتخيل أن هذا الرجل لم يكن من المستثنين في الخطاب وليس أدل على ذلك من ركوبه حماره ومروره على القرية الخاوية على عروشها، لذا نحن نتخيل أنه لمّا لم يكن هذا الرجل من المستضعفين من الرجال الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيل اتخذ قراره بالهجرة لأن أرض الله واسعة. وكذلك فعل كل من لا يرضى بأن تتوفاه الملائكة ظالما لنفسه مستضعفا في الأرض. وما تبقى في أرض مصر إلا فئتين من بني إسرائيل، وهما:

- "**الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً**"، فكان هؤلاء من المعذورين في بقائهم في أرض مصر.

- الذين رضوا بالاستعباد بالأرض من اللذين كانوا قادرين على الهجرة في أرض الله ولم يفعلوا. فلم يكونوا معذورين، فكان لابد أن تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم:

- **إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا (97) النساء**

ونحن نفتري الظن بأنه ما كان قدوم موسى وأخيه هارون إلا لإخراج من تبقى من بني إسرائيل من **"الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً"**. ولو كان في أرض مصر من الرجال القادرين على الخروج لما كان قدوم موسى وأخيه هارون مبررا، لأن الواجب الشرعي يحتّم على هؤلاء الهجرة في أرض الله بأنفسهم، وليس انتظار من يخلصهم من الاستعباد. دقق – عزيزي القارئ- في هذا السياق القرآني جيدا:

- **طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6) القصص**

نتيجة: كانت المنّة من الله خاصة باللذين استضعفوا في الأرض.

نتيجة مفتراة: لذا نحن نتخيل أنه لما انتهى حكم مصر إلى آل فرعون خرج من أرض مصر كل من لم يقبل بالعبودية من بني إسرائيل وكان قادرا على الهجرة في أرض الله كهذا الرجل. ولكن في الوقت ذاته تبقى في أرض مصر (نحن نتخيل) نفر من الرجال من بني إسرائيل وقد رضوا بالعبودية عندما لم يهاجروا في أرض الواسعة عندما كانوا قادرين على ذلك.

السؤال: لماذا لم تأت المنة الإلهية مباشرة على بني إسرائيل؟ لم استمر استعباد بني إسرائيل بعضا من الوقت؟ ألم يكن الله يستطيع أن يمنّ عليهم مباشرة فيخلصهم من الاستعباد على الفور؟ لم لم يأت مولد موسى مبكرا بعض الشيء؟ نحن نتساءل.

افتراء خطير جدا: لم تأتي المنّة الإلهية على بني إسرائيل مباشرة ولكنها تأخرت بعض الوقت والسبب في ظننا هو وجود هؤلاء الظالمين لأنفسهم من بينهم اللذين كانوا قادرين على الهجرة في أرض الله فما فعلوا. وما جاءت المنة الإلهية على المستضعفين (نحن نفتري القول) حتى توفت الملائكة كل أولئك اللذين كانوا ظالمي أنفسهم ولم يهاجروا عندما تم استضعافهم في الأرض:

- **إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا (97) النساء**

وما أن توفت الملائكة آخر رجل (نحن نفتري القول) من هؤلاء فما تبقي في أرض مصر من بني إسرائيل إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا:

- **إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (98) النساء**

حتى جاءت ساعتها المنّة الإلهية عليهم:

- **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6) القصص**

نتيجة: لقد كان الأذى الذي لحق ببني إسرائيل في أرض مصر جزاء بما كسبت أيدي بعضهم:

- **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (30) الشورى**

فبعث الله موسى وأخاه هارون لإخراج من كان من **"الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً"** من أرض مصر:

- **فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (17) الشعراء**

وكان ذلك بعد أن توفت الملائكة كل من كان ظالما لنفسه من بني إسرائيل من الرجال الذين رضوا الاستعباد في الأرض وكانوا قادرين على الهجرة في أرض الله ولم يفعلوا:

- **إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا (97) النساء**

نتيجة مفتراة: لا تتخيل عزيزي القارئ أن يرفع الله عنك ظلما قد وقع عليك إذا كنت أنت قادرا على رفعه عن نفسك ولم تفعل. فلا تتخيل مثلا أن يخلصنا الله من حكامنا الطغاة الفاسدين المفسدين الذين ربما تجاوز فسادهم فساد فرعون نفسه، والذين أصبحت البلاد مرتعا لآلهم أكثر مما فعل آل فرعون، فاستضعفونا أكثر مما استضعف آل فرعون بني إسرائيل، ولكن يبقى السؤال: لماذا لا يتدخل الله برفع ذلك عنا؟

جواب: لأن الله لا يتدخل في رفع ظلم عن من رضي أن يقع عليه الظلم، فمادام أننا نشاء الظلم، فلن تتدخل الإرادة الإلهية برفعه، ولن يحصل ذلك إلا في حالتين:

1. أن لا نرضى نحن بالظلم فنرفعه عن أنفسنا
2. أن لا يبقى فينا إلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً بعد أن تميت الملائكة من هم ظالمي لأنفسهم من القادرين منا على ذلك.

دعاء: أعوذ بك رب أن أكون ممن تتوفاهم الملائكة ظالمي لأنفسهم.

تخيلات من عند أنفسنا: نشأ خلال تلك الفترة في أرض مصر جيل من المستضعفين في الأرض، جلّهم من النساء لأن فرعون كان يقتل أبناءهم:

- **وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (141) الأعراف**

فكان آل فرعون يسومونهم سوء العذاب، وكان هذا سابقا لقدوم موسى ولاحقا لمجيئه:

- **قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129) الأعراف**

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أنه لمّا كان هذا الرجل الذي أماته الله مئة عام من بني إسرائيل الذين لم يكونوا ليرضوا بالاستعباد في الأرض اتخذ قراره بالهجرة في أرض الله الواسعة، ربما راكبا حماره بعد أن جعل عليه طعامه وشرابه، سائلا ربه أن يهديه سواء السبيل كما فعل موسى عندما خرج هاربا من المدينة:

- **وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ (22) القصص**

لأنه (نحن نعتقد) لم يكن ليقبل بغير الله ربا، ولأنه لم يكن يقبل من دون الله ربا. فلا أظن أن مثل هذا الرجل سيرضى بأن يعيش في بلاد يقول سيدها أنه هو إلههم:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38) القصص**

ولا أظن أنه سيرضى أن يكون من بين القوم الذين يمكن لفرعون أن يستخفهم:

- **فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54) الزخرف**

افتراء من عند أنفسنا: خرج ذلك العبد الصالح من أرض مصر لأنه رفض أن يكون من المستضعفين في الأرض وهو قادر على الهجرة في أرض الله الواسعة، فكانت وجهته إلى ربه ليهديه، ربما كما فعل إبراهيم من ذي قبل بعد أن أخرجه قومه:

- **وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (99) الصافات**

فسار في الأرض لينظر في آيات الله فيها، متمثلا قول الله تعالى في كتابه الكريم:

- **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (82) غافر**
- **أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (21) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (22) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (23) غافر**

فكان هذا الرجل طوّافا في الأرض لينظر كيف كان عاقبة الذين من قبلهم باحثا عن أثارة من علم:

- قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ اِئْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (4) الأحقاف

فمكث فترة من الزمن يبحث عن آيات الله، فعثر (نحن نفتري القول) على ذلك الحوت الذي لبث في بطنه ذو النون فترة من الزمن:

- فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاء وَهُوَ سَقِيمٌ (145) الصافات

فأصبح هو وسيلة تنقله في البحر، وهو الحوت الذي افترينا القول سابقا أنه قد جاء به إلى تلك الصخرة حيث كان لقاءه مع موسى (للتفصيل انظر الأجزاء السابقة).

واستمر ذلك الرجل في بحثه عن آيات الله، وما أن وصل إلى تلك القرية الخاوية على عروشها في طريقه نحو بيت المقدس حتى وقف على أطلال تلك القرية الخاوية على عروشها:

- أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259) البقرة

فوجدها هناك:

- فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (45) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46) الحج

وهي (في ظننا) بلاد ثمود الذين جابوا الصخر بالواد التي تقع بين عاد التي لم يخلق مثلها في البلاد وبلاد فرعون ذي الأوتاد:

- أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10) الفجر

وهي البلاد التي بقيت مساكنهم شاهدة عليهم:

- وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (38) العنكبوت

نتيجة مفتراة خطيرة جدا: إنها البتراء في جنوب الأردن. وهناك أماته الله مئة عام، ثم بعثه.

السؤال: لماذا مئة عام؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: إنها فترة استعباد بني إسرائيل في أرض مصر، فما أن كانت المنّة الإلهية ببعث موسى وأخيه هارون لإخراج بني إسرائيل من أرض مصر وهلاك عدوهم:

- **طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6) القصص**

حتى كان بعث هذا الرجل من موته، فأصبحت سيرته مصاحبة لسيرة بني إسرائيل، حتى نعته اليهود في يوم من الأيام على أنه ابن الله بالضبط كما فعلت النصارى عندما نعتت المسيح عيسى بن مريم على أنه ابن الله:

- **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (30) اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (31) التوبة**

راقب – عزيزي القارئ- هذه الآيات الكريمة جيدا لتجد أن الذين اتخذهم اليهود والنصارى أربابا من دون الله هم فئتين:

- أحبارهم ورهبانهم **"اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ"**
- المسيح بن مريم **"اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ"**

لنخلص من خلال ذلك إلى النتائج التالية:

نتيجة (1): لما قالت النصارى أن المسيح هو ابن الله، فهم بذلك قد اتخذوا المسيح ابن مريم ربا من دون الله **"اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ"**

نتيجة (2): لم تتخذ اليهود المسيح ابن مريم ربا من دون الله ولكنهم (لا شك) اتخذوا من أحبارهم ورهبانهم ربا من دون الله **"اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ"**

وعند ربط هذا الاستنباط من الآية الكريمة بما جاء في السياق الأوسع:

- **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (30) اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (31) التوبة**

نجد أن العزير هو من اتخذه اليهود ربا من دون الله. لنخلص من خلال ذلك إلى النتيجة المفتراة من عند أنفسنا التالية: لمّا كان العزير هو من اتخذه اليهود ربا من دون الله، كان إذا من أحبارهم ورهبانهم الذين اتخذوهم ربا من دون الله.

نتيجة مفتراة مهمة جدا: العزير هو من أحبار اليهود ورهبانهم الذين اتخذوه ربا من دون الله.

السؤال الخطير جدا جدا: من هو العزير هذا؟ وأين يمكن أن نجده اليوم؟ وما دام أنه آية للناس، هل سيكون العلم به دليلا كافيا لمن أراد الإيمان إذا تليت عليه هذه الآية من بين آيات الله الكثيرة؟

- وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (101) آل عمران

السؤال: إذا لم يعد رسول الله موجود فينا ليكون سببا في عدم كفرنا، فهل ستكون مثل هذه الآية كافية لكي لا نكفر؟ هل ستكون هذه الآية حجة علينا لكي نعتصم بالله ليهدينا صراطه المستقيم؟ هل ستكون هذه الآية بينة كافية على صدق كلام الله في كتابه العزيز هذا لمن أراد أن يجادل؟ إذا كان هذا ممكنا، فمن هو العزير هذا إذن؟

جواب خطير جدا جدا نطلب من القارئ الكريم عدم الوثوق به ما لم يجد أن الدليل يدعمه من كتاب الله، والجواب هو: إنه ما يسميه الناس (خاصة علماء الآثار) بـ أوزريس أو Osiris باللسان الأعجمي.

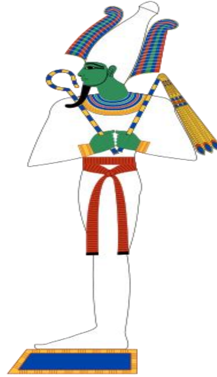
اعتراف: لابد من الاعتراف قبل كل شيء أن هذه النتيجة لا تخصني ولست أنا من توصّل إليها، فهذه النتيجة قد جاءتني من أرض مصر من عند صاحبنا الذي يقضي جلّ وقته وجهده البدني والفكري بين القبور وأمام جدران المعابد في أرض الكنانة، يتأملها ليخرج منها بقصة صحيحة خالية من تشويهات الأجيال وأهل العلم الذين ما انفكوا يوما عن تحريف الكلم عن مواضعه حتى ضاعت الحقيقة، وما عاد الناس يجدون منها إلا ما خطه لهم بأقلامهم أهل العلم الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، والذين يشترون بآيات الله ثمنا قليلا. المهم أن صاحبنا الذي توصل إلى هذه النتيجة التي نظن أنها غير مسبوقة هو عالم الآثار المصري السيد عصام درويش. والقصة من صاحبنا حصلت على النحو التالي:

لا أدري بداية كيف توصل السيد عصام درويش إلى كتاباتي المتوافرة على موقع جامعة اليرموك، أو على جزء منها من مواقع التواصل الاجتماعي الأخرى، المهم بالموضوع أن الرجل بدأ يقرأ تلك التخريفات، ربما مدفوعا في البداية بغرابة الأفكار، وما أن وصل إلى حكايتنا عن قصة موسى وقصة يوسف حتى شدّه الكلام، فأخذ يربط الأحداث كما فهمها من كتاباتنا مع ما توافر عنده من معرفة متراكمة بآثار مصر عبر سنين طويلة من الشغل والبحث فيها، وقد أدهشتني ردة فعله الأولى على الموضوعات المتعددة، حيث فهمت من رسائله الإلكترونية الأولى أنه بدأ يشعر بأن رابطا بين تلك الرسومات والكتابات أخذ يتبلور بطريقة أكثر وضوحا في مخيلته مما سبق. وكانت أولى تلك الخيوط تتعلق بقصة صاحب موسى هذا الذي ظننا أنه العزير، وهو الذي قالت عنه اليهود أنه ابن الله.

وكانت النتيجة المذهلة التي بعث بها لي صاحبنا عصام درويش من أرض مصر هي أن هذا الرجل المسمى بالعزير هو ما خلدته آثار السابقين، ولكن الأمم المتعاقبة (خاصة اليهود منهم) قد حرفته من بعدهم شيئا فشيئا كعادتهم:

- **مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (46) النساء**
- **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (13) المائدة**

حتى وصلنا اليوم تحت مسمى أوزريس (أي Osiris, Usiris, Asar, Asari, Aser, Ausar, Ausir, Wesir, Usir, Usire or Ausare)، وهو الوحيد من بين جميع الآلهة المصريين (كما يحب علماء الآثار أن يسمونهم) الذي يظهر بوجه آدمي وبشرة خضراء اللون في جميع أشكاله المرسومة (وربما يكون هذا هو - فيما أظن- السبب الذي دفع بكثير من أهل العلم ممن سبقنا بأن يسمونه بـ الخضر وإن كنا على يقين أنهم لا يعلمون السبب من وراء ذلك) كما يظهر في الشكل التالي:



فهو صاحب اللحية واللباس الفرعوني (أو اليوسفي) والوجه الأخضر، نحن نظن أن ذلك اللباس الذي يظهر في الآثار الفرعونية لم يكن صنيعة مصرية، وإنما هو لباس يوسف في أرض مصر؛ إنه قميص يوسف (انظر مقالاتنا تحت عنوان قصة يوسف). فما أن انتشر خبر قميص يوسف في أرض مصر حتى أصبح الجميع يقلده، وأصبح يظهر ويكأنه تراث فرعوني مصري الطابع. وهو إله الموت والبعث في كتاباتهم التي نظن أنهم أساءوا قراءتها، وها هو صاحبنا من مصر السيد عصام درويش يطلق الدعوة عالية لنعود فنقرأ تلك الكتابات على الجدران بعين جديدة، لننظر أيهما أكثر وجاهة: ما قاله من سبقنا من أهل تحريف الكلم عن مواضعه أم ما فهمه صاحبنا عصام درويش مما قاله ربنا في كتابه الكريم؟

السؤال: إن صح ما ظنه صاحبنا عصام درويش، ألا تكون تلك آية من آيات الله التي تدعونا تلاوتها أن لا نكفر؟

- وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (101) آل عمران

والآن لنقرأ هذه الآية الكريمة في سياقها الأوسع لنجد الدعوة واضحة إلى الكف عن الصد عن سبيل الله من قبل أهل الكتاب الذين يبغونها عوجا:

- قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَاللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (98) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاء وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (99) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (100) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (101) آل عمران

وسيكون الحكم بيننا وبينكم ما يتلى علينا في هذا القرآن الذي جاءنا من عند ربنا:

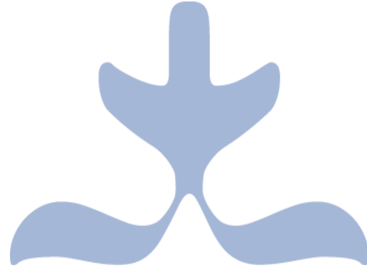
- وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (92) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (93) النمل

دعاء: اللهم أسألك أن أكون ممن يرون آياتك فيعرفونها إنك أنت الواسع العليم.

دعاء: أسألك رب أن تنفذ أمرك بمشيئتك وإرادتك لي ولأخي علي محمود الشرمان وصاحبنا من مصر عصام درويش الإحاطة بشيء من علمك اللدنّي لا ينبغي لأحد من بعدنا إنك أنت العليم الحكيم. وأسألك وحدك أن تؤتينا رحمة من عندك وأن تعلّمنا ما لم نكن نعلم وأن تجعل فضلك علينّا عظيما، ونعوذ بك أن نفتري عليك الكذب أو أن نقول عليك ما ليس لنا بحق.

والله أعلم،

وللحديث بقية.



الجزء الحادي عشر

باب السامري

(1)



باب السامري (1)

نتعرض في هذا الجزء إلى السؤال التالي: كيف استطاع السامري أن يخرج للقوم عجلاً جسداً له خوار؟

جواب: إننا نفتري الظن بأن السامري استطاع القيام بذلك لأنه استطاع الحصول على قبضة من عصا موسى. ولكن كيف تم له ذلك؟

أما بعد،

لقد ذكرنا آنفاً أنّ من يملك السلطان يستطيع كذلك تحقيق المراد ودون الرجوع إلى أحد، فهل الإيمان ضروري ليستخدم الإنسان السيارة أو الطائرة أو البندقية؟ إنّ ذلك متاح لكل شخص بغض النظر عن عقيدته، وهذا من رحمة الله بالخلق جميعاً، وإلاّ لما كانت الحياة ميسرة لغير المؤمن، ولكنْ قضت إرادة الله أنْ يشترك المؤمن وغير المؤمن في أسباب هذه الحياة. وخلاصة القول أنّ من يملك السلطان يستطيع تحقيق المراد به، وإلاّ كيف يمكن تفسير استخدام موسى عصاه في شق البحر أو تفجير عيون المياه لقومه؟ فقد يظن البعض أنّ ذلك خاصاً بموسى لأنّه نبي مؤمن؟ وبكلمات أخرى فقد يظن البعض أنّ شق البحر كان بسبب إيمان موسى وليس بسبب العصا، فنقول كلا، إنّ شق البحر كان بسبب العصا وليس بسبب إيمان موسى، وإلاّ لما كان موسى أصلاً بحاجة للعصا. أي لِمَ لَمْ يشق الله البحر لموسى ودونما تدخل من موسى؟ وقد يظن البعض أنّ السبب هو حتى يرى الملأ من قوه ما يستطيع أنْ يفعله موسى كدليل على صدق دعوته. فنقول لنسلم بالأمر ونوافقكم الرأي، ولكن يبقى السؤال الأكبر: لِمَ لَمْ ينشق البحر لموسى بالمخاطبة مثلاً؟ ولِمَ يأتي ذكر العصا – على وجه الخصوص- في كل موقف يحقق فيه موسى الآيات على الملأ من الناس؟ إنّ الافتراض الذي نقدمه هنا هو على النحو التالي: أنّ عصا موسى (السلطان) هي التي بها يتحقق المراد وليس بإيمان موسى، ففطرة موسى كانت تحقق له أمورا لا تستلزم استخدام العصا (وقد ذكرنا سابقاً أمثلة عديدة على فاعلية فطرة موسى)، وعصا موسى تحقق له أموراً لا يستلزم معها استخدام الفطرة (حتى وإنْ استخدمت). وقد وردت أمثلة عديدة على استخدام موسى عصاه، وهذا ما نفهمه بالضبط من قوله تعالى:

- ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (45) المؤمنون

فالآية القرآنية تثبت أنّ موسى قد جاء بأمرين: بالآيات والسلطان، فاذا كانت الآيات التي جاء بها موسى وأخيه هارون قد ذكرت عشرات المرات في القرآن الكريم، فالسؤال البسيط هو: ما هو السلطان المبين؟ وبكلمات أدق ما هو السلطان المبين الذي جاء به موسى مصاحباً للآيات؟ إننا نعلم يقيناً أنّ موسى أصلاً جاء قومه ومعه برهانان من ربه وهما العصا وإخراج يده من جيبه:

- قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (21) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (22) طه
- وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (32) القصص

والدقة القرآنية تتجلى بأنْ تتلازم تلك الآيات التسع مع إدخال وإخراج اليد من الجيب:

- وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (12) النمل

والاستنتاج الغريب الذي يفضي إليه هذا النقاش أنّ الآيات التي جاء بها موسى فرعون وقومه كثيره، ولكنّه جاء بسلطان واحد، ونحن ندعي أنّ هذا السلطان هو "العصا"، وإنّنا ندعي كذلك أنّ العصا نفسها هي التي باستخدامها كان يتحقق لموسى عليه السلام المراد، وهذا يعني بالضرورة أنّ من يملك العصا يستطيع تحقيق مراده حتى وإنْ كان لا يملك إيمان موسى. وسنورد حالاً مثالاً غاية في الغرابة والتفسير من القرآن الكريم على صحة ما نقول.

فلقد وردت قصة السامري مع قومه في القرآن الكريم، ولكن قلّما وردت التفسيرات المرضية لما استطاع السامري عمله مع قوم موسى، إنّنا ندعى أنّ الافتراض السابق يوضح بشكل لا لبس فيه قصة السامري مع قومه، قال تعالى:

- فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ... (88) طه

والسؤال البسيط الذي ربما تبادر إلى ذهن القارئ للنص القرآني هو: من أين جاءت قدرة السامري على إخراج العجل؟ القارئ مدعو هنا إلى ربط قصة السامري وقدرته الإيقاع بقومه مع ما سيكون من أمر الدجال في آخر الزمان. أي كيف استطاع السامري أنْ يخرج ذاك العجل بنفسه؟ ولنبدأ بالافتراض الأبسط، فقد يظن القارئ أنّ المقصود بالعجل أنّ السامري قد أحضر لهم عجلاً عادياً واستطاع إقناع قومه بعبادته وبذلك أضل قومه. نقول كلا، إنّ ذلك غير ممكن لسبب بسيط وهو كيف يمكن للسامري أنْ يقنع قوم موسى بعبادة العجل وهارون (وهو المعروف بفصاحته) بين ظهرانيهم؟ إنّ ذلك أبعد ما يمكن عن الحقيقة، فلا يمكن أنْ يكون السامري قد ملك من الفصاحة والحجة ما يتفوق به على هارون، وإلاّ فكيف يتقبل الله شهادة موسى بفصاحة أخيه هارون:

- وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ ...(34) القصص

وابسط ما يمكن أنْ تعنيه هذه الآية الكريمة أنّ موسى نفسه كان بحاجة أنْ يستعين بفصاحة هارون في إقناع قومه بصدق ما جاءهم به، نستنتج إذاً أنّ السامري قد عمل شيئاً فاق فصاحة هارون حتى استطاع التغرير بقومه، وليس هناك ما يمكن أنْ يتفوق على فصاحة هارون إلاّ ما كان يملكه موسى، أليس كذلك؟ وهذا يقودنا بالتالي إلى سلسلة من التساؤلات المترابطة نودّ أنْ نجلب انتباه القارئ لها:

- كيف تفوق موسى على أخيه هارون في حين أنّ الثاني هو أكثر فصاحة؟
- كيف استطاع السامري التفوق على هارون؟
- كيف استطاع موسى التفوق على السامري؟

أما بالنسبة للسؤال الأول فنقول إنّ ذلك بسبب ما كان يملك موسى من الآيات (كالعصا وإخراج يده من جيبه) التي لم يكن هارون يملكها، فكانت حجته على قومه أبلغ من حجة أخيه هارون. ولنقرأ الآيات التالية لنتبين الفرق بين ما كان يملك موسى وما كان يستطيع هارون فعله، فالآيات التي تتحدث عن موسى وهارون تثبت أنّ هارون كان وزيراً لموسى، ولم يكن يملك كل ما كان موسى يملكه، وابسط الأدلة على ذلك أنّه في حين أُفرد موسى بالآيات والسلطان:

- **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (35) الفرقان**
- **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (96) هود**
- **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (23) غافر**

لم يكن ذلك لهارون، فما وردت الآيات والسلطان مع هارون إلاّ إذا كان بصحبة موسى:

- **ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (45) المؤمنون**

أما بالنسبة للتساؤل الثاني (أي كيف استطاع السامري أنْ يتغلب بحجته على هارون ولم يستطع أنْ يتغلب بها على موسى؟) فنحن نعرف أنّه في اللحظة التي رجع فيها موسى إلى قومه تهاوت قدرة السامري فبطلت:

- **قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (95) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (97) طه**

ولكن يبقى التساؤل المثير قائماً، فنقول مرة أخرى ما نوع القدرة التي كان يتمتع بها السامري ولم يكن هارون يملكها؟ إنّ الجواب البسيط الذي نقدمه هو أنّ السامري قد امتلك حجة أقوى من حجة هارون، وهذا يعني بالضرورة أنّ تلك الحجة تشبه أو تقارب حجة موسى. وبكلمات أدق لقد استطاع السامري أنْ يقدم ما يشبه ما كان موسى نفسه يقدمه لهم وبذلك استطاع التغرير بهم، فعجل السامري (بالنسبة لقومه) هو آية تشبه الآيات التي كان يقدمها موسى نفسه، وتأتي الدقة القرآنية في ذلك غاية في الروعة، حيث كانت ردة الفعل الأولى لقومه على إخراج العجل أنْ قالوا هم وليس السامري أنّ ذلك إله:

- **فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ ...(88) طه**

وإنْ صحّ هذا الافتراض فالتساؤل الذي لا مهرب منه هو: كيف إكتسب السامري تلك المعرفة وتلك القدرة؟ أي كيف يستطيع السامري أنْ يقدم لهم ما يشهدوا هم بأنفسهم "فَقَالُوا" على أنّه إله ويجعلهم في الوقت ذاته يتجاهلوا فصاحة هارون وحجته؟

- **وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90) طه**

إنّنا ندعي أنّ الافتراض الذي قدمناه في البداية يفسر كيفية إكتساب السامري تلك المعرفة والافتراض هو على النحو التالي: إنّ من يملك السلطان يستطيع تنفيذ مراده في الحال ودون الرجوع إلى أحد مهما كانت عقيدته، وبكلمات أخرى فإنّ من يملك العصا مثلاً يستطيع تحقيق مراده، فإذا امتلكها موسى حقق مراده وإن امتلكها السامري حقق مراده وإن امتلكتها إنا حققت مرادي، وهكذا. وسنورد الآن الجواب على التساؤل الذي أثرناه سابقاً: من أين امتلك السامري السلطان الذي به استطاع أنْ يخرج العجل لقومه؟ ونستميح القارئ العذر مسبقاً إنْ وجد في هذا التفسير من الغرابة ما يلقي ظلال الشك على جميع ما سبق من التفسيرات والتأويلات، فهدفنا هنا ليس إثبات صحة أو خطأ تلك التفسيرات بل هو قراءة الآيات القرآنية من زاوية أخرى.

نقول أولا أنّنا نحتاج أنْ نربط جميع الأحداث مع بعضها البعض حتى نستجلى الصورة بكليتها، وبالتالي نفهم الذي حدث فعلا على أرض الواقع. ولهذا سنورد أولاً الآيات القرآنية التي تتحدث عن السامري وقصته مع قومه ومع موسى وأخيه هارون:

- **وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83) قَالَ هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (84)
قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا
قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ
مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (86) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ
الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ
وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (88) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (89) وَلَقَدْ
قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90)
قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (91) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا
(92) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93) قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن
تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (95) قَالَ بَصُرْتُ
بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96) قَالَ
فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي
ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (97) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (98) طه**

تثبت الآيات السابقة بما لا يدع مجالاً للشك الأمور الآتية:

1. حصول العجلة من قبل موسى للقاء ربه **"وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى"**.
2. لحاق قوم موسى نبيهم **"قَالَ هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَرِي"** .
3. حصول الفتنة لقوم موسى **"قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ"**.
4. حصول الضلالة **"وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ"**.
5. حصول الغضب والأسف عند موسى **"فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا"**.
6. إخلاف الموعد من قبل قوم موسى **"قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا"**.

7. حمل قوم موسى أوزاراً من زينة القوم "وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا".
8. إلقاء السامري "فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ".
9. إخراج العجل "فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ".
10. هارون يقدم النصيحة لقومه "وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي".
11. إصرار قوم موسى على موقفهم "قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى".

لقد حصلت الفتنة من الله لقوم موسى وهذا هو شأن الله مع جميع خلقه، وهذا يعيدنا إلى صحة ما افترضناه في الحديث عن الفتنة والعذاب، فالفتنة تقع على المؤمنين والعقاب يقع على الكافرين. فلابد من تمحيص الغث من السمين، فالفتنة هي من الله، وهي ليست أكثر من الاختبار الحقيقي لمعرفة المؤمن الحقيقي من غير المؤمن، قال تعالى:

- أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3) العنكبوت
- وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (17) الدخان

فالله سبحانه قد امتحن الأنبياء أنفسهم بالفتنة:

- "وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَاب (24) ص
- وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (34) ص

وها هو نبي بني إسرائيل نفسه موسى عليه السلام يتعرض للفتنة من ربه:

- إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (40) طه

نستنتج إذاً "أنّ فتنة قوم موسى كانت من الله وذلك "فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ".

أما الضلالة فكانت من السامري، وهذه هي الدقة القرآنية:

- قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85) طه

وبالإضافة إلى الفتنة والضلالة، تتحدث الآيات عن حصول العجلة من قبل موسى للقاء ربه:

- وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83) طه

والسؤال الذي نثيره هنا هو: ما نتيجة عجلة موسى؟ لِمَ يعاتب الله نبيه موسى في موضوع العجلة في حين أنّ موسى كان يقصد العجلة والشوق للقاء ربه؟

- قَالَ هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (84) طه

أي هل كان لعجلة موسى نتيجة سلبية؟ نقول نعم. فبادئ ذي بدء لم تذكر العجلة في القرآن الكريم إلاّ على سبيل الذم، ولم ينتج عن العجلة إلا ما لا يحمد عقباه:

- **فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24) الأحقاف**
- **وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (6) الرعد**
- **يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (54) العنكبوت**
- **فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (59) الذاريات**

وإنْ صحّ هذا الافتراض فالسؤال الذي لا مهرب منه هو: ما الأمر السلبي الذي نتج عن عجلة موسى؟ ماذا كانت عاقبة عجلة موسى؟ لقد درج بعض الفكر الإسلامي على افتراض أنّ تلك العجلة كانت السبب في فتنة قوم موسى. نقول أنّ ذلك غير صحيح، فالفتنة - كما بيّنا سابقاً- هي من الله وليست من السامري، وما كان وجود موسى أو عدم وجوده سيرد أمر الله، وقد يبادرنا البعض بالسؤال فما الأمر السلبي إذاً الذي نتج عن عجلة موسى؟ نقول أنّ القراءة المتأنية للآيات القرآنية تثبت أنّ عجلة موسى قد كانت السبب الحقيقي وراء ضلالة السامري لقوم موسى، وبكلمات أدق فإن ضلالة السامري كانت نتيجة حتمية لعجلة موسى. والسؤال هو: كيف كان ذلك؟ أي ما علاقة عجلة موسى للقاء ربه بضلالة السامري لقوم موسى؟

إنّنا ندعي أنّ العلاقة بين عجلة موسى وفتنة السامري كانت مباشرة، وهي على النحو التالي: أنّ موسى كان قد نسي شيئاً بسبب عجلته للقاء ربه، فمن تعجل في أمره نسي شيئاً من متاعه:

- **فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (61) الكهف**

وأنّ السامري كان قد وجد شيئاً، وإننا ندعي كذلك أنّ الشيء الذي نسيه موسى هو نفس الشيء الذي وجده السامري، وهو السبب الذي عاتب الله موسى من أجله لأنّ السامري استخدمه ليضل قوم موسى: إنه العصا. لقد نسى موسى عصاه عندما أسرع للقاء ربه، وقد وجد السامري تلك العصا فاستخدمها في إخراج العجل لقوم موسى، أي لقد وجد السامري السلطان الذي به يستطيع تحقيق مراده، ويأتي برهاننا لذلك على النحو التالي:

أولاً، لقد حصلت الأمور التالية بعد عودة موسى لقومه:

- **قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93) قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (95) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا**

لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (97) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (98) طه

1. معاتبة موسى أخيه هرون "قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا".
2. إقدام موسى على ضرب أخيه (قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي".
3. محاورة موسى السامري "قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ".
4. السامري يبصر شيئاً لم يبصره قومه "قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ".
5. السامري يقبض قبضة من أثر الرسول فينبذها "فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا".
6. السامري تسول له نفسه أمرا "وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي".
7. العقاب يقع على السامري "قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ"
8. إحراق العجل "وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا".
9. موسى يوجه الخطاب لقومه "إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا:.

ولنحاول ربط هذه الأحداث مع بعضها ومع ما سبق عودة موسى من أحداث لنثبت إمرين إثنين:
أولهما إنّ موسى قد نسي عصاه، وثانيهما أنّ السامري وجد تلك العصا، فاستفاد منها في إيقاع قوم موسى في الضلالة.

موسى ينسى عصاه

إنّنا ندعي أنّ موسى قد نسي عصاه، أي لم تكن العصا مع موسى لحظة لقاءه مع ربه هذه المرة، ونسوق الأدلة التالية على هذا الادعاء.

أولاً، لم يكن هناك ذكر للعصا في محاورة موسى ربّه هذه المرة، فنحن نعلم أنّ العصا كانت أحد محاور الخطاب بين موسى وربه، فهذا اللقاء الأول عند النار:

- وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10) النمل
- وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31) القصص
- وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18) طه

وهذا الحوار الثاني عند البحر:

وفي الحوار الثاني:

- وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (117) الاعراف

وفي الحوار الثالث:

- فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) الشعراء

وفي الحوار الرابع:

- وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60) البقرة
- وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (160) الأعراف

ولكن في هذا اللقاء الذي واعد فيه موسى ربُه يغيب أي ذكر للعصا، والسؤال الذي نثيره هو: لِمَ غاب ذكر العصا في هذا اللقاء؟ إنّنا ندعي أنّ العصا قد غابت من الحوار لأنها على غير العادة لم تكن موجودة آنذاك مع موسى.

ثانياً، إنّنا نعلم بنص القرآن أنّ موسى عليه السلام كان يستخدم العصا لأغراض عديدة:

- وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18) طه

والسؤال الذي ربما تبادر إلى أذهان الكثيرين هو: ماذا كانت تلك المأرب الأخرى؟ فقد يظن البعض أنّ قول موسى "وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى" قد جاءت من باب اختصار الكلام، أي أنّ موسى كان لا يريد الإسهاب في الكلام في هذا الموضوع، فنقول كلا، لقد كان مراد موسى من ذلك هو التستر على الاستخدام الحقيقي للعصا، إنّنا ندعي أنّ موسى قد أخذه الخجل أمام ربه أنّ يذكر الاستخدام الثالث للعصا، فلقد كان موسى - حسب ظننا - يستخدم العصا لحظة غضبه ضد خصمه، فهو قد استخدمها عندما أردى الذي كان من عدوه قتيلا:

- وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (15) القصص

فنحن نظن أنّ معنى "وكزه" إي ضربه بعصاه، ولكنّ موسى خجل أنّ يذكر صراحة أمام ربه ذلك الاستخدام للعصا لأنّه علم بخطأ فعلته، فما كان موسى ليصر على خطأه أمام ربه، فهو يحاول خجلا أنْ يتستر ولو من باب المقر بذنبه أنْ يذكرها صراحة، وهو كذلك لا يستطيع أنْ لا يذكرها إطلاقاً لانّه يعلم أنّ الله بكل شيء عليم، فكيف به أنْ يخفى عن الله ما الله أعلم به من موسى نفسه؟! فخلاصة القول أنّ موسى كان عليه أنْ يذكر كل استخدامات العصا، فذكر أنّه يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه وهو كذلك يستخدمها لضرب خصمه لحظة الغضب، ولكن لأنه كان قد أخطأ مرة في استخدام العصا خجل أمام ربه أنْ يذكرها صراحة، فاستخدم كلاما عاماً ليغطي على السبب الحقيقي، وقد يتساءل البعض وما علاقة استخدامات العصا بنسيان العصا؟

نقول أنّ موسى قد عاد إلى قومه "غضبان أسفا" وكان أول ما فعله كعادة موسى عند الغضب هو أنْ يسبقه غضبه فيبادر المغضوب منه بعصاه، ونحن نعلم أنّ المغضوب منه هذه المرة هو أخيه هارون، فما الذي كان من موسى عندها؟ لقد بادر موسى أخيه بالعراك:

- وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الألْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (150) الأعراف
- قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94) طه

والسؤال البسيط الذي نجهد للوصول إليه هو: لِمَ استخدم موسى يداه هذه المرة في العراك ولَمْ يستخدم العصا وهي التي لا تفارقه وخصوصاً لحظة غضبه؟ إنّنا ندعي أنّ موسى لم يستخدم العصا لضرب أخيه في لحظة الغضب تلك لأنّ العصا لم تكن معه آنذاك، فلو كانت العصا بيد موسى في تلك اللحظة لبادر أخيه بها (أو على الأقل لهمّ باستخدامها).

ثالثاً، أما الدليل الأكبر الذي نسوقه على أنّ موسى كان قد نسي عصاه لحظة لقاه ربه هذه المرة هو أنّ أول ما فعل موسى لحظة عودته إلى قومه ووجدهم يعبدون العجل أنّه وبنص القرآن قد ألقى ما كان يحمل:

- "... وَأَلْقَى الألْوَاحَ... "(150) الأعراف

وهنا لابد من الإشارة أننا نخالف من سبقنا القول أنّ موسى ألقى الألواح على الأرض لحظة غضبه فانكسرت، فنرد بالقول أنّ "ألقى" هنا لا تعني أكثر من "وضعها على الأرض وبدون عنف، فهاهي أم موسى بنص القرآن تلقي موسى في البحر فهل يعني ذلك أنها رمته بالبحر بعنف:

- وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7) القصص

وتتجلى الدقة القرآنية باختيار الكلمات عندما كتب الله لموسى الألواح:

- وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (145) الأعراف

فكما نرى فإن الله يطلب من موسى أن يأخذ الألواح "فيأخذها موسى كاملة غير منقوصة، ولنمعن النظر كذلك بما حدث لحظة أنْ سكت عن موسى الغضب:

- وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (154) الأعراف

فنرى أنّ موسى قد أخذ الألواح، وبدلالة "الـ" التعريف كاملة غير منقوصة. فصحيح أنّ موسى قد عاد غضبان ولكنه كذلك عاد أسفاً، فهو غضبان لما فعل السامري ولكنه أسفاً على ما بدر منه هو، فما يكون منه أنْ يرمي على الأرض عطاء ربه بطريقة لا تنم عن احترام منعمها أو احترام ما فيها.

إنّ ذلك يعني أنّ موسى قد ألقى ما كان يحمل بيديه "وهي الألواح"، ولم يكن هناك ذكر للعصا، فأين ذهبت عصا موسى؟ فهو إذاً لم يلقها على الأرض مع الألواح، وقد يظن البعض أنّ العصا كانت بيده الأخرى، أي الألواح بيد والعصا باليد الأخرى، نقول كلا، لانّ موسى عندما ألقى الألواح أخذ برأس أخيه يجره إليه:

- .... وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ.... (150) الأعراف

فكلتا يديه كانتا تجر رأس أخيه ولم يرد ذكر للعصا، وقد يرد البعض أنّ موسى ربما كان (بعد أنْ ألقى الألواح) يجر رأس أخيه بيد ويمسك العصا باليد الأخرى، فنقول أنّ ذلك غير ممكن أيضا، ولنرى رد هرون على عراك موسى:

- قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي... (94) طه

وهذا يعني بما لا يدع مجالاً للتأويل أنّ موسى قد استخدم كلتا يديه في جر أخيه، ولنتصور المشهد على النحو التالي: موسى يلقي ما كان يحمل من الألواح (ولم يذكر القرآن أنّه ألقى معها العصا)، ويمسك رأس أخيه بيد ولحية أخيه باليد الأخرى (ولم يذكر أنّه استخدم العصا في العراك)، وإنْ صح هذا الخيال، فإننا نعتقد جازمين أنّ من حقنا أنْ نسأل أين ذهبت عصا موسى التي كانت على الدوام تلازمه كظله؟ إنّنا ندعي أنّ موسى قد نسي عصاه نتيجة عجلته للقاء ربه. وما أجمل التصوير القرآني الذي يثبت حصول النسيان عند موسى:

- فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (88) طه

والسؤال البسيط الذي تثيره هذه الآية الجميلة هو: لماذا وردت كلمة " فَنَسِيَ" في آخر هذه الآية الكريمة؟ فمن الذي نسي هنا وماذا نسى؟ إنّنا ندعي أنّ النقاش السابق يوصلنا إلى النتيجة التالية: إنّ الذي نسى هو موسى وأنّ الذي نساه موسى هي العصا.

السامري يلتقط عصا موسى

ويأتي السؤال الأهم على النحو التالي: أين ذهبت عصا موسى إذاً؟ فهذا السؤال ينقلنا إلى الأمر الآخر الذي نود أنْ نثبته وهو أنّ عصا موسى قد وقعت بيد السامري، فاستخدمها في الإيقاع بقوم موسى، وسنورد الأدلة على صحة هذا الاعتقاد.

إنّنا نعلم أنّ القرآن الكريم يثبت أنّ قوم موسى كانوا على أثر نبيهم، أي كانوا يلحقونه حيث كان يمضي:

- وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83) قَالَ هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (84) طه

ونستطيع أنْ نستنتج كذلك أنّ القوم كانت حركتهم بطيئة لانّهم كانوا يحملون من المتاع (أوزاراً) ما كان يعيق سرعة الحركة التي كان موسى بحاجة لها ليشبع رغبته في لقاء ربه:

- قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87) طه

والآية تثبت كذلك أنّهم كانوا يحملون الغالي النفيس، وذلك مثبت بقولهم "من زينة القوم"، فما كان من موسى أنْ يمشي على إيقاع حركتهم، بل تركهم مشغولين بمتاعهم الثمين، وأسرع هو للقاء ربه، ومن الطبيعي أنّ الذي يحمل متاعه على ظهره في سفره لابد له من أخذ قسط من الراحة بين الحين والآخر، وهذا بالضبط ما كان من قوم موسى لما غلبهم التعب، فما كان منهم إلاّ أنْ يلقوها عن ظهورهم لنيل قسط من الراحة:

- ... وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا... (87) طه

وقد يظن البعض أنّ معنى قذفناها "أي تخلصنا منها"، فنرد قائلين أنّ ذلك غير ممكن، فنحن نفهم "قذفناها" على أنّها لا تعني سوى "وضعناها عن ظهورنا لفترة قصيرة"، وهنا لقصد الراحة التي يحتاجها المسافر عند غلبة التعب، ودليلنا على هذا المعنى يأتي من مكان آخر من القرآن الكريم، ذلك الموقف الذي يوحي الله سبحانه فيه إلى أم موسى ما تفعله عندما وضعت موسى:

- إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (38) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (39) طه

ولا يمكن أن يكون معنى اقذفيه "أي تخلصي منه"، فكيف يطلب الله من أم موسى أنْ تتخلص من طفلها؟ وإذا كان كذلك فكيف ترضى هي أنْ تتخلص من وليدها؟! إنّ ما طلبه الله من أم موسى وما فهمته هي من الطلب هو المعنى الذي قدمناه هنا وهو "ضعيه في هذا المكان لفترة قصيرة" وذلك لأنه لا محالة عائد إليك بعد وقت قليل. وهذا بالضبط ما حصل:

- وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7) القصص
- إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ... (40) طه

ونعود إذاً القول أنّ قوم موسى قد وضعوا ما كانوا يحملوا من أوزار لفترة قصيرة بقصد الراحة، ونقول كذلك أنّ كلمة "اقذفيه" تفيد كذلك "التداخل"، فأم موسى تقذف وليدها في التابوت وتقذف التابوت في الماء، وهذا يعني أنْ يتداخل المقذوف مع المقذوف فيه، وربنا كذلك يقول:

- بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (18) الأنبياء

وهذا يعني أنّ القوم قد ألقوا ما كانوا يحملون من أوزار على الأرض بقصد الراحة فتداخلت مع بعضها، وهم سيكملوا بعدها مسيرتهم للحاق نبيهم الذي سبقهم شغفاً للقاء ربه، وهم حتى اللحظة يبذلوا قصارى جهدهم في المسير وهذا مثبت بقولهم:

- قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87) طه

وهذا يعني أنّنا قد بذلنا ما استطعنا من جهد (بملكنا)، ولكن كان سبب التأخير ذلك الحمل الذي على ظهورنا الذي حصل وألقيناه على الأرض بقصد الراحة وعندها حصل ما حصل من أمر السامري. ولكن ما الذي حصل بعدئذ؟ لقد طلب موسى نفسه عند عودته (وبعدما فرغ من محاسبة أخيه هارون) تفسيراً من السامري عن الذي حصل:

- قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (95) طه

فجاء رد السامري على النحو التالي:

- قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96) طه

ولنمعن النظر في هذه الكلمات، لنطرح بعض الأسئلة التي قد تقودنا إلى ما نبغي:

ما الشيء الذي أبصره السامري؟ ما الشيء الذي لم يبصروا هم به؟ ومن هم الذين لم يبصروا ما أبصره السامري؟ وأين أبصر السامري ما لم يبصره غيره؟

نقول ليس هناك أدنى شك بأنّ السامري قد أبصر شيئاً لم يبصره غيره، وقد ظنّ البعض أنّ "بصرت" هنا تعني "علمت أو وظننت أو خلت أو اعتقدت أو ما شابه"، فنقول أنّ ذلك غير صحيح، فبصرت لا تعني أكثر من "رأيت بأم عيني"، فقد ورد الإبصار في القرآن في أكثر من موقع نذكر منها على سبيل المثال:

- وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (179) الأعراف
- أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُواْ شُرَكَاءكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ (195) الأعراف
- وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (66) يس
- وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُواْ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ (198) الأعراف
- أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاء إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (27) السجدة

نستنتج إذاً أنّ السامري قد أبصر بأم عينه ما لم يبصره غيره، والسؤال التالي هو: أين أبصر السامري ذاك الشيء؟ نقول أنّ القصة برمتها قد حصلت بعد إغراق قوم فرعون، وعبور موسى مع قومه البحر، وهذا يعني أنّ ضمير الجمع الوارد في الآيات هذه لا يمكن أنْ يعود إلاّ على قوم موسى الذين تركهم موسى خلفه:

- قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96) طه

ومراد الآية إذاً يصبح على النحو التالي: أنّ السامري قد رأى بأم عينه ما لم يره قوم موسى، ونحن نعلم أنّ الذي يرى شيئاً لا يراه غيره ويدرك قيمة ذلك الشيء يحاول إخفاءه عن الأخرين ليستفيد هو منه. ويبقى السؤال قائماً إين أبصر السامري ذاك الشيء؟ نقول أننا أوضحنا سابقاً أن قوم موسى كانوا يحملون الغالي النفيس "من زينة القوم" فما كانوا يحملوا إلا ما كان غالي القيمة، فهم كانوا خارجين من مصر فارين بدينهم وأنفسهم من فرعون وعسكره، ولا يمكن أنْ يحمل الشخص في مثل هذا الموقف إلاّ ما خف وزنه وزادت قيمته، وقلنا كذلك أنّ الذي حصل هو عندما غلبهم التعب ألقوا على الأرض ما كانوا يحملوا من متاع، ولنتصور الآن الموقف على النحو التالي: القوم يتوقفوا عن المسير بقصد الراحة بعد أنْ كدّوا في المسير للحاق نبيهم، يضعوا في مكان ما كانوا يحملوا دفعة واحدة، فتتداخل الأوزار مع بعضها، فتتهيأ الفرصة أنْ يرى القوم متاع بعضهم بعضا، وهنا فقط يرى السامري ذاك الشيء الثمين الذي جذب انتباهه على الفور. وكما قلنا سابقاً من يرى شيئاً ثميناً يحاول إخفاءه عمن سواه، وهذا يفسر تلازم قذف القوم متاعهم (أوزارهم) وإلقاء السامري.

- **قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87) طه**

ولكنّ السؤال الذي يجب أنْ يثار هو: ماذا كان ذلك الشيء؟ وتأتي تكملة الآية الكريمة لتجيب على هذا التساؤل بشكل لا لبس فيه:

- **قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96) طه**

ألا يعني ذلك أنّ ما قبضة السامري كان شيئاً من أثر الرسول؟ والسؤال الذي ربما توصّل إلى جوابه القارئ بنفسه: من الرسول الذي قبض السامري شيئاً من أثره؟

القارئ مدعو هنا لمراجعة أمهات كتب التفسير مثل ابن كثير والجلالين والطبري والقرطبي ليرى كيف يختلف هذا الطرح عن ما قدمه الأوائل.

لعلنا جميعاً نجزم أنّه ليس شيئاً من أثر هارون وذلك لأنّ هارون كان بين ظهرانيهم، فالأثر لابد أنْ يكون لشخص غائب، فمن الرسول الذي كان غائباً أنداك عن السامري ومن معه؟ وهل هناك سوى موسى؟

فقد يظن البعض (كما درج عليه الفكر الإسلامي منذ القدم) أنّ المقصود بالرسول هنا هو ليس موسى، فنرد عليهم قائلين أنّنا ربما بحاجة أنْ نمعن النظر بالآيات القرآنية التالية، وبعدها قد نستطيع أنْ نحسم جميعاً هذا الأمر:

- **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46) الزخرف**
- **وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (17) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (18) وَأَنْ لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (19) الدخان**
- **فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16) الشعراء**

وحتى تستيقن عزيزي القارئ أنّ المقصود هنا بالرسول الكريم الذي جاء فرعون وقومه بالسلطان هو موسى على وجه الخصوص (وليس هارون مثلاً) فإنك بحاجة أنْ تربط الآية السابقة بالآيات التالية

- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (96) هود
- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (23) غافر
- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (5) إبراهيم
- فَلَمَّا جَاءهُم مُّوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (36) القصص
- وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (39) العنكبوت
- وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (104) حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (105) الأعراف

ولنقرأ الآية التالية من سورة الدخان لنستيقن أنّ الرسول هو موسى بعينه:

- وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (17) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (18) وَأَنْ لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (19) الدخان

فمن غير المفهوم أنْ نقر- ودونما أدنى مساءلة- أنّ الرسول المقصود في هذه الآيات هو موسى بعينه، بينما لا نقر أنّ الرسول الذي قبض السامري شيئاً من أثره هو رسول آخر، فهل هذا هو المقصود بقوله تعالى:

- ... لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ... (64) يونس

ونعود إذاً القول لقد قبض السامري شيئاً من أثر موسى على وجه الخصوص. ويأتي السؤال الآن على النحو التالي: وماذا كان يملك موسى حتى يتركه خلفه كأثر؟ إنّنا نعلم علم اليقين أنّ موسى ما كان يملك إلا يده وعصاه:

- وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18) طه
- وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (22) طه
- قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (106) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (107) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ (108) الأعراف

فهذا ما كان يملك موسى (عصاه ويده)، ونحن نجزم أنّ موسى لا يمكن أنْ يكون قد ترك يده خلفه، فذاك غير ممكن، فقد عاد من لقاءه مع ربه يحمل الألواح. ولا يبقى إذاً سوى عصاه، وهذا بالضبط ما نبغي التوصل إليه: موسى يترك العصا كأثر خلفه بسبب عجلته فيبصر بها السامري عندما أضطر القوم إلى التوقف عن المسير لبعض الوقت، فيلتقطها ليستغلها بطريقته، ولنستعرض الدليل الأكبر على أنّ عصا موسى قد

وقعت بيد السامري، وذلك بسرد التساؤل المثير التالي: فقد يتسرع البعض ليقول لِمَ لا يكون الأثر هو أهل موسى، مثلاً؟

- فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29) القصص

فنرد على هذا الافتراض بالتساؤل المثير التالي: ماذا فعل السامري بالعصا؟ أو بكلمات أدق ماذا فعلت العصا للسامري؟

إنّنا نعلم أنّه -وبنص القرآن- عندما أبصر السامري ما لم يبصره غيره، يعترف هو بنفسه بما يلي:

- قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96) طه

وهذا يعني أنّ السامري قد أمسك ذلك الأثر بيده، فالقبضة هي ما تستطيع أنْ تمسكه بيمينك، فهل يعقل أنْ يقبض السامري أهل موسى بيده؟! وإنْ كان كذلك فهل السامري فقط من أبصر بأهل موسى دون القوم جميعاً؟ إنّ ذلك أبعد ما يمكن عن الحقيقة؟ ونلخص ما سبق على النحو التالي: لا يذكر القرآن الكريم من ممتلكات موسى إلاّ ثلاثة أشياء: عصاه ويده وأهله، فما الذي يمكن أنْ يتركه موسى كأثر خلفه ليقبضه السامري بيده: إنّه العصا لا محالة.

ولنرى ماذا فعل السامري عندما قبض "شيئاً" من أثر الرسول، ولنمعن النظر بالآية نفسها مرة أخرى:

- قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96) طه

ولعل القارئ بقراءته للآية الكريمة قد وصل إلى ذروة الدليل الذي نقدمه لنثبت أنّ عصا موسى قد وقعت بيد السامري، وهو الإجابة على تساؤل بسيط: ماذا فعل السامري بتلك القبضة من أثر الرسول؟ والجواب بنص القرآن هو كما يسرده السامري:

- ...فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا... (96) طه

والنبذ هو أنْ تأخذ شيئاً معين على وجه الخصوص من بين المجموعة، وتضعه في مكان ما قد لا يصل إليه الأخرون، فعندما نقول أنّ فلاناً منبوذ فهذا يعني بالضرورة أنّه مأخوذ من بين المجموعة ليكون في مكان ما وحيدا، قال تعالى:

- أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ(100) البقرة
- فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاء وَهُوَ سَقِيمٌ (145) الصافات
- لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاء وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) القلم
- فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40) القصص

- كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (4) الهمزة

فالسامري يقول إذاً أنّه قد استخرج شيئاً واحداً على وجه الخصوص من بين الكومة "أوزار القوم التي ألقوها على الأرض".

أما الجواب على السؤال نفسه (ماذا فعل السامري بتلك القبضة من أثر الرسول) كما يرويه قوم موسى لنبيهم بعد عودته من لقاءه مع ربه فهو:

- قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87) طه

فقوم موسى إذاً يعترفوا صراحة لموسى ما كان يفعل السامري لهم في غيابه وعلى وجه الخصوص بعد أنْ القوا أوزارهم التي كانوا يحملونها: وهو "الإلقاء"، ولعلنا جميعاً ندرك ما تعني تلك الكلمة في سياق الحديث عن قصة موسى مع ربه، وقصته مع فرعون وآله، وقصته مع قومه:

- قَالُواْ يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (115) الأعراف
- قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (116) الأعراف
- وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (117) الأعراف
- وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10) النمل
- وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31) النمل
- قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20) طه

نستنتج إذاً أنّ السامري قبض العصا بيمينه كما كان يفعل موسى، وفعل بالعصا ما كان موسى يفعله، وهنا قد ينبري البعض ليتساءل: وماذا كان موسى يفعل بالعصا؟ فنقول ألم يكن يلقيها ليري القوم الآيات التي تبين صدق رسالته، "فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ"، أي لقد فعل السامري بالعصا ما كان يفعل موسى للقوم. ولعلنا الآن ندرك أنّ السامري عندما رأى تلك العصا بين أوزار القوم، وقعت في نفسه الريبة والشك، فأراد أنْ يتيقن من ما كان قد شاهده من أمر موسى يوم الزينة، وهذه الريبة التي وقعت في نفس السامري مثبتة بنص القرآن:

- قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96) طه

فقد سولت نفس السامري له بالسوء: فأخذ وقتاً يخطط لتنفيذ مآربه، فهذه العبارة "سولت لي نفسي" توحي لنا بالمعاني التالية:

1. أنّ الأمر تم خفية عن القوم – فما تحدث النفس صاحبها لا يطلع عليه غيره من البشر.
2. أنّ الأمر احتاج إلى تخطيط – فما تحدث به النفس صاحبها يحتاج إلى تقليب وتمحيص.

3. أنّ الأمر قصد منه السوء – فلا تسول النفس لصاحبها إلا سوءاً:

- وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (53) يوسف

والدليل الذي نسوقه على أنّ هذه العبارة تحمل كل هذه المعاني مجتمعة تلك الآية الكريمة التي جاءت على لسان يعقوب عندما أقدم إخوة يوسف على فعلتهم مع أخيهم:

- وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (18) يوسف
- قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (83) يوسف

فأخوة يوسف "سولت لهم أنفسهم أمرا"، وقال السامري بملء فيه " وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي، ونحن نعرف أنّ إخوة يوسف حدثتهم أنفسهم بالسوء، فخططوا له، وفعلوا فعلتهم النكراء التي فعلوا، وهذا ما كان من شأن السامري: حاك الأمر في نفسه بالسوء فخطط له وفعل فعلته النكراء التي فعل.

ولعل هذا الفهم للآيات الكريمات التي تتحدث عن قصة السامري تحل أيضاً لغزاً آخر يخص جنسية السامري. فنحن نعلم الآن أنّ السامري لحظة أنْ أمسك الأثر بيده "سولت له نفسه، فما كان منه إلاّ أنْ يلقي، ونحن نعرف كذلك أنّ "الإلقاء" هنا هو صنعة السحرة آنذاك، أليس كذلك؟ فهذا يعني بالضرورة أنّ السامري قد حدثته نفسه بالسحر، فهو إذاً على دراية بالسحر وفنونه، فضعفت نفسه فعاد إلى سابق عهده، وكما يقال بالمثل الشعبي "عادت حليمة لعادتها القديمة" أي أنّ السامري ما حدثته نفسه بالسحر إلا لأنّه هو بالأصل كان ساحراً قبل أنْ يتبع موسى، ولِنُذَكّر القارئ الكريم بيوم الزينة، فماذا فعل فرعون في ذلك اليوم؟ ألم يحشر السحرة من المدائن ليتحدى ما جاء به موسى؟

- قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ (111) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (112) الأعراف
- قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (36) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (37) الشعراء
- فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (53) الشعراء

إنّنا نفهم القصة على النحو التالي: فرعون يرسل في المدائن طالباً العون على موسى، فيلبي السحرة نداء "ربهم" ظانين أنّهم لا محالة الغالبين والفائزين بالجائزة، فيأتوا من جميع المناطق والأمصار، فمنهم الإسكندراني (نسبة إلى مسقط رأسه الذي جاء منه) وكذلك الدمياطي والخليلي والشامي والأردني ومنهم كذلك السامري (نسبة إلى موطنه الأصلي)، فالسامري إذاً ليس من قوم موسى، (فقوم موسى كانوا مستضعفين في أرض مصر) بل هو أحد السحرة الذين خروا سجداً لحظة أنْ راوا العجب العجاب من أمر عصا موسى:

- وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (120) الأعراف
- فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (70) طه
- فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (46) الشعراء

ولكن السامري يوم أنْ رءا تلك العصا بين أوزار القوم طارت إلى رأسه الفكرة بأنّ تلك العصا هي التي قهرتهم يوم الزينة، وها هي الفرصة تلوح له ليتأكد مما راء في ذلك اليوم، فيقبضها ويلقها، ولنتذكر أنّ السامري ما كان لينسى ما طلبه بنو إسرائيل من نبيهم يوم أنْ جاوزوا البحر:

- **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138) الأعراف**

فيخرج بها لهم ذلك العجل الذي له خوار، وهنا تتهاوى أمام القوم تلك الآيات التي قدمها لهم موسى يوم الزينة، فهذا شخص آخر يستطيع أنْ يقدم لهم من الآيات ما يشهدوا هم بأنفسهم على أنّه إله:

- **فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى ... (88) طه**

وهنا ما كان من قوم موسى إلاّ أنْ تفتر عزيمتهم وينتفي السبب الذي من أجله كدّوا قبل الآن للحاق نبيهم، فينبري منهم من يقول لمن تبقى من المؤمنين بصدق رسالة موسى (ولا أخال أنّ أحداً بقي يؤمن بما جاء به موسى سوى هارون وقلة قليلة من بني إسرائيل):

- **قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (91) طه**

ولهذا عندما تعجب موسى من أمر أخيه هارون بعدم اللحاق به، جاء رد هارون عليه السلام:

- **... إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94) طه**

ففرقت تعني "قسمت بني إسرائيل فريقين": قسم يمكث مع السامري وقسم يصاحب موسى ليتبعوا صاحبهم موسى، فكانت حكمة هارون انتظار قول موسى لعلمه بقدرة موسى على قهر وفضح أمر السامري.

فهم الآن بحاجة إلى تبرير من موسى لما استطاع السامري أنْ يفعله لهم، فلسان حالهم يقول أنّنا صدقنا رسالة موسى لأنّه قدمّ لنا الدليل العملي على صدقها، فما من أحد كان يستطيع تقديم الآيات البينة كما فعل موسى، ولكنّ الأمر الآن قد اختلف، فها هو السامري يقدم لهم الآيات البينة، والحالة كذلك فهم الآن بحاجة إلى القول الفصل فيما فعل السامري وما كان يفعل موسى من قبل، والحلّ بالنسبة لهم هو أنْ لا يتابعوا مسيرهم للحاق نبيهم بل ينتظروه حتى يعود هو إليهم، فلِمَ يبذلوا جهداً إضافيا ما دام أنّ الأمر لم يعد يستحق بذل الجهد من أجله؟ أليس هذا ديدن بني إسرائيل؟ فهل نسينا ما قالوا لموسى عندما طلب منهم أنْ يدخلوا الأرض المقدسة:

- **قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (24) المائدة**

وتتجلى الدقة القرآنية عند عودة موسى، فيبين ضعف السامري الآن وينتصر موسى لدينه، فيحرق العجل الذي قدمه لهم السامري:

- قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (97) طه

وهنا ينبري أصحاب التفكير البسيط من أمثالي لطرح بعض الأسئلة:

لماذا تهاوت قدرة السامري أمام موسى؟ أي لِمَ لَمْ يستطع تقديم المزيد من الآيات؟ ولِمَ لم يظهر أدنى علامة تحدي بوجود موسى بينما كان يصول ويجول في غيابه وحتى رغماً عن هارون نفسه؟ ولِمَ أحرق موسى العجل؟ ولِمَ لَمْ يحرق تلك القبضة التي قبضها السامري من أثر الرسول؟

والجواب على الأسئلة السابقة جميعها يتلخص بكلمة واحدة هي "العصا". فالسامري تهاوت قدرته لأنّه لم يعد يملك العصا، فهو بنص القرآن يقول " فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ"، ولنمعن النظر بكلمات هذه الآية الجميلة، فلِمَ يقول فَقَبَضْتُ قَبْضَةً؟ لِمَ لَمْ يقل "قبضت من أثر الرسول" وحسب؟ أي لِمَ استخدم كلمة "قَبْضَةً"؟ لعلنا نتفق جميعاً أنّ صيغة " قَبْضَةً" تدل في العربية على الهيئة والمرة، وبكأن السامري إذاً يقول "قبضت ذلك الأثر بيدي ولمرة واحدة"، فما تهيأت للسامري الفرصة أنْ يقبض من أثر الرسول أكثر من مرة، فهو لم يعد يملك ما يمكّنه من تحقيق مآربه بيده.

وهذا رد قوي على من اعتقد أنّ السامري قد قبض شيئاً من أثر جبريل، لأنّ ذلك يعني بالضرورة أنّ السامري سيستطيع تقديم المزيد من الآيات حتى بوجود موسى، ولكن اعتقادنا أنّ الأثر كان من أثر موسى نفسه يحل الإشكالية، فالعصا الآن بيد موسى والسامري لم يعد يملك السلطان الذي يمكنه من تقديم المزيد من الآيات، وبهذا تهاوت قدرته بوجود صاحب العصا.

وموسى أحرق العجل ولم يكن ليحرق ما أمره الله أنْ يحافظ عليها وهي العصا:

- قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (21) طه

خلاصة: إنّ الفكرة الرئيسية التي جهدنا للوصول إليها هي أنّ السامري بامتلاكه عصا موسى استطاع تنفيذ مآربه بيده ودون الرجوع إلى أحد، وهذا يعني بالضرورة أنّ من يملك السلطان يستطيع استخدامه لتحقيق أغراضه بغض النظر عن عقيدته، فموسى والسامري هم على طرفي نقيض فيما يخص الوازع الإيماني إلاّ أنهم باستخدام السلطان نفسه استطاعا تقديم الآيات التي كانت سبباً في هداية أو سبباً في ضلال بني إسرائيل. إنّنا نسعى لنثبت أنّ من يملك السلطان لا يحتاج إلى الفطرة أو إلى الحكمة لتحقيق أغراضه وأهدافه. فهذه طرق ثلاثة مختلفة تصب جميعها في غاية واحدة وهي تحقيق مراد الإنسان على هذه الأرض، ولعلنا جميعاً ندرك أنّ بني البشر وخصوصا غير المؤمن والمشكك قد سعى منذ بدء البشرية إلى تحقيق مراده بهذه الطريقة وهي امتلاك السلطان، ولم يحاول استغلال الطريقتين الأخريين (الحكمة والفطرة) لتحقيق ما يصبو إليه، ومن هنا تأتي دعوتنا للقلب والعقل المؤمن أنْ يبحث عن الحقيقة باستخدام الطرق الثلاثة جميعها (الحكمة والفطرة والسلطان)، فجميعها مثبتة الفاعلية في عقيدتنا، وجميعها متاحة لنا إنْ نحن بحثنا عنها، فنحن لن نعدم الوسيلة في كشفها ما دام أنّ الله سبحانه لم يمنعنا عنها، وسنعيد التأكيد على هذه الفكرة لأهميتها المتناهية في صياغة فكرنا الذي نسعى لتأطيره.

فإذا كان الله سبحانه قد منّ على عيسى بالعلم والحكمة:

- وَلَمَّا جَاء عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (63) الزخرف

فالله اختصنا كذلك بها، لا بل علمنا إياها:

- لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (164) آل عمران
- هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (2) الجمعة

وما دام الله قد منّ على لقمان بالحكمة:

- وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (12) لقمان

فالله سبحانه لم يحرمنا منها:

- يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ (269) البقرة

وما دام الله قد منّ على موسى عليه السلام بالسلطان:

- يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاء فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا (153) النساء
- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (96) هود
- ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (45) المؤمنون
- قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (35) القصص
- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (23) غافر
- وَأَنْ لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (19) الدخان
- وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (38) الذاريات

فالله لم يمنعنا طلبه:

- وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (80) الإسراء

لا بل لقد أمرنا الله بها:

- يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (33) الرحمن

وإذا كان الله سبحانه قد تقبل فطرة رسله وأولياءه الصالحين:

- إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (10) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (11) الكهف

فالله قد طلب منا أنْ نطلب ما طلبوا هم أنفسهم:

- رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (8) آل عمران
- أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ (9) الزمر

فخلاصة القول أنّ الله لم ولن يمنعنا ما كان لغيرنا (وحتى للأنبياء أنفسهم):

- رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (194) آل عمران

أما السؤال الأكبر الذي يتلهف كل مؤمن أنْ يصل إلى إجابة شافية له هو: كيف يمكن التدليل على صحة هذا الاستنتاج بالبرهان العملي؟ نقول أنّنا سنتعرض للإجابة على هذا التساؤل بحول الله ولكن بعد سرد الإطار النظري بمختلف زواياه بصورة أكثر شمولية.

➢ **النوع الثالث: الذي لا يؤمن إلا بالدليل المادي**

لقد بيّنا آنفاً أنّ الطريقة الثالثة لتحقيق المراد تتمثل باستخدام الدليل المادي "السلطان" فقط وعدم الاعتراف بالحكمة أو الفطرة. نقول إن هذه هي طريقة أصحاب الفكر المادي (وخاصة الإلحادي منه) الذي سيطر على الفكر البشري منذ بدء الخلق وحتى يومنا هذا، وأكبر ما يمثل هذا النوع من التفكير هو ما يسمى "بالطريقة العلمية للوصول الى الحقيقة"، وهي تلك التي لا تؤمن إلا بالظواهر ومسبباتها المادية، وهنا نورد ملحظين خطيرين على هذه الطريقة.

أولهما: إن هذه الطريقة مستنده على الفكر الإنساني الذي هو بأصله ضعيف ومشوش، وهي في طلبها معتمدة على ما يسمى بالنظريات، والنظريات بتعريفها العلمي ليست أكثر من رؤية إنسانية للوصول إلى الحقيقة، وما دامت أنها رؤية إنسانية فهي إذا متأثرة بخوالج النفس البشرية وعندها تكون خاضعة "لهوى" الإنسان وميوله وظنه، ولقد كان "هوى" الإنسان سبباً في رفض معظم (إنْ لم يكن جل) ما يسمى بالنظريات العلمية عبر تاريخ الإنسان البشري، فكم من نظرية بشرية وضعت وبان خطأها أو ضَعفها حتى لحضة ولادتها.

ثانيهما: إنّ هذه الطريقة تستند كذلك إلى المشاهدات الكونية التي قد ينتج عنها قوانين قد تصل في نادر الأحوال الى مرحلة الثبات، ولكن هذه القوانين بالرغم من تاريخ البشرية الطويل لا زالت تعد على أصابع

اليد الواحدة، وحتى أنّ بعض تلك القوانين (أو ما قد سمي قوانين في مرحلة ما) قد ثبت خطئها، وجرى عليها التعديل والتغيير ولا داعي لذكر الأمثلة على ذلك لأنّ هذا الأمر بالنسبة للقارئ مفروغ منه.

نستنتج إذاً أنّ الفكر المادي (ممثلاً بالفكر الغربي) يتقبل هاتين الطريقتين (النظريات والقوانين) في التفكير العلمي ويرفض الطريقة الأولى (الحكمة) والطريقة الثانية (الفطرة)، وذلك لأنهما ليستا من أدواته، وليس أكثر دقة على هذا القول من ما أثبته الله تعالى في كتابه الكريم عن أصحاب هذا الفكر المادي البحت في قوله تعالى:

- **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (1) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (2) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (3) وَلَقَدْ جَاءهُم مِّنَ الْأَنبَاء مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (5) القمر**

فهذه الآيات تبين أنّ ضمير الغائب يعود على أولئك الذين يكذبوا آيات الله وما جاءهم من أنباء الرسل والأمم السابقة، فإن أنت حدثتهم عن مقدرة عيسى على إحياء الموتى أو حكمة الخضر في معرفة ما سيكون ظنّوا أنك تتحدث عن أساطير من الزمن الغابر، وإن أنت حدثتهم عن شق القمر بطلب من نبي الله محمد ما زادوا القول أنّ ذلك سحر مستمر (حتى لما حصل ذلك أمام أعينهم)، فهم كما تذكر الآية السابقة فقط يتبعوا أهواءهم (أي النظريات) وكل أمر مستقر (أي القوانين الثابتة)، ولنسرد مثالاً يبين التناقض الجلي بين أصحاب الفكر الإيماني وأصحاب الفكر المادي.

موسى وفرعون

وهنا نتمثل نموذجين متضادين، مثال موسى الذي لا يملك الحكمة، ولكنّه يؤمن بها باتباعه فطرته السليمة التي فطره الله عليها، ومثال فرعون الذي لا يملك الحكمة ولا يؤمن بها ولا يتبع فطرة الله التي فطر الناس عليها، فموسى عليه السلام كان يملك "العصا" "السلطان" التي بها ينفذ المراد بعد الرجوع إلى الله الذي يملك الحكمة، وفرعون كان يملك السحرة الذين يستطيعوا أنْ يسحروا أعين الناس، ولكن الغلبة كانت لموسى ومن معه على فرعون وقومه، وهنا نقول أنّ موسى كان يملك وسيلة حقيقة وفرعون كان يملك وسيلة "سلطان" وهمية، وشتان بين الحقيقي والوهمي، قال تعالى:

- **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء (24) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25) وَمَثلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (26) إبراهيم**

فكلمة الله تعالى هي كلمة حقيقية "ثابتة لا تتغير":

- **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (115) الأنعام**

لها أصل كالشجرة الضارب جذورها في عمق الأرض وفروعها تطاول السماء، أما كلمة سحرة فرعون فهي كلمة خبيثة لا أصل لها، ونحن نرى أنّ السبب في ذلك أنّ الله هو الحكيم (عارف العلاقة بين الجذر

والفرع)، معرفة العلاقة الحقيقية بين الأشياء ومسمياتها، وبالتالي يسير الأمور بتلك المعرفة (الحكمة)، فكان أمره إذاً "كن فيكون"، ولا يمكن أنْ يأتي ذلك إلا:

- الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) هود
- وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6) النمل

فقالت الملائكة مثلاً لما رأوا حكمة الله في تعليم آدم الأسماء:

- قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) البقرة

وقال في حالة إبراهيم:

- ... قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (260) البقرة

وقال في حالة نوح:

- وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) هود

ولكنّ الله صاحب الحكمة المطلقة قد منّ ببعض الحكمة وشيء من علمه على بعض عباده، فقال في حالة عيسى:

- وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (48) آل عمران
- وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ... (110) المائدة
- وَلَمَّا جَاء عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (63) الزخرف

وقال في حالة داوود مثلاً:

- وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (20) ص

وخاطب محمداً بالقول:

- ... وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (113) النساء

وتفضل على آل إبراهيم بها:

- أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (54) النساء

ولم يحرمنا الله هذا الفضل وتلك المنّة:

- هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (2) الجمعة

لا بل وجعل شيئاً من علمه ممكناً للبشر كافة:

- ... مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (255) البقرة

دعاء: اللهم إني أسألك نفاذ مشيئتك لي الإحاطة بشيء من علمك. اللهم علمني ما لم تعلم أحداً من خلقك.

والقارئ مدعو للبحث في الآيات التي يرد فيها ذكر للحكمة ليجد أمراً غايةً في الدقة والروعة مفاده أنّها جميعاً تتحدث عن أمور يصعب على العقل البشري تفسيرها بالدليل المادي (أي باستخدام ما يسمى الطريقة العلمية في البحث)، ولكن العقل الإيماني يتقبلها بكل يسر وسهولة. وسنفرد لهذا الموضوع بابا من البحث لاحقاً.

ففي علم السحرة نجد أنّ العلاقة بين الأشياء ومسمياتها ليست أكثر من إتباع للهوى، لا ترقى إلى معرفة العلاقة الحقيقية بين الشيء واسمه، ونتيجة لذلك سرعان ما تتغير وتتبدل فتضل من يتبعها وليس أدق على هذا المعنى من قول الله تعالى:

- يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاء (27) إبراهيم

فقول الله حق:

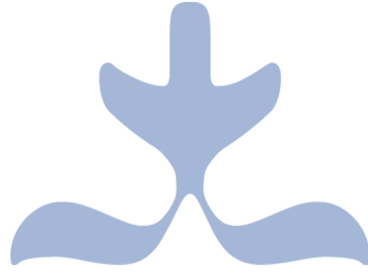
- وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّوَرِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (73) الأنعام

وقولهم ظناً واتباع الهوى:

- إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى (23) النجم

ولعل هدفنا كمؤمنين برسالة ربنا هو بلا شك:

- وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (36) يونس
- وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (28) النجم



الجزء الثاني عشر

باب السامري (2)

أين ذهبت عصا موسى



باب السامري (2): أين ذهبت عصا موسى؟

سألني "أبو أيهم" (أحد المحاربين القدامى في المدرسة التي تلقيت فيها تعليمي الثانوي) قائلاً: إن صحّ كلامك عن عصا موسى، وعن فعلة السامري، فأين هي عصا موسى؟ أين ذهبت تلك العصا؟ لِمَ لمْ يستخدمها السامري أكثر من مرة يوم أن وقعت في يديه؟

فأرد عليه بالظن أن لدي تصوراً عن المكان الذي ذهبت إليه عصا موسى، ولكن الجواب على هذا السؤال يتطلب بعض الاستنباطات من الآيات الكريمة التي تحدثت عن عصا موسى وقصة السامري. ولنبدأ بطرح هذه الاستنباطات لنربطها مع بعضها البعض للخروج بتصور عن ما آلت إليه العصا بعد أن وقعت في يد السامري (كما زعمنا في الأجزاء السابقة).

أما بعد،

ذكر السامري بلسانه أنه قد قبض قبضة من أثر الرسول:

- **قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96) طه**

فالسامري – حسب صريح اللفظ- لم تتح له فرصة استخدام عصا موسى أكثر من مرة وذلك بدليل **"فَقَبَضْتُ قَبْضَةً"**، فكما تدل صيغة على الهيئة فهي تدل كذلك على المرة، وكأنه يقول لقد استخدمت العصا مرة واحدة، ولكن سيرد صاحبنا بالسؤال المعهود وهو: لماذا؟ لماذا لم يستخدم السامري العصا أكثر من مرة في غياب موسى؟ ما الذي منعه أن يفعل ذلك وهي بين يديه؟

إن هذا السؤال يعيدنا إلى أصل الحكاية، وبداية قصة العصا، فنحن بحاجة أن نفهم ماهية تلك العصا التي صاحبت موسى خلال رحلة حياته التي أظهرت ثورته ضد الكفر ممثلاً بفرعون وقومه قبل الخروج من أرض مصر، وقصته مع السامري ونفر من بني إسرائيل (خصوصاً الذين رفضوا دخول القرية) بعد الخروج من أرض مصر.

ما هي العصا؟

لقد ورد أول ذكر صريح للعصا في اللقاء الأول لموسى مع ربه في الواد المقدس، فبعد أن وصل موسى إلى المكان طالباً جذوة من النار أو الهدى:

- **إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (10) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (11) طه**
- **إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7) النمل**
- **فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29) القصص**

ناداه ربه في الواد المقدس قائلاً:

- **فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8) يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9) وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10) النمل**
- **فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (30) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31) القصص**

إنّ المدقق في هذه السياقات يجد أن الخوف الذي وقع في قلب موسى كان نتيجة لما رأى من أمر العصا، لقد اهتزت العصا اهتزازا يشبه اهتزاز الجان "**فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا**"، وقد وصل الخوف بموسى بسبب ذلك المشهد إلى درجة أنه ولىّ منها مدبرا ولم يعقب "**وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ**"، ولدرجة أن موسى لم يرجع إلا بعد أن ناداه ربه مرة أخرى "**يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ**".

لقد هرب موسى عندما رأى ما حصل للعصا، ونحن نعلم أن القرآن يصور نفس المشهد (مشهد اهتزاز العصا) في سياق آخر على أنها حية تسعى:

- **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (18) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (20) طه**

فالسؤال الذي لا مفر منه هو: هل يعقل أن يهرب موسى (وهو المعروف بجرأته وشجاعته) من حية تسعى؟

قد يرد البعض علينا بالقول: لكنها كانت حيّة ليست كباقي الحيّات، لقد كانت تهتزّ كأنها جان.

فنرد بالقول: هل فعلاً تحولت عصا موسى إلى حية (بمعنى الأفعى) الذي نعرف؟ وأين ذهب اهتزازها الذي يشبه اهتزاز الجان في بلاط فرعون يوم أن قدمها موسى كآية لفرعون وملائه؟ ولماذا لم يدب الخوف في قلب فرعون وملائه عندما راءوا تلك العصا تتحول إلى ثعبان مبين؟

إن الجواب على هذا التساؤل يتطلب منا أن نستعرض ما حصل لعصا موسى يوم أن ألقاها في بلاط فرعون وبحضور ملائه:

- **قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (106) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (107) الأعراف**
- **قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (30) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (31) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (32) الشعراء**

وهنا لا نجد تصويراً لفرعون وملائه يهربون من العصا كما كان الحال من موسى في ذلك اللقاء مع ربه:

- **فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (32) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (33) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (34) الشعراء**

هل فعلاً فقدت العصا قوتها وتأثيرها لدرجة أن تكون أول ردة فعل لفرعون هو قوله:

- قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَـٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (34) الشعراء

إن المدقق في السياقات القرآنية يجد أن عصا موسى تحولت في حضرة فرعون إلى ثعبان، ولم يصور القرآن الكريم اهتزازها كاهتزاز الجان في بلاط فرعون كما صورها في اللقاء الأولى عند النار في الواد المقدس، والأهم من ذلك كله بالنسبة لنا هنا هو أن القرآن الكريم لم يصورها على أنها "حية" (بمعنى الأفعى)، بل صورها على أنها "ثعبان"، فالملفت للانتباه هو الاختلاف في اللفظ أو التناوب اللفظي بين مفردة "حيّة" ومفردة "ثعبان". فلماذا تحولت – نحن نسأل- العصا إلى ثعبان (ولم تتحول إلى حيّة تسعى) في بلاط فرعون؟

ما الفرق بين الحية التي تسعى والثعبان؟

وهنا ربما يرد الكثيرون بالقول: وما الفرق؟ أليست الحيّة هي ثعبان والثعبان هو حيّة؟

لقد درج جل الفكر الديني على الاعتقاد بأن الحية هي الثعبان والثعبان هي الحية، ونادراً ما وجدنا تفريقاً في المعنى لهذا التناوب اللفظي، فلقد طغى الاعتقاد الشعبي – في رأينا- الدارج على تفسير النص الديني، فأسقط الناس أفهامهم على مفردات القرآن، وغالباً ما كان ينقص مثل هذه الإسقاطات الدقة في التمييز، فالناس غالباً لا يميزون بين الأفعى والثعبان باستثناء التمييز في الجنس، فظن الكثيرون أن الفرق بين الثعبان والحية هو اختلاف بين المذكر والمؤنث.

ولكن حتى لو سلّمنا بهذا المنطق، فلا مفر لنا من طرح السؤال التالي: لم تغيرت الحية (مؤنث) إلى ثعبان (مذكر)؟ لِمَ لمْ تبقى الحيّة حيّة؟ ولِمَ لم يصور القرآن الكريم اهتزازها في بلاط فرعون كاهتزاز الجان؟ هل فعلاً اهتزت العصا في بلاط فرعون اهتزاز الجان يوم أن ألقاها موسى هناك؟

رأينا: إننا نظن أن هناك فرقاً كبيراً بين الحيّة التي تسعى والثعبان، ولا يمكن اختزال هذا الفرق بالجنس بين الكينونتين.

الدليل: أولاً، لو راقبنا جيداً النص القرآني لوجدنا فرقاً جوهرياً في تصوير المواقف التي تصور تحول العصا في لقاء موسى مع ربه:

- فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (20) طه

وإلقاء موسى العصا في بلاط فرعون:

- فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (107) الأعراف
- فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (32) الشعراء

فالمدقق في الفظ يجد أن لفظة حَيَّةٌ قد تبعتها لفظة تَسْعَىٰ، بينما لحق بلفظة ثُعْبَانٌ لفظة مُبِينٌ، فما الفرق بين الحية التي تسعى والثعبان المبين؟ وبكلمات أكثر دقة فإننا نسأل: لماذا جاءت مفردة تسعى بعد كلمة حية؟ وهل هناك أصلاً حيّة لا تسعى؟

رأينا: إننا نظن أنه لو كانت تلك العصا قد تحولت إلى ذلك الكائن الذي يسمى حيّة (أو ما نعرفه باسم الأفعى المؤنثة)، لـ ربما انتفت الحاجة إلى وجود مفردة تسعى مصاحبة لها، لأن من أبسط خصائص الحيّة أنّها تسعى. فليس هناك حاجة للتأكيد على أنها تسعى بعد أن نعرف أنها حية. فهل هناك حية تركض ركضاً؟ أو حية تقفز قفزاً؟ أو حية تطير طيراً، الخ؟

إن من أبسط خصائص الحية أنها تسعى، لذا فإن هذه المفردة تكون ضرورة عندما نتحدث عن شيء هو في الأصل لا يسعى كحبال السحرة مثلاً:

- قَالَ بَلْ أَلْقُواۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (66) طه

نعم، هنا نحتاج إلى مفردة تسعى مصاحبة للحبال لأننا نعرف أنّ الحبال لا تسعى، فكان التغيير الذي حصل للحبال (بالإضافة إلى أشياء أخرى) يشمل السعي، فأصبحت الحبال تسعى بالضبط كحركة الحية، لذا فإن ضرورة استخدام اللفظ تصبح ملحة عندما يكون هناك أكثر من احتمال ممكن، فتستخدم واحدة من الاحتمالات لتحصر المعنى به على وجه التحديد وفي الوقت ذاته تقصي بقية الاحتمالات الأخرى، فالرجل الذي جاء من أقصى المدينة كان يستطيع أن يأتي بأكثر من طريقة، ولكنه جاء يسعى:

- وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20) القصص
- وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) يس

فالسعي –في رأينا- هو الحركة على الأرض بأكثر من اتجاه كالذي يبحث عن شيء، فالحية تسعى بسبب حركتها على سطح الأرض بسرعة وبأكثر من اتجاه، والرجل الذي جاء يسعى من أقصى المدينة لابد أنه قد بحث عن موسى بأكثر من اتجاه، وكذلك هم الذين يسعون للفساد في الأرض:

- إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (33) المائدة
- وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (38) سبأ

ونحن نعلم أن حركة الحية (الأفعى) على الأرض هي حركة سريعة باتجاهات متعددة، فهي قد تغيّر اتجاهها في أي لحظة، وهذا يعيدنا إلى السؤال الأول: إن كانت الحركة الطبيعية للحية هي أن تسعى، فما الحاجة أن يخبرنا الله بأن تلك الحية كانت تسعى؟

رأينا: إننا نظن أن العصا لم تتحول إلى حية بمعنى الأفعى الذي نعرف، ولكن العصا قد تحولت إلى كائن حي (أي دبت الحياة فيها) فأصبحت تسعى (بالضبط كحركة الأفعى على الأرض). فمفردة حية في هذا السياق القرآن تعني- في ظننا- أنها أصبحت حيّة (من الحياة) وليست أفعى على وجه التحديد.

فلو تحولت العصا إلى حية بمعنى الأفعى لتحولت إلى حيّة في بلاط فرعون، ولكننا نعلم أنها تحولت هناك إلى ثعبان مبين. وعندما ألقاها موسى في يوم الزينة لم تتحول إلى حية أو إلى ثعبان، فالقرآن الكريم لا يذكر هنا أنها تحولت إلى حية أو إلى ثعبان ولكن جلّ ما حصل أنها أخذت (العصا بغض النظر عن ما تحولت إليه) تلقف ما يلقون:

- **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (117) الأعراف**
- **وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (69) طه**
- **فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (45) الشعراء**

فهنا لا نجد النص القرآني يبين لنا أن العصا تحولت إلى حية أو إلى ثعبان أو أنها كانت تهتز كأنها جان.

النتيجة: إننا نظن أن عبارة "حيّة تسعى" لا تعني أنها تحولت إلى أفعى (مؤنث) ولكنها تعني أن الحياة قد دبت بالعصا فأصبحت تسعى.

➢ **تبعات هذا الافتراء**

دعنا نصدق مثل هذا الافتراء الذي من عند أنفسنا لوقت قصير حتى نرى كيف يمكن أن يفيدنا مثل هذا الفهم في تفسير مواقف أخرى كانت العصا جزءاً لا يتجزأ منها.

أولاً، فهذا موسى يستسقي لقومه، فيأتي الرد الإلهي لموسى بأن يضرب الحجر بعصاه (وأظن أنها نفس العصا):

- **وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60) البقرة**
- **وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (160) الأعراف**

وها هو موسى يقف عند البحر وقد كاد فرعون وجنوده أن يدرك موسى وقومه، فيصدّق موسى ظنه بربه، فيأتي الجواب الإلهي على نحو التالي:

- **فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) الشعراء**

ولو دققنا النظر في هذه السياقات القرآنية لربما خلصنا إلى الاعتقاد بأن العصا كانت تدب الحياة في كل ما تصل إليه، فإن ضرب موسى الحجر بعصاه تدفقت الحياة من الحجر، فَانْبَجَسَتْ ثم فَانْفَجَرَتْ منه عيون الماء:

- وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (160) الأعراف
- وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60) البقرة

وإن ضرب بها البحر انفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، وهكذا:

- فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63)

النتيجة: لقد أصبحت تلك العصا حية (أي أصبح فيها حياة) وانتقلت الحياة إلى كل كينونة حلت فيها تلك العصا.

عجل السامري

والآن لنعود متسلحين بمثل هذا الافتراء لنسلط الضوء على عجل السامري من زاوية نظن أنها جديدة. فلقد زعمنا في مقالة السامري الأولى (انظر باب السامري) أن عصا موسى قد وقعت في يد السامري:

- ... فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96) طه

يوم أن نسيها موسى بين أوزار القوم مستعجلاً لقاء رب:

- وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (83) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (84) طه

وقد بصرها السامري ولم يبصرها أحد غيره:

- قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ...(96) طه

فيستغل السامري الموقف باستخدام عصا موسى ليظل قوم موسى من بعده:

- قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85) طه

فيخرج لهم عجلاً جسدا له خوار:

- فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (88) طه

فيتخذه القوم إلهاً:

- وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (148) الأعراف

ويكفوا عن اللحاق بموسى بعد أن عكفوا على ذلك العجل:

- قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (91) الأعراف

كيف أخرج السامري العجل؟

لعلنا لا نختلف في حقيقة أن السامري قد أخرج للقوم العجل في غياب موسى وأن ذلك العجل كان جسداً وكان له خوار، فظن الموجودون بأن هذا هو إلههم وإله موسى:

- فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَـٰذَا إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (88) طه

ولعلنا لا نختلف كذلك أن مادة الصنع التي أخرج منها السامري ذلك العجل كانت حلي القوم:

- وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (148) الأعراف

وهنا لا بد أن نسأل: كيف أخرج لهم ذلك العجل من الحلي؟ وكيف كان ذلك العجل جسداً؟ وكيف كان لذاك العجل خوار؟

رأينا: إننا نظن أن السامري قد أخرج لهم من حلي القوم عجلاً عندما القى عصا موسى في تلك الحلي، فالسامري بعد أن أمسك بالعصا ألقاها في الحلي التي كانت على شكّلها لهم على شكل جسد العجل، وهذا ما قاله القوم لموسى بعد عودته من لقاء ربه:

- قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87) طه

وهنا قد يرد البعض بالقول: لم اختار السامري أن يكون الإله على شكل العجل؟ لم لم يختاره أن يكون على شكل جمل أو ...، الخ؟

رأينا: إننا نظن أن السامري (وبني إسرائيل من بعده) لم ينسوا بعد قصة البقرة التي طلب منهم موسى ذبحها بناء على أمر رباني. فالبقرة والعجل لها قصة عظيمة في اعتقادات بني إسرائيل، وفي الديانات القديمة، فلا أظن أن الأمر بمنأى عن تقديس البوذيين –مثلاً- للبقر كجزء من العقيدة التي يؤمنون بها، ونحن لا نستغرب سبب أن تكون أطول آية في كتاب الله –مثلاً- هي سورة البقرة، ففي ذلك سر عظيم، ولهذا التصور تبعات عظيمة لا نريد الخوض بها في هذه اللحظة، وسنحاول أن نفرد لها مساحة كافية من البحث لاحقاً يوم أن يأذن الله لنا الإحاطة بشيء من علمه.

ولو أمعنا التفكر قليلاً لوجدنا أن السامري قد أخرج لهم عجلاً جسداً ولكنه لم يخرج لهم –حسب ظننا- عجلاً جسماً، وقد حاولنا التميز في مقالة سابقة لنا (لماذا يدفن الناس موتاهم) بين الجسد والجسم، وزعمنا القول بأن الجسد هو الجسم والجسم هو الجسد باستثناء وجود الروح أو عدم وجودها فيه، فمتى

كانت الروح موجودة يكون هناك جسم ومتى لم يكن هناك روح كان ذلك التركيب جسداً.فلقد ورد في كتاب الله لفظتان تصفان البناء الفيزيائي للإنسان وهما: الجسد والجسم، فما الفرق بينهما؟

فالسامري يخرج لقومه جسداً وليس جسماً، لأنه بلا شك لا يستطيع أن يبث الحياة فيه، لذا جاء السياق القرآني ليؤكد هذه الفكرة عندما أكملت الآية على نحو " أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا"

- وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (148) الأعراف
- فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (88) طه

فحتى وإن كان في ذلك الجسد خوار، إلا أن ذلك لم يكن بسب وجود الروح فيه، وإنما حصل الخوار بآلية أخرى لا تنم عن وجود الحياة في ذاك الجسد، وبكلمات بسيطة فإننا نقول أن السيارة التي تصدر صوتاً لا تفعل ذلك بسبب وجود روح فيها، فهي ليست أكثر من "جسد"، وتتأكد الفكرة في قوله تعالى:

- وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (8) الأنبياء

فالأجساد لا تحتاج إلى الطعام ما دامت الروح غير موجودة فيها، وكان ذاك بالضبط ما حصل مع سليمان يوم فتنته:

- وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (34) ص

وبالمقابل فإن جميع السياقات القرآنية التي وردت فيها لفظة الجسم تدل على أن الروح دابة فيها، فها هو طالوت حي يرزق، قوي بعلمه وبجسمه:

- وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (247) البقرة

وها هم المنافقون يتمتعون بأجسام قوية البنية والتركيب لدرجة أنها تعجب الناظر إليها:

- وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (4) المنافقون

فالتركيب الفيزيائي للإنسان يتحول من حالة الجسم (النابض بالحياة) إلى حالة الجسد (الفاقد للحياة) عند الموت، فعندما يكون الإنسان جسماً نابضاً بالحياة، فهو –لا شك- يسر الناظرين ويحتاج إلى الطعام وإلى كل مقومات الحياة، ولكن عندما تغادر الروح ذلك الجسم ينقلب ليصبح جسداً لا يكلم الناس ولا يهديهم ولا يعجب الناظرين،

لذا فالجسم يكون له إرادته لأن الروح موجودة فيه، بينما الجسد لا يكون له إرادته الخاصة فيه لأنه لا روح فيه. ولتبسيط الفكرة ما عليك إلا أن تعقد مقارنة بين طائرة نفاثة وفراشة صغيرة. فالطائرة النفاثة (على

عكس الفراشة الجميلة) ليست أكثر من جسد لا تتحرك بإرادتها متى شاءت وكيفما رغبت. ولو أمعنا التدبر في تكملة جميع السياقات التي تتحدث عن عجل السامري لوجدنا التأكيد الإلهي بأن تلك الكينونة لم يكن لها إرادة خاصة بها:

- فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَـٰذَا إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (88) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (89) طه
- وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (148) الأعراف

ولكن مع ذلك فقد كان لذلك العجل خوار:

- فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ... (88) طه

نعم، لقد دبت الحياة في ذلك العجل (لَهُ خُوَارٌ) ولكنّه بقي بدون روح (لَا يُكَلِّمُهُمْ)، ولكن كيف؟ ما الذي جعل الحياة تدب في ذلك الجسد؟

رأينا: إنها العصا، لقد ألقى السامري العصا في لب ذلك الجسد فدبت الحياة فيه، فظهر لمن حوله أن هذا إله، فانكبوا عليه عاكفين حتى رجع موسى ليكشف بطلان حيلة السامري.

عودة موسى

ذكرنا في المقالة السابقة أن موسى قد عاد غاضباً فتهاوت قدرات السامري وظهر للناس بطلان دعواه، ولكن لا زال هناك إشارات قرآنية تستوجب الوقوف عندها ملياً.

أولاً، قد ذكرنا أن موسى قد عاد يحمل الألواح وما أن وصل حتى ألقاها وأخذ براس أخيه ولحيته يجره إليه، وذكرنا أن العصا قد غابت تماماً عن هذا المشهد التشاجري، فلا نجد أن موسى قد ألقى العصا مع الألواح، ولا نجد أن موسى قد استخدم العصا لضرب أخيه، ونحن نعلم مقدار التسرع عند موسى لحظة الغضب. وليس أدل على ذلك من وكزه الرجل الذي من عدوه عندما استنصره الذي من شيعته، وهمّه بالبطش بالآخر عندما عاد صاحبه يطلب النجدة من موسى على الذي من عدوهما (انظر المقالة السابقة).

فاين يا ترى ذهبت عصا موسى؟

ثانياً، لقد عاد موسى إلى قومه وهو يعلم علم اليقين أن السامري هو سبب البلاء وهو من أضل قومه، فذاك أمر قد أخبره به ربه يوم لقاءه:

- قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85) طه

وقد كان في تلك اللحظة التي عاد فيها إلى قومه يستشيط غضباً:

- فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ... (86) طه

وهنا نجد مفارقة عجيبة يجب أن نتدبرها ملياً وهي على النحو التالي: يتوجه موسى إلى أخية ليعاقبه على أمر يعلم موسى علم اليقين أنها من صنيع غيره:

- **قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93) قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94) طه**

فموسى يلقي بجزء من اللائمة لحظة وصوله على أخيه، ولا يتوقف عند ذلك بل يبادره بالعراك فيأخذ برأس أخيه ولحيته:

- **قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94) طه**

يا للعجب! ما الذي تفعل يا موسى؟ ما دخل هارون في ذلك؟ لم تأخذ برأس أخيك ولحيته؟ لم لا تصرع من تعلم أنه قد أضل قومك؟

ولكن المفرقة الأكثر عجباً كانت تتمثل – في رأينا- بطريقة خطاب موسى مع السامري، فبدل أن يعاقبه (كما فعل مع هارون) وهو يعلم أن السامري هو أساس البلاء (فالله هو من أخبره بالجرم الذي ارتكبه السامري في غياب موسى) يتوجه إليه موسى قائلاً:

- **قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (95) طه**

يا للعجب؟ أهذا كل ما تستطيع أن تقوله للسامري يا موسى؟ ما خطبك يا سامري!

دقق – عزيزي القارئ- بصيغة الخطاب هذه (ما خطبك؟)، أليست هذه صيغة تودد؟ ألا ترى أن موسى يتودد للسامري بدل أن يغلظ عليه بالقول؟ هل نسينا كيف خاطب موسى من وجد عند بئر الماء من النساء في مدين، فشمر عن ساعديه وسقى لهما:

- **وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) القصص**

ولو تدبرنا الخطابين جيداً (خطاب موسى من المرأتين على بئر الماء وخطابه مع السامري) لربما وجدنا أن خطابه مع السامري كان أكثر تودداً من خطابه الأول، فموسى يستخدم كنية الرجل "السامري" في الخطاب، فهو لم يقل له "ما خطبك وكفى" بل قال:

- **قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (95) طه**

وهذه صيغة لا شك فيه شيء من التودد، وهنا نجد لزاماً أن نسأل: لم لم يغلظ موسى القول للسامري؟ ولم خاطبه بصيغة لا تخلو من التودد وهو يعلم علم اليقين أن السامري هو سبب البلاء؟

رأينا: إننا نظن أن هناك – على الأقل- سببين لخطاب موسى هذا مع السامري بهذه الطريقة:

1. يعلم موسى أنه هو من نسي العصا (لذا فإن قسطاً كبيراً من اللوم يقع عليه)، فلقد ذكره هارون بأن الفرقة قد حصلت بين بني إسرائيل، لذا رجع موسى إلى نفسه ليحملها قسطاً من المسؤولية.
2. يعلم موسى ما يملك السامري (فالسامري يعلم سراً خطيراً، ولديه قدرة هائلة يعلم موسى حجمها- إنها العصا)، فلا أظن أن السامري (أو غيره) يستطيع أن يقف في وجه موسى لشدته وبطشه، لو كانت الظروف طبيعية والجو غير مشحون بالأسرار التي لا يريدها أن تتكشف، ولكن الأمر الآن تجاوز العراك الجسمي والقوة البدنية – إنها تلك القوة الرهيبة الكامنة في العصا، فمن يملكها يستطيع أن يقوم بامور يعجز الآخرون عند إدراك كينونتها.

والحالة هذه كان لزاماً على موسى أن يتأنى ليستطلع خبر العصا، ولا أظن أن موسى تنقصه الفطنة ليدرك ما يملك السامري الآن مباشرة بعد رده الأول، فها هو السامري يرد على خطاب موسى التوددي بالقول:

- **قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96) طه**

وهنا تعود القوة والحزم إلى نبرة صوت موسى من جديد بعد أن كانت خافتة في خطابه الأول مع السامري، فيرد موسى بالقول:

- **قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ ۖ وَانْظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (97) طه**

لعل القارئ العادي يدرك الاختلاف في نغمة الصوت (intonation) في كلام موسى، فالكلام هنا لا يخلو من الوعيد والتهديد، بعد أن كان التودد والحيرة ظاهره في بداية الحوار مع السامري، ويبرز السؤال هنا عن السبب في ذلك، لماذا تغيرت لهجة خطاب موسى مع السامري إلى الحزم والشدة **"فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ"** بعد أن بدأت بشيء من التودد **"فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ"**؟

رأينا: لقد أدرك موسى على الفور أن السامري لا يملك العصا الآن، فالسامري يقول لموسى بملء فيه أنه قد قبض قبضة من أثر الرسول، عندها فهم موسى – نحن نزعم- أن السامري قد استخدم العصا مرة واحدة، وكان ذلك فيما سبق وهو الآن لا يملكها. عندها عادت الشدة المعهودة إلى خطاب موسى، وكان أول ما فعل بعد ذلك أن قال:

- **قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ ۖ وَانْظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (97) طه**

فيعمد إلى حرق ذلك العجل الذي أخرجه السامري.

أين ذهبت العصا؟

وهنا يطرح التساؤل الذي بدأنا منه مقالتنا هذه نفسه مرة أخرى: أين ذهبت عصا موسى؟

أولاً، لا بد من التأكيد على أنه بعد تفقد جميع السياقات القرآنية التي تتعلق بموسى، لم نجد ذكراً ولا استخداماً للعصا بعد حادثة السامري هذا. (ولو وجد أحدكم شيئاً من هذا القبيل سنكون له شاكرين أن يتفضل علينا بالمعرفة).

ولكن لماذا؟ لماذا لا تذكر العصا بعد هذه الحادثة (لا مع موسى ولا مع غيره)؟ أين ذهبت العصا؟

راينا: لقد احترقت.

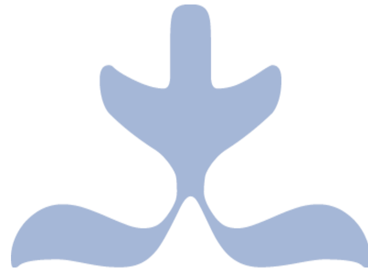
لقد زعمنا القول أن السامري ألقى العصا في حلي القوم التي كان قد شكلها على شكل جسد العجل، ولما كانت العصا حيّة، أي تدب الحياة فيها– كما زعمنا- (وليست أفعى كما ظنوا)، كانت الحياة تدب في كل ما تلقى العصا فيه، فكان القوم يظنون أن ذاك العجل حي، وذلك – في رأينا- بسبب فعل العصا الموجودة فيه التي ألقاها السامري، فجسد العجل قد اكتسب الحياة من العصا التي ألقاها السامري فيه، ولما دأب القوم على عبادة ذاك العجل، لم يكن بإمكان السامري أن يخرج العصا من ذلك العجل، لأن الحياة حينها ستتبخر منه ويعود جسداً هامداً لا خوار فيه (إن ذهبت العصا منه)، فحتى تكتمل فعلة السامري، وليقتنع القوم بأن هذا إله، كان لا مناص من وجود العصا على الدوام في جسد العجل. وأصبح ذلك المشهد (أي جسد العجل كإله لهم) دائماً مكتظاً بالناس الذين يعكفون عليه فلا يفارقونه، عندها لم تتح الفرصة للسامري أن يستخرج العصا من جسد العجل، لذا عندما عاد موسى وعلم ما فعل السامري، كانت ردة فعله على نحو إحراق ذلك الإله المفترى:

- قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ ۖ وَانْظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (97) طه

ولم يكتفي بحرقه بل نسفه في اليم نسفاً. لذا احترق العجل بما فيه، ومنذ تلك اللحظة تغيب العصا عن المشهد بأكمله.

النتيجة: سنكف عن البحث عن عصا موسى لظننا أنها قد احترقت، لكننا لن نتوقف عن البحث عن السر الذي وضعه الله في تلك العصا.

دعاء: اللهم رب يا من تعلم السرّ في السماوات والأرض علمني سر عصا موسى.



الجزء الثالث عشر

من هي زوجة موسى؟



من هي زوجة موسى؟

نحاول في هذا الجزء تقديم الأمثلة على استغلال الإشارات النصية لتوضيح التصوير القرآني للأحداث، ولنبدأ بقصة زواج موسى عليه السلام. فلقد وردت الحادثة – كما يتخيل الكثيرون- بشكل مقتضب في كتاب الله، ولكننا نعتقد جازمين أن إشغال التفكير بألفاظ القرآن الكريم ذات العلاقة في ذلك السياق ربما يسعفنا في تكوين صورة غاية في الوضوح للحدث وأشخاصه في ذهن القارئ للقرآن الكريم. فعقيدتنا تتمثل في أن هذا الكتاب لم يفرط فيه بشيء، ففيه جواب على كل شيء لأنه تفصيلا لكل شيء. وحتى لا نطيل الحديث عن الإطار النظري الذي تعرضنا له في مقالات أخرى، فلنورد بعض الأسئلة عن زوجة موسى ومن ثم نحاول الإجابة عليها.

1. من هي زوجة موسى؟
2. متى تزوجها موسى؟
3. أين تزوجها؟
4. لماذا تزوجها؟
5. كم كان عمر موسى عندما تزوجها؟
6. كم كان عمرها عندما تزوجت بموسى؟
7. الخ.

لعل الجميع يدرك أنّ بعض هذه الأسئلة ترد إجاباتها بشكل صريح في القرآن الكريم، ولكن بعضها يحتاج إلى شيء من التدقيق والتمحيص في ألفاظ القرآن الكريم واستدعاء سياقات ذات صلة في مواطن متفرقة في كتاب الله، فنحن نزعم الظن - على سبيل المثال- أن موسى عليه السلام قد تزوج من إحدى بنات شعيب عليه السلام عندما هرب من القوم الذين كانوا يأتمرون به ليقتلوه:

- **قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27) القصص**

ولكن لربما تساءل البعض بالقول: كيف تدعي أن موسى تزوج بابنة شعيب وهو أمر غير مذكور صراحة في الآية الكريمة؟

فنرد على هذا التساؤل بالدعوة لامعان النظر في مفردات الآية الكريمة نفسها ليستوقفنا قول الرجل لموسى "**سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ**"، فذاك الرجل كان إذاً من الصالحين، أليس هذا ما تذكره الآية الكريمة صراحة؟ نعم بكل تأكيد، ولكن ما دخل ذلك بأمر شعيب؟ يرد صاحبنا مستغرباً.

نقول إنّه بعد رصد عبارة "من الصالحين" في كتاب الله لم نجد أنها تتحقق إلا لنبي، وسنعرض جميع السياقات القرآنية التي وردت فيها هذه العبارة لتتأكد عزيزي القارئ بنفسك.

قال تعالى في حق إبراهيم عليه السلام:

- وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130) البقرة

وجاء في حق يحيى عليه السلام:

- فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (39) آل عمران

وجاء في حق عيسى عليه السلام:

- وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (46) آل عمران

وجمع في آية واحدة زكريا ويحيي وعيس وإلياس عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتم السلام ليكونوا جميعاً من الصالحين:

- وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (85) الأنعام

ويتكرر التأكيد على أن إبراهيم من الصالحين في الآيات التالية:

- إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (121) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (122) النحل

وكذلك كان لوط من الصالحين:

- وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (74) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) الأنبياء

وجمع إسماعيل مع إدريس وذي الكفل:

- وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (85) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (86) الأنبياء

وتعزز لإبراهيم أنه من الصالحين في الآية الكريمة التالية:

- وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (27) العنكبوت

واستجاب الله دعاء إبراهيم فكانت ذريته (إسحق وإسماعيل) من الصالحين:

- رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (100) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (101) الصافات

- وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (112) الصافات

لاحظ عزيزي القارئ أن الله قد بشر إبراهيم مرتين كما يرد في سورة الصافات:

1- مرة بغلام حليم وهو الذي تلّه للجبين بعد أن رأى في منامه أنه يذبحه.

2- مرة أخرى بإسحق بصريح اللفظ القرآني، وكلاهما كان من الصالحين.

اقرأ الآيات كما ترد في سورة الصافات لتتأكد بنفسك:

- فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (98) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (99) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (100) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (101) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (107) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (108) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (109) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (110) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (111) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (112) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (113) الصافات

والمدقق في قصة ضيف إبراهيم يجد السياق القرآني التالي:

- وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (51) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (52) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (53) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (54) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (55) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (56) الحجر
- هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (24) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (25) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (26) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (27) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (28) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29) قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (30) الذاريات

والملفت للنظر أن تلك الزيارة كانت بسبب قوم لوط الذين أوكل لضيف إبراهيم مهمة تدميرهم، وفي تلك الزيارة حدثت بشرى لإبراهيم وزوجته بإسحق، وحصلت البشرى لزوجته في سورة هود على النحو التالي:

- فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (70) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (71) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72) هود

والمدقق بالألفاظ يجد أن البشرى لإبراهيم كانت في النصين اللذين يتحدثان عن نفس الزيارة ب "غلام عليم" بينما كانت البشرى الأولى بإسماعيل ب "غلام حليم"، لنخلص إلى القول أنه في حين كان إسماعيل حليماً كان إسحق عليماً.

وكذلك كان صاحب الحوت من الصالحين:

- **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (50) القلم**

وبعد تفقد السياقات القرآنية أكثر لم نجد أن عبارة "مِنَ الصَّالِحِينَ" قد وردت بمعزل عن الأنبياء والرسل إلا في السياقين التاليين:

- **وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (10) المنافقون**
- **وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (77) التوبة**

ولعلّ المدقق في هذين الموقفين يجد أن الآيات الكريمة تتحدث عن ادعاء المنافقين بأنهم "سيكون من الصالحين: أحداهما عندما ماتوا فيتمنوا أن يعودوا ليكونوا من الصالحين (كما هم الأنبياء فعلاً) والأخرى للحصول على الرزق، وفي الحالتين يكذّب الله ادعاءهم، فهم لا يمكن أن يكونوا من الصالحين، وهذا – في ظننا- يؤكد كذبهم، فهم على نيتهم الخبيثة لا يمكن أن يصلوا إلى درجة أن يكونوا من الصالحين، فما كان ذلك يتأتى إلا لنبي، فهل يمكن أن يصل مثل هؤلاء (على كفرهم ونفاقهم) إلى تلك الدرجة الرفيعة؟! لنخلص إلى الحقيقة القرآنية التالية: أن الذين هم فعلاً **"مِنَ الصَّالِحِينَ"** كانوا جميعاً من الرسل والأنبياء، وهنا نعود إلى فهم معنى قول الرجل لموسى **" سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ"** عندما خطبه لابنته:

- **قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27) القصص**

وهذا – برأينا- تضمين من الرجل ليفهم موسى بنفسه أن الرجل هو "نبي"، فما ينبغي أن يكون **"مِنَ الصَّالِحِينَ"** إلا نبي أو رسول، ولا أظن أن موسى سيخطئ فهم مثل هذا التضمين من الرجل، ولربما ما تقبل موسى عرض الرجل بزواج إحدى ابنتيه بالسرعة التي يصورها القرآن الكريم.

ولكن يعود صاحبنا ليسأل: لنصدقك القول أن الرجل كان نبياً، فكيف تثبت أنه كان "شعيب" على وجه التحديد؟

فنرد بحول الله بالقول: نحن نعرف كذلك أنه كان من أهل مدين وذلك لأنّ مدين تلك هي المكان الذي هدى الله موسى إليه عندما هرب من فرعون وقومه:

- وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) القصص

ومدين تلك ورد ذكرها في كتاب الله أكثر من مرة:

- وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (85) الأعراف
- وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (84) هود

فنبي مدين إذاً هو شعيب عليه السلام، وموسى وجد نفسه عند ذلك الرجل الصالح (من الصالحين) فلبث في بلاده عدد سنين:

- إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (40) طه

وكان سبب البقاء تلك الفترة من الزمن هو العقد الذي حصل بين الرجلين:

- قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27) القصص

فقد اشتغل موسى عند ذلك الرجل بحرفة الرعي، ونحن نعرف ذلك من الحادثة التي حصلت له لحظة وروده ماء مدين:

- وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) القصص

فما كان من موسى وهو المعروف بإغاثته الملهوف إلا أنْ شمّر عن ساعديه وسقى لهما:

- فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24) القصص

ومنذ تلك اللحظة وموسى محترفاً مهنة الرعي (رعي الأغنام على وجه الخصوص)، ولنستذكر ذلك من ذاك الخطاب الشهير الأول الذي وجد موسى نفسه فيه مع ربه يوم عودته من مدين:

- وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18) طه

ففي هذا الخطاب يذكر موسى صراحة إحدى استخدامات العصا وهي "وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي"، فقد أصبح موسى في بلاد مدين راع للغنم، وكان ذاك هو مهر عروسه:

- قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27) القصص

فمكث موسى في أرض مدين فترة من الزمن متزوجاً من ابنة نبي الله شعيب، وربما أنجبت له أطفال خلال تلك الفترة، وسيرد البعض على الفور بالقول: أين يذكر النص القرآني أن موسى قد تحصل له الولد من زوجته تلك؟ فنقول إننا نقرأ ذلك من مفردة واحدة في قصة عودة موسى من أرض مدين، فنحن نعلم أنه عاد من أرض مدين بصحبة أهله:

- فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29) القصص

فمعرفة معنى عبارة **"وَسَارَ بِأَهْلِهِ"** ستسعفنا في حل هذه الإشكالية، ولكن قبل الخوض في هذا الحديث نود الإشارة إلى أنه بعد هذه الآية الكريمة تبدأ قصة موسى مع فرعون ومن ثم قصته مع بني إسرائيل وعندها يكاد يغيب ذكر أهله تماماً، فيغيبوا عن مشهد الصراع كلياً، ونحن نريد أنْ نسلّط بعض الضوء على حياة موسى الخاصة، وعلى وجه الخصوص حياته مع زوجته التي ارتبط بها في أرض مدين ورجعت معه إلى بلاده التي خرج منها خائفاً يترقب.

لعلنا أولا نود أنْ نشير أنّ موسى قد خرج وحيداً لا يصاحبه أحد، تاركاً كل شيء خلفه، وهذا يعني أنّ موسى لم يكن ليهرب وحده لو كان متزوجاً قبل أنْ يخرج من أرض مصر:

- فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21) القصص

والمتابع للغة الحوار منذ أنْ خرج موسى من بلاده حتى وصل إلى مدين (أرض شعيب) يجد أنّ موسى كان وحيداً لا يصاحبه أحد، فكيف إذاً بموسى يترك بلده بهذه الطريقة لو كان متزوجاً من قبل؟! وحتى إنْ فعل، فكيف به أنْ يقبل عرض الزواج الأول دونما تردد؟! وحتى إنْ فعل، فكيف به يمكث تلك الفترة الطويلة (عشر حجج) ولا يذكرهم؟ وحتى إن فعل، فهل كان فرعون سيترك أهل موسى وشأنهم بعد أن فعل موسى فعلته التي فعل؟ من يدري!!!

لقد حصل كل ذلك لموسى يوم أنْ بلغ أشده، فوكز الرجل فقضى عليه، وكاد أنْ يقضي على رجل آخر لولا أن أدرك خطأه مباشرة بتذكير من الرجل نفسه، وخرج من بلاده على إثرها، فلب القول أنّ الأمر كله حصل بعد أن بلغ أشده:

- وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14) القصص

ونحن نكاد نجزم أن ذلك كان يوم أن استوى وأصبح شاباً يافعا، أي بعد أن أصبح رجلاً بالمنظور الجسدي والمعنوي، فقد بلغ مبلغ الرجال، وهذا بالضبط ما حصل مع نبي الله يوسف عليه السلام:

- وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22) يوسف

وعند عقد مقارنة بسيطة لآية يوسف التي تتحدث عن يوسف عليه السلام وآية القصص التي تتحدث عن موسى عليه السلام يظهر التطابق الكلي إلا بلفظة واحدة (وهي مفردة وَاسْتَوَى):

- **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22) يوسف**
- **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14) القصص**

إنّ المدقق يجد أنّ في حالة موسى عليه السلام وردت لفظة **"وَاسْتَوَى"**، ولكن لم ترد مثل تلك اللفظة في حالة يوسف، فنخلص إلى أنّ امرأة العزيز قد راودت يوسف يوم أنْ بَلَغَ أَشُدَّهُ، ولكنّ موسى وكز الغلام يوم أنْ بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى، والسؤال يكون إذن على النحو التالي: ما الفرق بين بلوغ الشخص أشده (كما في حالة يوسف) وبلوغه أشده مع الاستواء (كما في حالة موسى)؟

رأينا: نحن نفتري الظن بأن بلوغ الشخص أشده هي المرحلة التي يصبح بها الإنسان مكلفاً بتحمل مسؤولياته ويتم ذلك عند بلوغه مبلغ الرجال، وهي المرحلة التالية مباشرة لبلوغ الحلم، فعندما بلغ يوسف مبلغ الرجال راودته التي هو بيتها عن نفسه:

- **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22) وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23) يوسف**

فنحن نعلم أنّ يوسف قد قضى سنين من عمره في بيتها، ولكنها لم تراوده عن نفسه حتى بلغ أشده، فهو إذاً لم يعد غلاماً بل أصبح شاباً يافعاً (أي فتى) وصل إلى مرحلة الحلم:

- **وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (30) يوسف**

والدليل على أنّ هناك فرق بين أن يكون الشخص غلاماً (أواخر فترة الصبا) وأنْ يبلغ الشخص أشده نستنبطه من قوله تعالى:

- **وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (82) الكهف**

فلقد كانا غلامين ولكنهما لم يكونا مؤهلين بعد لاستخراج كنزهما لأنهما لم يبلغا أشدهما بعد، فساعدهما الرجل على دفن الكنز حتى يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما **"فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا"**، فلب القول أنّ هاتين مرحلتين عمريتين مختلفتين، فبعد أنْ يكون الشخص غلاماً ينتقل بعد "بلوغه الحلم" أو "بلوغه النكاح" إلى مرحلة "بلوغ أشده"، قال تعالى:

- وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (152) الأنعام
- وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً (34) الإسراء

وفي حالة يوسف فقد كان غلاماً يوم أنْ وجده السيارة في البئر:

- وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (19) يوسف

ولكن لنتذكر أيضاً أنّ بلوغ الحلم أو النكاح تختلف عن بلوغ أشده، فبلوغ أشده تأتي بعد بلوغ الحلم، والسبب أنّ الشخص حتى لو بلغ الحلم فقد لا يكون قد بلغ أشده بعد بدليل قوله تعالى:

- وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيبًا (6)

فحتى لو بلغ اليتيم الحلم لا يدفع له ماله إلاّ بشرط آخر وهو "فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا"، ويكون بذلك بلوغ النكاح مرحلة مبكرة من الرجولة والرشد، فلب القول أنّ من بلغ أشده قد (وقد لا) يكون راشدا، ولكن من بلغ أشده فهو بالضرورة راشد.

افتراء من عند أنفسنا: بلوغ الحلم مع الرشد ربما يمكن اليتيم من حصوله على ماله ولكن بلوغ اليتيم أشده لا شك يمكنه من الحصول على ماله.

وقد قسّم الله عمر الإنسان بعد ولادته إلى ثلاث مراحل رئيسة في قوله:

- هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (67) غافر

فبعد الولادة مباشرة يكون الإنسان طفلاً، ثم يبلغ أشده، ثم يكون شيخاً، ومرادنا هنا القول أنّ مرحلة بلوغ أشده هي الفترة الزمنية التي تأتي بين الفترتين: الطفولة من جهة والشيخوخة من جهة أخرى، وهذه هي التقسيمات الرئيسية:

- الطفولة " ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا "
- بلوغ أشده "ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ "
- الشيخوخة "ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا"

ولكن لا شك أنّ هناك تقسيمات فرعية تنطوي ضمن هذه المراحل الثلاث الرئيسة، ولكن بالنسبة لبلوغ أشده – وهو ما يهمنا في طرحنا الحالي- فنستطيع أنْ نتحدث عن المراحل الفرعية التالية:

- بلغ أشده
- بلغ أشده واستوى
- بلغ أشده وبلغ أربعين عاما

وقد وردت هذه التقسيمات الثلاث في كتاب الله، فجاء في خضم الحديث عن يوسف عليه السلام:

- وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22) وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23) يوسف

وجاء عند الحديث عن موسى قوله تعالى:

- وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14) القصص

وجاء عن الإنسان المؤمن قوله تعالى:

- وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15) الأحقاف

افتراءات من عند أنفسنا: إذا ما افترضنا أنّ مرحلة بلوغ أشده تأتي بعد مرحلة بلوغ النكاح كما حاولنا أن نبين من خلال قصة يوسف مع امرأة العزيز، يكون بذلك الشخص أقرب إلى سن العشرين عاماً، وإذا كانت فترة بلوغ أشده وبلغ أربعين عاماً واضحة تماماً بأنها سن الأربعين تكون، فترة بلوغ أشده واستوى هي المرحلة المتوسطة بين المرحلتين، فيكون التقدير على النحو التالي:

- بلوغ أشده (حوالي العشرين)
- بلوغ أشده واستوى (حوالي الثلاثين)
- بلوغ أشده وبلغ أربعين عاما (حوالي الأربعين)

فلقد راودت امرأة العزيز فتاها وهو في شبابه المبكر ولكنه كان قد أُعطي من الله حكما وعلما في تلك المرحلة العمرية:

- وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22) وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23) يوسف

ولكن موسى لم يؤتى حكماً وعلماً إلا بعد أن بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى:

- وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14) القصص

فلقد هرب موسى إلى مدين وهو في شبابه المتوسط. ولكنه كما أسلفنا قد هرب ولم يكن متزوجاً، وقد يسأل القارئ لِمَ لَمْ يتزوج موسى وقد بلغ أشده واستوى؟ فنرد على ذلك بالقول لأنّه كان منشغلاً بأمر آخر في ذلك الوقت وهو مقارعة فرعون وحاشيته، فقد كانوا له أعداءً في تلك الفترة:

- **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (15) القصص**

فلقد كان موسى عدواً لفرعون ومن التف حوله حتى قبل أنْ يؤتى حكماً وعلماً، فموسى كما يتضح من الآية نفسها كان هارباً قبل أن يقتل ذلك الرجل الذي هو من عدوه، وذلك بدليل قوله تعالى "وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا" فلقد دخلها متخفياً حتى لا يكتشف أمره فرعون وملئه، فمسألة هروب موسى من فرعون حصلت قبل أنْ يهرب إلى أهل مدين، فهروبه إلى مدين كان بعد هروبه الأول من فرعون، والدليل على ذلك أنه لحظة أنْ دخل المدينة كان الناس ينقسمون (بالنسبة لموسى) إلى طائفتين:

- **هَذَا مِن شِيعَتِهِ**
- **وهَذَا مِنْ عَدُوِّه**

فهل تحصلت هذه الحال فوراً لحظة دخوله المدينة؟

رأينا: كلا، لقد كان موسى مطارداً حتى قبل وكزه الرجل، ولمّا جاءه الرجل محذراً قال:

- **وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20) القصص**

فما تمت المؤامرة وعلم بها الرجل في تلك اللحظة حتى يعلم بوجود موسى ويأتيه محذراً في الحال، بل لقد أُتخذ القرار ليس بسبب قتل الرجل فقط وإنما من أفعال موسى السابقة، وما كان قتله للرجل إلاّ الذريعة التي اتخذها ملأ فرعون ليسوغوا للعامة (ولبني إسرائيل خاصة) قرارهم بقتل موسى. لذا نحن نظن أن الوضع السياسي العام ما كان يتيح الفرصة لموسى ليتزوج في خضم تلاطم تلك الأحداث المتسارعة، فحتى اللحظة كان موسى لازال عازباً مطارداً من فرعون وملئه.

ولكن السؤال هو: لماذا؟ ما الذي فعله موسى حتى يستحق القتل أو المطاردة؟ فقد يظن البعض بأنّ قرار فرعون وملئه بقتل موسى كان بسبب قتل موسى رجلا من قوم فرعون، فنقول كلا، إننا نزعم الظن أنّ موسى كان قبل ذلك هارباً من فرعون لأنّه فعل أموراً جعلت قتل موسى من الناحية السياسية مبررا، فلو كان الأمر بسبب قتل الرجل وكفى لقلنا لقد كان موسى أصلاً يعيش في كنف فرعون، فهل من ارتكب جريمة قتل من جماعة فرعون يعاقب بالقتل؟ كلا، فلقد عاث آل فرعون (وحتى ملأه) فساداً في الأرض وقتلوا حتى الأطفال، فلو قتل موسى ألف نفس ولم يعارض فرعون "سياسياً"، لما تجرأ الملأ – نحن نفتري الظن- أنْ يأتمروا به، ولكنّنا نعتقد جازمين أن موسى قد فعل أمراً عظيماً أغضب فرعون نفسه، وسنح الفرصة لملأ

فرعون أن يأتمروا به. ولا أخال أنّ قتل رجل يغضب فرعون وهو الذي ما انفك عن قتل الأطفال، فيكون بذلك السؤال المهم هو: ماذا فعل موسى حتى يغضب فرعون ليستحق عقوبة القتل؟

رأينا: نحن نظن إنّ الجواب على هذا التساؤل موجود في السياق القرآني نفسه، فها هو الرجل الثاني الذي همّ موسى بقتله يرد على موسى قائلاً:

- **فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (18) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19) القصص**

نعم، ذلك هو سبب غضب فرعون وذلك هو سبب هروب موسى الأول ودخوله المدينة متخفياً حتى قبل أن يقتل الرجل: لقد كان موسى يريد أن يكون "مِنَ الْمُصْلِحِينَ"، وباللغة السياسية لقد كان موسى يشكل رأس المعارضة السياسية لفرعون، فانقسم الناس إلى فريقين: الفريق الأول يمثله فرعون وملائه بينما يمثل الفريق الثاني موسى وشيعته، ولنرقب الدقة القرآنية في استخدام الألفاظ، فالفريق الثاني ليس موسى وبني إسرائيل (وإن كان أغلبهم من بني إسرائيل) وإنما هو و شيعته، أي من كان يناصر موسى بغض النظر عن عرقه (كالذي جاءه محذراً من أقصى المدينة وكالرجل الذي كان يكتم إيمانه من آل فرعون)

الدليل: عندما نسب الله إبراهيم إلى نوح (ولنلحظ الفارق الزمني بينهم) قال:

- **وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (83) الصافات**

فلا أخال أنّ إبراهيم هو من قوم نوح وإنما من شيعته (أي على منهجه وأسلوبه وملته)، وكذلك قال تعالى:

- **إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ (159) الأنعام**
- **ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (69) مريم**
- **مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (32) الروم**

صحيح أنّ فرعون قسّم الناس في الأرض شيعاً (وليس فريقين) ولكنه استضعف طائفة (وهي بني إسرائيل)، فلب القول أنّ موسى عندما دخل المدينة متخفياً وجد رجلين يقتتلان **"هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ"**، ولم يجد رجلين هذا من طائفته وهذا من عدوه، قال تعالى:

- **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) القصص**

فالناس انقسموا سياسياً إلى شيع (بسبب عقيدتهم) وانقسموا عرقياً إلى طوائف، وقد كان لموسى شيعته الذين يناصروه ضد فرعون (وإن كان بعضهم من آل فرعون)، فنصّب موسى من نفسه خصماً عنيداً لفرعون مما استوجب هروبه من المدينة فلم يكن يستطيع أن يدخلها إلا خفية، فسنحت بذلك الفرصة للملأ

من آل فرعون أنْ يأتمروا به ليوقعوا به فينفذوا قرارهم به بالقتل. فلا شك أن ملأ الحاكم الفاسد هم الأكثر استفادة من فساده، ولا يهدد مصالحهم إلا من أراد الإصلاح الحقيقي.

والدليل الأكبر على أنّ موسى كان زعيماً لشيعته السياسية ضد فرعون هو ذاك الرجل الذي جاءه يسعى من أقصى المدينة (أي من طرفها التي يحكم عليها فرعون قبضته)، فكيف بذلك الرجل أنْ يعلم بالمؤامرة التي تحاك ضد موسى في بلاط فرعون إن كان من طائفة موسى (أي من بني إسرائيل) وهم المستضعفون أصلاً في تلك البلاد.

السؤال: هل كان لأحد من بني إسرائيل (وهم المستضعفون في أرض مصر) أنْ يتواجدوا في بلاط فرعون؟ كلا، لقد جاء لموسى من يحذره من داخل بلاط فرعون، ولا ننسى أنّ موسى قد تربى في ذلك البلاط، ولا ننسى كذلك أنّ زوجة فرعون هي من أحبت موسى وآمنت بدعوته وكفرت بفرعون وعمله، فلب القول لقد كان من شيعة موسى من هم من آل فرعون نفسه.

وترد في كتاب الله ألفاظ أخرى تستحق أن تُسْبر لنفهم الأمر على حقيقته، فلقد ذكرنا أنّ الطائفة تعني المجموعة العرقية كبني إسرائيل في أرض مصر، والشيعة هم الطائفة السياسية التي كانت تناصر موسى ضد فرعون (حتى وإنْ كان سراً)، ولكن هناك ألفاظ مثل آل فرعون وآل موسى وأهل موسى وبني إسرائيل وملأ فرعون وقوم موسى وقوم فرعون. ولنبدأ بها تباعاً:

الأهل: من هم أهل الرجل؟

نحن نعتقد أن أهل الرجل هم عائلته الذين يسكنون معه (سواء قبل الزواج أو بعده):

- **وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحًا يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (35) النساء**

وأهل البيت هم سكانه:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (27) النور**

وأهل المدينة هم سكانها:

- **فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77) الكهف**

وحتى أهل السفينة هم من يركب على ظهرها:

- **فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) الكهف**

ولنرقب الاستخدام التالي، ففي حين يرد في كتاب الله أنّ لموسى أهل لا ترد مثل تلك العبارة لفرعون:

- إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7) النمل

بينما يرد في كتاب الله عبارة آل موسى وآل فرعون:

- وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (248) البقرة
- فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8) القصص

وهنا قد يتساءل البعض عن سبب ورود قوله تعالى "آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ" ونحن نعلن بنص القرآن أنّ موسى وهارون هم إخوة، فهل يعني ذلك أنّ آل موسى ليسوا آل هارون؟ ألم نقل أنّ آل الرجل هم أقرباءه؟ نقول نعم إنّ آل الرجل هم أقرباءه ومع ذلك فآل موسى ليسوا أنفسهم آل هارون، وقد يرد البعض على الفور بالقول وكيف يكون ذلك؟ فنقول دعنا نتذكر شيئاً يخص بني إسرائيل على وجه الخصوص، قال تعالى بحق نبيهم الذي ينتسبوا له ويسمون باسمه وهو إسرائيل (يعقوب) نفسه:

- قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136) البقرة
- أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140) البقرة
- قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (84) آل عمران
- إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإْسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (163) النساء

وترد عبارة بني إسرائيل بحق موسى ولا ترد لفرعون:

- حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (105) الأعراف

بينما لفرعون ملأ وموسى لا ملأ له:

- وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ (88) يونس

ولكن لفرعون قومه ولموسى قومه:

- وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127) الأعراف

فيكون الترتيب على النحو التالي:

الأهـــل

- **إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7) النمل**

فلقد ذكرنا أنّ أهل الرجل هم من يسكنون معه في بيت واحد، وأهل المدينة يسكنون في مكان واحد، وأهل السفينة يركبون جميعاً على ظهرها، ولكن السؤال البسيط هو لِمَ لَمْ يرد في كتاب الله أنّ لفرعون أهل؟ إننا نعلم أنّ فرعون كان متزوجا، فلِمَ لَمْ يرد ذكر لأهله؟ إننا ندعي أنّ الرجل لا يكون له أهل إلاّ إذا كان له (بالإضافة لزوجته) ذرية من البنين والبنات:

- **قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (73) هود**
- **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33) الأحزاب**

فلقد ركب نوح وأهله في السفينة ولم تكن زوجته معهم:

- **حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (40) هود**

ونجا لوط وأهله من العذاب ولم تنجو زوجته:

- **وَلَمَّا أَن جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (33) العنكبوت**

افتراء من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن أحد الفروق الرئيسة بين الـ أهل والـ آل يكمن في الزوجة، فالله وعد لوط أن ينجيه وأهلع أجمعين إلا امرأته:

- **وَلَمَّا أَن جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (33) العنكبوت**

ولكن عندما حصلت النجاة حصلت لآل لوط:

- **إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ (34) القمر**

ففي حين أنه لم ينجو جميع أهل لوط إلا أن جميع آل لوط كانوا من الناجي:

- **إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (59) الحجر**

لنخلص إلى نتيجة مفادها أن امرأة لوط كانت من أهل لوط (فلم تنجو) ولكنها لم تكن من آل لوط (لأنها لو كانت من آل لوط لنجت من العذاب الذي نزل بالقوم مادام أن الله قد نجىّ آل لوط أجمعين).

أما في حالة فرعون، فإذا ما استثنينا امرأته (وإن كانت على النقيض من امرأة نوح وامرأة لوط) فأين أهله؟ نعم لقد كان فرعون بلا أهل (أي بلا ذرية يقطنون معه في نفس البيت)، ولهذا جاء طلب امرأة فرعون عندما وقع الغلام (موسى) في يدها:

- **وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9) القصص**

فلم يرد فرعون طلبها على الرغم من شكّه (لا بل من يقينه) بأن الغلام من بني إسرائيل الذي كان يقتّل أبنائهم، وقد يقول قائل: كيف تدعي أنهم كانوا يعلموا أنّ الغلام من بني إسرائيل وهم قد وجدوه في اليم؟ فنقول أن ذلك واضح من الكلام الذي ورد على لسان زوجة فرعون، فقد قالت "قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا"، ونتساءل هنا عن سبب ورود عبارة "لَا تَقْتُلُوهُ"، أي لم اضطرت المرأة إلى القول لا تقتلوه لو أنهم لم يهموا أصلاً بقتله؟ ولم يهموا بقتله لتتدخل هي وتنقذه من ذلك القتل بتدبير ربها لو لم يكن الغلام من بني إسرائيل؟ فهل كان فرعون يقتل أطفالا من غير بني إسرائيل؟ فكلام امرأة فرعون هذا يبين أنها هي نفسها تعلم أنّ الغلام من بني إسرائيل، فقالت "لَا تَقْتُلُوهُ" (وهو ما كان مصير أبناء بني إسرائيل على يد فرعون وآله)، فلو كان القوم غير موقنين أن الغلام من بني إسرائيل لما همّوا أصلاً بقتله ولكان ردها على النحو التالي:

- **وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9) القصص**

ولكنها "منعتهم من قتله" بقولها لهم **"لَا تَقْتُلُوهُ"**، وأتبعت طلبها هذا بالحجج التالية:

- **"عَسَى أَن يَنفَعَنَا"**
- **"أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا"**

فعندها سكت فرعون وألجم حتى عن الرد، وما كان أحد من الملأ سيتجرأ على رفض طلبه بعد أن سكت فرعون وأُخرس، والسؤال هو لم استسلم الرجل- وأقصد فرعون- بهذه السهولة لطلب زوجته على الرغم من شدته المعهودة وبالرغم من جدية الأمر؟ فيأتي الجواب –حسب ظننا- في قوله تعالى **"وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ"**. فمن الذين كانوا لا يشعرون؟ وما المقصود بذلك؟

رأينا: إننا نعتقد أنه التهديد المبطن من الزوجة لزوجها دون علم الحاضرين، نعم لقد هددت امرأة فرعون زوجها بما لا يشعر به الحاضرون، ولكن ماذا كان ذلك التهديد؟ فلنعيد ردها كاملاً ولنتأمله بدقة وتمهل:

- **وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9) القصص**

لقد قالت للملأ أنْ يتركوا الغلام "موسى" فلا يقتلوه "عَسَى أَن يَنفَعَنَا" وهنا وقف والتفاف، وقالت لزوجها دون أنْ يشعر الحاضرون "أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا"، فسكت الرجل وما نطق، فلا نجد في كتاب الله رداً لفرعون على كلام زوجته، ولكن لماذا؟ فلقد حدث الحوار بينها وبين زوجها دونما معرفة الحاضرين من القوم، والدليل قوله تعالى على لسانها "وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ"، فها هي قصة النملة التي طلبت من بقية النمل الاختباء حتى لا يحطمهم جنود سليمان:

- **حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18) النمل**

وها هو يوسف يتلقى البشرى من ربه بوجود إخوته ولكن "وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ":

- **فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (15) يوسف**

وها هي أخت موسى نفسه تقص أثر أخيها (يوم ألقته أمه في اليم) وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ:

- **وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (10) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (11) القصص**

افتراء من عند أنفسنا: إننا نعتقد أنّ زوجة فرعون اختارت أن يكون ذلك حديثاً جانبياً مع زوجها دون علم الحاضرين **"وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ"** لأن الأمر غاية في الخصوصية: إنه ما يخص الحياة الزوجية، وهي العلاقة الجنسية بين الزوجة وزوجها على وجه التحديد، فنحن نظن أنّه حتى لو كانت وسائل التعرف على العقم متوافرة في ذلك الزمن، لما كانت زوجة فرعون بحاجة لها لأنّ زوجها لا يستطيع حتى أنْ يطلب الإنجاب من غيرها (وهو فرعون ذاك الزمان)؟ فهل يا ترى من كان في جبروت فرعون يعجزه أنْ يطلب الولد من غيرها؟ لم يسمح لها أنْ تتبنى غلاما؟ ولنفترض أنها كانت هي سبب العقم وعدم الإنجاب، فلم يقبل أنْ ترد بقولها **"قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ"**، فإن كان الغلام قرة عين لها لأنها لا تنجب فلِمَ يكون قرة عين لفرعون إنْ كان يستطيع الإنجاب؟ ولو كان الأمر يتوقف عند هذا الحد فلم لا يرد عليها بتبني من ليس من بني إسرائيل؟ ألم يكن قادراً على أنْ يحضر لها ما تشاء من الغلمان من غير بني إسرائيل؟

رأينا: كلا، لقد كان ذلك مطلب امرأته ورغبتها وما كان يستطيع أنْ يرده في تلك اللحظة خوفاً من أنْ يتكشف أمر أدهى وأخطر يخص فرعون نفسه؟ فما هو؟

افتراء من عند أنفسنا: إننا نعتقد أنّ فرعون كان يفتقد ما يستطيع أنْ يقدمه الرجل لزوجته حتى تنجب، نعم لقد كان فرعون يفتقد الرجولة التي يسكت بها امرأته، فما كان أحد يعلم سر فرعون وضعفه هذا سوى امرأته، ولم يكن فرعون يحتمل أنْ يتفشى ذلك السر بين القوم، لأن هذا لا شك سيهز صورة الرجل الذي هو فرعون مصر بلا منازع.

افتراء من عند أنفسنا: ونحن نظن أن الأمر لم يتوقف عند ذلك الحد، لا بل لم يكن الرجل (وأقصد فرعون) سوياً في فراشه مع زوجته فاستخدم الأساليب التي ضجرت منها الزوجة نفسها حتى آثرت الموت على الحياة:

- وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11) التحريم

والسؤال هو: ماذا كان عمل فرعون الذي طلبت الزوجة النجاة منه؟ لربما ظن البعض أنه ظلم فرعون، ولكن هل كان فرعون فعلاً يظلم امرأته؟ ألم يكن طلبها مجاب؟ وأي شيء أعظم من أنْ يقبل فكرة أنْ لا يقتل وليد بني إسرائيل الذي سيقف له نداً عنيدا يسلبه ملك مصر كله؟! كلا، لقد عاشت زوجة فرعون مع زوجها فترة طويلة من الزمن وتحملت ما لا تستطيع امرأة أخرى أنْ تتحمله من رجل لا يقدم لزوجته حقها في فراشه، لا بل على العكس لربما تحملت منه ما لا يجب أنْ يكون، ما يمكن أنْ يفعله رجل يعجز أمام زوجته أنْ يثبت لها رجولته بالطريقة الطبيعية المشروعة.

وقد يرد البعض بالقول ولكن فرعون لم يكن يعلم أنْ الغلام من بني إسرائيل، فنقول كلا، فحتى لو افترضنا أنه لم يكن يعلم ذلك، فكيف يمكن اكتشاف الأم الحقيقية لطفل ما؟ أليست هي الرضاعة؟ فلب القول أنه عندما رفض الطفل تقبل الرضاعة من النساء جميعاً، وقبل رضاعة امرأة بعينها من بني إسرائيل، فهل كان ذلك سينطلي على متكبر جبار مثل فرعون؟ ألم يكن سيساوره الشك ليتحقق من الأمر بنفسه؟ ثم لندقق في قول زوجته **"لا تقتلوه"**، وسؤالنا هو: لماذا طلبت منهم أن لا يقتلوا الطفل؟ إننا نظن أن طلبها هذا جاء بعد أن استقر لدى فرعون وملئه أن هذا الطفل من بني إسرائيل، ولو كانوا على يقين أنه ليس من بني إسرائيل لما كان هناك داع لإثارة موضوع قتله حتى تتدخل الزوجة لتنقذه، لقد قبل فرعون السكوت على ما لا يسكت عليه فقط تلبية لرغبة امرأته؟ ولكن السؤال الأكبر هو: هل كان فرعون مضطراً لتلبية رغبة امرأته؟ وإن كان الجواب بالإيجاب، يأتي السؤال الذي لا مفر منه والذي نحاول الإجابة عليه في هذا الطرح وهو: لماذا؟

ويثبت هذا التصور الحقيقة القرآنية وهي عدم ورود لفظة بني فرعون، فنحن نفهم أنّ هذه اللفظة تعني الذرية:

- يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (26) الأعراف
- لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ (78) المائدة

فبني آدم هم ذرية آدم وبني إسرائيل هم ذرية إسرائيل، ولكن لم يكن لفرعون ذرية وذلك لأنه يعجز عن إنجابها، ولكن كان لفرعون آل:

- فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8) القصص

فبالرغم أنّ موسى وهارون هم إخوة إلاّ أنّ لكل منهم آل:

- وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (248) البقرة

لقد كان لفرعون أقرباءه ولكن لم يكن له أهل أو بني، وهذا ربما يفسر إصرار فرعون على الكفر والتجبر: إنها عقدة العجز (عجزه أنْ يكون زوجاً طبيعياً وعجزه أنْ يكون رجلاً وعجزه أنْ يكون أباً)، فخرج على قومه بعد أن حشرهم قائلاً:

- فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ (24) النازعات

والدليل القرآني الآخر الذي نقدمه على عجز فرعون الجنسي وبالتالي عقدته التي كان يخفيها ويحاول أن يتكبر ويتجبر وهو يعلم بقرارة نفسه ضعفه الحقيقي هو ما ورد في الآيات الكريمات التالية:

- ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (10) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11) التحريم

وهنا نطلب من القارئ الكريم إمعان النظر بأحد الفروق بين ما ورد في الآية (10) التي تتحدث عن امرأة نوح وامرأة لوط وما ورد في الآية (11) التي تتحدث عن امرأة فرعون، ففي حين جاء عند الحديث عن امرأة نوح وامرأة لوط أنهما كانتا تحت زوجيهما (وهنا أركز على مفردة تحت) لم ترد تلك المفردة عند الحديث عن امرأة فرعون، وسؤالنا هو: لماذا؟ أي لماذا لا يذكر القرآن الكريم أن امرأة فرعون كانت تحت زوجها كما كان الحال بالنسبة لـ امرأة نوح وامرأة لوط؟

رأينا: لقد درج جل الفكر الإسلامي على تفسير ذلك مجازياً، ومراد قولهم أنه لا يستساغ أن يكون المؤمن تحت الكافر، ولكننا نرد على مثل هذا التصور بأن هناك الآلاف (بل ملايين) الحالات التي يكون المسلم مستضعفاً مقهوراً، ولا أود الدخول في جدلية هذا المنطق، ولكن ما أود إثارته هنا هو أن نقرأ الآيات على الحقيقة وليس على سبيل المجاز فنقول: يذكر القرآن الكريم بصريح اللفظ أن امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت زوجيهما ولم تكن امرأة فرعون تحت زوجها، أليس كذلك؟ ولنربط هذا الأمر بموضوع العلاقة الزوجية الحميمة، ألا تكون الزوجة تحت زوجها في الفراش؟ ألا يتطلب إنجاب الأطفال أن تكون الزوجة تحت زوجها؟ بكل تأكيد، لقد كانت امرأة نوح وامرأة لوط تحت زوجيهما فكانت النتيجة أن كان لنوح أهل وأن كان للوط أهل:

- حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ۚ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (40) هود
- فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ۙ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (27) المؤمنون
- وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (33) العنكبوت

ولكن لم يكن لفرعون أهل (ذرية من صلبه) لأن امرأته لم تكن يوماً تحته، والنتيجة أن فرعون كان عاجزاً جنسياً أن يجعل من امرأته منجبه للأطفال، لذا طلبت منه (دون أن يشعر القوم) أن يبقي على حياة طفل من بني إسرائيل لتتبناه، فما كان منه أن يرد طلبها خوفاً أن يفتضح المستور.

وعندما نربط هذه النتيجة مع عودة موسى من أرض مدين بصحبة أهله ندرك أن موسى عاد ومعه زوجه وأطفاله (أي أهله)، فلقد أنجبت زوجة موسى فأصبح لموسى أهل عاد بهم إلى أرض مصر بعد أن قضى الأجل في مدين.

الــ آل

ونلحظ في كتاب الله أنه في حين لم يكن لفرعون أهل كان له آل، وآل فرعون كانوا هم جزءاً من قومه، وذلك لأنّ الهلاك لم يقع على قوم فرعون كلهم وإنما على آل فرعون بشكل خاص:

- وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (130) الأعراف
- وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (50) البقرة

وكذلك وقع العذاب على ملئه:

- فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا (103) الإسراء

إذاً فالذين غرقوا هم من آل فرعون وكذلك من كان معه من ملئه وجنده:

- فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (78) طه
- فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40) القصص
- فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (40) الذاريات

شيع

أما بالنسبة للفظة "شيعاً" فقد جاء في كتاب الله:

- إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) القصص

وإذا كان لموسى نفسه واحدة منها:

- وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (15) القصص

فتكون أرض مصر في زمن فرعون منقسمة سياسياً إلى شيع، ولكنها قومية واحدة.

القوم

وهنا نتوقف لنؤكد أن لفظة "القوم" هي الأشمل، فقوم النبي (أي نبي) لا تعني أهله ولا تعني بنيه ولا تعني آله ولا تعني طائفته ولا تعني ملأه ولا تعني شيعته، بل هم مجمل القوم الذين أرسل إليهم:

- وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (89) هود
- وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (4) إبراهيم

ولنتذكر أنّ موسى نفسه قد أرسل (ليس فقط لبني إسرائيل كما يظن البعض خطأ) وإنما إلى قوم فرعون على وجه العموم:

- وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (17) الدخان
- اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (17) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (19) النازعات

والأهم من ذلك هو: كيف بفرعون يترك رجلاً يصل إلى مرحلة الثراء العظيم إنْ كان هو من بني إسرائيل؟

- إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) القصص

ألم يكن بنو إسرائيل مستضعفين في الأرض؟

- وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22) الشعراء

نعم، لقد كان قوم موسى (كما كان لكل نبي ورسول) هم مجمل الذين أرسل إليهم ذاك النبي؟ فحتى لوط الذي نزل بتلك الديار بعد أنْ هاجر مع إبراهيم أصبحوا قومه:

- فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (26) العنكبوت

ولكن عندما وقع العذاب وقع على أهل تلك القرية:

- وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (74) الأنبياء

ولا شك أنهم هم أنفسهم قوم لوط:

- فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (70) هود

ولهذا يجب أن لا تفهم الآية التالية أنّ الذين آمنوا مع موسى هم فقط من بني إسرائيل:

- فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (83) يونس

وإلاّ لأصبح التضارب واضحاً مع قوله تعالى:

- وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28) غافر

فحتى آل فرعون وملأه وشيعته هم من قوم موسى لأنه أرسل إليهم، وكلهم كانوا معنيين ومدعوين للإيمان برسالته، وسنتحدث عن هذا الأمر بشيء من التفصيل عند الحديث عن رسالة أولي العزم من الرسل وهم حسب الترتيب الزمني: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم وعلى جميع رسل الله وأنبياءه أفضل السلام وأتم التسليم، والفكرة الرئيسة التي سنتطرق لها حينئذ هي أن رسالة هؤلاء الرسل على وجه التحديد كانت عالمية، فهي إن حصلت في إطار زماني ومكاني محددين إلا أنها دعوة التوحيد للبشرية بأكملها.

ويأتي السؤال هنا على نحو: لم تزعّم موسى المعارضة السياسية لفرعون وهو الذي تربى في بلاطه؟ لقد كان ذلك بسبب فرعون وعمله:

- إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) القصص

فما كان ذلك ليرضي من قال الله في حقه:

- وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (37) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (38) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (39) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (40) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (41) طه

وما كان ليرضي موسى ما كان يعمل فرعون ببني إسرائيل:

- وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22) الشعراء

ولا شك أنّ موسى كان يعلم أنه هو نفسه من بني إسرائيل، فلقد رده الله إلى أمه منذ اليوم الأول:

- فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (13) القصص

وما كان ليرضى أنْ يستمر فرعون في استضعاف بني إسرائيل، فبنص القرآن كان فرعون "مِنَ الْمُفْسِدِينَ" وكان موسى "مِنَ الْمُصْلِحِينَ". فلقد وقف المصلح (كما هي الحال على مر التاريخ) في وجه المفسد، وأصبح صراعاً بين الخير (ممثلاً بموسى وما يؤمن به) والشر (ممثلاً بفرعون وما يفعله).

لقد خرج موسى من أرض مصر في حوالي الثلاثين من عمره، غير متزوج، داعياً ربه النجاة من القوم الظالمين:

- فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21) القصص

وكان ذلك في صبيحة الليلة التي دخل فيها المدينة متخفياً فقتل فيها الذي من عدوه:

- فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (18) القصص

لقد مكث موسى ليلة واحده في المدينة بعد أنْ دخلها متخفياً، فوكز رجلا من عدوه بعد أنْ استنصره الذي من شيعته، وفي الصباح كان موسى بين حالتي الخوف والترقب، وخرج من مصر وهو لا زال كذلك "خَائِفًا يَتَرَقَّبُ".

فقصد أرض مدين طالباً من ربه أن يهديه سواء السبيل:

- وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ (22) القصص

فاستجاب الله طلبه أن هداه إلى أرض مدين، وكان أول خبرته بالمكان تلك الحادثة التي لم يكن يعلم بعد حكمة الله في تدبيرها:

- وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) القصص

وأول تساؤل مثير نطرحه هنا يتعلق بقوله تعالى "وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ"، ونحن نعلم أنّ موسى عما قريب سيتزوج إحداهن، فكيف بموسى يتزوج من امرأة؟ أليست لفظة "امرأة" تطلق على المتزوجة من النساء، فهل فعلاً تزوج موسى بامرأة كانت متزوجة من ذي قبل؟!

يذكر القرآن الكريم أنّ المرأة هي المتزوجة من النساء:

- وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (128) النساء

واقترنت المرأة دائماً باسم زوجها، فجاء ذكر امرأة عمران:

- إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (35) آل عمران

وامرأة العزيز:

- وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (30) يوسف

وكذلك امرأة نوح وامرأة لوط:

- ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (10) التحريم

وفي المقابل امرأة فرعون:

- وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11) التحريم

وجاءت "المرأة" غير مقترنة بالزوج:

- إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23) النمل

أما إن كانت غير متزوجة فما أطلق عليها القرآن لفظ امرأة أبدا، فها هي مريم عليها السلام تذكر في القرآن مرات ومرات ولا تنعت بهذا اللفظ إطلاقاً، فلقد نوديت باسمها "مريم"

- وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (42) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (43) آل عمران
- وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16) مريم

ونسبت إلى أخيها:

- يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (28) مريم

ونسبت إلى أبيها:

- وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (12) التحريم

ونحن نعلم أنّ مريم قد أنجبت مولوداً ولكنها لم تتزوج:

- فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (22) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (23) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24) مريم

فنسبت في آية أخرى إلى ابنها الذي أنجبته:

- مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (75) المائدة

فحتى تكون الأنثى امرأة فلا بد لها أنْ تكون متزوجة، فنحن نعلم بنص القرآن أنّ مريم من النساء ولكنها ليست امرأة:

- وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ (42) آل عمران

فاللواتي وقعن إذا في غيبة امرأة العزيز لم يكنّ كلهن متزوجات، واللواتي حضرن المائدة الشهيرة لم يكنّ كلهن متزوجات، ولم يكن من وقع في حب يوسف – كما يظن البعض-كلهنّ من المتزوجات، لذا جاء في كل هذه المواقف لفظ "النسوة":

- وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِۦقَدْ شَغَفَهَا حُبًّاۦإِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (30) يوسف

ونحن نعرف أن المرأة التي وهبت نفسها للنبي كانت متزوجة من ذي قبل:

- يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (50) الأحزاب

فنعود إلى صلب الموضوع بالقول أنّ موسى وجد على بئر الماء امرأتين، فسقى لهما ثم تولى إلى الظل يطلب المساعدة من خالقة:

- فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24) القصص

فكانت الاستجابة الإلهية مباشرة:

- فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۦنَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (25) القصص

وهنا نتوقف عند موضوع زواج موسى من إحدى بنات شعيب، فلحظة وصول موسى إلى أرض مدين كانت المصادفة الأولى على النحو التالي:

- وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ (22) وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) القصص

وهنا يبرز التساؤل الأول الذي أثرناه سابقاً وهو: لماذا جاء النص القرآني بصيغة "امرأتين"؟ فلقد ذكرنا

سابقاً أن لفظة امرأة تطلق على المتزوجة من النساء، أي من كان لها بعلاً:

- **وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ۚ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (128) النساء**

فكيف بموسى يتزوج بإحداهما؟ فأين زوجيهما؟ وكيف نعرف أنهن كن حقاً متزوجات؟

فلو دققنا النظر في الآيات التي تتحدث عن قصة موسى في أرض مدين لوجدنا أشارات نصية تفضي إلى هذا الادعاء، فلقد ورد في الآيات السابقة على لسان المرأتين السبب الذي من أجله يسقون" **وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ**".

- **وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) القصص**

فهما يوضحا لموسى سبب انشغالهم برعي الأغنام: إنها الحاجة، فأبوهما شيخ كبير لا يستطيع إذاً القيام بالمهمة، وإذا ما ربطنا هذا الأمر بقصة شعيب مع قومه تتبين لنا أمور عديدة.

أولهما، أن بنتيه كانتا متزوجتين، ولكن زوجيهما قد هلكوا بسبب ما حل بالقوم من العذاب يوم أن وقع عليهم عذاب ربهم:

- **وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مَّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (94) هود**

ثانياً، أنَ لقاء موسى ببنات شعيب على بئر الماء كان بعد هلاك قوم شعيب، فشعيب الآن شيخ كبير يعجز حتى عن القيام برعي الغنم لتتولى بناته المهمة.

ثالثاً، لم يكن لنبي الله شعيب ذرية من الذكور يقومون بالمهمة، فعندما حضر موسى جاء طلب شعيب الأول أن يستأجره ليرعى له الغنم، فلو كان للأب ذرية من الذكور لربما لم يكن بحاجة لاستجار من يرعى له الغنم، ولما أضطر إلى أن يعهد تلك المهمة لبناته عندما أصبح شيخاً كبيرا، وربما يرد البعض بالقول: لربما كان له ذرية من الذكور ولكنهم ربما لم يؤمنوا برسالة أبيهم فهلكوا مع القوم، نقول أن ذلك غير ممكن لسبب بسيط وهو لو كان الأمر على تلك الشاكلة لذكره الله في كتابه كما كان الحال بالنسبة لابن نوح، ولو كانت زوجته هلكت مع القوم لذكر الله ذلك في كتابه كما كان الحال بالنسبة لمرأة لوط. فنحن نؤمن أن هناك قاعدة مطلقة في السرد القرآني وهي: أن الحقيقة هي الأمر الطبيعي ما لم يرد نص صريح بعكس ذلك، فأهل النبي هم جميعاً من المؤمنين دائماً ما لم يرد نص بخلاف ذلك كحالة نوح في ابنه وامرأته وكحالة إبراهيم في أبيه أو لوط في امرأته، وأهل الكافر هم من الكافرين ما لم يرد نص صريح بخلاف ذلك كحالة امرأة فرعون، فالقرآن يقدم الحقيقة كما هي غير منقوصة، فأنا لا أستطيع أن أعلم بكفر ابن نوح أو والد إبراهيم أو امرأة لوط ما لم يذكر ذلك صراحة، وبالمقابل كيف لي أن أخمن أن امرأة فرعون كانت مؤمنة إن لم يرد نص صريح بذلك؟ وسنتعرض لهذا المبحث عند الحديث عن أساسيات القص القرآني.

رابعاً، لا شك أن الذين نجوا مع شعيب كانوا (رهط) ممن آمن معه وهم قليلو العدد، ونحن نظن أن أزواج بناته كانوا من بين القوم الذين هلكوا بتلك الصيحة، فما دام شعيب قد بلغ الشيخوخة فبناته لا شك قد جاوزن عمر الزواج بكثير، فنحن نعرف أن البنت البكر ربما تتزوج بعد عامها الخامس عشر، ويستحيل أن بنات شعيب لازلن دون عمر الزواج ووالدهم قد أصبح شيخاً كبيرا، ولا أخال أن بنات شعيب ربما لا زلن من بين العوانس، وإلا لما جاء النص القرآني على صيغة "امرأتين"، فلقد كان شعيب – بلا شك- رجل موثوق بين قومه، له مكانته الشخصية والعامة، ولا بد أن الرجال كانوا يسعون (لا بل يتسابقون) لنيل شرف نسبه:

- **قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (87) هود**

وما حصلت القطيعة بينه وبين قومه إلا بعد أنّ جهر بدعوته:

- **قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (88) الأعراف**

ونحن نتصور الموقف على النحو التالي: كان لشعيب ذرية من البنات (أكثر من اثنتين على أقل تقدير بدليل أن شعيباً قد حدد لموسى أي من بناته سيزوجه بإحداهن:

- **قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ۖ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27) القصص**

فوجود مفردة **"هَاتَيْنِ"** تدل على أن شعيباً كان عنده أكثر من البنتين اللتان عرض على موسى الزواج بإحداهن، ولما بلغن مبلغ الزواج تم زواجهم على رجال من قوم شعيب، ثم يحدث أن يجهر شعيب بالدعوة إلى الله، فيجد المعارضة الشديدة وحتى الأذى من قومه، فيقع العقاب على قوم شعيب بعد أن تمادوا في الظلم، وينجي الله شعيب ومن آمن معه:

- **وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (94) هود**

فنجد شعيبا الآن شيخاً كبيرا مع ابنتيه ترعيا الغنم، ولا شك كذلك أن زوجته كانت قد توفيت من ذي قبل، فلو كانت لازالت على قيد الحياة لكانت مسنة في العمر ولذكرت ابنتيها ذلك لموسى يوم أن وجدهم على البئر، أي لتحدثن لموسى عن أمهن كما تحدثن عن أبيهن، فما دامت المرأة ترعى الغنم (بدليل أن ابنتي شعيب كانتا ترعيا الغنم) فما المانع أن تكون أمهم معهم ترعى الغنم لو كانت لا زالت على قيد الحياة، ولو كانت طاعنة في السن لذكرت المرأتان ذلك لموسى كما تحدثن عن شيخوخة أبيهن، ولو كانت من بين القوم الذين هلكوا لذكر ذلك صراحة في كتاب الله كما كان الحال بالنسبة لمرأة نوح وامرأة لوط مثلاً.

والدليل الأكبر الذي نقدمه لإثبات أن بنات شعيب كن متزوجات (من الأرامل) قبل قدوم موسى يأتي من صيغة الطلب الذي طلبته إحداهن من أبيها، فلقد جاء طلبها على النحو التالي:

- قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26) القصص

ونحن نفهم هذا الطلب على أن البنت تطلب من أبيها أن يزوجها موسى، (فهي تخطب موسى لنفسها)، فلقد فهم على الفور مقصد ابنته، فنبي الله شعيب يمتاز -لا شك- بالنباهة ورجاحة العقل، لا بل وقدرته اللغوية الفائقة، والمتتبع لحجج شعيب على قومه يجد البلاغة الفائقة في استخدامه الألفاظ، فالرجل يفهم الكلام كما يجب أن يفهم، لذا جاء رد أبيها بعد طلبها مباشرة على النحو التالي:

- قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27) القصص

وقد يرد البعض بالقول: وما علاقة ذلك بموضوع النقاش: أي أن زوجة موسى كانت متزوجة من قبل؟ فنرد بالقول متى يمكن أن تطلب الأنثى الزواج لنفسها؟ فهل يمكن أن تطلب البكر من أبيها أن يزوجها؟ إننا نفهم أن المرأة لا يمكن أن تتجرأ وتطلب الزواج لنفسها إلا إذا كانت ثيب (أي قد تزوجت من قبل)، فلو كانت بنت شعيب لا زالت بكراً لما تجرأت وطلبت من أبيها أن يستأجره، أليس كذلك؟ ثم لندقق النظر أكثر في حجتها:

- قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26) القصص

ويأتي سؤالنا على النحو التالي: كيف عرفت تلك المرأة أن موسى قوي أمين وهي لم تره إلا مرة عند البئر ومرة عندما عادت تدعوه لبيت أبيها؟ ربما يرد البعض بالقول لأنها رأت قوته الجسدية وربما أمانته على البئر عندما سقى لهما؟ ولكننا نعيد السؤال بطريقة أخرى: لماذا جلبت قوة موسى الجسدية وأمانته تلك المرأة؟ أي كيف انتبهت المرأة لفتوة موسى وأمانته؟ ثم ما هي أمانته التي يتحدث عنها النص القرآني؟ فهل كانت المرأة قد استأمنت موسى على مالٍ فرده إليها فعلمت بعد ذلك أنه أمين؟ كلا وألف كلا، إننا نعتقد أن القوة والأمانة التي يتحدث عنها النص القرآني في هذا السياق لا تعني أكثر مما جلب انتباه المرأة في تلك اللحظة، إنها معرفة المرأة بالرجل من اللحظة الأولى، ولا أخال أن ذلك يمكن أن يجلب انتباه الفتاة إلا إذا كانت تعرف الرجال من قبل، فهي قد عاشرت رجلاً من قبل وتعرف كيف يكون الرجل قوياً أميناً، إنها الخبرة السابقة التي تحصلت لها من زواجها الأول، فعندما يجلب جسم الرجل (أي رجولته الجسدية) المرأة تكون المرأة قد خبرت ذلك من قبل، فتستطيع تميز الرجل ويجلب ذلك انتباهها، أما إن كانت البنت لازال بكراً فذلك لا يكون ضمن اهتماماتها أو على الأقل ضمن الأمور التي يمكن أن تجلب انتباهها في الرجل، وتعرف المرأة كذلك أمانة الرجل بمجرد النظر، فنتيجة لما تحصل لها من خبرة سابقة استطاعت تلك المرأة أن تختبر أمانة موسى، فلقد عادت المرأة لوحدها تطلب موسى القدوم إلى بيت أبيها بدليل قوله تعالى:

- فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (25) القصص

ولكنها جاءته كما يذكر النص القرآني "تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء"، وسؤالنا هو: لماذا على استحياء؟ وإن كان ذلك حياءً من موسى فلم لم تعد بصحبة أختها؟ إننا نفهم الموقف على النحو التالي: لقد أثارت فتوة موسى "قوته" (أي رجولته الجسدية) على البئر تلك المرأة، فعادت إلى بيت أبيها مفتونة به، ونحن نعلم أن نبي الله

موسى كان من الناحية الجسدية على هيئة أحسن ما خلق الله بدليل أن الله قد برأه من تهمة وأذى بني إسرائيل، قال تعالى:

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُواء وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (69) الأحزاب

ونحن نطلب من القارئ الكريم البحث عن مناسبة نزول هذه الآية والحديث النبوي الشريف المفسر لها، أما ما يهمنا هنا هو أن موسى من الناحية الجسدية كان قوياً، فأثار ذلك انتباه المرأة، ولما عادت إلى البيت دبرت المسألة مع أختها فعادت وحدها لتختبر أمانته، لذا عادت وهي **"تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء"**، ولا شك أن المرأة تستطيع بنظراتها غير المباشرة التأكد من نوايا وتطلعات الرجل إليها، فما وجدت تلك المرأة من موسى إلا الأمانة، لذا بادرت أبيها بالحجج البالغة التي تسوغ استجار الرجل: **"إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ"**، ولا أخال أن نبي الله شعيب بفطنته وذكاءه كان سيفوّت تلك الفرصة، أو أن يخطئ مقصد وطلب ابنته، ثم للنظر إلى رد موسى على طلب أبيها:

- قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (28) القصص

فموسى لم يتردد لحظة واحدة في قبول العرض، ولربما ظن البعض أن ذلك كان بسبب حاجة موسى، فنقول لقد توجه موسى إلى أرض مدين وهو على يقين أن الله سيهديه سواء السبيل، وجلس عند بئر الماء يناجي ربه بحاجته لخير ينزل له من ربه فكانت الاستجابة الربانية فورية:

- فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (25) القصص

ولا أظن أن موسى قَبِل الزواج بهذه السرعة لولا يقينه بتدبير ربه لهذا الزواج، فيقبل موسى الزواج ويقضى أحد الأجلين عند شعيب:

- قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (28) فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29) القصص

(لاحظ عزيزي القارئ كيف تسرق المسلسلات البدوية الأردنية فكرة ملاقاة الرجل أو ما يرغبوا بتسميته "البطل" الفتاة الجميلة على عين الماء، وبعدها تستمر قصة الحب التي تنتهي غالباً بالزواج، فهي إذاً فكرة مسروقة من قصة موسى مع بنت شعيب على عين الماء، ولكن الفرق الوحيد هو في حين أن المسلسلات البدوية تفضل تعقيد القصة ليحدث الصراع ويكملوا حلقات عديدة من المسلسل التلفزيوني كانت قصة موسى مع تلك المرأة أكثر يسراً وسهولة لأن ذلك لم يكن هو المغزى الأكبر من حكاية موسى، فيتم الحب والقبول في زمن قياسي)

موسى يمكث عشر حجج في أرض مدين يرعى الغنم

ولا أشك لحظة واحدة أن موسى قد أتم عشرة حجج عند شعيب، فدين موسى وخلقه لا يمكن إلا أن يهديانه إلى رد المعروف للرجل الذي وجده "من الصالحين"، وخلال تلك الفترة لا يكون من شأن موسى سوى عائلته (زوجته وأطفاله) وشغله (رعي الأغنام)، فموسى عاد إلى مصر من مدين بصحبة أهله، وقد بينّا سابقاً أن الأهل تعني الزوجة والأطفال معاً:

- فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29) القصص

فلو كان موسى عائداً فقط بصحبة زوجته لما تركها وحدها ليستطلع خبر النار في تلك الأرض المقفرة، ولكنه ذهب وحده وترك زوجته مع أطفالها ربما لعدم قدرة المرأة اللحاق بزوجها مع أطفالها إلى ذلك المكان، فنحن نعرف أن موسى كان يترك من معه ليستطلع الأمر بنفسه، فقد ترك قومه وتعجل للقاء ربه وحيداً:

- وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (84) طه

ف عنفوان موسى وبطشه وشدته تجعله من النوع الذي يقدم على المخاطر وحيداً، فقد ترك أهله (زوجته وأطفاله) ليستطلع خبر النار، ونحن نعلم أن الفترة التي قضاها في أرض مدين كانت عشر حجج، وبالتالي لم يتجاوز أكبر أطفاله سناً الثامنة أو التاسعة من العمر على أكثر تقدير، ولو حسبنا عمر موسى حتى اللحظة لوجدنا أنه قد أصبح في الأربعين من العمر، فهو كما ذكرنا سابقاً قد هرب إلى مدين عندما "بلغ أشده واستوى"، وقد ذكرنا أنّ ذلك يكون في حوالي الثلاثين من العمر، ومكث في أرض مدين عشر حجج فيكون قد بلغ أو قارب سن الأربعين، وهذا كما نعلم هو عمر التكليف بالدعوة، فلقد تلقى سيدنا محمد خبر السماء قبل أن يصل سن الأربعين ولكنه أمر بالتبليغ في الأربعين من العمر، لذا عندما بلغ موسى ذلك العمر وهو قافل العودة إلى مصر ذهب إلى ذلك الواد يستطلع الخبر (خبر النار) فكان التكليف الإلهي له بالدعوة في ذلك المكان والزمان:

- وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13) طه

فيطلب منه ربه دعوة فرعون أولاً وقبل كل شيء:

- اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (24) طه
- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46) الزخرف

وهذا رد قوي على من يظن أن موسى كان نبياً لبني إسرائيل، بل كان نبيا لقومه وهم مجمل من أرسل لهم ذلك الرسول (وكانت رسالته هي رسالة التوحيد فهي إذاً عالمية لا تقتصر على عرق أو فئة أو طائفة)، وقد كان ذلك يوم أن بلغ الأربعين من العمر.

فنبي الله موسى قد تلقى من ربه حكماً وعلما يوم أن كان في الثلاثين من العمر:

- فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (13) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14) وَدَخَلَ

الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (15) القصص

وتلقى الأمر الإلهي بالدعوة بعد أن مكث عشر حجج في أرض مدين:

- **وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (13) طه**

ونتوقف هنا لنثبت عدة أمور توصلنا لها من خلال السرد السابق:

أولاً، عاش موسى فترة من الزمن متخفياً في أرض مصر نتيجة لمعارضته السياسية لفرعون.

ثانياً، حصل موسى من ربه على علم وحكم يوم أن بلغ أشده واستوى وكان ذلك وهو في الثلاثين من العمر.

ثالثاً، هرب موسى من ارض مصر إلى أرض مدين يوم أن قتل الرجل.

رابعاً، تزوج موسى بابنة شعيب يوم وصل أرض مدين.

خامساً، كانت زوجته يوم أن تزوجها امرأة (أرملة).

سادساً، قبل موسى بزواجه من بنت شعيب ورعى الغنم لأبيها عشرة حجج.

سابعاً، أنجب موسى ذرية من زوجته فأصبح له أهل.

ثامناً، رجع موسى إلى أرض مصر بصحبة أهله.

تاسعاً، تلقى موسى الأمر الإلهي بالدعوة عندما كان في الأربعين من العمر.

عاشراً، حصل ذلك في الواد المقدس.

وقبل الانتقال بموسى إلى أرض مصر ومقارعته فرعون، وأخيراً خروجه وبني إسرائيل إلى الأرض المقدسة، تظهر بعض الإشارات القرآنية التي تستوجب التوقف عندها وتجليتها لما سيترتب عليها من أمور جمة يصعب فهم القصة بدونها، ونعرض بعض هذه الإشارات على شكل تساؤلات مر عليها الفكر الإسلامي مرور (الكرام)، ومنها:

1. الفرق بين الـ أهل والـ آل

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن هناك فرقاً جوهرياً بين أهل الرجل وآل الرجل، ففي حين أن الزوجة هي من أهل الرجل إلا أنها قد لا تكون من آل الرجل.

(وهذا ما سنتناوله لاحقاً بحول الله وتوفيقه)

دعاء: فالله أسأل أن يأذن لي بعلم لا ينبغي لغيري إنه هو السميع العليم.

2. أين كان موسى متجها بعد أن غادر أرض مدين

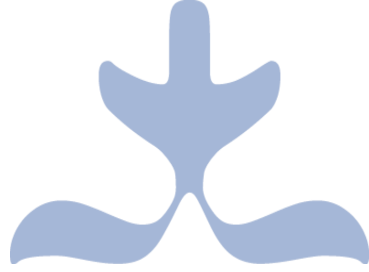
افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن موسى قد غادر بأهله من أرض مدين ولم يكن ينوي الذهاب إلى مصر حيث بلاد فرعون، لأن موسى يعلم أن للقوم عليه ذنب، كما أن موسى أكد على خوفه من القوم حتى يوم أن بعثه الله إلى فرعون:

- **وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (14) الشعراء**
- **قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33) القصص**

فهل كان موسى يجازف بنفسه وأهله ليضع نفسه بين يدي فرعون ليقتص منه؟

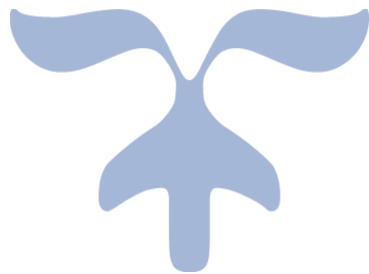
السؤال: أين إذن كان موسى متجهاً بأهله؟

دعاء: فالله أسأل أن يقضي أمره وينفذ قوله بمشيئته وإرادته لي الإحاطة بشيء من علمه لا ينبغي لأحد غيري إنه هو العليم الحكيم.



الجزء الرابع عشر

هل كان موسى ساحرا؟



هل كان موسى ساحرا؟

فالتساؤل الذي نثيره هو: هل نؤمن نحن المسلمين بأنّ موسى مثلاً قد شق البحر بالعصا؟ أو أن عصاه قد انقلبت إلى أفعى تأكل عصيّهم وحبالهم؟ وإذا كان الجواب – بلا شك – بالإيجاب، فكيف نستطيع تفسير ذلك باستخدام الطريقة العلمية في البحث؟! فقد يرد البعض بأنّ تلك معجزة. فنرد قائلين وهل يعني ذلك أنّها غير قابلة للتفسير؟ وإذا كان كذلك، فلِمَ لَمْ يدعونا الله سبحانه للإيمان بذلك فقط دونما تدبر أو تفكير؟ وبكلمات أخرى لِمَ جاءت دعوة الله لنا بإعمال العقل (التفكر والتدبر) في كل "ما يسمى معجزة" وردت في القرآن الكريم؟ فكيف يطلب الله منا التفكير في شيء لا يمكن تفس يره أصلاً؟ وإذا كانت هي فعلاً معجزة فلم يخبرنا الله بها ونحن الذين لم نراها بأم أعيننا؟ وماذا سيفيدنا إنْ نحن علمنا بها أو لم نعلم؟ فلقد أخبر الله في كتابه الكريم عن العديد من الرسل ولم يخبر عن الآيات التي قدّ موها لأقوامهم بشيء من التفصيل؟ إنّما ردنا هو: لِمَ يفصّل الله بعض آياته في كتابه الكريم؟ لقد حان الوقت أنْ ننظر إلى هذه الأمور من زاوية أخرى، وقد تناولنا هذا الاقتراح بشيء من التفصيل في المقدمة، وسنقدم مثالاً واحد هنا لتبرير ما نزعم أنه الحق من منظورنا فقط، فهو بلا شك لا يمثل الحق بعينه وإنما هو حق كما نراه نحن، لذا نرجو أن لا يؤخذ على محمل

غير أنه رأي يمكن أن يثبت صحته أو خطأه ومثالنا هنا هو عصا موسى.

إنّ السؤال الذي نحاول أن لا نغفل عنه عن قصد (كما فعل الكثيرون) هو: ما الفرق بين ما فعله موسى وما كان يفعله سحرة فرعون؟ ألم يلقي موسى عصاه كما ألقوا هم حبالهم وعصيهم؟ ألم تنقلب عصا موسى أفعى كما تحولت حبالهم وعصيهم؟ ألم تقهر عصا موسى حبال السحرة وعصيهم؟ فما الفرق؟ لماذا ننظر إلى ما فعله السحرة على أنه السحر، ولا نتقبل فكرة أنّ ما جاء به موسى هو من باب السحر كذلك؟ فمن أراد أن يجادل فعليه أن يقدم جواباً على التساؤل المشروع التالي: ما الفرق بين السحر الذي جاء به السحرة "وذاك الشيء" الذي جاء به موسى (إن لم يكن أصلاً سحرا أكبر من سحرهم كما صور ذلك فرعون نفسه)؟

- **قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (49) الشعراء**
- **قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (71) طه**

لا لا لا، لم يكن موسى ساحراً، ما الذي تقول يا رجل؟ اتق الله.

أقول: إن لم يكن ما جاء به موسى سحراً، فما هو؟ وكيف يختلف عن سحرهم؟ فما الفرق بين ما جاء به موسى وما جاء به سحرة فرعون؟ كيف نستطيع أن نبرهن لغيرنا (إن لم يكن لأنفسنا أولا) أن موسى لم يكن يستخدم أدوات السحر، ولم يكن ما قام به من باب السحر؟

تفنيد الفكر السائد

لقد تداول الفكر الإسلامي عبر قرون من الزمن فكرة مفادها أن قوم فرعون كانوا بارعين بالسحر لذا جاءت معجزة موسى (كما يرغبوا هم أن يسموها) من هذا القبيل، ألا ترى - عزي زي القارئ- أن في هذا التفسير اتهاماً مبطّناً على أن ما جاء به موسى كان من نفس صنعة السحرة؟

رأينا: إننا نظن - من حيث المبدأ- أن الذي قدّ مه موسى هو نفس الذي قدمه سحرة فرعون: فالطرفان ألقوا ما كان بأيديهم فتحولت إلى أفاعي (أو على الأقل أصبح يخيّل إليهم أنها تسعى)، وكانت أفعى (أو ثعبان) موسى أقوى من أفاعيهم فابتلعت جميع ما ألقوا. ومن يظن خلاف ذلك (كما نفعل نحن المسلمين) فعليه تقديم التفسيرات المرضية للتميز بين ما جاء به موسى من جهة وما جاء به سحرة فرعون من جهة أخرى، ولكننا نود هنا أن نثير سلسلة من التساؤلات قبل أن نقدم إجابتنا على السؤال الرئيس ألا وهو:

لماذا لم تتعطل قدرة السحرة على السحر بدلاً من اضطرار موسى أن يلقي ما بيمينه ويستخدم نفس طريقة السحرة لقهرهم والتغلب عليهم؟ فموسى نفسه توجه للسحرة لحظة أن القوا حبالهم وعصيهم بالخطاب التالي:

- **فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (81) يونس**

وأبسط ما يمكن أن تعنيه هذه العبارة – في رأينا- أن الله لا محالة مبطل سحرهم، ولكن لِمَ جاء إبطال سحرهم باضطرار موسى أن يلقي عصاه؟ فلم لم يبطل الله سحرهم مثلاً بعدم قدرتهم على الإلقاء أصلا؟ لماذا لم تتدخل إرادة الله بتعطيل قدرة عصيهم وحبالهم على التحول؟ ألم يكن ذلك يكفي موسى؟ ولِمَ لم يبطل الله سحرهم بغير إلقاء العصا واستخدام نفس الأسلوب؟ ولكن الذي حصل أنهم جاءوا بسحر عظيم (بنص القرآن الكريم) عندما القوا حبالهم وعصيهم:

- **قَالَ أَلْقُوا ۖ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (116) الأعراف**

فلم تتوقف قدرتهم على السحر، واضطر موسى عندها لإلقاء عصاه كما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم من قبله:

- **قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ (65) قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ (66) فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ (67) قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ (68) وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ (69) طه**

فموسى يقهرهم باستخدام التقنية نفسها، أليس كذلك؟ فلِمَ إذاً ننظر إلى تقنية السحرة على أنها سحر وإلى تقنية موسى على أنها ليست من باب السحر؟ أليس ذلك سؤال مشروع لمن أراد فهم هذا الدين قبل أن يكون سؤال مفهوم لمن أراد أن يتحدى هذا الدين؟!

والتساؤل الآخر هو: كيف فهم القوم أن ما جاء به السحرة هو سحر بينما ما جاء به موسى هو الحق؟

- قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (116) ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (117) فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (118) الأعراف

وبنفس المنطق: كيف فهم السحرة أنفسهم أنّ ما جاء به موسى ليس سحراً أقوى وأكبر من سحرهم؟ وكيف فهموا أنه هو الحق المبين؟ ولِمَ لم يطلبوا منه أن يعلمهم ذلك؟ فلقد كانت حجة فرعون على النحو التالي:

- قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ (71) طه
- قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (49) الشعراء

فكيف يمكن دحض افتراء فرعون هذا بالدليل والحجة؟

رأينا: نحن نظن أن الإجابة الشافية على مثل هذه التساؤلات تتطلب التفريق بين ما جاء به السحرة من السحر وما جاء به موسى من الحق، ونحن مطالبين كمسلمين تبيان بأن ما جاء به موسى ليس سحراً من صنعة السحرة، ومطالبين كذلك بالرد عل ادعاء وافتراء فرعون ومن ظنّ ظنّه أن موسى هو كبيرهم الذي علمهم السحر، ومطالبين بتقديم الجواب الشافي على السؤال الكبير: كيف نفرق بين السحر والحق؟

جواب: إننا نظن مفترين القول من عند أنفسنا بأنّ ما جاء به موسى وما جاء به السحرة هو شيء واحد:

لقد استخدم موسى عصاه كما استخدم السحرة حبالهم وعصيهم، وقد ألقى السحرة عصاهم وحبالهم، وألقى موسى عصاه رداً على فعلتهم، فتحولت عصا موسى إلى حية تسعى، وحبال السحرة وعصيهم تحولت كذلك فكانت تسعى، ولكن ما الفرق؟

رأينا: إن النص القرآني في هذا السياق غاية في الدقة في التمييز بين الحالتين، وسنورد بعض الآيات

القرآنية ونمعن النظر فيها لنستجلي الفرق:

- وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ (18) قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ (19) فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (20) طه
- فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (107) الأعراف
- فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (32) الشعراء

أما ما يخص السحرة فقد جاء النص القرآني بحقهم على النحو التالي:

- قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (116) الأعراف
- قَالَ بَلْ أَلْقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (66) طه

إن المدقق في الحالتين ربما يستطيع أن يلحظ بأن الهدف هو تحويل الشيء من حالة إلى حالة أخرى، أليس كذلك؟ ولكن يبقى التساؤل المشروع هو: ما الفرق بين التحول الذي حصل في حالة إلقاء السحرة حبالهم وعصيهم من جهة والتحول الذي حصل بعد أن ألقى موسى عصاه من جهة أخرى؟

رأينا: نحن نقرأ الفرق (كما جاء بنص الآيات القرآنية) على النحو التالي: في حين أن التحول في حالة موسى كان حقيقياً **"فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ"**، كان التحول في حالة السحرة وهمياً **"يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ"**، ولكن ما فائدة هذا الظن؟

أرجو أن لا تقتبس هذه العبارة بمعزل عن السياق الذي وردت فيه (لان ذلك سيكون كمن يقتبس لا تقربوا الصلاة).

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أنه إذا تحوّل الشيء إلى الحالة الأخرى، وأصبح فعلاً الشيء الجديد بأم عينه، فذاك هو الحق، وهو ما كان من أمر موسى:

- **فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (107) الأعراف**
- **فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (32) الشعراء**

وأما إذا كان التحوّل وهمياً، ليس أكثر من توهيم الناس وخداعهم على أنها شيء آخر (وهي في الحقيقة ليست كذلك)، فذاك هو السحر بعينه، وذاك ما كان من أمر السحرة:

- **قَالَ أَلْقُوا ۖ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (116) الأعراف**
- **قَالَ بَلْ أَلْقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (66) طه**

فأنت إن استطعت أن تحوّل الشيء فعلاً (على الحقيقة) فذاك لا شك هو حق، وهو ما لا يمكن أن يتم إلا إذا كان مبنياً على علم حقيقي، وأما إن كانت قدرتك تقتصر على خداع أعين الناس، فذاك ليس أكثر من

السحر، ولهذا لما رأى السحرة بأم أعينهم أن عصا موسى لم تكن خداعاً بصري اً، وإنما تحولاً حقيقياً، (وهم بلا شك الأكثر دراية بالسحر وفنونه) تهاوت قد ا رتهم على الفور وخروا سجد اً:

- **فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ (70) قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (71) قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ (72) إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ (73) طه**

فالسحرة استطاعوا أن يميزوا بين السحر (ما يقوموا هم به) والبينات (التي قدّمها موسى)، ولكن فرعون لم يستطع (وهو لم يكن أصلاً راغباً) أن يميز بين الحالتين، فأصر على أن موسى هو كبيرهم الذي علمهم السحر:

- قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ (71) طه
- قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ (49) الشعراء

فهو أصلاً قد بدأ القصة بالافتراض التالي:

- وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ (39) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ (40) الشعراء

أما العامة من الناس، فالأمر بالنسبة لهم سيان، فما يهمهم من الأمر هو مَنْ يقهر مَنْ، فلو تمكّن السحرة من غلبة موسى، لكان عامة الناس- بلا شك- إلى جانب السحرة، ولكن لمّا تمكن موسى من قهر السحرة انحازوا إلى جانبه، لهذا لمّا غاب موسى في لحظة ما، وظهرت قدرات السامري، استطاع التغرير بالسواد الأعظم منهم وإيقاعهم في شركه، ولا شك أن السامري استطاع القيام بمثل ما قام به موسى، وجاءت الدقة والروعة القرآنية في تصوير قدرات السامري في قوله تعالى:

- فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (88) طه

فالنص القرآني يبين لنا أنّ السامري لم يسترهب الناس ولم يسحر أعين الناس، بل أخرج لهم فعلاً عجلاً جسداً له خوار (للاستطراد في هذا الموضوع).

افتراء من عند أنفسنا: إننا نعتقد أن فكرة تحويل الأشياء من حالة إلى حالة أمر مسوغ في الفكر الديني، ولكن بشرط أن يكون ذلك التحوّل حقيقياً وليس وهمياً.

فنحن نستطيع تحدى السحرة بهذا المنطق، فهناك مثلا من يدعي مثل هذه القدرات، كأن يضع يده بالماء فينقلب دماً أحمر، فيقتنع نفر من الناس بتلك القدرات، ويصر أصحاب الفكر الديني على تحديهم بأن ذلك ليس إلا من باب السحر، وتضيع الحقيقة في هذا الجدل، ويصعب على العامة (من مثلي) استجلاء الحقيقة، فنقول أن الخروج من الموضوع ربما يكون بسيطا جداً: دعنا نأخذ ذلك الماء الذي انقلب إلى دم مثلاً إلى المختبر لنفحصه، فإن تبين أنه دم حقيقي، فذاك لا شك علم يستوجب علينا شكر من علمه، والإيمان والتصديق بقدراته كما آمنّا بعصا موسى وصدقناه، وأما إن نفشل في الاختبار، وتبين أنّه ليس أكثر من خداع أعين الناس فنرفضه، ونصرّ على انّه من باب السحر كالذي جاء به سحرة فرعون في يوم الزينة.

وهنا يبقى التساؤل الكبير التالي قائماً: لماذا لم يبطل الله قدرة السحرة على السحر من حيث المبدأ؟ أي لماذا لم تتدخل إرادة الله لحظة أن ألقى السحرة حبالهم وعصيهم فمنعها أن تتحول إلى أفاعي كما تخيلها من كان حاضراً؟ ولا ننسى أنّ موسى نفسه وقع في نفسه شيْ من الخوف:

- فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ (67) طه

لقد وصل سحرهم إلى موسى نفسه، ونحن نفترض أن الله كان قادراً أن يبطل قدرتهم على خداع الناس بالسحر، وتنتفي بذلك الحاجة إلى أن يستخدم موسى عصاه.

رأينا: إن الجواب على هذا التساؤل يتطلب إعمال التفكير في قوله تعالى على لسان موسى:

- **فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ (81) يونس**

فما معنى قوله تعالى **"إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُ"**؟ أي كيف يبطل الله شيئاً ما؟ إننا نعتقد دون أدنى شك أنّ ما جاء به موسى هو الحق وأن ما جاء به السحرة هو الباطل بدليل قوله تعالى:

- **۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ (117) فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (118) الأعراف**

السؤال: كيف أبطل الله سحرهم؟

رأينا: مما لا شك فيه أن الحق يتحقق بكلمات الله:

- **وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ (7) الأنفال**

فعندما ألقى موسى عصاه وقع الحق بكلمات الله:

- **۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ (117) فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (118) الأعراف**

ولا شك كذلك أن ما جاء به السحرة هو الباطل، فكيف يبطل الله الباطل؟ قال تعالى:

- **بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ (18) الأنبياء**

نعم، تلك هي طريقة إبطال الباطل، أن يُقذف بالحق، فلو انتفت قدرة السحرة على السحر في الأصل لما تم– في ظننا- إبطالها، لانّ ذلك لم يكن يتطلب قذفه بالحق، ولربما ما تيسر لنا عندها معرفة ذلك الحق، فحتى يعلّمنا الله الحق كان لا بد من وجود الباطل الذي لا يبطل إلا بقذفه بالحق، ونحن نعلم أن الحق من الله، وأنّ السحر الذي هو الباطل من الشياطين مصداقاً لقوله تعالى:

- **وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ (102) البقرة**

فموسى تلقى العلم من ربه، وتلقى السحرة علمهم من الشياطين، ولا شك أن علم الله حقيقي، ولكن علم الشياطين وهمي، فحتى نتلقى علم الله لا بد من وجود علم الشياطين، ليحدث الصراع بين الحق والباطل ولكن لحظة أن يُقذف الباطل بالحق تتهاوى قدرات المبطلين ويبين ضعفها.

افتراء من عند أنفسنا: إن مراد القول هنا هو أن معنى قوله تعالى **"مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُه"** ليس انتفاء قدرة السحرة على الإلقاء وحدوث السحر، وإنما يكون إبطاله بقذفه بالحق كما حصل في قصة موسى والسحرة في يوم الزينة. والفائدة من ذلك تتمثل في أن الله سيعلمنا الحق بكلماته التي يقذف بها الباطل فيبطل.

دعاء: فالله أسأل أن يعلمني كلماته الحق التي يقذف بها على الباطل ليدمغه فإذا هو ا زهق، إنه هو العليم الحكيم.

وهنا نتوقف مع ملحوظ طريف في قصة عصا موسى مع السحرة ربما تدعم افتراضنا هذا، فلقد ورد في كتاب الله أن عصا موسى تحولت مرة إلى أفعى ومرة إلى ثعبان ومرة كأنها جان:

- **فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (20) طه**
- **فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (107) الأعراف**
- **فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (32) الشعراء**
- **وَأَلْقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ (10) النمل**
- **وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ (31) القصص**

وسؤالنا هو لماذا تغيّر اللفظ في هذه الآيات: حية وثعبان وكأنها جان؟

لنبدأ النقاش بتحول العصا وكأنها جان، فلا شك عندنا أن عصا موسى لم تتحول إلى جان ولكنها كانت كأنها جان **"كَأَنَّهَا جَانٌّ"**، فالكاف للتشبيه، ونحن نفترض (مفترين القول) أن التشبيه في القرآن يحصل بسبب عجز لغوي: فالحية كانت تهتز كشيء ما، ولكن بسب عجز اللغة العربية التي لا تحمل في قاموسها المفردة الحقيقية التي يمثلها ذلك التحول، كان استخدام التشبيه مسوغاً لتقريب الصورة إلى الأذهان، فها هو موسى يضرب البحر بعصاه، فينفلق البحر نصفين فكان كل فرق كالطود العظيم:

- **فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ (63) الشعراء**

فكل فرق لم يكن طودا حقيقياً ولكن كان شيئاً آخر وأقرب صورة لذاك الشيء هو الطود، ولكن لما عجزت اللغة العربية عن توفير تلك المفردة في قاموسها، كان استخدام التشبيه أمراً مبرراً (لا مفر منه ما دام أن

القرآن قد نزل بلسان عربي مبين)، والا لِمَ لمْ يخبرنا الله ماذا كان ذلك الشيء فعلا؟

رأينا: نحن نفتري الظن أن المفردة الحقيقة التي تحول لها ذلك الشيء لم تكن متوافرة في العربية وأن أقرب مفردة لها في العربية هي الطود، فيحصل التشبيه باستخدام أداة التشبيه (وسنتعرض لهذا الموضوع بشيء من التفصيل عند الحديث عن أساسيات القص القرآني – باب التشبيه)

نتيجة: عصا موسى إذاً لم تكن جان ولكن كانت كأنها جان، كما يجب أن لا ننسى أيضاً أن عصا موسى لم تكن تشبه الجان على الكليّة (أي في كل شيء)، وإنما كانت تشبه الجان في شيء واحد فقط وهو الاهتزاز، مصداقاً لقوله تعالى: **"فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ"**

ولكن- مما لا شك فيه- أن عصا موسى كانت حية وكانت ثعبان على الحقيقة والكليّة، ولنرقب الدقة المتناهية في اللفظ القرآني:

- **فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ** (20) طه
- **فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ** (107) الأعراف

السؤال: ما فائدة أن يشبه الله لنا عصا موسى بالجان ونحن أصلاً لا نستطيع أن نتخيل تلك المخلوقات؟ فهل يعرف أحد منا ماهية الجان حتى يستطيع أن يتخيل كيف تحولت عصا موسى في ذلك الموقف؟

رأينا: نحن نظن أن في هذا التشبيه القرآني فائدة مزدوجة تتمثل في أنها تبين لنا ماهية تلك العصا كما تبين لنا ماهية الجآن في آن واحد، فنحن كما يقول المثل الشعبي نصيد عصفورين بحجر واحد، ولكن كيف ذلك؟

افتراء من عند أنفسنا: لو تدبرنا الموقف جيد اً وفهمناه على حقيقته ستتكشف لنا حقائق كثيرة غابت عن الأذهان قروناً من الزمن، ولكن كيف ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن طرح السؤال التالي ربما يفتح آفاقاً جديدة في الفهم، والسؤال هو: لماذا تحولت العصا؟

لمناقشة هذا الادعاء انظر مقالتنا تحت عنوان: هل للغة العربية قدسية خاصة؟ وسنفرد لهذا الموضوع بحثاً آخر مستقل تحت مبحث أساسيات القصص القرآني (لا مجاز في القرآن بل تشبيه) كأنها جان على وجه التحديد؟ فلماذا لم تتحول كأنها أسد أو كأنها نمر أو كأنها تمساح مرعب أو كأنها ديناصور منقرض؟

رأينا: إن الإجابة على هذا التساؤل تكمن في طرح سؤال آخر وهو: أين ألقى موسى عصاه عندما أمره الله بذلك؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن عصا موسى قد تحولت إلى جان على وجه التحديد لأن الله أمره أن يلقيها في النار التي كانت حاضرة هناك:

- فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (8) يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (9) وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ (10) النمل

وهذا في ظننا هو ما جعل موسى يخاف ويولي مدبرا ولم يعقب، فلا أخال أن موسى بشدته وقوته المعهودة يمكن أن يولي دبراً (بالرغم من الحضور الإلهي) من مجرد رؤية حية أو ثعبان، ولكن لا شك عندنا أن موسى قد رأى بأم عينه ما يمكن أن يجعله يهرب بالرغم من أن الله نفسه هو من يخاطبه في تلك اللحظة:

- وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ (31) ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ (32) القصص

افتراء من عند أنفسنا: نحن نتخيل الآن ماهية العصا على أنها كالجان لأنها كانت مشتعلة بسبب أنها ألقيت في النار، فخرجت تتلوى كالثعبان في حركته. ونفهم كذلك ماهية الجان على أنه يتلوى كالأفعى أو كالثعبان الذي يشبه العصا (التي تشبه في شكلها الثعبان)، ولكن الفرق الوحيد هو في أنه يكون مشتعلاً مادام أن الجان قد خلق أصلاً من نار:

- وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (27) الحجر

وسنرى لاحقاً بحول الله وتوفيقه علاقة ذلك بخروج يد موسى بيضاء من غير سوء:

- ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ (32) القصص

دعاء: فالله وحده أسأل أن يأذن لي بشيء من علمه لا ينبغي لغيري إنه هو العليم الحكيم.

وهنا يبرز التساؤل المثير التالي: لماذا تحولت عصا موسى مرة أفعى ومرة ثعبان؟ فهل الأفعى ثعبان وهل الثعبان أفعى؟

ربما من خلال طرحنا السابق نستطيع أن نحل هذه الإشكالية، ولكن كيف؟

رأينا: نحن نتمثل التصوّر التالي لما حدث: فما دام علم موسى كان مصدره الله، والله يحق الحق بكلماته، فموسى كان إذن يستخدم كلمات الله الحقيقية، ولا شك أنّ الله عنده الكلمات الحقيقية التي بها يتحقق ما يريد:

- إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82) يس

فيكون موسى قد تعلّم من ربه كيف تنقلب العصا إلى شيء آخر، فيستطيع بذلك أن يحولّ العصا إلى ما يريد باستخدام الكلمات الحقيقية، كأن تكون أفعى أو ثعبان، فإذا أرادها حيّة كانت حيّة، وإذا أرادها ثعبان كانت كذلك، فموسى إذاً يمتلك العلم الحقيقي وليس العلم الوهمي.

والمدقق في السياقات القرآنية يجد أن عصا موسى انقلبت إلى حية تسعى لحظة أن أم ره الله أن يلقيها، قال تعالى:

- **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ (18) قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ (19) فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (20) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ (21) طه**

ولكن عندما ذهب موسى إلى فرعون وقدّم له الآية البينة على صدق دعوته، ألقى عصاه فإذا هي ثعبان:

- **وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (104) حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (105) قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (106) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (107) الأعراف**
- **قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (29) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (30) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (31) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (32) الشعراء**

فعندما كان الأمر للعصا بالتحول صادراً من الله تحولت إلى: **"فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ"** وعندما صدر الأمر للعصا بالتحول في بلاط فرعون (وأحسب أن الأمر صدر من موسى نفسه) تحولت إلى: **"فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ"** فموسى إذاً لم تكن مهمته فقط إلقاء العصا، وإلا لتحولت العصا إلى حية تسعى في كل مرة يلقي موسى عصاه، ولكنه كان يفعل أكثر من ذلك، فهو يصدر لها الأمر بالتحول، لذا تحولت إلى ثعبان بدل أن تكون حية، والدليل على ما نزعم هو ما فعل السامري بتلك العصا يوم أن وقعت في يده، فاستطع أن يخرج للقوم (ليس حية ولا ثعبان) بل عجلاً جسداً له خوار.

(انظر الأجزاء السابقة تحت عنوان باب السامري).

وهناك كان الحديث عن عصا موسى مفترين الظن أن مفردة حية لا تعني مؤنث ثعبان كما ربما يفهم العامة، ولكن مفردة حية تعني فقط أن الحياة قد دبت فيها، لذا ندعو القارئ الكريم متابعة تصورنا لعصا موسى تحت ذلك الباب إن هو أراد الاستزادة من تخريصاتنا هذه). أما هنا فنحن منشغلين بالسؤال عن الفرق بين علم موسى من جهة وتخاريف السحرة من جهة أخرى.

فالمدقق في النص القرآني يجد أن حبال السحرة وعصيّهم لم تتحول إلى حية تسعى أو إلى وثعبان مبين، وجل ما عملوه هو أنهم سحروا أعين الناس بحركة تشبه حركة الأفعى:

- **فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (66) طه**

والسبب في ذلك – كما نزعم- هو أنّ السحرة لا يعلموا الكلمات الحقيقية التي بها يتم التحول الحقيقي، ولكنهم يملكوا الطريقة الوهمية التي تسحر أعين الناس، ولا تستطيع تحويل الشيء نفسه على الحقيقة.

ولكن الملحوظ الدقيق الذي نود التركيز عليه هنا (وهو ما يهم غرض بحثنا هذا) هو أننا نزعم أنّ تحقيق المراد في الحالتين (الحقيقية متمثلة بما فعل موسى والوهمية بما كان يفعل السحرة) يتم باستخدام "الكلمات" أو اللغة، فمن تعلم الكلمات من الله فهو بلا شك يمتلك "القول الحق"، ومن تعلم الكلمات من الشياطين فقد تعلم السحر، فهم يعلّمون الناس السحر، والفرق بين الحالتين هو بالتأكيد الفرق بين الحق والباطل، فتحقيق المراد بالكلمات "اللغة" هو لب عقيدتنا، وهو مقصد علمنا كله، فلا يمكن أن يتيسّر للناس الحياة الكريمة "الحياة الرغد" دون الحصول على ذلك العلم، وهو لا شك علم موجود بين أيدينا لا بد من أن نستخدمه ليتم لنا السبق على جميع أهل الأرض، جنّها و انسها، وسنستطيع تخطي كل الحضارات مهما وصلت تلك الحضارات من الرقي والتقدم بأدوات العلم المادي إن نحن بحثنا عن علمنا في ذلك الاتجاه- (للمزيد حول هذا الموضوع انظر مقالتنا تحت عنوان النظرية العالمية- الفصل الأول والثاني)

وقد يبادرنا البعض بالسؤال: هل هذا ممكن؟ هل فعلاً لهذا الكلام أصل في عقيدتنا؟ فنرد بالقول نعم، هناك أصل متين لمثل هذا القول في كتاب الله الكريم، فنحن نق أ ر موقفنا هذا في ضوء ما نفهم من قوله تعالى:

- وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا سَبَقُوْا اِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُوْنَ (60) الأنفال

فهذه الآية الكريمة تقرر ثلاثة أمور ظاهرة لنا:

أولا: أنه من قبيل الحسبة القول أن الذين كفروا قد سبقونا وأنهم بذلك يعجزون

ثانياً: أن الذين كفروا قد سبقوا

ثالثاً: أنهم لا يعجزون

ولنبدأ بمحاولتنا تبيان ذلك على التوالي، فالآية الكريمة تبيّن أنه من قبيل الحسبة القول أن الذين كفروا قد سبقونا وأنهم بذلك يعجزون، ونحن نفهم قول الله تعالى **"وَلَا يَحْسَبَنَّ "** على أنه من قبيل الخطأ في التقدير والفهم الاعتقاد أنّ الذين كفروا سبقوا وأنهم معجزون، فما معنى "الحسبان أو الحسبة" كما يرد في القرآن الكريم؟

إننا نظن أن مفردة **"يَحْسَبَنَّ"** ومشتقاتها- كما نفهمها في النص القرآني- تعني الخطأ في التقدير، فالقرآن الكريم يقابل بين مفردتين متضادتين وهما الحسبة (أو الحسبان؟) من جهة والتقدير من جهة أخرى، فنحن نفهم أنّ هناك تقدير صحيح حقيقي وحسبة وهمية خاطئة، أما التقدير الصحيح فيرد في القرآن الكريم بلفظ "التقدير" ومشتقاته، وأما الحسبة الخاطئة فترد بلفظ "الحسبة" ومشتقاتها.

تفنيد الفكر الشعبي السائد

لو أنت سألت أحدهم عن الحساب والحسبة لظن أن فيها الدقة، فهناك علم الحساب، ونح البشر عندما نقوم بحساب شيء ما فإننا نتوخى الدقة فيه، كان تحسب مثلاً ثمن سلعة معينة، عندها تحضر الآلة الحاسبة وتبدأ بإدخال الأرقام بكل عناية ودقة تستوجب الوصول إلى الرقم المنشود بلا زيادة أو نقصان، أليس كذلك؟

ولكن بالمقابل، عندما نقوم بتقدير القيمة فإننا لا نولي الدقة كثير عناية ونكتفي أن نصل إلى رقمي تقريبي، مادام أن الأمر قد صار من باب التقدير، وهنا نطرح السؤال التالي على الفور: هل هذا هو معنى "حسب ويحسب وحسبان، ومشتقاتها في كتاب الله؟ وهل هكذا يكون التقدير في كتاب الله؟

رأينا: عندما قرأنا آيات الكتاب الكريم وجدنا أن الأمر على المعكوس، ففي حين أن الناس يظنون أن في الحساب دقة متناهية وفي التقدير تضيع تلك الدقة، وجدنا أن كتاب الله يبين لنا - بما لا يدع مجالاً للشك- بأن عدم الدقة (لا بل الظن) يدخل في الحسبة ومشتقاتها (سواء كان في فعل حَسَب أو حَسِب)، بينما تكون أقصى درجات الدقة متوافرة في التقدير.

الدليل: لنستعرض السياقات القرآنية التي يرد فيها لفظ "الحسبة" و"التقدير" لتميز المعنى لكل منهما:

الحسبة

- أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ (214) البقرة
- لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ (273) البقرة
- وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ (78) آل عمران
- وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ (169) آل عمران
- وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ (178) آل عمران
- وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ (180) آل عمران
- لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (188) آل عمران

- وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ (71) المائدة
- فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ (30) الأعراف
- أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ (16) التوبة
- وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ (42) إبراهيم
- فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ (47) إبراهيم
- أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا (9) الكهف
- وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا (18) الكهف
- أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا (102) الكهف
- ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا (104) الكهف
- أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ (55) المؤمنون
- أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ (115) المؤمنون
- إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ (11) النور
- إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ (15) النور
- وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ (39) النور
- لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ (57) النور
- أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا (44) الفرقان
- قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (44) النمل
- وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ (88) النمل
- أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ (2) العنكبوت
- أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ (4) العنكبوت

- يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا (20) الأحزاب
- وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ (37) الزخرف
- أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ (80) الزخرف
- أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ (21) الجاثية
- أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ (29) محمد
- يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ (18) المجادلة
- لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ (14) الحشر
- ۞ وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ (4) المنافقون
- أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ (3) القيامة
- أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى (36) القيامة
- ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا (19) الإنسان
- أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ (5) البلد
- أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ (7) البلد
- يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ (3) الهمزة

لاحظ عزيزي القارئ- أن جميع السياقات القرآنية التي ترد فيها مشتقات (حسب) تؤكد معنى الخطأ في التقدير، وذلك أمر بشري، لأنّ البشر يعلموا فقط ظاهر الأشياء، وهم على غير دراية حقيقية بمضامينها، لذا فهم يحسَبون أو يحسِبون. فالجبال في ظاهرها جامدة، وجمع المال خير، وأخطأت ملكة سبأ في تقدير ما رأته (فحسبته لجة وهو في الحقيقة ليس كذلك)، والظمآن يحسب السراب ماءً، والناظر إلى أهل الكهف على هيئتهم تلك يحسبهم رقود، وحسب الكثيرون أن من يقتل في سبيل الله هو في عداد الأموات، وحسب الكافرون أنهم يحسنون صنعا، الخ.

نتيجة: كلما وردت لفظة الحسبة ومشتقاتها في القرآن الكريم ارتبطت بالبشر وكان عامل الخطأ متوافر فيها على الدوام.

عودة على بدء،

- وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا سَبَقُوْا اِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُوْنَ (59) الأنفال

ولكن ما يهمنا هنا هو أن الكافرين يحسبون أنهم سبقوا (وهذا هو الخطأ الذي وقعوا به كما وقعوا في غيره من باب نظرتهم المقتصرة على ظاهر الأمور أي الحسبة)، فهم عندما يرون التفوق العلمي والتكنولوجي (وحتى التربوي والأخلاقي) الذي تحصَل لهم، مقارنة مع ظاهر المقابل عند الأمم الأخرى، لا شك سيظنون أنهم فعلا قد سبقوا، ولكن الله يطمئن القلب المؤمن بالقول أن ذلك ليس أكثر من حسبة (أي خطأ في التقدير):

- وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا سَبَقُوْا اِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُوْنَ (59) الأنفال

وهنا يجب التنبيه إلى أمرين اثنين، وهما أن البعض قد يظن أن ذلك الخطأ في التفكير يقع فيه الكافرون فقط، وثانيهما أن البعض قد يظن أن الآية تتحدث عن الآخرة، فنرد على ذلك بما يلي: من الجدير في الانتباه أنَ هذه الحسبة لم تقع في قلوب الكافرين فقط، وإنما قد تقع كذلك حتى في قلوب المؤمنين، فالله سبحانه يوجه الخطاب في آية أخرى للمؤمنين أن لا يقعوا في ذلك الخطأ في التقدير كما يقع الكافرين فيه، قال تعالى:

- لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ (57) النور

فالخطاب هنا موجه للمؤمنين الذين ربما يتبادر لتفكيرهم أن الكافرين قد سبقوا خصوصاً إذا ما قاسوا الأمور على ظاهرها.

ويجد المدقق في هذه الآية الكريمة أن ذلك الإعجاز المزعوم للذين كفروا هو من أمر الدنيا، وذلك في قوله تعالى **"لَا تَحۡسَبَنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مُعْجِزِيْنَ فِيْ الْاَرْضِ"**، أما ما يخص الآخرة فهم بلا شك **"وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ"** كما تنص الآية الكريمة، ففي هذه الآية تطمينٌ من الله للمؤمنين أنه مهما بلغ الذين كفروا من التفوق (والنتيجة السبق) في هذه الحياة الدنيا فهم غير معجزين، فنقول للذين قنطوا من أن تلحق هذه الأمة بركب الحضارة لتباري الأمم الأخرى، لا بل ولتتفوق عليهم جميعاً، أنهم بذلك إنما يحسبون (أي يقعون في خطأ التقدير)، فالله سبحانه قد أقسم بأنّ كلمته الحق سوف تظهر ولو كره الكافرون.

دعاء: أسأل الله وحده أن يعلمني كلماته الحق التي بها نسبق الذين كفروا لأننا نعلم أنه لا يعجزون، إنه هو السميع المجيب.

وحري بنا أن نستعرض خيارات الأمة في هذا المجال، فلقد قدّم علماء الأمة خيارات متباينة لحال هذه الأمة عندما أرادوا أن يضعوها في ميزان الحضارة العالمية مع الأمم الأخرى، فكانت أبرز الأطروحات على النحو التالي:

1. ظن البعض أن اللحاق بركب المدنية الحديثة أمر مستحيل، فتفوق الأمم الأخرى علينا واضح لا يمكن مجاراته أو حتى اللحاق به، فكان الخيار لديهم هو الإقرار بالتبعية، وتقبل الحال كما هو في واقع الأشياء، فكانت نظرتهم واقعية بحته مدعومة بالمشاهدات المادية التي يستحيل إنكارها.

2. ذهب آخرون إلى أن التفوق المدني للأمم الأخرى هو تفوق محسوم لصالح الغرب، فما ينبغي علينا هو دعوتهم للإسلام، فإن هم أصبحوا مسلمين تحول ذلك التفوق بأكمله لصالحنا (فنكون بذلك قد امتلكنا ما لديهم بكل يسر وسهوله).
3. ذهب فريق ثالث إلى إمكانية اللحاق بالأمم الأخرى إن نحن اجتهدنا في استخدام التكنولوجيا والعلم كما يجب، وقد يتحصل ذلك لنا في غضون فترة زمنية معقولة.

وفي هذا السياق نود الإشارة أن جميع هذه الطروحات لا يدعمها الفكر الديني الذي نقدمه هنا، ولنبدأ بتبرير ما نزعم.

فـ إلى الذين يظنون أن اللحاق بالمدنية أمر مستحيل، ويظنون أن التبعية هي الواقع المحتوم على هذه الأمة، فإننا نقدم لهم الآيتين الكريمتين اللتين كنا بصدد تبيان بعض معانيهم وهما:

- وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا سَبَقُوْا اِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُوْنَ (59) الأنفال
- لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ (57) النور

فـ إن هم تذرعوا بالواقعية لتبرير موقفهم، تسلحنا نحن بآيات الله هذه لنثبت أنهم فقط إنما يحسبون (أي يقعون في تقدير خاطئ) لأنهم فقط إنما يُخدعون بظاهر الأمور.

أما من ظن بأن لا مفر من تفوقهم وواجبنا أن ندعوهم إلى الإسلام ليصبحوا هم جزء منا، فإننا نظن أن هذا خطأ أكبر، فهل يمكن أن يصبح سكان الأرض كلهم مسلمين، والله سبحانه يقول:

- وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ (99) يونس

فمشيئة الله قضت أن لا يكون الناس كلهم مؤمنين، وكم قدّم أنبياء الله من آيات بينات للناس حتى يكون مؤمنين، فهل حدث ذلك ولو مرة واحدة في تاريخ البشرية الطويل؟ إذاً، يستحيل أن يتحقق مثل هذا الطرح لأن الله قدّم للناس ما يمكن أن يهديهم إلى سواء السبيل، ولكنهم آثروا على الدوام النزول عند رغبة الشيطان.

وأما من ظن بأننا نستطيع اللحاق بركب الحضارة الغربية والتفوق عليها إن نحن تسلحنا بالتكنولوجيا والعلم كما فعلوا هم، فإننا نظن أن هذا هو الخطأ الأكبر، فنحن مهما حاولنا لن نستطيع أن نلحق بهم ناهيك عن التفوق عليهم، وحتى لو استخدمنا تلك التكنولوجيا فجل ما يمكن أن نعمل هو أن نساعدهم في تقدمهم العلمي، فلو ظهر العالم المسلم، وأبدع في علم الطب أو الهندسة أو الزراعة أو أي مجال من مجالات المعرفة فهو بذلك إنما يدعم ركب الحضارة الغربية إلى الأمام، فلن يسمى ذلك علماً من علوم المسلمين، لأن ما تحصل لهم هو أقوى بكثير من أن نغيره بشكل جذري، فنحن قد نحدث فيه تأثيراً ولكنه يبقى بصبغته الغربية بامتياز.

فما الحل؟ ألا ترى أنك لا ترضى بشيء؟ فما هو البديل (إن كان أصلاً هناك بديل)؟ يقول صاحبنا المعهود.

نقول نعم، هناك بديل نستمد مفرداته من كتاب الله تعالى، ويتمثل هذا البديل بأن لا نعدم الإيمان بأننا سنتمكن من اللحاق بهم لا بل والتفوق عليهم، وذلك مصداقاً لقوله تعالى:

- وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا سَبَقُوْا اِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُوْنَ (59) الأنفال

- لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ (57) النور

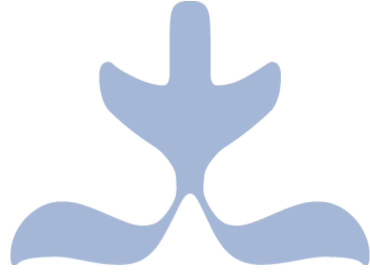
ولكن بشرط أن لا نستخدم أدواتهم وطرقهم في التوصل إلى المعرفة، أي أن لا نسعى إلى التفوق باستخدام علمهم والتكنولوجيا التي توصلوا هم إليها، حتى لا نكون مساعدين لهم في التقدم والرقي، إن لب القول هو أننا إنْ فكرنا في التقدم بطريقة لا تمت إلى تفكيرهم بصلة فسنكون قادرين على بناء علم جديد لا دخل لهم به، ويكون ذلك علماً خاصاً بنا بأدواته ومنتجاته، وعندها سنكون منافسين لهم لا مساعدين لهم، وربما يسأل البعض هنا ما هو ذلك العلم الذي سيكون منافساً لهم ولا يستخدم طرقهم وأساليبهم؟

إننا نؤمن أن علمهم هو من باب الحسبة (أي القابل للخطأ)، فجل العلم المادي الغربي يرتكز على مبدأ المحاولة والخطأ، أما ما يقابل الحسبة فهو التقدير، وهو العلم الذي لا يحتمل الخطأ، وهو العلم الذي نسعى للوصول إليه، وهذا ينقلنا لاستعراض السياقات القرآنية التي ورد فيها مشتقات (قدر) لنرى المقابلة كما يصورها النص القرآني:

- **التقدير**

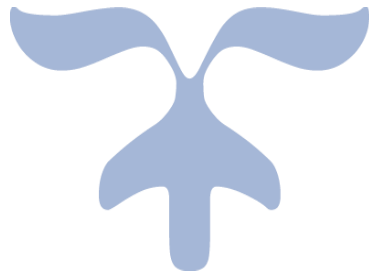
سنكمل لاحقاً قريباً بتوفيق الله وتدبيره.

دعاء: فالله أسأل أن يأذن لي بشيء من علمه لا ينبغي لأحد غيري إنه هو العليم الحكيم



مقالة

في تفضيل بعض الرسل



مقالة في تفضيل بعض الرسل (النبيين) على بعض مع عدم التفريق بينهم

لقد وردت في كتاب الله فكرة تفضيل بعض النبيين والرسل على بعض وفي الوقت ذاته وردت الدعوة إلى عدم التفريق بينهم، قال تعالى في موضوع التفضيل:

- ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة: 253]
- وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (55) الإسراء

أما بخصوص عدم التفريق بينهم، جاء قوله تعالى:

- قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136) البقرة
- آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (285) البقرة
- قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (84) آل عمران

وهدفنا في هذه المقالة هو محاولة تبيان كيفية التفضيل مع عدم التفريق بين النبيين (والرسل)

آدم وعيسى

لقد افترينا الظن في مقالة سابقة لنا أنّ آدم وعيسى عليهما السلام يمثلان النوع الأول من الحياة البشرية وهي التي امتلكت الحكمة، فكانا يستطيعان تنفيذ ما يريدان في الحال ودون الحاجة إلى الوسيلة "السلطان"، وهذا الأمر مثبت في القرآن الكريم في الآية القرآنية التالية:

- إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ 59 آل عمران

دحض الفكر السائد

تحدث العلماء أنّ هذه الآية مثلاً تثبت وجه الشبه بين آدم وعيسى من حيث مادة الخلق وكيفيته، ولكنّ السؤال الذي نطرحه هنا هو: إذا كانت مادة الخلق لآدم ومادة الخلق لعيسى عليه السلام هي التراب، فهل ذلك

يختلف عن مادة الخلق لبقية البشر؟ أليست مادة الخلق لجميع البشر هي التراب؟ وإذا كان كذلك فأين وجه الشبه بين آدم وعيسى الذي يجعلهما يختلفان عن غيرهم؟ !

وهنا قد يرد البعض بأنّ وجه الشبه هي طريقة الخلق. فنقول متسائلين: وهل طريقة خلق آدم مثل طريقة خلق عيسى؟ فآدم خُلق من دون أب ولا أم ، وعيسى من أم دون أب ، وبقية البشر من أب و أم، وهذه جميعها طرق مختلفة لا تثبت وجه الشبه. ويكفي أنْ نذكر هنا أنّ عيسى قد خلق في رحم امرأة كانت تأكل الطعام، بينما لم ينزل آدم عليه السلام من رحم امرأة وبذلك ينتفي تطابق الحالتين، فما وجه الشبه بين أدم وعيسى إذاً؟

رأينا: نحن نفترض في أطار هذا البحث أنّ الآية القرآنية واضحة جداً في إثبات وجه الشبة بين آدم وعيسى عليهما السلام، ولكن كيف؟

جواب: نقول أولاً أنّ الآية الكريمة تتحدث أصلاً عن عيسى بن مريم وما جاء الحديث عن آدم إلاّ في معرض الحديث عن عيسى، فتدبر - عزيزي القارئ- الآية الكريمة مرة أخرى:

- إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ 59 آل عمران

والدليل – لدينا- على ذلك يكمن ضمير الغائب المستخدم في الآية الكريمة عندما قال تعالى في الآية نفسها "خَلَقَهُ" ولم يقل "خلقهم أو خلقهما" مثلا)، فالحديث جار عن شخص واحد وهو عيسى بن مريم، ولذلك جاء الجزء الأول المكمل للآية ليثبت آدمية عيسى، وهو ما سبق في علم الله أنّ كثيراً من الناس سـ يسيئوا فهمه، فكم من الناس نسبوا الأولوهية لعيسى بن مريم بسب طريقة خلقه؟ فجاء التأكيد من الله سبحانه أولاً وقبل كل شيء أنّ عيسى بن مريم كغيره من البشر خُلق من تراب وإن اختلفت طريقة الخلق (فقال "خلقه من تراب") وهذا معنى الآدمية، أي أنْ تكون مخلوقاً من تراب. لذا يبقى السؤال قائماً: ما هو الشيء المميز لعيسى وآدم ويجعلهما مختلفان عن بقية الخلق؟

رأينا: أمّا الشيء المميز لآدم وعيسى من جهة وكافة الخلق من جهة أخرى فنظن أنه موجود في الشق الثاني من الآية الكريمة نفسها وهي قوله تعلى (ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ). ولكن ما الذي تعنيه هذه العبارة بالنسبة لهم؟ افتراء من عند أنفسنا: إنّنا نقرأ هذه العبارة على النحو التالي: إنّ الشيء المميز لآدم وعيسى أنْ الله سبحانه قد اختصهم بالكلمة وهي "كن فيكون"، وهذا يعني –بمنطقنا المفترى- أنهم يستطيعون تحقيق مرادهم بالكلمة، وبذلك فهم قد امتلكوا معرفة العلاقة بين الاسم والمسمى "أي الحكمة"، فهم الوحيدون من دون خلق الله كافة الذين تكلموا اللغة بتعليم مباشر من الله، ففي حين أن كل بشر قد نطق بلغة تعلّمها من قومه إلا آدم وعيس.

- وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(4)

السؤال: من هم قوم آدم أو قوم عيسى بن مريم؟ فهل تعلم آدم لغة قوم؟ وهل تعلم عيسى لغته من أحد؟

فلقد خلق الله آدم وأول ما علمه النطق:

- وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ 31 البقرة

وأنطق الله تعالى عيسى لحظة ولادته فقال تعالى:

- وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ 46 آل عمران
- فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا(33) مريم

فلقد كانت تلك نعمة خاصة بعيسى نفسه:

- إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً... المائدة 110

ويكمل سبحانه وتعالى الآية السابقة ليثبت حصول العلم المصحوب بالحكمة:

- ...وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِىءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْموتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ 110 المائدة

ويثبت سبحانه الحكمة لعيسى عليه السلام في مواطن أخرى:

- وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ 48 آل عمران
- وَلَمَّا جَاء عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (63) الزخرف

ولا ننسى أيضاً أن الله قد قال في كتابه الكريم أن الناس قد خلقوا من ذكر وأنثى:

- يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(13)

لذا لابد من طرح التساؤل الكبير التالي: هل آدم وعيسى بن مريم من الناس إذن؟

افتراء خطير جداً جداً من عند أنفسنا: نحن نتجرأ على البوح بالاعتقاد بأن آدم وعيسى بن مريم لا ينتمون إلى فصيلة الناس، فهم لم يخلقوا من ذكر وأنثى . فمن هم إذاً؟

رأينا: نحن نظن أنهم بشرا:

- إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (72) ص 71-72

لذا نحن نظن أن هذا سببا في أن تأتي المقارنة في كتاب الله بين آدم من جهة وعيسى بن مريم من جهة أخرى:

- إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ 59 آل عمران

فنحن لا نجد أن مقارنة قد حصلت بين آدم وشخص آخر سوى المسيح عيسى بن مريم. فلماذا؟

رأينا: إنها اللغة (علم الأسماء) التي تعلماها (آدم وعيسى) مباشرة من الله. وهو ما نسميه في أطار هذا البحث بالحكمة.

وهنا يتبادر السؤال التالي إلى الأذهان: إذا كان آدم وعيسى مثلاً قد امتلكوا الحكمة التي بها يستطيعون تنفيذ ما يريدون، فما الذي يمنعهم أنْ يكونا إذاً إلهين؟

جواب: ألم يأخذ بعض الناس مقدرة عيسى عليه السلام على إحياء الموتى مثلاً كدليل على أولوهيته؟! نقول هنا أنّ هذا بالضبط ما قد أُسيء فهمه. وكذلك ألم يبدأ الشيطان بالوسوسة لآدم من هذا المنظور؟

- فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ 20 الأعراف

فآدم عندما تقبل وسوسه الشيطان "لم نجد له عزماً"، أمّا عيسى عليه السلام فلم يتقبل ذلك المنطق بل أصرّ على أنّ معرفته مرتبطة بالمصدر الذي علّمه الحكمة وهو الله سبحانه وتعالى، فجاء قول الله تعالى على لسان عيسى بن مريم:

- وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِىءُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ 49 آل عمران
- إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِىءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ 110 المائدة

وكانت النتيجة متفاوتة في الحالتين، فقال الله عند الحديث عن آدم:

- وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (125) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى (126) طه 124-126

أما في حالة عيسى عليه السلام فكانت:

- إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ 55 آل عمران

ونعود هنا لطرح التساؤل نفسه: إذا كان عيسى بن مريم مثلاً يعرف العلاقة الحقيقية بين الاسم والمسمى "أي الحكمة" التي بها يستطيع تنفيذ مراده دون الرجوع إلى الله، فما الذي يمنعه إذاً أنْ يكون إلهاً؟!

رأينا: نقول هنا رداً على أدعياء أولوهية عيسى بن مريم عليه السلام أنّ هذا استنتاج متسرع ذلك لأنّ الله قد أعطى عيسى بن مريم الحكمة غير كاملة، أي أنّه من حيث المبدأ امتلك الحكمة ولكنّه لم يمتلكها كلها، فهو قد أحاط بشيء من علم الله ولكنه لم يحط بعلم الله كله، وذلك مصداقاً لقوله تعالى:

- ..."وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ" البقرة(255)

فهو على سبيل المثال قد امتلك الحكمة المسيرة لعلم الطب فيستطيع أن يحيي الموتى بإذن الله، وهو يستطيع أنْ يخبرهم بما يأكلون وما يدخرون، ولكنّه لم يكن يمتلك الحكمة المسيرة لعلم الهندسة أو علم الفيزياء مثلا، وربما يتساءل القارئ الكريم هنا بالقول: وهل هذا مثبت في القرآن الكريم؟ أي هل هناك دليل من القرآن على أنّ حكمة عيسى عليه السلام لم تكن شاملة لكل شيء؟

جواب: نعم. فعندما طلب مثلاً بنو إسرائيل من عيسى عليه السلام أنْ ينزّل عليهم مائدة من السماء:

- إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء قَالَ اتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ 112 المائدة

فهل استطاع عيسى عليه السلام أنْ ينزّل تلك المائدة دون الرجوع إلى الله؟ وهنا نجد أنّ عيسى بن مريم عليه السلام عاد ليكون في هذا الأمر مثله كمثل الرسل جميعاً يطلب العون من الله بالدعاء، قال تعالى على لسان عيسى بن مريم :

- قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ 114 المائدة

فهذا دليل واضح على أنّ عيسى عليه السلام في هذا الأمر كان أقرب إلى أسلوب موسى عليه السلام الذي قال:

- فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ 24 القصص

والشاهد في هذا الأمر هو تساؤل بسيط: لماذا كان عيسى عليه السلام يحيى الموتى دون الرجوع إلى الله بالدعاء، ولكنّه لم يستطيع أنْ يفعل ذلك في تنزيل المائدة من السماء؟

رأينا: كان عيسى بن مريم يملك جانب الحكمة في علم الطب، ولكنه لم يكن يملك الحكمة كلها، فهو بذلك لا يكون إلهاً بل نبي عُلِّم كما عُلِّم آدم من قبل.

دعاء: اللهم إنّي أسألك علماً وحكمةً كعلم عيسى وحكمته

عيسى وموسى

ويتبادر إلى الذهن سؤال مفاده: لماذا عيسى من دون الرسل جميعاً أعطي القدرة على إحياء الموتى وشفاء الأكمة والأبرص؟ لِمَ لم يكن ذلك لإبراهيم أو لموسى أو حتى لمحمد عليهم صلوات الله جميعاً وسلامه؟

دحض الفكر السائد

تحدّث البعض في هذا المجال بأنّ الناس في تلك الفترة كانوا بارعين في علم الطب، فكان التحدي من جنس الصنعة، ولكنّا نقول هل حقاً كان هو الحال؟ هل كان الطب متقدماً في تلك الفترة لدرجة إحياء الموتى وشفاء الأكمة والأبرص؟ ألا تصلح تلك "المعجزة" (إنْ صح القول) لجميع الأزمنة وكافة العصور؟! فهل لو كان ذلك يجري على أيدي قوم إبراهيم أو موسى ألا تكون بذلك "معجزة" (كما يحب أهل الشريعة أن يسموها)؟ وماذا عن "معجزة" القدرة على الكلام في المهد؟ فهل كان أهل ذلك الزمان يتحدثون بسن أصغر من سابقيهم حتى جاءت معجزة عيسى في الكلام في المهد؟ من يدري!!!

رأينا: نقول إنّ في ذلك تبسيط للمسألة وهروب من الإجابة أو حتى البحث عن الحقيقة، فلا يوجد دليل مادي أو عقائدي يثبت أنّ مجتمع عيسى بن مريم كان بارعاً في علم الطب، بل هي "معجزة" عيسى بحد ذاتها سوءاً كان مجتمعه بارعاً أو غير بارع في ذلك العلم. والسؤال إذاً لماذا أُختص عيسى بذلك دون الرسل كافة؟!

افتراء من عند أنفسنا: نقول وبالله التوفيق أنّ عيسى عليه السلام هو الوحيد من بين الرسل الذي عُلّم كما عُلّم آدم عليه السلام من قبل "معرفة المسميات الحقيقية للأشياء"، وبالتالي فهو قد منح "الحكمة" التي بها ينفذ مراده، قال تعالى:

- وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ 48 آل عمران
- ...وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ... المائدة 110

وهذا دليل على أنّ عيسى (كباقي الرسل) قد مُنح البينات:

- أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (9) إبراهيم

ولكنّه مُنح أكثر من ذلك وهي الحكمة "معرفة العلم وراء تلك البينات: "

- وَلَمَّا جَاء عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ 63 الزخرف

فموسى عليه السلام كان قد جاء بالبينات- العصا- ولكنّه لم يكن يعلم الحكمة وراء ذلك، فمن أجل تحقيق مراده كان لا بد لموسى (وهو الذي لم يُعلّم كما عُلّم عيسى) أنْ يمتلك طريقة مختلفة، والقراءة المتأنية للآيات التي تتحدث عن موسى تبين أنّ موسى عليه السلام كان يعود إلى الله في كل صغيرة وكبيرة، وهذا ما نسميه في إطار هذا البحث "بالفطرة السليمة"، أي الرجوع إلى من يملك الحكمة الكاملة وهو الله سبحانه لتحقق المراد، وبالتالي فإن موسى عليه السلام يستخدم الفطرة "ربط الأشياء بأصلها الإيماني الاعتقادي" ليتحقق له ما يريد, والقراءة المتأنية لسورة القصص مثلاً تبيّن أنّ موسى عليه السلام كان يستخدم الفطرة في كل شيء، فهو لا يستطيع تنفيذ مراده بنفسه, قال تعالى في القرآن على لسان موسى:

- قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ..." القصص 16
- ..."قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ " القصص 21
- ..."قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ" القصص 22
- ..."فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ" القصص 24

وبالرغم أنّ موسى عليه السلام كان بيده "العصا" لحظة أنْ كاد فرعون وجنوده أنْ يدركهم عند اليم، فلم يضرب موسى البحر بالعصا مباشرة، بل رجع إلى الله ليقول له اضرب بعصاك البحر، قال تعالى:

- "فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) الشعراء 61-63

وبالرغم من تكرار هذه الحادثة عندما استسقى لقومه، إلا أنّ موسى لم يكن يعرف القوة العجيبة التي أودعها الله سبحانه في تلك العصا ، قال تعالى:

- "وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً..." البقرة 60

فكان جل ما يعرفه موسى هو إيمان بأنّ الله سيهديه, ولكنّه لم يكن يعرف أنّ العصا التي كان يملكها قد تفعل له ذلك، والجواب بكل يسر وسهولة أنّ موسى كان يملك البينات- العصا- وهي ما قد يكون المقصود بالآية التي تتحدث عن سلطان موسى:

- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (23) غافر

فبالرغم من امتلاكه السلطان، لم يكن يعرف الحكمة منها. وليس أدل على إيمان موسى بالفطرة (مع عدم امتلاكه الحكمة) من قصته مع ذلك الرجل الذي أحب أهل العلم والدراية أن يسمه بـ "الخضر" التي سيرد ذكرها لاحقا. ونخلص إلى نتيجة مفادها أنّ كلاّ من موسى وعيسى قد أعطيا "علما"، ولكن في حين أنّ علم موسى كان مرتبطا بالفطرة كان علم عيسى مرتبطا بالحكمة. قال تعالى:

- تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (253) البقرة

دعاء: اللهم إني أسألك فطرةً وسلطاناً كفطرة موسى وسلطانه

موسى ونوح وإبراهيم

نحن نعرف أنّ الله تعالى قد أجاب مراد موسى الذي يمتلك الفطرة السليمة بالإيجاب، فغفر له، ونجاه من فرعون وملئه، وهداه إلى طريق مدين، وجاءته إحداهما تدعوه إلى بيت أبيها ليجزيه أجر ما صنع لهما، وأغرق الله فرعون ومن معه، وشرب قوم موسى كل من عين الماء التي خصصت لهم.

والقاري المتأني يلحظ أمراً دقيقاً وهو أنّ إجابة مراد موسى كانت في الحال، وهذا دليل على أنّ الذي لا يملك الحكمة لا بدّ له من الرجوع إلى من يعرف الحكمة ليحقق له مراده، فكان رجوع موسى إلى الله في كل أمر خير دليل على ذلك، ولا يورد القرآن الكريم أي موقف رد الله فيه طلباً لموسى عليه السلام (للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان صلاة الاستسقاء) .

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هنا هو: إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لم يحقق الله تعالى مراد نوح عليه السلام في ابنه؟! ولماذا لم يحقق الله تعالى لإبراهيم مراده في والده؟!! ونقول بكلمات أخرى، إذا كان الرجوع إلى من يملك الحكمة (وهو الله سبحانه) يحقق المراد، فلماذا لم يتحقق مراد نوح في ابنه على الرغم من أنّه نبي مثل موسى فقد عاد إلى الله في ذلك كما كان يفعل موسى على الدوام؟! والمنطق نفسه ينطبق في قصة إبراهيم مع أبيه. وقد يتسرع القارئ ليقول أنّ هذا التساؤل ينقض من حيث المبدأ الافتراض السابق برمته.

رأينا: نقول وبالله التوفيق رداً على ذلك ما يلي: أنّ نوحاً ليس كعيسى، فلم يكن يملك الحكمة التي بها يستطيع هداية ابنه دون الرجوع إلى الله، فهو إذاً كموسى لا يملك الحكمة ولكنه يملك الفطرة السليمة "ربط الأشياء بأصلها الإيماني الاعتقادي"، فكان إذاً بحاجة أنْ يرجع بالدعاء إلى الله ليحقق له مراده، ولكن يبقى السؤال الحتمي وهو: لماذا لم يُستجاب مراد نوح في ابنه؟

إنّ القارئ المتأني ربما يلحظ أمراً (نظن أنه) غايةً في الدقة والروعة في القرآن الكريم ملخصه أنّ نوحاً عليه السلام عندما عاد إلى الله في ابنه لم يعد إليه كما عاد موسى بالدعاء والرجاء (أي بالفطرة)، بل عاد إليه بالحوار، فالقراءة المتأنية للآية القرآنية تشير أنّ نوحاً لم يدعو الله أنْ ينجّي له ابنه، بل سرد السبب الذي (حسب ظنه) يجب أنْ يتخلص ابنه من الغرق:

- وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي ... هود 45

فقد أخطى من ظن أنّ ذلك دعاء من نوح لنجاة ابنه من الغرق، لذا جاء الرد الإلهي المناسب للحال، فكان الرد الإلهي المباشر أنّك مخطئ يا نوح في استنتاجك:

- قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ" هود 46

فالله – لا شك- يرد على السؤال كما يجب أن يكون الرد، فلا يمكن أن يقبل الله رجاء نوح في ابنه إذا كان سؤال نوح نفسه لا يحمل معنى الرجاء، فالرد – لا شك- من جنس الطلب. ونحن نكاد نجزم هنا أنّه لو جاء طلب نوح على صيغة دعاء بأنّه لا حول له ولا قوة، وأنّ الله هو الذي يملك القدرة على هداية ابن نوح، وأنّ نوحاً يطلب ذلك من ربه مباشرة، لكان الجواب الإلهي - في ظننا- إيجابي, ولكن سبق في علم الله الأزلي أنّ نوحاً لن يتوجه إلى الله بالدعاء فكان ابنه من المغرقين. والقارئ مدعو ليعقد هنا مقارنة في هذا السياق بين نداء نوح ربه من جهة كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي ... هود 45

ونداء أيوب ويونس وزكريا من جهة أخرى:

- وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ 83 الأنبياء
- وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ 87 الأنبياء
- وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ 89 الأنبياء

ففي حين أن دعوة أيوب وذا النون وزكريا تبعتها الاستجابة الفورية:

- فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ 84 الأنبياء
- فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ 88 الأنبياء
- فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ 90 الأنبياء

لم تحصل مثل هذه الاستجابة في حالة نوح عليه السلام، ونحن نرى أنّ مثال نوح هنا هو مثال الملائكة الذين توجهوا إلى الله بالحوار عندما أخبرهم بأنّه مستخلف غيرهم في الأرض "فقالوا" محاورين :

- ...قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ... البقرة 30

فجاء الرد الإلهي الفوري:

- " ...قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ" البقرة 30

فالملائكة إذاً لم يتوجهوا إلى الله بأن يجعلهم مستخلفين في الأرض، بل توجهوا إليه بالحوار، فكان في سابق علم الله أنّهم لن يكونوا مستخلفين في الأرض. وخلاصة القول أنّ نوحاً لم يدعو لابنه بالنجاة بل حآجّ ربه في نجاة ابنه، ولقد افترضنا أنّه لو توجه نوح إلى ربه بفطرته بالدعاء لربما استجيب طلبه، والدليل على ذلك أنّ نوحاً عندما توجّه إلى ربه بالدعاء لهلاك قومه، نجد أنّ الله قد استجاب دعاءه في الحال. وفي هذا السياق يسرد القرآن الكريم قصة دعاء نوح على قومه، فقد ذكر الأسباب الموجبة لهلاكهم، قال تعالى على لسان نوح عليه السلام:

- قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (6) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (7) نوح 5-7

ولكنّ نوحاً لم يتوقف عند ذلك، بل أردف هذه الحجج بالدعاء إلى الله بهلاكهم:

- وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا نوح 26

والملحوظ الدقيق هنا يتلخص أنّ نوحاً طلب من الله تعالى أنْ لا يبقى على الأرض من الكافرين أحداً، فهو بذلك قد شمل ابنه بالهلاك في دعاءه، فهو يعلم يقيناً أنّ ابنه كان من الكافرين:

- وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ 36 هود

وعندما حصل الطوفان وشعر أنّ ابنه هالك لا محالة، ربما تحركت لديه عاطفة الأبوة مع يقينه أنّ ابنه هالك كونه من الكافرين, فكان مراده بنجاة ابنه من منطلق الأبوّة وليس من منطلق النبوّة، فما كان لنوح (وهو النبي المرسل) أنْ يدعو لأحد من الكافرين بالنجاة حتى ولو كان ذلك الشخص هو ابنه، وعندما دعا نوح بالهلاك على الكافرين من قومه، استجاب الله دعاء نبوته، فيكون نوح بذلك هو من دعا على ابنه كونه من الكافرين بالهلاك، ولم يدعو له بالنجاة. والقراءة اللغوية للآيات القرآنية التي تتحدث عن نوح وأهله تشير إلى تفسير أكثر غرابة، فلنورد هذه الآيات وأترك للقارئ فرصة الوصول إلى النتيجة بنفسه خشية تضييع الفكرة الرئيسية والولوج في موضوع فرعي يقحمنا في جدل نحن في غنًى عنه هنا:

- وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (46) هود 45-46

- وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (77) الأنبياء 76-77
- ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ التحريم 10

والتساؤلات التي نثيرها هنا ونترك للقارئ حرية الإجابة عليها تتلخص بما يلي:

1. لماذا اختار نوح أنْ يخاطب ربه بهذا السبب " فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي"؟
3. هل نفهم رد رب العالمين بالقول " قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ" على المجاز أم على الحقيقة؟
4. ماذا يعني قول رب العالمين "إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ"؟
5. ما هي ماهية خيانة زوجة نوح؟
6. ما علاقة " إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ" ب "إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ"؟
7. ما علاقة " إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ" و "إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ" بخيانة زوجة نوح؟
8. كيف يمكن ربط ذلك كله بقوله تعالى "وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ"؟ أي كيف يقول رب العالمين أنّ نوحا قد نجا وأهله "فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ" في حين أننا نعلم أن ابنه قد هلك؟

إنْ صحّ طرح هذه الأسئلة فإنّ نوحاً كان يريد التأكد من شك يخالج نفسه وليس الدعاء لابنه بالنجاة، ومصداق ذلك قوله تعالى مخاطباً نوحاً:

- ..."فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ هود 46

ولعلنا هنا بحاجة أنْ نلفت انتباه القارئ الكريم إلى قراءة النص التالي كاملاً ليحاول فهم الآية السابقة في سياقها الأوسع:

- ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (10) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (12) التحريم 10-12

فالسؤال المطروح هو: ما دام أنّ آيات القرآن الكريم مترابطة وتعكس وحدة الموضوع (thematisation) فَلِمَ تُذكر مريم بنت عمران مع هؤلاء النسوة على وجه الخصوص؟ فقد يرد البعض بالقول أنّ الله يعطي مثال المرأة المسلمة مقارنة مع مثال المرأة الكافرة، فنقول نعم، ولكن ألا تتم الموازنة بذكر امرأة فرعون وينتهي الأمر؟ فنحن نعرف أنّ القرآن الكريم عندما أعطى مثال امرأة نوح وامرأة لوط وقابلهما بمثال امرأة فرعون كان يتحدث عن نساء متزوجات، ولهذا ربما لم يدمج مثال امرأة فرعون مع مريم بنت عمران في آية واحدة، فتلك امرأة متزوجة وهذه بنت بِكْر (لم يمسسها بشر). وقد يقول قائل وما دخل ذلك

بالخيانة وبنسب ابن نوح، فنقول إنّنا بحاجة أنْ نمعن النظر ولو للحظات في الخطاب الذي جاء عن ابنة عمران، فيأتي السؤال المباشر لِمَ جاء ذكر هذه المرأة الطاهرة بأنها "الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا"؟ أي لِمَ اختار الله سبحانه للحديث عن عفة ابنت عمران في هذا السياق على وجه الخصوص؟ فلِمَ لَمْ يتحدث عن صلاحها أو تقواها أو عن كثرة سجودها وركوعها أو عن رغبة القوم كفالتها أو مخاطبة الملائكة وبشراهم لها؟ فلقد ذكرت مريم في أكثر من موضع في القرآن ولكن لم يرد الحديث عن طهرها إلاّ في المواقف التي تلتزم الدفاع عنها وتبرئتها :

- وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا النساء 156
- فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا مريم 27

والسؤال الذي نعود لنطرحه هنا: لماذا جاء ذكر طهارة مريم من الاتهام الجنسي على وجه الخصوص في معرض الحديث عن امرأت نوح وامرأت لوط وامرأة فرعون؟ إنّ الجواب البسيط يكمن في أنّ مريم ابنة عمران على النقيض تماماً مع امرأت نوح وامرأت لوط ليس فقط في الإيمان والكفر وإنما أيضا في الطهر والخيانة، لذا جاء التناقض غاية في الدقة والروعة، ففي حين أنّ امرأت نوح وامرأت لوط ذكرتا على أنهما اقترفتا الخيانة "فَخَانَتَاهُمَا"، جاء ذكر ابنت عمران على أنّها أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا. ولعل البعض يتصدى لهذا المنطق بالقول: وما دخل امرأة فرعون إذاً بالموضوع؟ نقول أنّ هذا المنطق نفسه ربما يحل المسألة برمتها وذلك عندما نحاول أن نفهم لماذا اختارت امرأة فرعون الموت على الحياة وهي زوجة الحاكم الأول وحياتها رغد وطلبها مجاب. والقرآن الكريم لا يذكر في أي موقف أنّ فرعون قد أساء معاملة امرأته، بل على العكس فقد كان طلبها مجاب في الحال، وليس أدل على ذلك من طلبها الإبقاء على حياة موسى وتبنيه وهو:

- وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ القصص 9

فلِمَ إذاً تفضل الموت على الحياة وهي السيدة الأولى؟ إنّ إمعان النظر في الآية نفسها يجيب على هذا التساؤل بكل وضوح، فلقد علّلت امرأة فرعون رغبتها في الموت على الحياة لسببين لهما علاقة بزوجها وهما النجاة أولا من فرعون نفسه وثانياً النجاة من عمله:

- وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ التحريم 11

فالآية القرآنية لا تبين أنّ امرأة فرعون قد طلبت النجاة من عمل فرعون فقط وإلاّ لجاء الخطاب على نحو "ونجني من عمل فرعون" ولكن جاء الخطاب على نحو " وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ" أولاً و "وَعَمَلِهِ" ثانياً، ويأتي السؤال التالي: لِمَ تطلب امرأة فرعون النجاة من زوجها نفسه ومن ثم النجاة من عمله؟

رأينا: نقول أنّ طلبها النجاة من عمل فرعون أمر جلي من ما كان يعمل الرجل على الملأ، وأما النجاة من فرعون نفسه فهو النجاة مما كان يعمل مع زوجته على وجه الخصوص: إنّها العلاقة الزوجية، وهذا يعني بالضرورة أنّ امرأة فرعون قد فضّلت الموت على الحياة لتنهي بذلك العلاقة الزوجية مع فرعون، فهي إذاً

ترفض أنْ تستمر علاقتها الجنسية مع شخص كافر وهي امرأة مؤمنة. وفي هذا درس كبير لنا، فهي كإنسانة مؤمنة لا يمكن أنْ تخون زوجها، ولكن في حالة امرأة فرعون فالزوج كما نعلم كافر، فالخيار بالنسبة لها غاية في الصعوبة: فهي لا تستطيع الخيانة كما فعلت امرأت نوح وامرأت لوط، ولكنها في الوقت نفسه لا تستطيع الاستمرار في إقامة علاقة زوجية سليمة مع رجل كافر، فكان خيارها السليم الرجوع إلى الله ليخلصها مما هي فيه من الحيرة، فاختارت الموت على الحياة لأنّه بالنسبة لها الحل الأمثل للخلاص من علاقة مع كافر من جهة ولعدم الرغبة في الوقوع في الخيانة من جهة أخرى. وخلاصة القول أنّ ذكر هؤلاء النسوة في مقارنة في نهاية سورة التحريم كان جله المقارنة بين المؤمن والكافر ليس فقط في الإيمان والكفر وإنما في الإخلاص والخيانة، إنها إخلاص المؤمن وخيانة الكافر (وسنتعرض لهذا الموضوع بالتفصيل لاحقاً بحول الله وتوفيقه).

وللعودة للحديث عن نوح "وابنه" نورد أيضاً ملحوظا غاية في الدقة قد يثبت صحة ما نذهب إليه هنا (أي أنّ نوحاً لم يطلب النجاة لابنه أصلاً) هو التوقيت الذي اختاره لمخاطبة ربه في ابنه، فالقراءة حتى الأولية تبيّن أنّ المخاطبة قد تمت بعد انقضاء الأمر كله، فَلَمْ يخاطب نوح ربّه في ابنه قبل حصول الطوفان على الرغم أنّه استغرق وقتاً في بناء السفينة، وهو كذلك لم يخاطب ربه في ابنه لحظة حصول الطوفان، بل كان الخطاب بعد انقضاء الأمر برمته، ولنقرأ الآيات 44-45 من سورة هود معاً لتوضيح الفكرة:

- وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ هود 44
- وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ هود 45

فالسؤال الذي نترك إجابته للقارئ هو: لماذا انتظر نوح كل هذه الفترة لينادي ربه بشان ابنه؟ فهل حقاً من يريد النجاة لابنه ينتظر حتى ينقضي الأمر كله ليناجي ربه بشأنه؟! وما كان الله أنْ يستجيب مراد نوح في ابنه وهو الذي طلب من نبيه أنْ لا يخاطبه أصلاً بالظالمين:

- وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ هود 37

فـ ابن نوح كان من المغرقين وهم جميعاً كما يذكر الله كانوا ظالمين :

- وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ هود 44

فكيف بنوح أنْ يخاطب ربه بالظالمين؟ وكيف لله أنْ يستجيب طلباً يخص أحداً من الظالمين؟ لا بل وتتأكد قصة الظالمين في الآيات التاليات التي نطلب من القارئ أنْ يقدم هو لنا تأويلاً لما جاء فيها، فلقد قال الله في كتابه على لسان نوح:

- وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا(26)
- إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا(27)
- رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا(28)

وسؤالنا هو: كيف بنوح يجزم أنّ الكافرين لا يلدوا "إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا" وابنه هو أول الكافرين وأكثرهم فجورا؟! (للتفصيل أنظر مقالاتنا تحت عنوان كم لبث نوح في قومه؟ وسفينة نوح ونظرية تكون القارات)

*** *** ***

أما في شأن إبراهيم مع أبيه، نقول - بادئ ذي بدء - أنّ القرآن الكريم لا يذكر بأي موضع أنّ إبراهيم عليه السلام قد دعا لأبيه بالنجاة، (أي لم يستخدم فطرته ليطلب الهداية لأبيه) بل جُلّ ما حصل أنّ إبراهيم قد وعد أبيه بالاستغفار له، ولمّا حصل فعلاً أنّ توجه إبراهيم بالدعاء إلى الله الذي يملك الحكمة في الهداية قال:

- وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ إبراهيم 35

وهذا دليل واضح أنّ إبراهيم عليه السلام (وهو النبي المرسل) هو في ذلك مثل نوح عليه السلام لم يكن ليدعو لأحد من الكافرين بالنجاة حتى ولو كان ذلك الشخص هو أبيه:

- ..."فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ التوبة 114

فإبراهيم إذاً لم يتوجه قط إلى الله تعالى بالدعاء بهداية والده، فالذين يظنون أنّ الله لم يتقبل دعاء إبراهيم لأبيه يقعون –برأينا- في الخطأ لأنّ إبراهيم (نحن نفتري القوا) لم يتوجه أصلاً إلى الله بالدعاء لأبيه. وهنا قد يرد البعض بالقول: ولكنّ إبراهيم قد طلب الاستغفار لأبيه، ألا يكفي ذلك لإجابة الدعاء؟ فنرد بالقول أنّه يجب التأكيد أنّ طلب الهداية لشخص ما شي، والاستغفار له شيء آخر. فـ الهداية أمر يخص الحياة الدنيا، أما الاستغفار فهو يخص الآخرة، وهو ليس من شأن البشر. ولذا فإنّ طلب إبراهيم من الله أنْ يغفر لأبيه هو –برأينا- من شأن الله وحده لأنّه أمر يخص الآخرة :

- وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ الشعراء 86

وقد يحتج البعض أنّ هذا دعاء من إبراهيم لأبيه لم يتحقق، فنقول أنّه ليس كذلك، لأنّ هذا دعاء لا يتعلق بالحياة الدنيا، بل بما سيكون عليه أمر الآخرة، وهو ما لا يحق لإبراهيم أو غيره أنْ يبتّ به، لأنّ أمر الآخرة يخص الله وحده، ومجمل القول أنّ الاستغفار من أمر الآخرة وتحقيق المراد به أمر منوط بالله وحده، وقد يتساءل البعض عن الدليل في ذلك، أي كيف يختلف الدعاء بالاستغفار عن الدعاء بالهداية مثلاً؟

رأينا: نقول أنّ الدعاء بالاستغفار هو من أمر الآخرة، أما الدعاء بالهداية فهو من أمر الدنيا. ونحن نعتقد جازمين أنّه لو جاء دعاء إبراهيم لأبيه دعاء بالهداية لاستجيب طلبه، أما ما دام دعاءه يخص الاستغفار له في الآخرة فذاك من شأن الله وحده، وهذا أمر لا ينطبق في حالة إبراهيم وحده بل يخص كآفة الرسل، وما أجمل الدقة والتصوير القرآني في ذلك، ففي حين أننا نعرف أنّ دعاء الأنبياء مستجاب، نجد الله يخاطب محمداً عليه الصلاة والسلام بشأن الاستغفار قائلاً:

- اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ التوبة 80

- سَوَاء عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ المنافقون(6)

وذلك لأنّ الله سبحانه قد فرض أمراً بهذا الشأن ما كان لأحد أنْ يتجاوزه حتى لو كان نبياً مرسلاً حيث قال:

- مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ التوبة 113

ومن هنا جاءت الدقة القرآنية في الحديث عن حالة إبراهيم عليه السلام:

- وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأوَّاهٌ حَلِيمٌ التوبة (114)

وقد يتساءل البعض قائلاً: إذا كان الأمر كذلك فلِمَ لَمْ يطلب إبراهيم عليه السلام الهداية لأبيه بدلاً من طلب الاستغفار له؟

رأينا: نقول وبالله التوفيق أنّ ذلك كان نابعاً من طبيعة إبراهيم عليه السلام، فإبراهيم يختلف في أسلوبه (من باب التفضيل بين الرسل) عن موسى وعن عيسى عليهما السلام، فهو من دون الرسل جميعاً قد غلّب المنطق والحجة، فهو أصلاً قد توصّل إلى الهداية بالمنطق السليم (أي المقدمات التي تفضي إلى النتائج السليمة) :

- وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79) الأنعام 75-79

وقد يتساءل البعض عن علاقة ذلك بدعاء إبراهيم لهداية والده، نقول أنّ إبراهيم قد غلّب الحجة ليس فقط في هداية نفسه بل أيضا في دعوته غيره إلى الله:

- وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ الأنعام 83

فإبراهيم عليه السلام كان بارعاً في إقامة الحجة على خصمه، وليس أدل على ذلك من قصته مع أصنام قومه:

- فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (58) قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ

النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (63) الأنبياء 58-63

أو قصته مع النمرود:

- أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ..." البقرة 258

فتمثلت قوة حجة إبراهيم على قومه:

- فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ الأنبياء 64

ولكنّ القوم الذين لا يتقبلوا النتائج السليمة للمقدمات الصحيحة ما كان منهم إلاّ:

- ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاء يَنطِقُونَ الأنبياء 65

وتمثلت قوة حجة إبراهيم على النمرود:

- ...فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ البقرة 258

وهذا هو منهج إبراهيم عليه السلام في الدعوة: إقامة الحجة التي أتاه إياها ربُه، وهو بالضبط ما فعله حتى في بحثه عن هداية والده، فحتى قبل أنْ يصل هو بنفسه إلى الهداية كان خطابه مع والده على النحو التالي:

- وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ الأنعام 74

وبعد هدايته إلى خالقه وامتلاكه الحجة الصحيحة التي أتاه الله إياها، جاء خطابه لأبيه على النحو التالي:

- وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) مريم 41-45

ولكن والده لم يتقبل هذه الحجة، فرد قائلاً:

- قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا مريم 46

عندها أدرك إبراهيم عليه السلام أنّ الذي لم يهتد بهذه الحجة القويّة، لم يعد أمامه فرصة للهداية في الحياة الدنيا، وما تبقى سوى طلب المغفرة له في الآخرة، فجاء رده على رد أبيه:

- قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا مريم 47

وأبطن غضبه من موقف أبيه حيث اتخذ قراره باعتزاله:

- وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا مريم 48

فإبراهيم لم ينسى أنّ من واجبه تجاه والده حتى وإن لم يكن مؤمنا على نحو:

- وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ العنكبوت(8)
- وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ لقمان (15)

فخلاصة القول أنّ إبراهيم عليه السلام لم يستخدم فطرته في الدعاء إلى الله لهداية والده، مثله في ذلك كنوح الذي لم يستخدم فطرته لهداية ولده ومن ثم نجاته من الغرق، ونحن نعيد التأكيد أنّه لو تم استغلال الفطرة التي يمتلكها كل منهما لكانت النتيجة إيجابية في الحالتين، فهذا موسى عليه السلام يلجأ إلى فطرته لهداية أخيه هرون عليه السلام:

- قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28 (وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32) طه 25-32

فكان الرد الإلهي فوري:

- قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى طه 36

وهو ما لم يحصل في حالة نوح لابنه أو إبراهيم لأبيه، وهو كذلك لم يحصل في حالة يوسف لإخوته ويعقوب لبنيه:

- قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ يوسف 92
- قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ يوسف 98

دعاء: اللهم إني أسألك حجة كحجة إبراهيم

اللهم آتني حجتك على قومي كما أتيت إبراهيم حجتك على قومه، وأسألك رب أن تؤتيني رشدي كما آتيت إبراهيم رشده، إنك أنت السميع العليم

وهذا ما نفهمه بالضبط من اختلاف الأسلوب عند الرسل في الإمكانات وفي الدعوة، ففي حين كان علم عيسى مميزاً بالحكمة، كان علم موسى مميزاً بالفطرة وكان علم إبراهيم مميزا بالحجة، وهذا ما نفهمه في قوله تعالى:

- تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ..." البقرة 253

ولذا فإننا نتوجه إلى الله مخلصين الدعاء بالقول:

اللهم نسألك حجة كحجة إبراهيم وفطرة كفطرة موسى وحكمة كحكمة عيسى

خلاصة

نعم إننا نفهم تفضيل الرسل بعضهم على بعض على هذا النحو، فلكل منهجه وأسلوبه الذي ميزه الله به، ولكن يبقى كل منهج بالنسبة لنا مميزا لا نستطيع التفريق بينها لانّ كل منها يوصل إلى الغاية المرجوة:

- قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ البقرة(136)
- آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ البقرة(285)
- قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ آل عمران(84)

وهنا نخلص إلى نتيجة مفادها أنّ من لا يملك الحكمة يستطيع تحقيق مراده باستخدام الفطرة، ولكنّ القرآن الكريم يورد عدة ملاحظات هامة جداً فيما يخص تحقيق المراد بالفطرة لمن لا يملكون الحكمة، نورد ما استطعنا (بحول الله) أنْ نستقصيه:

أولا: أنّ الدعاء "الفطرة" إلى الله يجب أنْ لا يصاحبه تردد ولا تلكؤ، بل يجب أنْ يكون عن يقين بالإجابة، فمحاورة نوح لربه بهداية ولده، ووعد إبراهيم لأبيه بالاستغفار يدل على أنّه لم يكن دعاء مباشراً.

ثانياً: أنّ الدعاء المستجاب يجب أنْ يكون على الفور لا يحتمل التأخير أو التسويف، وهنا العبرة مستقاة من دعاء موسى عليه السلام، فكلما كان يجد موسى نفسه في موقف يستوجب العودة إلى الله، يعود على الفور دونما تأجيل أو تسويف. فعندما علم أنّه ظلم نفسه بصرعة الذي هو من عدوه قال :

- قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي... القصص 16

وعندما علم بأن القوم يأتمرون به قال:

- ...قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ القصص 21

وعندما وجد نفسه تائهاً في الأرض لا يعلم إلى أين يتجه قال:

- ...قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ القصص 22

وعندما وجد نفسه بحاجة إلى المساعدة حتى المادية كالطعام والشراب من عناء السفر قال :

- ...فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ القصص 24

وعندما وجد نفسه في مواجهة مباشرة مع فرعون من الخلف والبحر من الأمام وظن قومه أنّهم مدركون لا محالة لم يفقد ثقته بربه فقال في الحال:

- قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ الشعراء 62

وعندما وجد أنّ القوم قد فتنوا بما كان يملك فرعون وقومه من عطاء الله توجه إلى ربه طالباً:

- وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ يونس 88

وهذا فرق واضح بين مراد موسى عليه السلام من جهة ومراد نوح في ابنه أو إبراهيم في أبيه من جهة أخرى، ففي حين كان دعاء موسى فورياً، كان مراد نوح وإبراهيم بالدعاء مؤجلاً، وهنا نقول أنّ البعض يخطئ في فهمه للدعاء المستجاب، فلا يجوز للشخص أنْ يثق أولاً بقدراته، ثم إذا ما أن يتبين له ضعفه وقلة حيلته عاد إلى الله، فالله لا يقبل أنْ يكون ثانياً. فالفطرة السليمة تقتضي أنْ يكون الله سبحانه أولاً وقبل كل شيء. فبالرغم من قدرة موسى الجسدية (غير العادية) التي تمكنه (بالمفهوم البشري) من جلب رزقه (طعامه) بنفسه، إلا أنّ ثقته بربه كانت أولاً وقبل كل شيء:

- ..."فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ القصص 24

ونخلص إلى القول أنّه لو كان مراد نوح وإبراهيم فورياً على شكل طلب ورجاء بلا تلكؤ ولا تشكك كما كان الحال في دعاء موسى لكانت الاستجابة فورية بالقبول، ولكن علم الله الأزلي قضى بأنْ لا يتوجه نوح ولا يتوجه إبراهيم بالدعاء للكافرين بالنجاة، قال تعالى عن نوح عندما علم أنّ لله حكمة أعظم مما كان يظن تراجع في الحال قائلا:

- قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ... هود 47

وهذا بالضبط ما فعل إبراهيم عليه السلام, فقال تعالى عن إبراهيم في هذا المقام:

- وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ التوبة 114

ثالثاً: أنّ الدعاء يجب أنْ لا يصاحبه مجادلة أو محاورة، بل تقبل بقضاء الله على الفور، وهذا فرق واضح بين دعاء موسى ومراد نوح عليه السلام, فعندما علم موسى بخطئه في وكزه لعدوه مثلاً عاد فوراً إلى الله بالاستغفار ولم يحاول المجادلة أو البحث عن السبب الذي دفعه إلى ذلك، فلم يذكر مثلاً أنّ قتله لذلك الرجل كان من منطلق أنّه عدو الله، ولم يحاور الله في ذلك، أي لم يحاول حتى إيجاد المبرر لنفسه، وعندما كاد أنْ يصرع رجلا آخر مرة أخرى توجه إليه ذلك الرجل بالقول:

- ...قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ القصص 19

فعندها رجع موسى فوراً إلى رشده وأدرك صحة ما كان قد قاله للرجل الذي من شيعته من ذي قبل:

- ...قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ القصص 18

أما نوح عليه السلام فكان مراده في ابنه مقروناً بالمحاورة والمجادلة والبحث عن الأسباب وهذا بحد ذاته سبباً كافياً لعدم الاستجابة، وهو في ذلك مثل الملائكة عندما أخبرهم الله تعالى بخلافة الأرض من غيرهم فتوجهوا إليه بالمحاورة وإبداء الأسباب، وهنا نقول أنّ الفطرة التي بها يتحقق المراد يجب أنْ لا يشوبها المجادلة أو المحاورة، بل الانصياع الكامل حتى ولو كان السبب الذي تبديه من حيث المبدأ وجيهاً، فالملائكة مثلاً قدّموا سبباً يبدوا للوهلة الأولى أنّه وجيهاً، ونوح رجل يطلب النجاة لابنه، أليس ذلك سبباً وجيهاً كذلك؟ نقول كلا. فقد أثبت الله تعالى أنّ ذلك ليس سبباً وجيها فقال في حالة الملائكة:

- ...قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ البقرة 30

وقال في حالة نوح:

- قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ هود 46

ونستنتج أنّ ذلك لم يكن سبباً وجيهاً على الإطلاق، فكم من سبب بدا للوهلة الأولى أنّه نعمة ثم تبيّن بعد ذلك أنّه نقمة، والعكس صحيح مصداقاً لقوله تعالى:

- كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ البقرة 216
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهًا وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا النساء(19)

ولا يعرف ذلك إلا من امتلك الحكمة (وسترد لاحقاً عند الحديث عن قصة موسى مع صاحبه الذي ذهب طالباً صحبته وهو ما يرغب أهل الدراية أن يسموه بـ "الخضر"، فالله أسأل أن يؤتيني رحمة من عنده وأن يعلمني من لدنه علماً)

رابعاً: أنّ استخدام الفطرة في الدعاء لتلبية المراد مستجاب مهما كانت استحالته من وجه نظر البشر، فهو يجب أنْ يصدر عن إيمان يبيّن قدرة الله اللامتناهية، إيمان ملخصه:

- وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ إبراهيم 20
- وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ فاطر 17

أليس إحياء الموتى مثلاً أمر أقرب إلى الاستحالة من المنظور البشري؟ ولكن ألاّ يذكر القرآن الكريم أمثلة على إحياء الموتى؟ ألم يطلب إبراهيم عليه السلام من ربه أنْ يريه كيف يحيى الموتى؟

- وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي..." البقرة 260

ألم يحقق الله تعالى له مراده بأنْ أراه كيف يحيى الطير مثلاً؟

- ...قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ البقرة 260

وأي شيء أعظم استحالة من حيث المبدأ من أنْ يطلب موسى عليه السلام أنْ يرى ربه, قال تعالى :

- ..."قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ..." الأعراف 143

ألم يحقق له ربه مراده فتجلى للجبل تلبية لمراد موسى، ولكنْ لرأفة الله بموسى لعدم قدرته الفيزيائية (الجسدية) على الرؤية المباشرة طلب الله منه أنْ ينظر إلى الجبل:

- ..."فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا..." الأعراف 143

وهنا ملحوظ دقيق نود الإشارة إليه، فقد يتسرع البعض بالقول أنّ ذلك خاص بالأنبياء، نقول كلا، فالقرآن الكريم يثبت أنّ ذلك قد يتحقق للبشر العاديين. ألم يطلب بنو إسرائيل مثلاً رؤية الله جهرة؟ ألم يقولوا لموسى عليه السلام كما جاء في القرآن الكريم:

- " وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ... البقرة 55

وعندها ألم يلبي الله تعالى هذا الطلب بالتجلي لهم؟ وهنا قد يتسرع القارئ بالقول وكيف ذلك؟ ألم تأخذهم الصاعقة؟

رأينا: قد يظن القارئ للآية القرآنية أنّ الله قد عاقب بني إسرائيل على غرابة طلبهم، فأخذتهم الصاعقة، فنقول أنّ هذه قراءة (ربما) غير متأنية للآية القرآنية الكريمة، فنحن نقرأها هنا أنّ الله تعالى قد استجاب لطلب بني إسرائيل فتجلى لهم على الرغم من غرابة هذا الطلب واستحالته من وجه النظر البشرية، وبرهاننا لذلك يأتي على النحو التالي:

أولا: نود أنْ نسأل القارئ سؤالاً بسيطاً جداً، ما الفرق بين طلب موسى عليه السلام رؤية الله وطلب بني إسرائيل رؤية الله تعالى؟ ألم يطلب بنو إسرائيل ما كان نبيهم موسى عليه السلام قد طلبه من قبل؟ فلِم يقع العذاب والعقاب على بني إسرائيل ولم يقع على موسى عليه السلام؟ إنّ هذا التساؤل يوصلنا إلى نتيجة مفادها أنّ ما طلبه بنو إسرائيل لم يزيد قيد أنمله عما كان نبيهم موسى قد طلبه من قبل.

ثانياً: نسأل القارئ الكريم سؤالاً آخر أبسط من سابقه، ما الذي حصل عندما طلب موسى رؤية الله؟ إنّ القراءة المتأنية لتلك الآية القرآنية تؤكد حصول "الصاعقة وهذا مثبت بقوله تعالى:

- ..."وَخَرَّ موسَى صَعِقًا... الأعراف 143

أليس هذا بالضبط ما حصل عندما طلب بنو إسرائيل رؤية الله جهرة؟

- .."فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ... البقرة 55

ولكن الفرق الوحيد بين حالة موسى وحالة قومه أنّ موسى لم ينظر إلى الله تعالى عندما تجلى، فقد طلب الله منه أنْ ينظر إلى الجبل لحظة التجلي، فجعل الله الجبل دكاً، ولهذا لم تأخذ موسى تلك الصاعقة بالهلاك لأنّه لم يكن ينظر إلى الله مباشرة، وهذا بالضبط ما فعله موسى عليه السلام عندما تجلى الله تعالى لبني إسرائيل, فنتيجةً لما اكتسبه موسى من خبرة سابقة، لم ينظر إلى الله مباشرة لحظة التجلي لبني إسرائيل، فسلم من الهلاك.

ثالثا: إنّ دقة وروعة الآية القرآنية تزيد عندما يقول الله تعالى عن بني إسرائيل:

- ..."فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ البقرة 55

فالسؤال البسيط الذي نترك إجابته للقارئ هو: إلى ماذا كان ينظر بنو إسرائيل عندما أخذتهم الصاعقة؟ !

رابعا: إذا كان هلاك بني إسرائيل عقاباً لهم على غرابة طلبهم، فلِمَ يبعثهم الله من بعد موتهم ويجري لهم حياةً رغداً؟ !

- ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ...(57) البقرة 56-57

إنّ الفرق الوحيد بين طلب موسى عليه السلام وطلب قومه يكمن – برأينا- في أنّ طلب موسى جاء من باب الرجاء والإيمان بينما جاء طلب بني إسرائيل من باب التحدي والتشكيك، فكان ذلك هو الظلم الذي ارتكبه بنو إسرائيل. وهنا لا بد من الإيضاح بأنّ بني إسرائيل كانوا عالمين صدق رسالة موسى، وكان العامة منهم مؤمنين بربهم، ولكن جاء طلبهم من باب التأكد والتيقن كما جاء طلب إبراهيم من ربه أنْ يريه كيف يحيي الموتى:

- ...قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ... البقرة 260

فجاء الرد الإلهي على ذلك بالإيجاب:

- ...قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ البقرة 260

وكذلك جاء الرد الإلهي على طلب بني إسرائيل:

- ...فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ البقرة 55

ونحن نقرأ الموقف بكليته على النحو التالي: لقد ثارت شائعة رؤية موسى ربه بين بني إسرائيل، فهناك في كل زمان ومكان من يتصيد في الماء العكر، ويحاول الاستفادة من كل صغيرة وكبيرة لتحقيق مآرب نفسه وهواه

كالسامري مثلاً، ومراد القول أنّه عندما وصل الخبر (أي طلب موسى رؤية ربه وتجلي ربه للجبل) أصبح من الطبيعي أنّ تستغل تلك الفئة الخبر بتحريفه وتضخيمه وتشويشه في ذهن العامة حتى ينبري الأخيرون للمطالبة بالتوضيح والبرهان العملي لما قد حدث فعلاً. وهذا ما طلبه العامة من بني إسرائيل من نبيهم موسى عليه السلام (أنْ يريهم الله جهرة). فقد نجح أمثال السامري في التلاعب بأذهان العامة بمنطقهم الذي يبدو في ظاهره سويا ولكن باطنه منطق الذي أخرج آدم من الجنة:

- ...وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21) الأعراف 20-21

ولعقد مقارنة توضيحية لما كان من بني إسرائيل مع نبيهم، فذاك عمرو بن هشام مثلاً (المستحق لـ لقبه أبو جهل عن جدارة واستحقاق) ينبري ليتحدى إيمان الصديق أبي بكر (رضي الله عنه) بعد حادثة الإسراء ظاناً أنّه قد وجد ضالته عندما سمع خبر محمد (صلى الله عليه وسلم) يحدث القوم بحادثة الإسراء، فكيف يمكن لمن أمسى وأصبح بمكة أنْ يقطع –حسب ظنه- هذه المسافة الطويلة جداً في ساعة من الليل؟ ألا يدين لهم محمد إذن – حسب ظن سامري قريش – بالبرهان العملي على صدق ما لا يصدقه العقل؟ ولكنّنا بالصديق الذي بنى إيمانه على الفكر السليم ينظر إلى أبي جهل بازدراء ويكأنه يرد عليه قائلاً: "كيف بي أصدق محمداً يخبرنا بنزول الوحي عليه من فوق سبع سماوات في اليوم والليلة مرات ومرات ولا نصدقه برحلة أرضية إلى بيت المقدس أو حتى إلى السموات العلى"؟! ومراد القول أنّه لو نجح سامري قريش في إيقاع أبي بكر في فخه كما نجح سامري بني إسرائيل مع قومه، لكان مطلب أبي بكر وعامة المسلمين من بعده حينئذ من نبيهم البرهان العملي على ما يقول.

*** *** ***

وهنا قد يرد البعض قائلين: كيف يلبي الله طلبهم ما داموا أنهم متحدين نبيهم للتدليل على صدق رسالته؟ نقول أنّ العامة من بني إسرائيل كانوا مدركين صدق رسالة نبيهم وما كان طلبهم ذاك إلا لوقوعهم في فخ أمثال السامري، والدليل على ما نذهب إليه الدقة القرآنية في الآية نفسها، فـ بنو إسرائيل لم يقولوا لنبيهم أننا لن نؤمن بالله حتى نراه جهرة، بل قالوا "لَن نُّؤْمِنَ لَكَ" (أي موسى)، فجاء ردهم على النحو التالي:

- "وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ..." البقرة 55

إذاً، فلب المشكلة ليست بين بني إسرائيل وربهم، بل بينهم وبين نبيهم، فكان العامة من بني إسرائيل يريدون إذاً تأكيد الثقة بينهم وبين نبيهم كما كان موسى عليه السلام يريد تأكيد الثقة بينه وبين ربه بطلبه الرؤية. وهذا بالضبط ما فعله القوم أنفسهم عندما أخرج لهم السامري ذلك العجل:

- فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَـٰذَا إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ(88)

وبالرغم من محاولة هارون ثنيهم عن ضلالتهم تلك:

- وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُم بِهِۦوَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَـٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي(90)

إلا أن القوم أصروا على الدليل الذي لا يستطيع تقديمه سوى موسى نفسه، فآثروا البقاء في مكانهم حتى عودة موسى:

- قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ(91)

وإلى الذين لا تزال الفكرة في ذهنهم غير راسخة نورد الدليل الأقوى الذي نظن أنه يصدق نذهب إليه في افترائنا هذا، فنقول: إنّ باب التحدي (إن نحن فهمناه كذلك) مقبول في الفكر الديني كما يمثله القرآن الكريم، فهاهو ذاك الرجل يمر على القرية الخاوية على عروشها فيتساءل (ربما) بنبرة التشكك والبحث عن الإجابة الشافية للأسئلة المتضاربة في ذهنه:

- أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ شَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ البقرة 259

ولكن يجب أنْ ندرك أنّ ذاك الرجل كان يتساءل ويطلب (كما طلب إبراهيم من ربه وكما طلب بنو إسرائيل من نبيهم) ليصبح إيمانه مبني على يقين لا يساوره تشكك كذاك الذي يخطر على قلب حتى الإنسان المؤمن. وهنا قد يتسرع بعض من يقرأ الآية السابقة ويظن أنّ ذاك الرجل لم يكن مؤمنا أصلا وقد قال ذلك من باب التحدي فقط، نقول كلا، لقد كان ذاك الرجل مدركاً قدرة الخالق على إحياء الموتى، ولكنّه كان يملك أيضاً الرغبة أنْ يرى ذلك بأم عينه (كما كان يملكها إبراهيم عليه السلام)، ولنورد دليلين على صحة هذا الإدعاء. أولا: لقد جاءت الآية التي تتحدث عن ذلك الرجل في سياق الحديث عن إبراهيم عليه السلام، فلقد سبقتها آية الذي حاج إبراهيم في ربه:

- أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ البقرة 258

وتبعتها الآية التي يطلب فيها إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى:

- وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ البقرة 260

فمن سوء الفهم أنْ يؤخذ موقف إبراهيم عليه السلام على الجانب الإيماني بينما يحمل موقف ذلك الرجل على غير ذلك، خصوصاً أنّ الطلب واحد (أنْ يريه كيف يحيي الموتى)، فها هو إبراهيم عليه السلام صاحب الحجة على خصمه يستخدم قدرة الله على إحياء الموتى كدليل على عظمة الله وعجز غيره، يعود بعد فترة وجيزة ليطلب هو نفسه البرهان من ربه على إحياء الموتى. فهل يُحمل ذلك من إبراهيم على الجانب غير الإيماني؟!

ثانياً: إنّ الدليل الأقوى على صحة ما نذهب إليه بأنّ طلب ذلك الرجل يؤخذ على الجانب الإيماني هو القاعدة الإلهية التي لا تنقض والتي جاءت مباشرة قبل هذه الآية (أي في آية الذي حآج إبراهيم في ربه) وهي:

- ...وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ البقرة 258

فكيف يحمل طلب ذلك الرجل على الجانب غير الإيماني في حين أننا نعلم أنّ الله قد هداه إلى الحقيقة؟

- ...فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ البقرة 259

نتيجة: نحن نظن أن الرجل لم يكن من الظالمين لأن الله قد هداه، فلو كان من الظالمين لما هداه الله لأن الله (لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ).

وهذا يعني بالضرورة أنْ يحمل طلب ذلك الرجل على الجانب الإيماني وإلا لكان القرآن يناقض بعضه بعضا، نستنتج إذاً أنّ الله قد هداه (كما هدى الصالحين غيره) إلى الحقيقة التي كان يبحث عنها، أي إلى الإيمان المنزوع منه الشك أو الريبة لأنّه كان هو أصلاً يبحث عنه راغباً فيه. وبكلمات أدق، فإننا نزعم الظن أنّه لو جاء تساؤل ذلك الرجل عن غير الإيمان الباحث عن الحقيقة الراغب في الهداية لما تمت إجابة طلبه في الحال حيث يريه الله بأم عينه كيف يحيي الموتى:

- ...وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا.. البقرة 259

فلب القول أنّ طلب الإنسان المؤمن الباحث عن الحقيقة الراغب في الهداية مستجاب لا محالة مهما بلغت درجة غرابته .

ولننظر إلى الدقة والروعة القرآنية في تصوير الطرف الآخر، الجانب المتعنت غير الراغب في الهداية، الذي لا همّ له سوى المكابرة والمجاهرة بالمعصية، فها هو سامري آخر من قريش يأتي محمداً (صلى الله عليه وسلم) يفرك العظم البالي بيده (كما تقول الروايات) ليطلب ما كان الذي مر على القرية الخاوية على عروشها قد طلبه من ذي قبل:

- وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ يس 78

فماذا كان الرد الإلهي؟ هل أراه الله العظام وهو ينشزها ثم يكسوها لحما؟ كلا، فقد جاء الرد الإلهي فقد بتكذيب إدعاءه دونما برهان عملي يكون من شأنه هدايته،

- قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ يس 79

والسبب على عدم تقديم البرهان العملي على إحياء الموتى لمثل هذه الفئة من الناس موجود بشكل لا لبس فيه في خاتمة الآية السابقة للطلب (كما كان موجود في خاتمة الآية السابقة لطلب ذاك الرجل المؤمن) ولكن هذه المرة للإنسان غير المؤمن المجاهر بالمعصية:

- أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ يس 77

فالرد الإلهي إذاً من جنس الطلب، فما كان الله ليرد طلب من كان يبحث عن الهداية ويرغب فيها، أمّا من كان هدفه المخاصمة وإظهار العداوة فما كان الله ليقدم لهم الآية والبينة التي تكون سبباً لهدايتهم لأنهم هم أنفسهم لا يرغبون فيها ولا يبحثون عنها. وهذا هو بالضبط السبب الذي قدمه الله لنبيه:

- إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ الشعراء 4

ولكنّ التساؤل البسيط هو: ما جدوى تنزيل مثل تلك الآية على من:

- وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ الشعراء 5

وهنا قد يرد البعض قائلاً: ما دام الله يستجيب طلب الإنسان المؤمن ويقدم له الآيات بالبرهان العملي لهدايته ولا يأبه بمفاجرة المخاصم المكابر، فلم قدّم لفرعون وقوم صالح وأقوام كثيرين كذبوا رسلهم بالرغم من وجود الآيات التي أخضعت أعناقهم؟ إنّ هذا التساؤل قد ينقض الافتراض السابق (إي أنّ الله لا يستجيب إلاّ طلب الإنسان المؤمن) برمته.

افتراء من عند أنفسنا: نقول رداً على ذلك أنّ الله حقاً لا يأبه بمفاجرة الكافر ولا يقدم آياته بالبرهان العملي إلا للمؤمن الراغب في الهداية الباحث عنها، وأنّ تقديم الآيات لفرعون أو لقوم صالح وغيرهم حتى على كفرهم نفهمه على النحو التالي :

أولا، إنّ تقديم آيات الله لهؤلاء الأقوام على كفرهم ومجاهرتهم بالمعصية جاء على غير طلب منهم، فلو كان فرعون مثلاً هو من توجه بنفسه طالباً تلك الآيات من الله لما كان الله قد استجاب طلبه، ولما قدّمها الله له لتكون سبباً لهدايته، فالله قد أيد موسى عليه السلام بتلك الآيات قبل قدومه إلى فرعون وقومه:

- اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى طه 24
- اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى النازعات 17
- قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ الشعراء 15
- وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (35) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (36) الفرقان 35-36

وها هم قومه الذين أصابهم الرجز يتوجهون إلى موسى عليه السلام ليطلب هو من ربه أنْ يكشف عنهم السوء:

- وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ..." الأعراف 134

- وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (49) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (50) الزخرف 48-50

فهم على يقين أنّهم إنْ توجهوا هم بأنفسهم إلى الله فلن يكون الرد إيجابياً. إن مراد القول هو أن كشف الرجز عنهم لم يكن بطلب منهم وإنما بطلب من نبيهم، رغبة منه في هدايتهم.

ثانياً، أما الدليل الحاسم على أنّ تقديم الله الآيات لهؤلاء الأقوام على كفرهم يأتي عن غير طلب منهم فقد جاء واضحاً لا لبس فيه بنص القرآن الكريم:

- وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ القصص 59

فالقاعدة الإلهية هي أنّ الله سبحانه يقدم هو آياته للظالمين دونما طلب منهم لسبب واحد: لتكون مقدمة لهلاكهم. فتصبح الصورة إذاً على النحو التالي: لا يقدم الله آياته للمؤمنين إلا بطلب منهم، ويقدمها للظالمين على غير طلب منهم، ولكن النتيجة متفاوتة في الحالتين، ففي حين أنّ الآيات التي يقدمها الله للمؤمن الباحث عنها الراغب فيها تكون سبباً لهدايته، تكون الآيات التي يقدمها الله للظالم المخاصم على غير طلب منه سبباً لهلاكه ، وهذا مصداقاً لقوله تعالى:

- ..."يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ الأنعام 158

دعاء: اللهم إنّا نسألك آياتك لتكون سبباً في هدايتنا

*** *** ***

وقد يرد البعض قائلا: ولكنّ الله سبحانه يقدم آياته بالبرهان العملي (كإحياء الموتى مثلاً) فقط لفئة قليلة من عباده الصالحين، فهل يمكن أنْ يقدمها للعامة مثلنا من عباده؟ فنرد قائلين: إنّنا نقرأ في القرآن الكريم الدليل على أنّ ذلك ممكنا، أي إمكانية أنْ يرى حتى السواد الأعظم من المؤمنين آيات الله بأم أعينهم، فهاهو نبي الله موسى عليه السلام يطلب هو من بني إسرائيل بأمر من ربه أنْ يذبحوا بقرة:

- وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً..." البقرة 67

وها هم قومه يترددوا ويجادلوا، ولكنهم لم يجدوا بداً من الإذعان بعدما علموا أنّ الأمر لم يكن هزواً:

- ..."قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ" البقرة 71

والسؤال الذي نبحث فيه هو: ماذا كان من ذبح البقرة؟ أي لماذا أمر الله سبحانه بني إسرائيل من خلال نبيهم موسى عليه السلام أنْ يذبحوا البقرة؟ وأخال أنّ الجميع يعرف الإجابة، فالآية القرآنية التي تلي الآية السابقة تبين السبب:

- وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ البقرة 72

وتأتي الآية (73) من البقرة لتجيب عن العلاقة بين قتل تلك النفس وذبح تلك البقرة:

- فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ البقرة 73

ولعلي أجزم أنّ القارئ قد أدرك ما نبغي الوصول إليه: ألم يري الله سبحانه العامة من بني إسرائيل كيف يحيي الموتى كما أراها لنبيه إبراهيم عليه السلام ولذاك الرجل الصالح الذي مر على تلك القرية الخاوية على عروشها؟

نستنتج إذاً أنّ الأنبياء والصالحين وحتى العامة من المؤمنين مؤهلين أنْ يروا بأم أعينهم آيات الله، ولكنْ قد يرد البعض بالقول أنّ ذلك قد حصل لبني إسرائيل على وجه الخصوص وقد لا يعني بالضرورة أنْ يحصل لباقي الخلق، فنرد قائلين أنها ما دامت تلك آية من آيات الله وقد وجه الله معها القول لبني إسرائيل:

- ..."وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ " البقرة 73

فقد وجه الله لنا الخطاب ذاته بالقول:

- كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ البقرة 242

ولعل من المفيد أنْ نجلب انتباه القارئ إلى الآية التي تلي هذه الآية مباشرة ليصل بنفسه إلى النقطة التي نسعى لتدليل عليها :

- أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ البقرة 243

وهناك آيات عديدة في كتاب الله موجهة للمؤمنين عامة تشير إلى حقيقة أنّ الله سيمنحهم فرصة رؤية آياته بأم عينهم :

- سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ فصلت 53
- وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ النمل 93

فتلك إذاً واحدة من سنن الله في الكون، وهو سبحانه يقول:

- ..."فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا فاطر 43

(دعاء: أللهم إني أسألك أن تريني آياتك فأكون أول من يعرفها، إنك أنت السميع العليم)

إنّ الاستنتاج الكبير الذي نصل إليه هو أنّ الجنس البشري المؤمن الباحث عن الحقيقة الراغب فيها مؤهل أنْ يتحقق له كل مراده مهما بلغت درجة استحالته من وجهة النظر البشرية. فالله يجلّي آياته للمؤمن إنْ هو بحث عنها لتكون سبباً لهدايته، ويقدم آياته لغير المؤمن إنْ هو غفل عنها لتكون سبباً لهلاكه .

*** *** ***

ولكن قد يرد البعض بالسؤال عن الدجال قائلين: كيف يؤتى الله هذا الرجل آياته ما دام أنّه مكابر كفّار؟

نقول وبالله التوفيق أننا قدّمنا ثلاث طرق يمكن استغلالها ليحقق الإنسان مراده في هذه الحياة الدنيا، وهذه الطرق هي على الترتيب:

- **امتلاك الحكمة**
- **امتلاك السلطان**
- **امتلاك الفطرة**

أما فيما يخص الحكمة، فإنّ من يملكها يعرف العلاقة بين الاسم والمسمى فيستطيع تحقيق ما يريد في الحال ودون الرجوع إلى أحد، وقد بينا كيف كان عيسى ابن مريم يحيي الموتى وكيف كان داود يسيطر على الجبال وكيف كان سليمان يسيطر على الرياح والطير. وكذلك الحال بالنسبة لمن يملك السلطان "أي الوسيلة"، فانه يستطيع استخدامها في الحال ودون الرجوع إلى أحد، أما من يملك الفطرة فهو فقط المؤمن الذي يرجع إلى الله ليحقق له المراد. وقد بيّنا أنّ تحقيق المراد بالفطرة يتطلب توافر شروطا خاصة، وقد أطلنا الشرح بالنسبة لمن يريد استخدام فطرته ليحقق مراده، وسنفرد لكل واحدة من هذه الطرق فصلا من النقاش .

باب الحكمة - الدجال

حديث الدجال (من سنن الترمذي)

حدثنا علي بن حجر أخبرنا الوليد بن مسلم وعبد الله بن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر دخل حديث أحدهما في حديث الآخر عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن يحيى بن جابر الطائي عن عبد الرحمن بن جبير عن أبيه جبير بن نفير عن النواس بن سمعان الكلابي قال

ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل قال فانصرفنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم رجعنا إليه فعرف ذلك فينا فقال ما شأنكم قال قلنا يا رسول الله ذكرت الدجال الغداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل قال غير الدجال أخوف لي عليكم إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم إنه شاب قطط عينه طافئة شبيه

بعبد العزى بن قطن فمن رآه منكم فليقرأ فواتح سورة أصحاب الكهف قال يخرج ما بين الشام والعراق فعاث يمينا وشمالا يا عباد الله اثبتوا قال قلنا يا رسول الله وما لبثه في الأرض قال أربعين يوما يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم قال قلنا يا رسول الله أرأيت اليوم الذي كالسنة أتكفينا فيه صلاة يوم قال لا ولكن اقدروا له قال قلنا يا رسول الله فما سرعته في الأرض قال كالغيث استدبرته الريح فيأتي القوم فيدعوهم فيكذبونه ويردون عليه قوله فينصرف عنهم فتتبعه أموالهم ويصبحون ليس بأيديهم شيء ثم يأتي القوم فيدعوهم فيستجيبون له ويصدقونه فيأمر السماء أن تمطر فتمطر ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت فتروح عليهم سارحتهم كأطول ما كانت ذرا وأمده خواصر وأدره ضروعا قال ثم يأتي الخربة فيقول لها أخرجي كنوزك فينصرف منها فيتبعه كيعاسيب النحل ثم يدعو رجلا شابا ممتلئا شبابا فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين ثم يدعوه فيقبل يتهلل وجهه يضحك فبينما هو كذلك إذ هبط عيسى ابن مريم عليه السلام بشرقي دمشق عند المنارة البيضاء بين مهرودتين واضعا يديه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ قال ولا يجد ريح نفسه يعني أحدا إلا مات وريح نفسه منتهى بصره قال فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله قال فيلبث كذلك ما شاء الله قال ثم يوحي الله إليه أن حوز عبادي إلى الطور فإني قد أنزلت عبادا لي لا يدان لأحد بقتالهم قال ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم كما قال الله

لقد اختلفت التفسيرات لمثل هذا الحديث، وظنّ البعض أنّ ذاك أمر خاص بالدجال نفسه، ولكن السؤال البسيط الذي قلما بيّنته التفسيرات هو كيف يستطيع الدجال أنْ يقوم بذلك؟ أي كيف يستطيع إحياء الموتى بنفسه؟ وكيف به يأمر السماء أنْ تمطر فتمطر؟ وكيف به أنْ يأمر الأرض أنْ تنبت فتنبت؟ لقد ظنّ الجميع أنّ ذلك أمر مقدّر من الله ولا يمكن تفسيره على غير ذلك، ولكن إنْ صح مثل هذا الافتراض فالسؤال الكبير هو: لماذا يعطي الله هذه القدرة لإنسان مكتوب على جبينه كافر (كما تقول رواياتهم)؟ وبكلمات أخرى كيف يعطي الله لكافر ما لم يكن حتى لبعض النبيين ليقوم باستخدامه بالدعوة لغير الله؟ وإنْ صح ما يذهب إليه الآخرون بأن أمر الدجال من الله، فكيف يمكن إذاً فهم الآية القرآنية التالية:

- مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ آل عمران 79

ولكن قد يرد البعض بالقول أنّ الدجال ليس نبياً، فنقول إنّ ذلك صحيح، ولكن لنقرأ الآية القرآنية بدقة أكثر فهي لا تتحدث عن النبوة فقط، وإنما تتحدث عن ثلاثة أشياء: الكتاب والحكم والنبوة. أما بالنسبة للكتاب فيكفي أنْ نذكر أنّ الكتاب هو منزّل من الله:

- نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ آل عمران 3

وهو تعليم من الله مباشرة:

- وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ آل عمران 48

وكذلك بالنسبة للحكم والنبوة:

- أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ الأنعام 89

ومما لا شك فيه أنّ الدجال سيكون له حكماً على الأرض ولو لفترة محددة، ولكن هل سيؤتى ذلك الحكم من الله؟

رأينا: كلا، إنّنا ندعي أنّ تفسير مثل هذا الأمر غاية في البساطة إنْ نحن تصورنا النقاش السابق. إنّنا ندعي أنّ الدجال سيتمكن من معرفة بعض العلاقة بين الاسم والمسمى التي تمكنه من تحقيق مراده في الحال، ولكن المشكلة بالنسبة لهذا الرجل أنّه لنْ يستخدمها (كما استخدمها أنبياء الله والصالحين من عباده) في الدعوة إلى الله بل في الدعوة لنفسه. إنّ تلك المعرفة لن تكون منحة من الله لذلك الرجل، بل هي ما يستطيع ذلك الرجل من الوصول إليه بنفسه، لأنّ تلك المعرفة – كما ندعي – هي معرفة من حيث المبدأ متوافرة للجميع، ويمكن لأي شخص (بغض النظر عن عقيدته) الحصول عليها إنْ هو استطاع النفاذ إليها واكتشافها، فهي ليست كما ذكرنا سابقاً معجزات وهي ليست كذلك خرافات، بل هي أمور علمية حقيقية يستطيع من يمتلكها تسخيرها لخدمة أهدافه، فإن امتلكها الصالحون سخروها في الدعوة إلى الله، وإن امتلكها الفاجرون استخدموها في الدعوة إلى أنفسهم والشيطان، فتلك المعرفة إذاً لا يمكن أنْ تكون هبة من الله لشخص ما ليستخدمها في الدعوة لنفسه والشيطان، ولنقرأ مرة أخرى الآية القرآنية التالية لنثبت صحة ما نذهب إليه من رأي بخصوص الدجال:

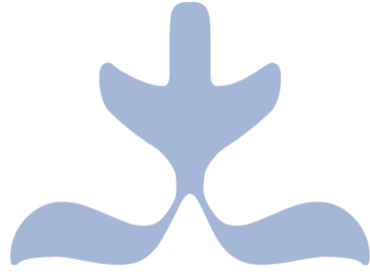
- مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ آل عمران(79)

فكيف بنا إذاً ندعي أنّ الله سيمنح ذلك المفاجر "الحكم" ليقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله؟ إنّ تلك المعرفة التي يملكها ذلك الرجل لن تكون إذاً هبة من الله، بل هي ما يستطيع هو من التوصل إليه من المعرفة أو العلم الذي يمكن أنْ يتوافر لأي شخص إنْ هو جهد في الوصول إليه، ولكنّ هذا الرجل على وجه الخصوص سيوجه ذلك العلم في غير الوجهة التي ينبغي أنْ يذهب إليها (كما كان الحال مع من امتلكها من أنبياء الله والصالحين من عباده). وحتى نفهم الصورة بطريقة أسهل، فلنحاول أنْ نتخيل (من باب الافتراض فقط) الموقف التالي الذي لم يحصل: كيف يمكن أنْ يكون الحال لو استخدم ما يرغبون أن يسمونه بالخضر مثلا ما كان يملك من العلم في الدعوة لنفسه؟! أليست هي بالضبط الصورة المعكوسة للدجال؟!

هذا ما سنتابع الحديث عنه في مقالة قادمة بحول الله وتوفيقه،

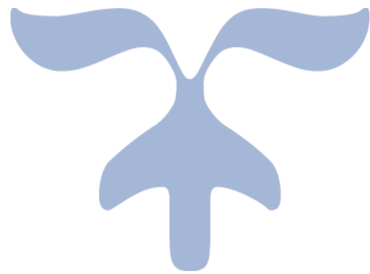
فالله أسأل أن يأذن لي بعلم لا ينبغي لأحد غيري إنه هو السميع العليم.

بقلم: د. رشيد الجراح



مقالة

صلات قرابة



موسى ونوح وإبراهيم

نحن نعرف أنّ الله تعالى قد أجاب مراد موسى الذي يمتلك الفطرة السليمة بالإيجاب، فغفر له، ونجاه من فرعون وملئه، وهداه إلى طريق مدين، فوصل أرضها، وساعد بنات شعيب فسقى لهما، وجاءته إحداهما تدعوه إلى بيت أبيها ليجزيه أجر ما صنع لهما، وأغرق الله فرعون ومن معه، وشرب قوم موسى كل من عين الماء التي خصصت لهم.

والقاري المتأني للقص القرآني يلحظ أمراً دقيقاً في قصة نبي الله موسى وهي أنّ أجابت مراد موسى كانت في الحال، وفي هذا دليل على زعمنا السابق في أنّ الذي لا يملك الحكمة لا بدّ له من الرجوع إلى من يعرف الحكمة ليحقق له مراده، فكان رجوع موسى إلى الله في كل أمر خير دليل على ذلك، ولا يورد القرآن الكريم أي موقف رد الله فيه طلباً لموسى عليه السلام.

(للتفصيل انظر مقالتنا: النظرية العالمية)

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هنا هو: إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لم يحقق الله تعالى مراد نوح عليه السلام في ابنه؟! ولماذا لم يحقق الله تعالى لإبراهيم مراده في والده؟!! ونقول بكلمات أخرى، إذا كان الرجوع إلى من يملك الحكمة (وهو الله سبحانه) يحقق المراد، فلماذا لم يتحقق مراد نوح في ابنه على الرغم من أنّه نبي مثل موسى فقد عاد إلى الله في ذلك؟! والمنطق نفسه ينطبق في قصة إبراهيم مع أبيه. وقد يتسرع القارئ ليقول أنّ هذا التساؤل ينقض من حيث المبدأ الافتراض السابق برمته.

نقول وبالله التوفيق رداً على ذلك ما يلي: أنّ نوحاً ليس كعيسى، فلم يكن يملك الحكمة التي بها يستطيع هداية ابنه دون الرجوع إلى الله، فهو إذاً كموسى لا يملك الحكمة ولكنه يملك الفطرة السليمة "ربط الأشياء بأصلها الإيماني الاعتقادي"، فكان إذاً بحاجة أنْ يرجع بالدعاء إلى الله ليحقق له مراده, ولكن السؤال الحتمي هو: لماذا لم يستجاب مراد نوح في ابنه؟

رأينا: إنّ القارئ المتأني ربما يلحظ أمراً غايةً في الدقة والروعة في القرآن الكريم ملخصه أنّ نوحاً عليه السلام عندما عاد إلى الله في ابنه لم يعد إليه كما عاد موسى بالدعاء والرجاء (أي بالفطرة)، بل عاد إليه بالحوار، فالقراءة المتأنية للآية القرآنية تشير أنّ نوحاً لم يدعو الله أنْ ينجي له ابنه، بل سرد السبب الذي (حسب ظنه) يجب أنْ يتخلص ابنه من الغرق:

- "وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي ..." هود 45

فكان الرد الإلهي المباشر أنّك مخطئ يا نوح في استنتاجك:

- قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ هود 46

ونحن نكاد نجزم هنا أنّه لو جاء طلب نوح على صيغة دعاء بأنّه لا حول له ولا قوة, وأنّ الله هو الذي يملك القدرة على هداية ابن نوح لكان الجواب الإلهي في ذلك إيجابي, ولكن سبق في علم الله أن ولد نوح لن يؤمن:

- وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36)

لذا أمر الله نوح بصناعة الفلك، ونهاه أن يخاطبهم فيهم:

- وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (37)

فما توجه نوح إلى ربه بصيغة الداع الذي يرجو نجاة ولده. ولكنه توجه إلى ربه مستفسراً عن سبب غرق ولده، والقارئ مدعو ليعقد هنا مقارنة في هذا السياق بين نداء نوح ربه من جهة ونداء أيوب ويونس وزكريا من جهة أخرى:

- "وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي ..." هود 45
- وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ الأنبياء 83
- وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ الأنبياء 87
- وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ الأنبياء 89

ففي حين أن دعوة أيوب وذا النون وزكريا تبعتها الاستجابة الفورية:

- فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ الأنبياء 84
- فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ الأنبياء 88
- فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ الأنبياء 90

لم تحصل مثل هذه الاستجابة في حالة نوح عليه السلام، ونحن نرى أنّ مثال نوح هنا هو مثال الملائكة الذين توجهوا إلى الله بالحوار عندما أخبرهم بأنّه مستخلف غيرهم في الأرض "فقالوا" محاورين:

- "... قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ..." البقرة 30

فجاء الرد الإلهي الفوري:

- "... قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ" البقرة 30

فالملائكة إذاً لم يتوجهوا إلى الله بأن يجعلهم مستخلفين في الأرض، بل توجهوا إليه بالحوار، فكان في سابق علم الله أنّهم لن يكونوا مستخلفين في الأرض. وخلاصة القول أنّ نوحاً لم يدعو لابنه بالنجاة بل حآج

ربه في نجاة ابنه، ولقد افترضنا أنّه لو توجه نوح إلى ربه بفطرته بالدعاء لاستجيب طلبه، والدليل على ذلك أنّ نوحاً عندما توجّه إلى ربه بالدعاء لهلاك قومه, نجد أنّ الله قد استجاب دعاءه في الحال. وفي هذا السياق يسرد القرآن الكريم قصة دعاء نوح على قومه، فقد ذكر الأسباب الموجبة لهلاكهم، قال تعالى على لسان نوح عليه السلام:

- قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (6) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (7) نوح 5-7

ولكنّ نوحاً لم يتوقف عند ذلك، بل أردف هذه الحجج بالدعاء إلى الله بهلاكهم:

- وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا نوح 26

والملحوظ الدقيق هنا يتلخص أنّ نوحاً طلب من الله تعالى أنْ لا يبقى من الكافرين أحداً على الأرض، فقد شمل إذاً ابنه بالهلاك في دعاءه، فهو يعلم يقيناً أنّ ابنه كان من الكافرين:

- وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ هود 36

وعندما حصل الطوفان وشعر نوح أنّ ابنه هالك لا محالة، ربما تحركت لديه عاطفة الأبوة مع يقينه أنّ ابنه هالك كونه من الكافرين, فكان مراده بنجاة ابنه من منطلق الأبوّة وليس من منطلق النبوّة, فما كان لنوح (وهو النبي المرسل) أنْ يدعو لأحد من الكافرين بالنجاة حتى ولو كان ذلك الشخص هو ابنه، وعندما دعا نوح بالهلاك على الكافرين من قومه، استجاب الله دعاء نبوته، فيكون نوح بذلك هو من دعا على ابنه كونه من الكافرين بالهلاك، ولم يدعو له بالنجاة. والقراءة اللغوية للآيات القرآنية التي تتحدث عن نوح وأهله تشير إلى تفسير أكثر غرابة، فلنورد هذه الآيات وأترك للقارئ فرصة الوصول إلى النتيجة بنفسه خشية تضييع الفكرة الرئيسية والولوج في موضوع فرعي يقحمنا في جدل نحن في غنىً عنه:

- وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (46) هود 45-46
- وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (77) الأنبياء 76-77
- ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ التحريم 10

والتساؤلات التي نثيرها هنا ونترك للقارئ حرية الإجابة عليها تتلخص بما يلي:

1. لماذا اختار نوح أنْ يخاطب ربه بهذا السبب "رب إنّ ابني من أهلي"؟
2. هل رد رب العالمين بالقول "إنه ليس من أهلك" على المجاز أم على الحقيقة؟

3. ماذا يعني قول رب العالمين "إنه عمل غير صالح"؟
4. ما هي ماهية خيانة زوجة نوح؟
5. ما علاقة "إنه ليس من أهلك" ب "إنه عمل غير صالح"؟
6. ما علاقة "إنه ليس من أهلك" و "إنه عمل غير صالح" بخيانة زوجة نوح؟
7. كيف يمكن ربط ذلك كله بقوله تعالى ""ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجينه وأهله من الكرب العظيم؟ أي كيف يقول رب العالمين أنّ نوحا قد نجا وأهله في حين أننا نعلم أن ابنه قد هلك؟

افتراء من عند أنفسنا: إنْ صحّ منطقنا في طرح هذه الأسئلة فإنّ نوحاً كان –في ظننا- يريد التأكد من شك يخالج نفسه وليس الدعاء لابنه بالنجاة، ومصداق ذلك قوله تعالى مخاطباً نوحاً:

- "... فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ   هود 46

ولعلنا هنا بحاجة أنْ نلفت انتباه القارئ الكريم إلى قراءة النص كاملاً ليحاول فهم الآية السابقة في سياقها الأوسع:

- ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (10) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (12)   التحريم 10-12

فالسؤال المطروح هو: مادام أنّ آيات القرآن الكريم مترابطة وتعكس وحدة الموضوع (thematisation)، فَلِمَ تُذكر مريم بنت عمران مع هؤلاء النسوة؟ فقد يرد البعض بالقول أنّ الله يعطي مثال المرأة المسلمة مقارنة مع مثال المرأة الكافرة، فنقول نعم، ولكن ألا تتم الموازنة بذكر امرأة فرعون وينتهي الأمر؟ فنحن نعرف أنّ القرآن الكريم عندما أعطى مثال امرأة نوح وامرأة لوط وقابلهما بمثال امرأة فرعون كان يتحدث عن نساء متزوجات، ولهذا ربما لم يدمج مثال امرأة فرعون مع مريم بنت عمران في آية واحدة، فتلك امرأة متزوجة وهذه بنت بِكْرْ. وقد يقول قائل وما دخل ذلك بالخيانة وبنسب ابن نوح، فنقول إنّنا بحاجة أنْ نمعن النظر ولو للحظات في الخطاب الذي جاء عن ابنة عمران، فيأتي السؤال المباشر لِمَ جاء ذكر هذه المرأة الطاهرة بأنها "الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا"؟ أي لِمَ اختار الله سبحانه للحديث عن عفة ابنة عمران في هذا السياق على وجه الخصوص؟ فلِمَ لَمْ يتحدث عن صلاحها أو تقواها أو عن كثرة سجودها وركوعها أو عن رغبة القوم كفالتها أو مخاطبة الملائكة وبشراهم لها؟ فلقد ذكرت مريم في أكثر من موضع في القرآن ولكن لم يرد الحديث عن طهرها إلاّ في المواقف التي تلتزم الدفاع عنها وتبرئتها:

- وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا   النساء 156
- فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا   مريم 27

والسؤال الذي نعود لنطرحه هنا: لماذا جاء ذكر طهارة مريم من الاتهام الجنسي على وجه الخصوص في معرض الحديث عن امرأة نوح وامرأة لوط وامرأة فرعون؟ إنّ الجواب البسيط يكمن في أنّ مريم ابنة عمران على النقيض تماماً مع امرأة نوح وامرأة لوط ليس فقط في الإيمان والكفر وإنما أيضاً في الطهر والخيانة، لذا جاء التناقض غاية في الدقة والروعة، ففي حين أنّ امرأة نوح وامرأة لوط ذكرا على أنهما اقترفتا الخيانة "فَخَانَتَاهُمَا"، جاء ذكر ابنة عمران على أنّها أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا. ولعل البعض يتصدى لهذا المنطق بالقول: وما دخل امرأة فرعون إذاً بالموضوع؟ نقول أنّ هذا المنطق نفسه يحل المسألة برمتها وذلك عندما نحاول أنْ نفهم لماذا اختارت امرأة فرعون الموت على الحياة وهي زوجة الحاكم الأول وحياتها رغد وطلبها مجاب؟ والقرآن الكريم لا يذكر في أي موقف أنّ فرعون قد أساء معاملة زوجته، بل على العكس فقد كان طلبها مجاب في الحال، وليس أدل على ذلك من طلبها الإبقاء على حياة موسى وتبنيه:

- وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ القصص 9

فلِمَ إذاً تفضل الموت على الحياة وهي السيدة الأولى؟ إنّ إمعان النظر في الآية نفسها يجيب على هذا التساؤل بكل وضوح، لقد علّلت امرأة فرعون رغبتها في الموت على الحياة لسببين لهما علاقة بزوجها وهما النجاة أولا من فرعون نفسه وثانياً من عمله:

- وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ التحريم 11

فالآية القرآنية لا تبيّن أنّ امرأة فرعون قد طلبت النجاة من عمل فرعون فقط وإلاّ لجاء الخطاب على نحو "ونجني من عمل فرعون" ولكن جاء الخطاب على نحو " وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ" أولاً و "وَعَمَلِهِ" ثانياً، ويأتي السؤال التالي: لِمَ تطلب امرأة فرعون النجاة من زوجها نفسه ومن ثم النجاة من عمله؟

فنقول أنّ طلبها النجاة من عمل فرعون أمر جلي من ما كان يعمل الرجل على الملأ، وأما النجاة من فرعون نفسه فهو النجاة مما كان يعمل مع زوجته على وجه الخصوص: إنها العلاقة الزوجية، وهذا يعني بالضرورة أنّ امرأة فرعون قد فضّلت الموت على الحياة لتنهي بذلك العلاقة الزوجية مع فرعون، فهي إذاً ترفض أنْ تستمر علاقتها الجنسية مع شخص كافر وهي امرأة مؤمنة. وفي هذا درس كبير لنا، فهي كامرأة مؤمنة لا يمكن أنْ تخون زوجها، ولكن في حالة امرأة فرعون فالزوج كما نعلم كافر، فالخيار بالنسبة لها غاية في الصعوبة: فهي لا تستطيع الخيانة كما فعلت امرأة نوح وامرأة لوط ولكنها في الوقت نفسه لا تستطيع الاستمرار في إقامة علاقة زوجية سليمة مع رجل كافر، فكان خيارها السليم الرجوع إلى الله ليخلصها مما هي فيه من الحيرة، فاختارت الموت على الحياة لأنّه الحل الأمثل للخلاص من علاقة مع كافر ولعدم الرغبة في الوقوع في الخيانة. وخلاصة القول أنّ ذكر هؤلاء النسوة في مقارنة واحدة في نهاية سورة التحريم كان جله المقارنة بين المؤمن والكافر ليس فقط في الإيمان والكفر وإنما في الإخلاص والخيانة (إنها إخلاص المؤمن وخيانة الكافر).

وبالعودة للحديث عن نوح "وابنه" نورد أيضاً ملحوظا غاية في الدقة قد يثبت صحة ما نذهب إليه هنا (أي أنّ نوحاً لم يطلب النجاة لابنه) هو التوقيت الذي اختاره لمخاطبة ربه في ابنه، فالقراءة حتى الأولية تبين

أنّ المخاطبة قد تمت بعد انقضاء الأمر كله، فَلَمْ يخاطب ربّه في ابنه قبل حصول الطوفان على الرغم أنّه استغرق وقتاً في بناء السفينة، وهو كذلك لم يخاطب ربه في ابنه لحظة حصول الطوفان، بل كان الخطاب بعد انقضاء الأمر برمته، ولنقرأ الآيات 44-45 من سورة هود معاً لتوضيح الفكرة:

- وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ　　هود 44
- وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ هود 45

فالسؤال الذي نترك إجابته للقارئ هو: لماذا انتظر نوح كل هذه الفترة لينادي ربه بشان ابنه؟ فهل حقاً من يريد النجاة لابنه ينتظر حتى ينقضي الأمر كله ليناجي ربه بشأنه؟! وما كان الله أنْ يستجيب مراد نوح في ابنه وهو الذي طلب من نبيه أنْ لا يخاطبه أصلاً بالظالمين:

- وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ　　هود 37

فابن نوح كان من المغرقين وهم جميعاً كما يذكر الله كانوا ظالمين:

- وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ　　هود 44

فكيف بنوح أنْ يخاطب ربه بالظالمين؟ وكيف لله أنْ يستجيب طلباً يخص أحداً من الظالمين؟ لا بل وتتأكد قصة الظالمين في هذه الآيات التالية التي نطلب من القارئ أنْ يقدم هو لنا تأويلاً لما جاء فيها، فلقد قال الله في كتابه على لسان نوح:

- وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26)
- إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (27)
- رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (28)

وسؤالنا هو: كيف بنوح يجزم أنّ الكافرين لا يلدوا "إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا" وابنه هو أول الكافرين وأكثرهم فجرا؟!

***　　***　　***

أما في شأن إبراهيم مع أبيه، نقول - بادئ ذي بدء - أنّ القرآن الكريم لا يذكر بأي موضع أنّ إبراهيم عليه السلام قد دعا لأبيه بالنجاة، (إي لم يستخدم فطرته ليطلب الهداية لأبيه) بل جُلّ ما حصل أنّ إبراهيم قد وعد أبيه بالاستغفار له، ولما حصل فعلاً أنّ توجه إبراهيم بالدعاء إلى الله الذي يملك الحكمة في الهداية قال:

- وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ　إبراهيم 35

وهذا دليل واضح أنّ إبراهيم عليه السلام (وهو النبي المرسل) هو في ذلك مثل نوح عليه السلام لم يكن ليدعو لأحد من الكافرين بالنجاة حتى ولو كان ذلك الشخص هو أبيه:

- "... فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأوَّاهٌ حَلِيمٌ التوبة 114

فإبراهيم إذاً لم يتوجه قط إلى الله تعالى بالدعاء بهداية والده, فالذين يظنون أنّ الله لم يتقبل دعاء إبراهيم لأبيه يقعون في الخطأ لأنّ إبراهيم أصلاً لم يتوجه إلى الله بالدعاء لأبيه. وهنا قد يرد البعض بالقول: ولكنّ إبراهيم قد طلب الاستغفار لأبيه، ألا يكفي ذلك لإجابة الدعاء؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أنّ الهداية أمر يخص الحياة الدنيا، أما ما يخص الآخرة فهو ليس من شأن البشر، ولذا فإنّ طلب إبراهيم من الله أنْ يغفر لأبيه هو من شأن الله وحده لأنّه أمر يخص الآخرة:

- وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ الشعراء 86

وقد يحتج البعض أنّ هذا دعاء من إبراهيم لأبيه لم يتحقق، نقول أنّه ليس كذلك، لأنّ هذا دعاء لا يتعلق بالحياة الدنيا، بل بما سيكون عليه أمر الآخرة، وهو ما لا يحق لإبراهيم ولا لغيره أنْ يبتّ به، لأنّ أمر الآخرة يخص الله وحده، ومجمل القول أنّ الاستغفار من أمر الآخرة وتحقيق المراد به أمر منوط بالله وحده، وقد يتساءل البعض عن الدليل في ذلك، أي كيف يختلف الدعاء بالاستغفار عن الدعاء بالهداية مثلاً؟

رأينا: نحن نعتقد أنّ الدعاء بالاستغفار هو من أمر الآخرة، أما الدعاء بالهداية فهو من أمر الدنيا. ونحن نعتقد جازمين أنّه لو جاء دعاء إبراهيم لأبيه دعاء بالهداية لاستجيب طلبه، أما ما دام دعاءه يخص الاستغفار له في الآخرة فذاك من شأن الله وحده، وهذا أمر لا ينطبق في حالة إبراهيم وحده بل يخص كآفة الرسل، وما أجمل الدقة والتصوير القرآني في ذلك، ففي حين أننا نعرف أنّ دعاء الأنبياء مستجاب، نجد الله يخاطب محمداً عليه الصلاة والسلام بشأن الاستغفار قائلاً:

- اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ التوبة 80
- سَوَاء عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ المنافقون (6)

وذلك لأنّ الله سبحانه قد فرض أمراً بهذا الشأن ما كان لأحد أنْ يتجاوزه حتى لو كان نبياً مرسلاً حيت قال:

- مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ التوبة 113

ومن هنا جاءت الدقة القرآنية في الحديث عن حالة إبراهيم عليه السلام:

- وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأوَّاهٌ حَلِيمٌ التوبة (114)

وقد يتساءل البعض قائلاً: إذا كان الأمر كذلك، فلِمَ لَمْ يطلب إبراهيم عليه السلام الهداية لأبيه بدلاً من طلب الاستغفار له؟ نقول وبالله التوفيق أنّ ذلك كان نابعاً من طبيعة إبراهيم عليه السلام، فإبراهيم عليه السلام يختلف في أسلوبه عن موسى وعن عيسى عليهما السلام، فهو من دون الرسل جميعاً قد غلّب المنطق والحجة، فهو أصلاً قد توصّل إلى الهداية بالمنطق السليم (أي المقدمات التي تفضي إلى النتائج السليمة):

- وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79) الأنعام 75-79

وقد يتساءل البعض عن علاقة ذلك بدعاء إبراهيم لهداية والده، نقول أنّ إبراهيم قد غلّب الحجة ليس فقط في هداية نفسه بل أيضاً في دعوته غيره إلى الله:

- وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ الأنعام 83

فإبراهيم عليه السلام كان بارعاً في إقامة الحجة على خصمه، وليس أدل على ذلك من قصته مع أصنام قومه:

- فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (58) قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (63) الأنبياء 58-63

أو قصته مع النمرود:

- أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ..." البقرة 258

فتمثلت قوة حجة إبراهيم على قومه:

- فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ الأنبياء 64

ولكن القوم الذين لا يتقبلوا النتائج السليمة للمقدمات الصحيحة ما كان منهم إلاّ:

- ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاء يَنطِقُونَ الأنبياء 65

وتمثلت قوة حجة إبراهيم على النمرود:

- "... فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ"   البقرة 258

وهذا هو منهج إبراهيم عليه السلام في الدعوة: إقامة الحجة التي آتاه إياها ربه، وهو بالضبط ما فعله حتى في بحثه عن هداية والده، فحتى قبل أنْ يصل هو بنفسه إلى الهداية كان خطابه مع والده على النحو التالي:

- وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ الأنعام 74

وبعد هدايته إلى خالقه وامتلاكه الحجة الصحيحة التي آتاه الله إياها، جاء خطابه لأبيه على النحو التالي:

- وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) مريم 41-45

ولكن والده لم يتقبل هذه الحجة، فرد قائلاً:

- قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا   مريم 46

عندها أدرك إبراهيم عليه السلام أنّ الذي لم يهتد بهذه الحجة القويّة، لم يعد أمامه فرصة للهداية في الحياة الدنيا، وما تبقى له سوى طلب المغفرة له في الآخرة، فجاء رده على رد أبيه:

- قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا   مريم 47

وأبطن غضبه من موقف أبيه حيث اتخذ قراره باعتزاله:

- وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا مريم 48

فإبراهيم لم ينسى أنّ من واجبه تجاه والده حتى وإن لم يكن مؤمنا على نحو:

- وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ العنكبوت (8)
- وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ لقمان (15)

فخلاصة القول أنّ إبراهيم عليه السلام لم يستخدم فطرته في الدعاء إلى الله لهداية والده، مثله في ذلك نوح الذي لم يستخدم فطرته لهداية ولده ومن ثم نجاته من الغرق، ونحن نعيد التأكيد أنّه لو تم استغلال الفطرة التي يمتلكها كل منهما لكانت النتيجة إيجابية في الحالتين، فهذا موسى عليه السلام يلجأ إلى فطرته لهداية أخيه هرون عليه السلام:

- قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32) طه 25-32

فكان الرد الإلهي فوري:

- قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى طه 36

وهو ما لم يحصل في حالة نوح لابنه وإبراهيم لأبيه، وهو كذلك لم يحصل في حالة يوسف لإخوته ويعقوب لبنيه:

- قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ يوسف 92
- قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ يوسف 98

دعاء: اللهم آتنا حجة إبراهيم

وهذا ما نفهمه بالضبط من اختلاف الأسلوب عند الرسل في الإمكانات وفي الدعوة، ففي حين كان علم عيسى مميزاً بالحكمة، كان علم موسى مميزاً بالفطرة وكان علم إبراهيم مميزا بالحجة، وهذا ما نفهمه في قوله تعالى:

- تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ..." البقرة 253

ولذا فإننا نتوجه إلى الله مخلصين الدعاء بالقول:

اللهم نسألك حجة إبراهيم وفطرة موسى وحكمة عيسى

خلاصة

نعم إننا نفهم تفضيل الرسل بعضهم على بعض على هذا النحو، فلكل منهجه وأسلوبه الذي ميّزه الله به، ولكن يبقى كل منهج بالنسبة لنا مميزا لا نستطيع التفريق بينها لانّ كل منها يوصل إلى الغاية المرجوة. وهنا نخلص إلى نتيجة مفادها أنّ من لا يملك الحكمة يستطيع تحقيق مراده باستخدام الفطرة، ولكنّ القرآن الكريم يورد عدة ملاحظات هامة جداً فيما يخص تحقيق المراد بالفطرة لمن لا يملكون الحكمة، نورد ما استطعنا (بحول الله) أنْ نستقصيه:

أولا: أنّ الدعاء "الفطرة" إلى الله يجب أنْ لا يصاحبه تردد ولا تلكؤ, بل يجب أنْ يكون عن يقين بالإجابة، فمحاورة نوح لربه بهداية ولده، ووعد إبراهيم لأبيه بالاستغفار يدل على أنّه لم يكن دعاء مباشراً.

ثانياً: أنّ الدعاء المستجاب يجب أنْ يكون على الفور لا يحتمل التأخير أو التسويف، وهنا العبرة مستقصاة من دعاء موسى عليه السلام، فكلما كان موسى في موقف يستوجب العودة إلى الله، يعود على الفور دونما تأجيل أو تسويف. فعندما علم أنّه ظلم نفسه بصرعة الذي هو من عدوه قال:

- قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي..." القصص 16

وعندما علم بأن القوم يأتمرون به قال:

- "... قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ القصص 21

وعندما وجد نفسه تائهاً في الأرض لا يعلم إلى أين يتجه قال:

- "... قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ القصص 22

وعندما وجد نفسه بحاجة إلى المساعدة حتى المادية منها كالطعام والشراب من عناء السفر قال:

- "... فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ القصص 24

وعندما وجد نفسه في مواجهة مباشرة مع فرعون من الخلف والبحر من الأمام وظن قومه أنّهم مدركون لا محالة لم يفقد ثقته بربه فقال في الحال:

- قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ الشعراء 62

وعندما وجد أنّ القوم قد فتنوا بما كان يملك فرعون وقومه من عطاء الله توجه إلى ربه طالباً:

- وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ يونس 88

رأينا المفترى: نحن نظن أن في هذا فرق واضح بين مراد موسى عليه السلام من جهة ومراد نوح في ابنه أو إبراهيم في أبيه من جهة أخرى، ففي حين كان دعاء موسى فورياً، كان مراد نوح وإبراهيم بالدعاء مؤجلاً، وهنا نقول أنّ البعض ربما –حسب ظننا- يخطئ في فهمه للدعاء المستجاب، فلا يجوز للشخص أنْ يثق أولاً بقدراته، ثم إذا ما تبين ضعفه وقلة حيلته عاد إلى الله، فالله لا يقبل أنْ يكون ثانياً. فالفطرة السليمة تقتضي أنْ يكون الله سبحانه أولاً وقبل كل شيء. فبالرغم من قدرة موسى الجسدية غير العادية التي تمكنه (بالمفهوم البشري) من جلب رزقه (طعامه) بنفسه، إلا أنّ ثقته بربه كانت سابقة لكل شيء:

- "...فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ القصص 24

نتيجة مفتراة: نخلص إلى القول أنّه لو كان مراد نوح وإبراهيم فورياً على شكل طلب ورجاء بلا تلكؤ ولا تشكك كما كان الحال في دعاء موسى لكانت الاستجابة فورية بالقبول، ولكن علم الله الأزلي قضى بأنْ لا يتوجه نوح

ولا يتوجه إبراهيم بالدعاء للكافرين بالنجاة، قال تعالى عن نوح عندما علم أنّ لله حكمة أعظم مما كان يظن تراجع في الحال قائلا:

- قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ..." هود 47

وهذا بالضبط ما فعل إبراهيم عليه السلام, فقال تعالى عن إبراهيم في هذا المقام:

- وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ التوبة 114

ثالثاً: أنّ الدعاء يجب أنْ لا يصاحبه مجادلة أو محاورة، بل تقبل بقضاء الله على الفور, وهذا فرق واضح بين دعاء موسى ومراد نوح عليه السلام, فعندما علم موسى بخطئه في وكزه لعدوه مثلاً عاد فوراً إلى الله بالاستغفار ولم يحاول المجادلة أو البحث عن السبب الذي دفعه إلى ذلك، فلم يذكر مثلاً أنّ قتله لذلك الرجل كان من منطلق أنّه عدو الله، ولم يحاور الله في ذلك، أي لم يحاول حتى إيجاد المبرر لنفسه، وعندما كاد أنْ يصرع رجلا مرة أخرى توجه إليه ذلك الرجل بالقول:

- "... قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ القصص 19

فعندها رجع موسى فوراً إلى رشده وأدرك صحة ما كان قد قاله للرجل الذي من شيعته من ذي قبل:

- "... قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ القصص 18

أما نوح عليه السلام فكان مراده في ابنه مقروناً بالمحاورة والمجادلة والبحث عن الأسباب وهذا بحد ذاته سبباً كافياً لعدم الاستجابة، وهو في ذلك مثل الملائكة عندما أخبرهم الله تعالى بخلافة الأرض من غيرهم فتوجهوا إليه بالمحاورة وإبداء الأسباب, وهنا نقول أنّ الفطرة التي بها يتحقق المراد يجب أنْ لا يشوبها المجادلة أو المحاورة، بل الانصياع الكامل حتى ولو كان السبب الذي تبديه من حيث المبدأ وجيهاً, فالملائكة مثلاً قدموا سبباً يبدوا للوهلة الأولى أنّه وجيهاً، ونوح رجل يطلب النجاة لابنه، أليس ذلك سبباً وجيهاً كذلك؟ نقول كلا. فقد أثبت الله تعالى أنّ ذلك ليس سبباً وجيها فقال في حالة الملائكة:

- "... قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ" البقرة 30

وقال في حالة نوح:

- " قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ..." هود 46

ونستنتج أنّ ذلك لم يكن سبباً وجيهاً على الإطلاق، فكم من سبب بدا للوهلة الأولى أنّه نعمة ثم تبيّن بعد ذلك أنّه نقمة، والعكس صحيح مصداقاً لقوله تعالى:

- كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ البقرة 216
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهًا وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا النساء (19)

ولا يعرف ذلك إلا من امتلك الحكمة (وسترد – بحول الله- لاحقاً قصة صاحب موسى دليلا على ذلك)

رابعاً: أنّ استخدام الفطرة في الدعاء لتلبية المراد مستجاب مهما كانت استحالته من وجه نظر البشر، فهو يجب أنْ يصدر عن إيمان يبيّن قدرة الله اللامتناهية، إيمان ملخصه:

- وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ إبراهيم 20
- وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ فاطر 17

أليس إحياء الموتى مثلاً أمر أقرب إلى الاستحالة من المنظور البشري؟ ولكن ألاّ يذكر القرآن الكريم أمثلة على إحياء الموتى؟ ألم يطلب إبراهيم عليه السلام من ربه أنْ يريه كيف يحيى الموتى؟

- وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي..." البقرة 260

ألم يحقق الله تعالى له مراده بأنْ أراه كيف يحيى الطير مثلاً؟

- "... قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ البقرة 260

وأي شيء أعظم استحالة من حيث المبدأ من أنْ يطلب موسى عليه السلام أنْ يرى ربه، قال تعالى:

- "... قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ..." الأعراف 143

إن الآية التي تتحدث عن طلب إبراهيم رؤية إحياء الموتى:

- وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (260) البقرة 260

والآية التي تتحدث عن طلب موسى رؤية الله:

- وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ الأعراف 143

يظهران الاختلاف بين فطرة موسى و فطرة إبراهيم عليهما السلام، ففي حين أن الله سبحانه قد توجه بالسؤال عن مدى ثبات إيمان إبراهيم "قال أولم تؤمن"، لم يتوجه بمثل هذا السؤال لموسى

ألم يحقق له ربه مراده فتجلى للجبل تلبية لمراد موسى، ولكنْ لرأفة الله بموسى لعدم قدرته الفيزيائية (الجسدية) على الرؤية المباشرة طلب الله منه أنْ ينظر إلى الجبل:

- "... فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا..." الأعراف 143

استراحة قصيرة

وهنا ملحوظ دقيق نود الإشارة إليه، فقد يتسرع البعض للقول أنّ ذلك خاص بالأنبياء، نقول كلا، فالقرآن الكريم يبث أنّ ذلك قد يتحقق للبشر العاديين. ألم يطلب بنو إسرائيل مثلاً رؤية الله جهرة؟ ألم يقولوا لموسى عليه السلام كما جاء في القرآن الكريم:

- " وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ..." البقرة 55

وعندها ألم يلبي الله تعالى هذا الطلب بالتجلي لهم؟ وهنا قد يتسرع القارئ بالقول وكيف ذلك؟ ألم تأخذهم الصاعقة؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: قد يظن القارئ للآية القرآنية أنّ الله قد عاقب بني إسرائيل على غرابة طلبهم، فأخذتهم الصاعقة. نقول أنّ هذه ربما تكون قراءة غير متأنية للآية القرآنية الكريمة، فنحن نقرأها هنا على نحو أنّ الله تعالى قد استجاب لطلب بني إسرائيل فتجلى لهم على الرغم من غرابة هذا الطلب واستحالته من وجه النظر البشرية، وبرهاننا لذلك يأتي على النحو التالي:

أولا: نود أنْ نسأل القارئ سؤالاً بسيطاً جداً، ما الفرق بين طلب موسى عليه السلام رؤية الله وطلب بني إسرائيل رؤية الله تعالى؟ ألم يطلب بنو إسرائيل ما كان نبيهم موسى عليه السلام قد طلبه من قبل؟ فلِم يقع العذاب والعقاب على بني إسرائيل ولم يقع على موسى عليه السلام؟ من يدري!!!

رأينا: نحن نظن أن هذا التساؤل يوصلنا إلى نتيجة مفادها أنّ ما طلبه بنو إسرائيل لم يزيد قيد أنمله عما كان نبيهم موسى قد طلبه من قبل.

ثانياً: نسأل القارئ سؤالاً آخر أبسط من سابقه، ما الذي حصل عندما طلب موسى رؤية الله؟ إنّ القراءة المتأنية لتلك الآية القرآنية تؤكد حصول "الصاعقة وهذا مثبت بقوله تعالى:

- "... وَخَرَّ موسَى صَعِقًا..." الأعراف 143

وهذا بالضبط ما حصل عندما طلب بنو إسرائيل رؤية الله جهرة:

- ".. فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ..." البقرة 55

ولكن الفرق الوحيد بين حالة موسى وحالة قومه أنّ موسى لم ينظر إلى الله تعالى عندما تجلى، فقد طلب الله منه أنْ ينظر إلى الجبل لحظة التجلي، فجعل الله الجبل دكاً، ولهذا لم تأخذ موسى تلك الصاعقة بالهلاك لأنّه لم يكن ينظر إلى الله مباشرة، وهذا بالضبط ما فعله موسى عليه السلام عندما تجلى الله تعالى لبني إسرائيل، فنتيجة لما اكتسبه من خبرة سابقة لم ينظر إلى الله مباشرة لحظة التجلي لبني إسرائيل فسلم من الهلاك.

ثالثا: إنّ دقة وروعة الآية القرآنية تزيد عندما يقول الله تعالى عن بني إسرائيل:

- "... فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ البقرة 55

فالسؤال البسيط الذي نترك إجابته للقارئ هو: إلى ماذا كان ينظر بنو إسرائيل عندما أخذتهم الصاعقة؟!

وحتى نساعد القارئ على فهم الموقف نذكره بقوله تعالى:

- وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (43) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ (44) الذاريات 43-44

وهنا قد يتساءل البعض إذا كان بنو إسرائيل في تلك اللحظة ينظرون إلى كيفية تجلي الله، فهل فعلا رأوه بأم أعينهم، فنقول كلا، ولنقرأ قوله تعالى:

- وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُواْ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ الأعراف (198)

فهم حتى وإن كانوا ينظرون لكنهم لم يكونوا يبصرون.

رابعا: إذا كان هلاك بني إسرائيل عقاباً لهم لغرابة طلبهم، فلِمَ يبعثهم الله من بعد موتهم ويجري لهم حياةً رغداً؟ من يدري!!!

- ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ..." البقرة 56-57

إنّ الفرق الوحيد بين طلب موسى عليه السلام وطلب قومه أنّ طلب موسى جاء من باب الرجاء والإيمان بينما جاء طلب بني إسرائيل من باب التحدي والتشكيك، فكان ذلك هو الظلم الذي ارتكبه بنو إسرائيل. وهنا لا بد من الإيضاح أنّ بني إسرائيل كانوا عالمين صدق رسالة موسى، وكان العامة منهم مؤمنين بربهم، ولكن جاء طلبهم من باب التأكد والتيقن كما جاء طلب إبراهيم من ربه أنْ يريه كيف يحيي الموتى:

- "... قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ..." البقرة 260

فجاء الرد الإلهي على ذلك بالإيجاب:

- "... قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ البقرة 260

وكذلك جاء الرد الإلهي على طلب بني إسرائيل:

- "... فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ " البقرة 55

ونحن نقرأ الموقف بكليته على النحو التالي: لقد ثارت شائعة رؤية موسى ربه بين بني إسرائيل، فهناك في كل زمان ومكان من يتصيّد في الماء العكر، ويحاول الاستفادة من كل صغيرة وكبيرة لتحقيق مآرب نفسه وهواه كالسامري مثلاً، ومراد القول أنّه عندما وصل الخبر (أي طلب موسى رؤية ربه وتجلي ربه للجبل) أصبح من الطبيعي أنّ تستغل تلك الفئة الخبر بتحريفه وتضخيمه وتشويشه في ذهن العامة حتى ينبري الأخيرون للمطالبة بالتوضيح والبرهان العملي لما قد حدث فعلاً. وهذا ما طلبه العامة من بني إسرائيل من نبيهم موسى عليه السلام (أنْ يريهم الله جهرة). فقد نجح أمثال السامري في التلاعب بأذهان العامة بمنطقهم الذي يبدو في ظاهره سويا ولكن باطنه منطق الذي أخرج آدم من الجنة:

- "وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21) الأعراف 20-21

ولعقد مقارنة توضيحية لما كان من بني إسرائيل مع نبيهم، فذاك عمرو بن هشام مثلاً (المستحق لـ لقبه أبو جهل عن جدارة واستحقاق) ينبري ليتحدى إيمان الصديق أبي بكر (رضي الله عنه) بعد حادثة الإسراء ظاناً أنّه قد وجد ضالته عندما سمع خبر محمد (صلى الله عليه وسلم) يحدث القوم بحادثة الإسراء، فكيف يمكن لمن أمسى وأصبح بمكة أنْ يقطع – حسب ظنه- هذه المسافة الطويلة جداً في ساعة من الليل؟ ألا يدين لهم محمد إذاً – حسب ظن سامري قريش – بالبرهان العملي على صدق ما لا يصدقه العقل؟ ولكنّنا بالصديق الذي بني إيمانه على الفكر السليم ينظر إلى أبي جهل بازدراء ويكأنه يرد عليه قائلاً: "كيف أصدق محمداً يخبرنا بنزول الوحي عليه من فوق سبع سماوات في اليوم والليلة مرات ومرات ولا نصدقه برحلة أرضية إلى بيت المقدس أو حتى إلى السموات العلى"؟! ومراد القول أنّه لو نجح سامري قريش في إيقاع أبي بكر في فخه كما نجح سامري بني إسرائيل مع قومه، لكان مطلب أبي بكر وعامة المسلمين من بعده حينئذ من نبيهم البرهان العملي على ما يقول.

*** *** ***

وهنا قد يرد البعض قائلاً: كيف يلبي الله طلبهم ما داموا متحدين نبيهم للتدليل على صدق رسالته؟ نقول أنّ العامة من بني إسرائيل كانوا مدركين صدق رسالة نبيهم وما كان طلبهم ذاك إلا لوقوعهم في فخ أمثال السامري، والدليل على ما نذهب إليه يأتي من الدقة القرآنية في الآية نفسها، فـ بنو إسرائيل لم يقولوا لنبيهم أننا لن نؤمن بالله حتى نراه جهرة، بل قالوا "لَن نُّؤْمِنَ لَكَ" (أي بموسى)، فجاء ردهم على النحو التالي:

- " وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ..." البقرة 55

إذاً فلب المشكلة ليست بين بني إسرائيل وربهم، بل بينهم وبين نبيهم، فكان العامة من بني إسرائيل يريدون إذاً تأكيد الثقة بينهم وبين نبيهم كما كان موسى عليه السلام يريد تأكيد الثقة بينه وبين ربه بطلبه الرؤية.

وإلى الذين لا تزال الفكرة في ذهنهم غير راسخة نورد الدليل الأقوى على صحة ما نذهب إليه فنقول: إنّ باب التحدي (إن نحن فهمناه كذلك) مقبول في الفكر الديني كما يمثله القرآن الكريم، فهاهو ذاك الرجل يمر على القرية الخاوية على عروشها فيتساءل ربما بنبرة التشكك والبحث عن الإجابة الشافية للأسئلة المتضاربة في ذهنه:

- **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ البقرة 259**

ولكن يجب أنْ ندرك أنّ ذاك الرجل كان يتساءل ويطلب (كما طلب إبراهيم من ربه وكما طلب بنو إسرائيل من نبيهم) ليصبح إيمانه مبني على يقين لا يساوره تشكك كذاك الذي يخطر على قلب حتى الإنسان المؤمن. وهنا قد يتسرع بعض من يقرأ الآية السابقة ويظن أنّ ذاك الرجل لم يكن مؤمنا أصلا وقد قال ذلك من باب التحدي فقط، نقول كلا، لقد كان ذاك الرجل مدركاً قدرة الخالق على إحياء الموتى، ولكنّه كان يملك أيضاً الرغبة أنْ يرى ذلك بأم عينه (كما كان يملكها إبراهيم عليه السلام)، ولنورد دليلين على صحة هذا الإدعاء. أولا: لقد جاءت الآية التي تتحدث عن ذلك الرجل في سياق الحديث عن إبراهيم عليه السلام، فلقد سبقتها آية الذي حاج إبراهيم في ربه:

- **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ البقرة 258**

وتبعتها الآية التي يطلب فيها إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى:

- **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ البقرة 260**

فمن سوء الفهم أنْ يؤخذ موقف إبراهيم عليه السلام على الجانب الإيماني بينما يحمل موقف ذلك الرجل على غير ذلك، خصوصاً أنّ الطلب واحد (أنْ يريه كيف يحيي الموتى)، فهاهو إبراهيم عليه السلام صاحب الحجة على خصمه يستخدم قدرة الله على إحياء الموتى كدليل على عظمة الله وعجز غيره، يعود بعد فترة وجيزة ليطلب هو نفسه البرهان من ربه على إحياء الموتى. فهل يحمل ذلك من إبراهيم على الجانب غير الإيماني؟!

ثانياً: إنّ الدليل الأقوى على صحة ما نذهب إليه بأنّ طلب ذلك الرجل يؤخذ على الجانب الإيماني هو القاعدة الإلهية التي لا تنقض والتي جاءت مباشرة قبل هذه الآية (أي في آية الذي حآج إبراهيم في ربه) وهي:

- "... وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ البقرة 258

فكيف يحمل طلب ذلك الرجل على الجانب غير الإيماني في حين أننا نعلم أنّ الله قد هداه إلى الحقيقة؟

- "... فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" البقرة 259

فهذا يعني بالضرورة أنْ يحمل طلب ذلك الرجل على الجانب الإيماني وإلا لكان القرآن يناقض بعضه بعضا، نستنتج إذاً أنّ الله قد هداه (كما هدى الصالحين غيره) إلى الحقيقة التي كان يبحث عنها، أي إلى الإيمان المنزوع منه الشك أو الريبة لأنّه كان هو أصلاً يبحث عنه، راغباً فيه. وبكلمات أدق إننا ندعي أنّه لو جاء تساؤل ذلك الرجل عن غير الإيمان الباحث عن الحقيقة الراغب في الهداية لما تم إجابة طلبه في الحال حيث يريه الله بأم عينه كيف يحيي الموتى:

- "... وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً.." البقرة 259

فلب القول أنّ طلب الإنسان المؤمن الباحث عن الحقيقة الراغب في الهداية مستجاب لا محالة مهما بلغت درجة غرابته.

ولننظر إلى الدقة والروعة القرآنية في تصوير الطرف الآخر، الجانب المتعنت غير الراغب في الهداية، الذي لا همّ له سوى المكابرة والمجاهرة بالمعصية، فها هو سامري آخر من قريش يأتي محمداً (صلى الله عليه وسلم) يفرك العظم البالي بيده ليطلب ما كان الذي مر على القرية الخاوية على عروشها قد طلبه من ذي قبل:

- وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ يس 78

فماذا كان الرد الإلهي؟ هل أراه الله العظام كيف ينشزها ثم يكسوها لحما؟ كلا، فقد جاء الرد الإلهي فقد بتكذيب إدعاءه دونما برهان عملي يكون من شأنه هدايته:

- قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ يس 79

والسبب على عدم تقديم البرهان العملي على إحياء الموتى لمثل هذه الفئة من الناس موجود بشكل لا لبس فيه في خاتمة الآية السابقة للطلب (كما كان موجود في خاتمة الآية السابقة لطلب ذاك الرجل المؤمن) ولكن هذه المرة للإنسان غير المؤمن المجاهر بالمعصية:

- أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ يس 77

فالرد الإلهي إذاً من جنس الطلب، فما كان الله ليرد طلب من كان يبحث عن الهداية ويرغب فيها، أمّا من كان هدفه المخاصمة وإظهار العداوة فما كان الله ليقدم لهم الآية والبينة التي تكون سبباً لهدايتهم لأنهم هم أنفسهم لا يرغبون فيها ولا يبحثون عنها. وهذا هو بالضبط السبب الذي قدمه الله لنبيه:

- إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ الشعراء 4

ولكنّ التساؤل البسيط هو: ما جدوى تنزيل مثل تلك الآية على من:

- وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ الشعراء 5

وهنا قد يرد البعض قائلاً: ما دام الله يستجيب طلب الإنسان المؤمن ويقدم له الآيات بالبرهان العملي لهدايته ولا يأبه بمفاجرة المخاصم المكابر، فلم قدّم لفرعون وقوم صالح وأقوام كثيرين كذبوا رسلهم بالرغم من وجود الآيات التي أخضعت أعناقهم؟ إنّ هذا التساؤل قد ينقض الافتراض السابق (إي أنّ الله لا يستجيب إلاّ طلب الإنسان المؤمن) برمته. نقول رداً على ذلك أنّ الله حقاً لا يأبه بمفاجرة الكافر ولا يقدم آياته بالبرهان العملي إلا للمؤمن الراغب في الهداية الباحث عنها، وأنّ تقديم الآيات لفرعون أو لقوم صالح وغيرهم حتى على كفرهم نفهمه على النحو التالي: أولا، إنّ تقديم آيات الله لهؤلاء الأقوام على كفرهم ومجاهرتهم بالمعصية جاء على غير طلب منهم، فلو كان فرعون مثلاً هو من توجه بنفسه طالباً تلك الآيات من الله لما كان الله قد استجاب طلبه، ولما قدمها الله له لتكون سبباً لهدايته، فالله قد أيد موسى عليه السلام بتلك الآيات قبل قدومه إلى فرعون وقومه:

- اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى طه 24
- اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى النازعات 17
- قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ الشعراء 15
- وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (35) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (36) الفرقان 35-36

وها هم قومه الذين أصابهم الرجز يتوجهون إلى موسى عليه السلام ليطلب هو من ربه أنْ يكشف عنهم السوء:

- وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ..." الأعراف 134
- وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (49) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (50) الزخرف 48-50

فهم على يقين أنّهم إنْ توجهوا هم بأنفسهم إلى الله فلن يكون الرد إيجابياً، فكشف الرجز عنهم لم يكن بطلب منهم وإنما بطلب من نبيهم رغبة منه في هدايتهم.

ثانياً، أما الدليل الحاسم على أنّ تقديم الله الآيات لهؤلاء الأقوام على كفرهم يأتي عن غير طلب منهم فقد جاء واضحاً لا لبس فيه بنص القرآن الكريم:

- وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ القصص 59

فالقاعدة الإلهية هي أنّ الله سبحانه يقدم هو آياته للظالمين ودونما طلب منهم لسبب واحد: لتكون مقدمة لهلاكهم. فتصبح الصورة إذاً على النحو التالي: لا يقدم الله آياته للمؤمنين إلا بطلب منهم، ويقدمها

للظالمين على غير طلب منهم، ولكن النتيجة متفاوتة في الحالتين، ففي حين أنّ الآيات التي يقدمها الله للمؤمن الباحث عنها الراغب فيها تكون سبباً لهدايته، تكون الآيات التي يقدمها الله للظالم المخاصم على غير طلب منه سبباً لهلاكه، وهذا مصداقاً لقوله تعالى:

- "... يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ الأنعام 158

ولعل من الضروري أنْ نقف برهة للتنويه إلى درس مستقصى من هذا الهدي الإلهي يفيدنا ويفيد الدعاة لهذا الدين من أبناءه المخلصين، الذين نذروا أنفسهم وجل وقتهم لخدمة هذا الدين وأهله، ونحن إذ نلفت النظر إلى هذا الأمر لعلى يقين أنّ لهذه الفئة كل الشكر والتقدير على جهدهم، ولكننا نود أنْ نؤكد على ما يلي: إنه ليس من واجبهم وليس في مقدورهم إقناع الناس بهذا الدين، فمهمة الداعية تتمثل فقط بالإبلاغ وليس بالإقناع، وهكذا كانت مهمة الرسل أنفسهم:

- مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ المائدة 99
- وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ النحل 35
- قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ النور(54)
- وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ العنكبوت(18)
- قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (16) وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (17) يس 16-17
- فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ الشورى 48

ولعل السلوك العام الذي ينتهجه غالبية الدعاة إلى الله في التفاني في محاولة إقناع الغير بهذا الدين لهي – كما نظن- من السلوكيات الخاطئة التي قد تضر بهذا الدين ولا تنفعه، ولعل في قصة النبي مع ذلك الضرير الذي جاءه يسعى خير درس وأعظم عبرة لدعاة هذا الدين:

- عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَن جَاءهُ الْأَعْمَى (2) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى (4) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (5) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى (6) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (7) عبس 1-7

ولقد نبّه الله نبيه إلى هذا الأمر، لا بل ونهاه عن ذلك، فليس من مهمته هداية الناس، وإنما بلاغهم، فالهداية بيد الله وحده:

- إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ القصص 56

ولنأخذ العبرة كذلك من قصص الأنبياء السابقين عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم، فهل استطاع نوح أنْ ينقذ ابنه من الغرق أو حتى زوجته من الضلالة؟ وهل استطاع نبي الله إبراهيم أنْ يجنب أبيه إتباع الشيطان؟ وهل استطاع لوط أنْ ينقذ زوجه مما لحق بالقوم من عذاب الله؟

ويجب كذلك أنْ لا تأخذنا بهم الرأفة التي لا مبرر لها وكأننا نتباكى عليهم لننقذهم من النار، فالله سبحانه يوجه الخطاب لنبيه بهذه الكلمات:

- فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا الكهف 6
- لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ الشعراء 3

فلقد ذكر الله في مواطن عدة في كتابه أنّ الفئة المؤمنة قليلة، والفئة الضالة هي السواد الأعظم من الناس، فلا يجب أنْ نتوقع العكس، ولعل جنة الله لم تطلب المزيد بل كانت النار هي الطالبة:

- يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ق 30

ولنتذكر دائماً "أن سلعة الله غالية"، ومن أرادها فهو من يسعى لها ويطلبها، وهو ليس بحاجة لمن يروجها له، فهي أثمن من أنْ يروج لها، ونحن لا نستجديهم أنْ يبحثوا عنها، فنحن هيهات هيهات أنْ ننقذ أنفسنا، ومن أراد أنْ ينقذ نفسه فهو المسئول عن ذلك وليس أحد سواه، فمن واجبي كمسلم أنْ أبلغه ولكن ليس من واجبي أنْ أقنعه، ولو أنّ دعاة هذا الدين اتبعوا هذا المنهج في الدعوة لظهرت العزة لهذا الدين وبهذا الدين أوجها. فنحن نبغي الإنسان الساعي إلى الحقيقة ولا نطلب الإنسان المكابر المفاجر، فآيات الله كما ذكرنا سابقاً يقدمها الله لمن يطلبها من المؤمنين لتكون سبباً في هدايتهم، ويرسلها على المفاجرين على غير طلب منهم لتكون سبباً لهلاكهم.

***   ***   ***

وقد يرد البعض قائلا ولكنّ الله سبحانه يقدم آياته بالبرهان العملي (كإحياء الموتى مثلاً) فقط لفئة قليلة من عباده الصالحين، فهل يمكن أنْ يقدمها للعامة مثلنا من عباده؟ فنرد قائلين إنّنا نقرأ في القرآن الكريم الدليل على أنّ ذلك ممكنا، أي إمكانية أنْ يرى حتى السواد الأعظم من المؤمنين آيات الله بأم أعينهم، فهاهو نبي الله موسى عليه السلام

بقلم د. رشيد الجراح